هـــــــــذا

كتاب اتحاف ملوك الزمان * بتاريخ الايمبراطور شرلكان مسبوقا بمقدمته
المسماة اتحاف الملوك الالبا * بتقدم الجمعيات فى اوروبا منذ
انقراض الدولة الرومانية * الى اوائل القرن السادس عشر
من السنين المسيحيه * ترجمه من اللغة الفرنساوية *
ونظمه فى سلك التواريخ العربية * خليفة افندى
رئيس قسم ترجمة ادبيات بقلم ترجمة بديوان
المدارس المصريه * ادام الله ولى
النعم صاحب تلك الآثار *
وجعله وسلالته انصارا
لدولة العرفان
بامصار تلك
الديار
امين

(المجلد الاول)

فهرست الجزء الاول من كتاب اتحاف ملوك الزمان بتاريخ الايمبراطور شرلكان

صحيفه

مطلب

مطلب اراء

صحيفه

صحيفه

مطلب فيما

مطلب دخوله

صحيفه

صحيفه

مطلب انهزام

صحيفه

صحيفه

مطلب طلب

(اتحاف ملوك الزمان)

تنقيح ١٩٥٩

١٩٧٢



امابعد حمدالله الاول الاخر * والصلاة والسلام على سيدنا محمدواله ذوى المفاخر * فيقول مترجمه الفقير الى الله الودود * خليفة بن محمود * لما يسر الله تعالى تتميم اتحاف الملوك الالبا * بتقدم الجمعيات فى بلاد اوروبا * وكمل طبعه بامر الخديوى الاكرم * ذى الفيض الاعم * وكان مقدمة لتاريخ الامبراطور شرلكان استحسن ترجمة التاريخ بجمعه لما فيه من الفوائد السياسية الزاهرة * والفرائد البوليتيقية الباهرة * بذلت الهمة فى تعريبه * وتنقيحه وتهذيبه * وازداد تهذيبا بمقابلته مع رب البلاغة والتدقيق * من اوتى فى هذا الفن مفاتيح كنوز الحقيقة والتحقيق * حضرة رفاعة افندى ناظر قلم الترجمة والكتاب المذكور فى اللغة التى ترجمته منها اربعة مجلدات * نمرها مرتبة على عدد

المقدمة من الكتاب فالمقدمة اعنى اتحاف الملوك الالبا مرسومة بالمجلد الاول والثانى هو اول مجلد من التاريخ ولكن بناء على ان المقدمة كتاب مستقل برأسه وان كان يتوقف عليها فهم تاريخ الايمبراطور شرلكان جعلت لمجلدات التاريخ المذكور نمرة مخصوصة كما حصل نظير ذلك فى الكتب العربية القديمة من جعل المقدمة والذيل مستقلين برأسهما كمقدمة كتاب ابن خلدون وذيل تذكرة داود وسميته باتحاف ملوك الزمان *بتاريخ الايمبراطور شرلكان* ونسأل الله التوفيق * والارشاد الى اقوم طريق

(المقالة الاولى)

سنة ١٥٠٠ ولادة شرلكان

ولد شرلكان بمدينة غنده فى اربعة وعشرين من شهر اشباط سنة ١٥٠٠ مسيحية وهو ابن فيليبش لوبيل ارشدوق اوستريا ابن الايمبراطور مكسمليان والاميرة مارية بنت كرلوس لوهردى اخر امراء عائلة بورغونيا ولم يكن له من الذرية غير هذه الاميرة وام شرلكان هى حانة بنت فرديننذ ملك اراغون وايزابيلة ملكة قسطيلة فبتداول عدة حوادث سعيدة مدة طويلة ورث شرلكان اراضى التزامية واسعة لم تملك على مثلها احد من ملوك اوروبا منذ زمن الايمبراطور شرلمانيا لان اجداده اكتسبوا بالوراثة ممالك واقاليم عظيمة وان كانت اسباب ميراثهم فيها واهية بعيدة جدا وكان لا يخطر ببال احد ان الاراضى الواسعة التى كانت للاميرة مارية البورغونية تنتقل ذات يوم الى عائلة اوستريا لان اباها كان قد وعدها ان يزوجها الابن لويز الحادى عشر ملك فرانسا الذى لم يكن له غيره لكن ابى لويز المذكور ذلك لما انه كان مستهجن الطبع وكان يكره عائلة بورغونيا ورأى ان اخذه لبعض اراضى الاميرة مارية بطريق القهر والغلبة اولى من اخذها كلها بواسطة الزوجية فصارت عاقبة ذلك عاقبة سوء وشؤم لذريته حيث ترتب عليه ان صارت مملكة البلاد الواطية وبلاد الفرنشقونتة بين ايدى خصمه

مطلب
اصل اراضيه وممالكه

سنة ١٥٠٠

واما الملكة ايزابيلة بنت حنا الثانى ملك قسطيلة فكان يستبعد عليها

سنة ١٥٠٢

انها استرث الممالك الكبيرة التى آلت اليها فيما بعد وورثها عنها حفيدها شرلكان لانها قضت اوائل عمرها فى الفاقة والخمول لكن لما غضب اهل قسطيلة من اخيها الملك هنرى الرابع لما انه مع مخافة عقله فى الادارة والتدبير كان شقيا طاغيا زعموا انه عنين لا قدرة له على الجماع واتهموا امرأته بالزنا فبعد موته طرد القسطيليون بنته حانه عن الكرسى الملوكى وجبروها على الارتحال الى بلاد البورتغال وولوا عمتها ايزابيلة عليهم مع ان هنرى الرابع لم يزل ينفى ما اتهمت امرأته به ويعترف بان حانه بنته من صلبه الى ان حضرته الوفاة بل عقد فى هذا الشان مشورة وكلاء المملكة وحكم ارباجا بانها هى التى ترث ملكه من بعده

واما السبب فى استيلاء فرديننه على تاج مملكة اراغون فهو موت اخيه الاكبر فجأة فلما صار ملكا على اراغون بعد موت اخيه المذكور هتك حرمة المشارطات وحقوق القرابة وتغلب على مملكتى نابلى وسيسليا وزيادة على ذلك استكشف الماهر كرستوف كولومب بقدح فكرته وبهمته وجسارته فى سعيه السعيد الذى هو اعظم سعى ذكر فى التواريخ البشرية الدنيا الجديدة (وهى بلاد امريقة) فانضمت الى الممالك السابقة وصارت تحت حكم فرديننه ولا شك ان محصولات امريقة كانت من اعظم الوسايط التى كان بها بأس ملوك اسبانيا وازدياد صولتهم

سنة ١٥٠٢
توجه فيليبش ابى شرلكان وحانة امه الى بلاد اسبانيا

فلما رأى فرديننه وايزابيلة ان ابنهما الامير حنا الذى لم يكن لهما غيره من الذكور وبنتهما البكرية ملكة البورتغال قد نشبت بهما اظفار المنية فى عنفوان شبابهما تعلقت آمالهما ببنتهما حانه ام شرلكان وقصرا رجاءهما عليها وعلى ذريتها ولما كان الارشدوق غريبا عن اسبانيا واجنبيا من اهلها استصوب الملك فرديننه وزوجته ايزابيلة ان يحضراه الى اسبانيا ليقيم بين اهاليها ويتعلم شرائعهم ويتعود على اخلاقهم حيث انه معدّ لان يصير ذات يوم ملكا عليهم وله هو وزوجته حانه حق فى ولاية العهد لا تمنعه مشورة القورطس التى كان لها حينئذ صولة عظيمة

فى مملكة

سنة ١٥٠٢

فى مملكة اسبانيا بحيث كان لا ينفذ حكم ولا يثبت لاحد حق فى التاج الا برضاء تلك المشورة وقدم فيليبش وامرأته بمملكة فرانسا وهما ذاهبان الى اسبانيا فتلقيا فيها بغاية الترحيب والاحترام واكرما الاكرام التام واذعن فيليبش لملك فرانسا لويز الثانى عشر بالانقياد والطاعة فيما يخص قونتية الفلمنك وعد فى مجلس برلمان مدينة باريس من جملة وجاق البير (اى رجال المملكة) ولما وصلا الى اسبانيا تلقيا مع احتفالات التشريف الجديرة بان يفعلها الملوك لابنائهم ومع غاية التعظيم والتبجيل من الرعايا وعما قليل ثبت لهما حق وراثة تاجى مملكة قسطيلة ومملكة اراغون باقرار وكلاء اهالى هاتين المملكتين

مطلب
غيرة فرديننند من فيليبش

ولكن مع هذه المسار الظاهرة كان كل من الامير فيليبش والملك فرديننند فى عذاب اليم من الغم الذى كان يغلى فى بطونهما كغلى الحميم اما غم فيليبش فلان رسوم ديوان اسبانيا وعوايده كانت صعبة متكلفة فلم يمكنه تحملها ولم تطقها نفسه لانه كان صغير السن حليم الطبع لين الجانب يحب مجالس الانس والخلاعة وانواع المسرات فلم يمكث مدة الا واظهر القلق وعزم على الرجوع الى اصل غرسه ومسقط رأسه لما ان اخلاقه وعوايده تلايم طبعه اكثر من اخلاق اهل اسبانيا وعوايدهم واما غم الملك فرديننند فلان صحة الملكة ايزابيله زوجته كانت دائما فى الضعف والتناقص وكان يعلم انه بعد فقدها لا يبقى له حق فى حكومة مملكة قسطيلة وكان قد ظهر له من حال الامير فيليبش انه متشوق جدا للحكم ومنتظر وقته مع القلق والجزع فكان يخشى ان هذا الامير بعد فقد ايزابيله لا يرضى ان يترك له شيأ فى حكومة قسطيلة ولما كان فى ذلك نقص لشوكته ومما لكه وكان طماعا حريصا صار معذبا به فى جميع اوقاته

مطلب
حيرة الملكة ايزابيله وآلامها من اجل بنتها

واما الملكة ايزابيله فكانت لا تهنأ لها عيشة بسبب بنتها حانه لما ان زوجها فيليبش كان يحتقرها ولا يحبها اذ كانت خالية عن جميع المحاسن الحسية والصفات الحميدة المعنوية التى تستميل بها المرأة قلب زوجها وكانت

سنة ١٥٠٢

بالطبع خفيفة العقل فكانت عرضة لخبل متواتر وكانت تحب زوجها فيليبش حبا شديدا وتوده المودة التامة وهو يبغضها حيث كان حبها فيه يلجئها الى فعل امور يسأم منها وكانت غيرتها الشديدة عليه تفضي بها الى ما يعد من الجنون وان كانت معذورة فى ذلك وكانت امها ايزابيله لا تنكر عيوبها الا انها كانت تتاسف كثيرا على حالها المحزن وعما قليل زاد حزنها واشتدت آلامها حين عزم زوجها فيليبش فى فصل الشتاء ان يسافر الى بلاد الفلمنك ويتركها فى بلاد اسبانيا فجعلت امها ايزابيله تحاول بلا طائل تغيير مقصده وتخبره بان زوجته حانه قد قرب اوان وضعها واذا تركها كئيبة حزينة من بعده تكون عرضة لخطر عظيم وتضرعت اليه زوجته نفسها طالبة منه ان يؤخر السفر ولو ثلاثة ايام لتحظى بانسه مدة عيد الميلاد وكذلك الملك فرديننند ابدى له انه ليس من الحزم والاصابة ارتحاله عن اسبانيا قبل ان يعرف اخلاق اهلها ويستميلهم اليه حيث انه سيصير ذات يوم ملكا عليهم ولكن كان فيليبش مصمما كل التصميم على ما عزم عليه فلم يصغ لقول احد منهم فعند ذلك اوصاه فرديننند أن لا يمر فى سفره بمملكة فرانسا حيث كانت وقتئذ نيران الحرب مضطرمة بينها وبين اسبانيا فسافر فيليبش الى البلاد الواطية فى ٢٢ من شهر كانون الاول ومر فى سفره بمملكة فرانسا ولم يلتفت لما يقتضيه الحزم والمروءة حيث خالف وصية فرديننند بمروره بالمملكة المذكورة ولم يرث لحال زوجته

مطلب
ولادة فرديننند الذى صار ايمبراطورا فيما بعد

فلما سافر وترك زوجته حانه صارت فى احزان واشجان اورثتها ماليخوليا شديدة بحيث كان لا يمكن ان تتسلى بشئ بعده وفى اثناء ذلك وضعت فرديننند وكان ثانى ولد حملت به فصار اعلان السرور والفرح بولادة هذا الامير فى جميع بلاد اسبانيا كل ذلك ولم يحصل لامه فرح بولادته لانها كانت لا تتأثر بشئ من المسرات ولا ترغب الا فى اجتماعها بزوجها ولم يحصل لها راحة وامن كما لم يسكن عقلها الا بعد ان اجتمعت به فى العام القابل بمدينة بروسيله

سنة ١٥٠٤ ولما مر فيليبش فى سفره بمملكة فرانسا اجتمع بملكها لويز الثانى عشر وعقد معه مشارطة امل بها فض المشاجرات الحاصلة بين فرانسا واسبانيا ولكن لما كان لاهل اسبانيا وقتئذ ظفر عظيم ببلاد ايطاليا حيث كان لهم فيها الماهر غونسلو دوكوردو وكان دائما ينتصر على الفرنساوية ويضعف قواهم حتى سعى بالسردار الاعظم لم يعبأ فرديننذ بالمشارطة التى عقدها زوج بنته مع ملك فرانسا واستمر الحال على ما كان عليه بل ازدادت نيران الحروب بين الفريقين

ومن وقتئذ لم يظهر ان فيليبش تصدى الى الدخول فى مصالح اسبانيا فى شئ بل جعل ينتظر بدون سعى موت فرديننذ اوزوجته ايزابيله ليجلس على كرسى من يموت منهما فلم تمض عليه مدة طويلة الا وبلغ مرامه وذلك لان موت اولاد ايزابيله الذى ادركهم فى زمن صباهم وريعان شبابهم اودع فى قلبها من الكآبة والحزن ما لا يطاق فكانت اولا تتسلى ببنتها حانه واولادها فلما رأت ان صحة بنتها آخذة دائما فى التناقص والضعف وان زوجها لا يرأف بها ولا يودها ولو فى الظاهر تراكمت عليها الهموم واشتد بها الحال واخذت قواها تضعف شيأ فشيأ حتى ماتت بعد شهور قليلة بمدينة المادن دالكمبو فى السادس والعشرين من شهر تشرين الثانى سنة ١٥٠٤ من الميلاد وكانت هذه الاميرة مشهورة بالفضائل والمعارف فهى جديرة بما اثنى به عليها مورخو اسبانيا من الثناء الجميل سوآء كان ذلك بالنظر الى وصف كونها ملكة اوزوجة اووالدة بمعنى انها كانت موفية بما يجب على النساء لازواجهن والملوك لرعاياهم والامهات لاولادهن

مطلب
ايصاء ايزابيله لزوجها فرديننذ بان يكون قيما على مملكة قسطيلة

وقبل موتها بمدة كتبت وصيتها وذلك لانها لما كانت تعلم ان بنتها حانه لا يمكنها ان تمسك زمام مملكة قسطيلة وكانت تابى نفسها ان تعطيها للامير فيليبش لانها ماتت مغضبة منه اوصت لزوجها ان يقوم بادارة المملكة المذكورة على سبيل النيابة حتى يبلغ سبطها كرلوس حد العشرين واوصت له ايضا بنصف الايرادات التى تأتى من الهند وبالرياسة على الطوائف العسكرية الثلاثة وهو

سنة ١٥٠٤

منصب يكسب صاحبه السطوة والصولة العظيمة حتى يكاد يجعله قائما بنفسه فمن ثم اضافته ايزابيله الى المنصب الملوكى وجعلته من خصوصيات الملك ولكن قبل ان تضع امضاءها على الوصية اخذت على فرديننند ميثاقا ان لايبحث بواسطة زواج اونحوه عما فيه حرمان بنتها حانه وذريتها من شئ من ممالكها

مطلب
اقرار فرديننند على نيابة مملكة قسطيله

وبمجرد موتها خلفها فرديننند ولقب ملكا على قسطيله واعلن ان حانه وزوجها فيليبش هما اللذان لهما الحكم الحقيقى على هذه المملكة واما هو فليس ملكا عليها الا بطريق النيابة واقرت ذلك مشورة وكلاء المملكة لكن بعد التوقف والصعوبة بسبب بغض اهل قسطيله واهل اراغون لبعضهم نعم انهم مكثوا قبل ذلك نحو ثلاثين سنة وهم فى الاتحاد والالفة الا ان البغضاء والعداوة التى بينهم من قديم الزمان كانت لم تزل فى قلوبهم حتى ان اهل قسطيله منعهم كبرهم وتعاظمهم ان ينقادوا للحكومة ملك اراغون وابوا ان يتوجوا فرديننند بتاج مملكتهم وزيادة على ذلك كانوا يعرفون اخلاق فرديننند حق المعرفة فرأوا انه لايصلح ان يكون ملكا عليهم وذلك انه كان كثير الوسوسة سئ الظن ينظر فى عواقب الامور ويسلك فى اموره سبيل الجد والصعوبة والاقتصاد المفرط حسودا ولوعا على سفاسف الامور يجازى صاحب العمل الجليل بالقليل فكثيرا ما كان يتأسف اهل قسطيله على فقد ملكتهم ايزابيله لما انها كانت لينة العريكة حليمة الطبع ترفق بهم وتحبهم فكانت غالبا تلطف باخلاقها الجميلة شراسة اخلاق زوجها ومن المعلوم ان فرديننند كان مذهبه فى ادارته واحكامه الاجحاف بالاكابر والامراء فكثيرا ما سعى مع الاجتهاد فى اضعاف شوكة الاشراف الخارجة عن الحد وتقوية الشوكة الملوكية وطالما اخذ بناصر كل تابع تعدى عليه ملتزمه اوسيده وزاد فى مزايا المدن وخصوصياتها فبهذه الاسباب كلها تعصب عليه حزب عظيم من اهل قسطيله ومع ان هذا الحزب لم يصل خروجه الى حد الفتنة والقيام عليه الا ان فرديننند كان يتيقن انه لوحصل لهذا الحزب ادنى

سنة ١٥٠٤

تحريض من الملك الجديد الذى هو فيليبش لكانت عاقبته عليه سيئة مشؤمة

مطلب
سعى فيليبش فى الاستيلاء على حكومة قسطيلة

وقد وقع الاضطراب ايضا فى البلاد الواطية حين وصل اليها خبر موت الملكة ايزابيله واستيلاء زوجها فردينند على حكومة قسطيلة لان فيليبش لم يكن عنده صبر ولا تجلد حتى يطيق ما فعله الملك فردينند من تغلبه على مملكة قسطيلة طمعا من غير ان يكون له فيها حق فكان يزعم فيليبش انه ان كانت الاميرة حانة بنت ايزابيلة لا تصلح ان تكون حاكمة على مملكة قسطيلة لضعفها عن الادارة بسبب ما هو قائم بها من الداء العضال كان له الحق فى النيابة عنها لانه زوجها وان لم يمكن ذلك ايضا لكرلوس لكونه قاصرا فله ايضا الحق فى النيابة عنه لانه والده ووصيه بالطبع فعلى كل حال ينبغى ان لا يستولى غيره على المملكة ولا يخفى ان الوصية التى كتبتها ايزابيلة قبل موتها لا تكفى فى نقض هذه الحقوق الاكيدة الشرعية لاسيما ولم يقع الاتفاق على صحتها لانها من باب الافتيات والتعدي وقد وافق ذلك حصول حادثة حملت فيليبش على التصميم على تنجيز غرضه وهى حضور حنا منويل عنده وذلك انه كان ايلجيا من طرف فردينند فى ديوان ايمبراطور النمسا فلما اخبر بموت الملكة ايزابيلة سار الى مدينة بروكسيلة مؤملا ان يكون له بديوان ملك شاب سخى من نفوذ الكلمة والرفعة ما لا يمكنه ان يطمع فى نواله بديوان شيخ بخيل كفردينند وكان فيليبش مدة مكثه ببلاد اسبانيا قد استمال اليه هذا الامير الذى نشأ فى ديوان فردينند وتمكن من معرفة ادارة المصالح فكان فى وسعه معارضة مقاصد فردينند وسياسته بمعارف وحيل ليست دون معارف فردينند وحيله فانحط رأى منويل المذكور على ان يبعث رسلا الى فردينند ليلزموه بالذهاب الى مملكة اراغون ويسلم مملكة قسطيلة الى من يختاره فيليبش ويخصه بالنيابة عنه حتى يذهب بنفسه ويجلس على كرسيها وجعل فيليبش حينئذ يستميل عقول اشراف قسطيلة الذين كانوا فى غيظ كبير من الملك فردينند

مطلب
بعث فيليبش الى فردينند أن يسلم مملكة قسطيلة ويذهب الى مملكته

سنة ١٥٠٤

ويحرضهم ويحثهم كل الحث على العصيان والخروج عليه وعقد ايضا مع لويز الثاني عشر ملك فرانسا مشارطة معتقدا انه بذلك يستميل قلب هذا الملك فيعينه على مشروعاته

هذا ولم يبق طريق الا وسلكه فرديننند لاجل ابقاء نفسه ملكا على قسطيلة فاتخذ له امينا من اشراف اراغون يسمى كونشيلوس واناطه بنقل المراسلات السرية بينه وبين بنته حانة ولما كانت ضعيفة العقل قليلة الحيلة بلغ هذا الامين منها أن كتبت لابيها فرديننند واقرته على النيابة على مملكة قسطيلة ولكن لم تخف هذه الدسيسة على الامير منويل لحذقه وفراسته فقبض على مكتوب الاقرار الذى كتبته حانة ووضع كونشيلوس فى دماس مظلم وسجنت حانة فى جهة من القصر ومنع خدمها الاسبانيون ان يدنوا منها

مطلب
تخلى اشراف قسطيلة عن الملك فرديننند

فلما رأى فرديننند ما حصل من كشف سره لحقه غم شديد وازداد ذلك بما عاينه من نجاح الرسل المبعوثين من طرف فيليبش الى قسطيلة حيث ان بعض الاشراف احتجب وتحصن فى قصوره وبعضهم احتجب فى مدائنه التى له فيها شوكة ونفوذ كلمة وتعصبوا فيما بينهم على فرديننند واخذوا يجمعون اتباعهم حتى خلى ديوان فرديننند عن الاهل ولم يبق فيه من الاعيان الا اكزيمينيس ودوق البه والملتزم دوريه بخلاف بيوت رسل فيليبش فلازال يتوارد عليها كل يوم اكابر الاشراف واعيانهم فلما تخلى جميع الناس عن فرديننند ولحقه الخزى من كونه رأى الامير منويل مع صغر سنه قد تمكن بسياسته من افساد حيله وتدبيره غضب غضبا شديدا حتى هتك حرمة النواميس الطبيعية الرابطة بين الآباء وابنائهم وخلع برقع الحياء فعزم على حرمان بنته حانة وذريتها من تاج قسطيلة حيث رأى ان ذلك اولى عنده من خلعه بهذه المثابة عن نيابة تلك المملكة وهذا المقصد وان كان قبيحا فى ذاته صعب التنجيز الا انه صمم على تتميمه فطلب ان يتزوج بالاميرة حانة بنت الملك هنرى الرابع مع ان الملكة ايزابيله كانت

سنة ١٥٠٤

لم ترث كرسى قسطيلة الابعد ادعاء اهل تلك المملكة ان هذه الاميرة متولدة من الزنا وانه لا حق لها فى المملكة لكونها ليست بنت هنرى المذكور فظن فرديننده انه ان تزوج بهذه الاميرة التى حاربها سابقا بنفسه مع جيوشه يمكنه ان يحيى حقوقها فى مملكة قسطيلة ويعود الى الاستيلاء عليها الآن اعنويل ملك البورتغال الذى كانت حانة المذكورة قاطنة ببلاده وكان متزوجا باحدى بنات الملك فرديننده والملكة ايزابيلة لم يقر هذا النكاح حيث انه فى غير محله خصوصا وحانة المذكورة بنت هنرى مكثت مدة طويلة مترهبة فى دير فزالت من قلبها علائق الدنيا ودواعى المعالى والفخار فاظهرت انه لا حاجة لها بمثل هذا الزواج

مطلب
زواج فرديننده بنت اخت ملك فرانسا

ومع ذلك فبعد ان ايس فرديننده من تنفيذ ما طمع فيه وجد وسائل جديدة تعينه على تنجيز مقصده الذى صمم عليه فبعد ان خاب سعيه بمملكة البورتغال جعل مملكة فرانسا مطمح نظره وطلب ان يتزوج بالاميرة جرمين روفواكس بنت الويقونته دونار بون والاميرة مارية اخت الملك لويز الثانى عشر وكان الحرب الحاصل وقتئذ فى نابلى بين لويز المذكور وفرديننده مشؤما على لويز فسر لما طلبه فرديننده وبادر بقبول هذا الامر حيث انه يكون به عقد الصلح على وجه لطيف لا يخل بمقامه هذا ومع ان فرديننده كان بمكانة من الكياسة والحزم بحيث لم يفقه فى ذلك احد من الملوك لانه كان يوثر الاسباب السياسية على الاغراض التى تدعوه اليها نفسه ولا يتصدى لمقصد سولته له آماله الابعد الوقوف على حقيقته ومعرفة عاقبته كان غضبه شديدا من صهره فيليبش حتى انه لاجل ان يفصل عنه حليفه لويز الثانى عشر ويخلعه عن كرسى اراغون عزم على تمزيق اسبانيا وتقسيمها الى عدة ممالك كما كانت قبل ذلك مع ان انضمامها الى بعضها وجعلها مملكة واحدة هو الذى اشهر حكومته واكسبه الفخار وكان مطمح نظره ورضيت نفسه ان يعيد الى اشراف نابلى الذين هم من احزاب الفرنساوية جميع املاكهم ومزاياهم وعرض نفسه للسخرية والاستهزاء

سنة ١٥٠٤

حيث تزوج مع كبرسنه بنتا لم تبلغ من العمر الا ثمانى عشرة سنة فتأثر الامير فيليبش من هذا النكاح تأثراشديدا حيث فصل عنه حليفه لويز الثانى عشر ولم يكن له حليف سواه فخشى ان يترتب على ذلك حرمانه من ممالك اسبانيا العديدة فعند ذلك رأى الامير منويل انه يلزم المبادرة الى سلوك طريقة اخرى فى شأن قسطيلة فارسل اعلاما جديدا الى رسل الفلمنك الذين كانوا ابدوان اسبانيا وامرهم ان يخبروا فرديننند بان اميرهم فيليبش له رغبة عظيمة فى ان يبطل بالتى هى احسن ما بينهما من المشاجرة ويرضى بقبول كل شرط يعرض عليه لتجديد المحبة التى ينبغى دوامها بين الاصهار ولم يسبق لاحد من الملوك انه عقد اونقض من المشارطات اكثر من الملك فرديننند الا انه كان يصدق الغير ولا يمتنع ابدا عن استماع ما يعرض عليه فجنح من غير توقف الى قول رسل فيليبش وعقد بعد ذلك بمدة قليلة فى مدينة سلمنك مشارطة بها حصل الاتفاق على ان ادارة مملكة قسطيلة تكون باسم الاميرة حانة وزوجها فيليبش والملك فرديننند وان ايرادات المملكة ومحصولات المناصب تكون بالمناصفة بين فرديننند وفيليبش

مطلب
المشارطة التى حصلت بين فرديننند وفيليبش فى ٢٤ من تشرين الثانى

ولكن كان فيليبش فى الباطن لا يعتبر هذه المشارطة الا آلة يتوصل بها الى ما آربه وبعد ذلك يبادر بنقضها فكان قصده بها مشاغلة فرديننند حتى يمكنه ان يسافر الى بلاد اسبانيا من غير ان يتصدى فرديننند لمنعه ويسد السبل امامه وقد نجح بهذه الحيلة وبلغ ما آربه وذلك ان فرديننند مع ما كان عليه من الحزم والتبصر مكث مدة وهو لا يخطر بباله مقصد صهره فيليبش وبمجرد ما اخبربه طلب من ملك فرانسا ان يحسن للامير فيليبش العدول عن هذا السفر بل ويزجره عنه بالتهديد والتخويف وطلب ايضا من دوق غولدرة ان يشن الغارة على دوله التى بالبلاد الواطية ليشغله عن السفر ولكن جميع هذه الاحتراسات لم تمنع فيليبش وزوجته حانة عن السفر فسافرا فى دونغا كبيرة واخذا معهما طائفة كبيرة من العساكر البرية الا انه

مطلب
سفر فيليبش وزوجته حانة الى بلاد اسبانيا
سنة ١٥٠٦

في اثناء السفر هبت عليهما رياح عاصفة حملتهما على ان يرسوا ببلاد انكلتره فجعل فرديننند يترجى ملكها هنرى السابع حتى حجزهما عنده اكثر من ثلاثة اشهر وبعد ذلك رخص لهما في الرحيل فسافرا من غير ان يحصل لهما عائق يمنعهما في ٢٨ من شهر ابريل حتى وصلا سالمين الى قورون في غاليسة فلم يتجاسر فردينند على ان يجند الجنود ليمنعهما عن الخروج من السفن كما كان مصمما عليه سنة ١٥٠٦

مطلب
ميل اشراف قسطيلة الى حزب فيليبش

وكان اشراف قسطيلة الى ذلك الوقت لم يتجاسروا على افشاء ما في ضميرهم فعند وصول فيليبش اليهم انضموا الى حزبه وصاروا ياتون اليه من اطراف المملكة وارجائها وهرع اليه من سائر مملكة قسطيلة الاكابر والملتزمون مع اتباعهم ليدخلوا في خدمته وانعقدت مشورة حكم فيها ببطلان المشارطة التي حصلت في سلمنك واتفقت الآراء على طرد فردينند من مملكة قسطيلة حيث رضى بانفصالها عن مملكتي اراغون و نابلي لان ذلك يدل على انه لا يرغب فيما فيه مصلحتها وراحة اهلها فلما تخلى جميع القسطيليين عن فردينند وخرجوا عليه صار متحيرا ما بين ترك حكومة قسطيلة بدون حرب وشقاق واشهار الحرب لنزعها من خصمه فاعرض للامير فيليبش انه يريد مقابلته ليتفاوضا في هذا الشان والح عليه في ذلك فلم يبلغ مرامه لان الامير منويل كان يمنعه من ذلك وكان فردينند يرى ان حزب فيليبش دائما في الازدياد فعلم انه لا طائل في التصدى الى مقاومة احزابه التي

مطلب
تخلى فردينند عن نيابة قسطيلة وذهابه الى مملكة اراغون في ٢٨ من شهر حيزران

كانت كالسيل العرم فعقد مشارطة جديدة مضمونها انه يتخلى للامير فيليبش عن نيابة قسطيلة ويذهب الى مملكة اراغون التي هي وراثية له ولكن تبقى له الرياسة على الطوائف الثلاثة العسكرية ولا يحرم ايضا من الايراد الذى اوصت به زوجته ايزابيلة له قبل موتها فلم يظهر حينئذ داع قوى يستدعى مقابلتهما لبعضهما ولكن لما كان الملائم للمروءة والانسانية مقابلتهما لان فردينند كان يرغب في ذلك كل الرغبة ذهب فيليبش الى المحل المعد بينهما للمقابلة في رونق ومحفل عظيم من اشراف قسطيلة واعيانها وطائفة

سنة ١٥٠٦

كبيرة من العساكر المتسلحة واما فرديننذ فذهب ولم يكن معه الا بعض خدم لا سلاح بايديهم فاخذ منويل حينئذ يباهى فرديننذ ويفتخر عليه بما اكتسبه فى خدمة فيليبش من الشوكة والصولة والحظوة عنده فلحق فرديننذ من ذلك الخزى بين اهل قسطيلة الذين كانوا رعيته سابقا وصارت نفسه تكابد ألمين شديدين لا يطيق تحملهما ملك طماع مخادع مثله احدهما هو انه مع كبر سنه وخبرته ومكانته من السياسة والحزم ظهر عليه مثل هذا الشاب الصغير وحطه عن درجته وافسد عليه ما دبره والثانى هو ضياع ممالكه منه

شهر تموز

وبعد ذلك بمدة قليلة سافر فرديننذ الى مملكة اراغون وكان يامل ان يساعده الدهر فى رجوعه ملكا على قسطيلة فاشهد بعض الناس سرا على بطلان المشارطة التى انعقدت بينه وبين صهره فيليبش واقر بانها قد انعقدت كرها فتكون ملغاة لا اعتداد بها

مطلب
اقرار مشورة وكلاء المملكة فيليبش وزوجته حانة على حكومة مملكة قسطيلة

فاستولى فيليبش على مملكته الجديدة مع السرور الذى يحصل عادة للشبان من مثل هذا المنصب واما زوجته حانة سيئة البخت التى كانت سببا له فى تلك السعادة فقضت عليها مدة هذه المنازعات وهى فى عذاب اليم وكرب عظيم من المالنخوليا التى كانت قائمة بها فكان لا يؤذن لها فى الخروج بين الناس الا نادرا حتى ان اباها فرديننذ طلب ان يراها فلم يمكنه وكان قصد زوجها فيليبش ان ارباب مشورة وكلاء المملكة يحكمون بانها لا تصلح للحكم حتى لا يشركه احد فى مملكة قسطيلة الى ان يبلغ ابنه كرلوس رشده ولكن لم ينجح فى هذا القصد لما ان اهل قسطيلة كانوا يحبونها اذ هى بقية عائلتهم الملوكية الاصلية نعم قد امكن للامير منويل بسياسته وحزمه ان يأخذ بعقول بعض الناس من ارباب المشورة التى انعقدت فى مدينة ولادوليد وكان هنالك اناس آخرون مستعدون لتنفيذ مقاصد فيليبش ولكن لم يرض جمهور ارباب تلك المشورة باقراره على ذلك لما انهم كانوا يعدونه نقصا فى حق عائلتهم الملوكية فحكموا بان المملكة تكون لكل من فيليبش

وزوجته

وزوجته حانة وان ابنهما كرلوس يكون اميرا على اقاليم اسطورى | سنة ١٥٠٦

ولم يكن لفيليبش من الحوادث السياسية الشهيرة سوى هذه | مطلب

الحادثة وبعدها انهمك على الشهوات واللذات فاصابته حمى شديدة مات بها | موت فيليبش فى ٢٥

وكان فى عمره الثمانية والعشرين فلم يحظ ثلاثة اشهر كاملة بالمنصب الملوكى | من شهر ايلول

الذى شمر عن ساعد الجد فى طلبه وتحصيله

وبموته صارت مملكة قسطيلة لزوجته حانة لا يشركها فيها احد ولكن | مطلب

حصل لها تأثر من موته اوجب خلل عقلها وصارت لا تصلح بالكلية لادارة | ازدياد اختلال عقل حانة

المملكة رأسا فكانت لا تفارق فراش زوجها مدة مرضه ولم يمكن باى وجه ابعادها عنه ولو طرفة عين مع انها كانت حاملا فى ستة اشهر وعند خروج روحه لم تدمع عينها ولم تتأوه ابدا بل كانت آلامها خفية وكآبتها باطنية لا تظهر عليها ولم تزل عاكفة على جثة فيليبش وتنظر اليه بعين الشفقة والرافة كما لو كان حيا وبعد ان أذنت بدفنه ودفن اخرجته من القبر وحملته الى قصرها ووضعته على سرير نفيس مكسو بحلل فاخرة بهية من انواع الحرير والديباج لانها كانت سمعت فى حكايات بعض الرهبان والقسوس ان بعض الملوك حلت فى بدنه الحياة بعد موته باربع عشرة سنة فكانت دائما تشخص البصر الى جسم فيليبش مترقبة الوقت السعيد الذى تعود فيه اليه الحياة واغرب من ذلك انها كانت تغار عليه وهو ميت كما فى حال حياته فكانت لا تأذن لنسائها التى يخدمنها ان يقربن من فراشه واما النساء الاجنبيات فكانت لا تأذن لهن فى الدخول الى الجهة التى بها جثته حتى انها عند وضعها لم ترض بان يدخل بعض القوابل لاجل مساعدتها على الولادة مع ان هذه القابلة قد انتخبت قصدا من العجائز فوضعت الاميرة كاترينة من غير مساعدة احد غير خدمها

ومن المعلوم ان المرأة اذا كانت بهذه المثابة لا تصلح لادارة مملكة عظيمة كمملكة قسطيلة وزيادة على ذلك كانت لا تنفك تنتحب على زوجها وتدعو له بالرحمة حتى كانت ترى انها لو التفتت لمصالح الدولة لما وفت بما يجب عليها له فابت ان

سنة ١٥٠٦

تقوم بتدبير المملكة ولغيرتها لم تطق ان تقيم لها وكيلا على المملكة يقوم بمصالحها وادارة امورها فصار رعاياها يتضرعون اليها كل التضرع فى ان تقيم لها وكيلا او تضع امضاءها على الاوامر اللازمة لاجراء القوانين ونشر الامن والاطمئنان فى المملكة فابت ان تفعل شيأ من ذلك

فصار اهل قسطيلة فى حيرة عظيمة حيث انهم عند جنون ملكتهم كان ولدها كرلوس لم يبلغ سن الرشد حتى يقيموه محلها فرأوا انه لابد من اقامة وكيل على المملكة يقوم بامورها لكن لم يجدوا فى اشراف قسطيلة احدا ذا فضل شهير فى المعارف والحزم حتى يكون جديرا بان يدعى الى هذا المنصب الجليل فتعين عندهم للقيام به الملك فرديننند او الايمبراطور مكسيليان اما الاول فيستحق ذلك بوصف كونه ناثباعن بنته حانة لاسيما وكان يعضده فى ذلك وصية امها ايزابيلة واما الثانى فوجه استحقاقه للوكالة ان حفيده كرلوس لعدم صلاحية امه للحكم له الحق فى مملكة قسطيلة وحيث انه صغير السن فجده من جهة ابيه يكون وليه ووكيلا عنه وقد حصل لمن سعى فى طرد فرديننند من مملكة قسطيلة غم شديد حيث رأوه قريبا من الاستيلاء عليها ثانيا وكان جبارا بالطبع لايعرف العفو ابدا لاسيما اذا تذكر ماصدر منهم فى حقه من الاساءة فانه يزداد بذلك قسوة وغلاظة واما مكسيليان فلم يكن له شئ من هذه الاسباب يمنعه عن الاستيلاء على تلك المملكة الا انه كان لايعرف اخلاق اهلها ولا قوانينهم ولم يكن له جيوش ولا مال حتى يمكنه تنفيذ اغراضه فى هذا الشان وايضا لايثبت له حق فى قسطيلة الابعد ان يعلم الخاص والعام بحال الملكة حانة وعدم صلاحيتها لادارة المملكة ومع ان حالة هذه الاميرة لم تكن اذذاك خافية رأى اهل قسطيلة انه ليس من المروءة اشاعة ذلك بين الناس لما انه يورث العار ويزرى بالعرض

ولكن لما كان الامير منويل وبعض اشراف قسطيلة يعتقدون انهم اول من ينتقم منهم فرديننند ويذيقهم العذاب الاليم بسبب مافعلوه معه جعلوا انفسهم فى حزب مكسيليان والتزموا بانهم يعضدونه ويدافعون عنه

بجميع

بجميع طاقتهم وكان مكسيليان مع جسارته واقدامه على المشروعات بطيأ سنة ١٥٠٦
ضعيف الهمة فى تجهيزها فيقدم فى ذلك رجلا ويؤخر اخرى فبادر بالقبول
لمقصد منويل ومن معه لكن لم يترتب على ذلك الامجادلات ومحاورات
لا طائل تحتها فابدى هذا الايمبراطور حقوقه مع الابهة والتفاخر كما هى عادته
ووعد باشياء شتى لكنه لم ينجز شيأ منها

وكان فرديننده قبل موت فيليبش ببعض ايام قد سافر الى مملكة نابلى مطلب
لما انه كان يسيء الظن بنائبه غونزلودوكورد ومع انه كان حسن السلوك سفر فرديننده الى مملكة
ذا صدق ونصح فى خدمته لا يهمل فى ادارة المملكة ومصالحها سافر نابلى
فرديننده اليه ليسلبه الصولة التى اكتسبها من منصبه ولم يكتف بارسال احد
من طرفه لهذا الشان بل رأى ان الاحسن والاليق ان يذهب بنفسه الى نابلى
ويمسك بعنان حكومتها بعد عزل نائبه المذكور فلما بلغه فى مدينة بورتوفينو سنة ١٥٠٧
بارض جنويزه موت صهره فيليبش رأى ان ذهابه الى مملكة نابلى
ليكشف الدسائس التى كان يتهم بها نائبه ويعزله من حكومة نابلى اولى من
رجوعه على عقبيه وهان عليه ان يترك مملكة قسطيلة على مثل هذه الحالة
وكان حينئذ لا يوجد بها من يقوم باصلاح حالها وادارة مصالحها فلربما كان
يترتب على غيبته ضياع حكومة قسطيلة منه ونبوتها لغيره
ولم يكن هناك ما يمنع من حصول الامور الشنيعة التى كان يمكن تسببها عن غيبة
فرديننده الا معارف ندمائه وحزمهم وسداد رأيهم لاسيما كبيرهم
اكزيمينيس مطران طليطلة فانه وان كان لا يامل نيل صولة عظيمة تحت
حكم فرديننده لما رآه من تنغصه منه حين ولته المملكة ايزابيلة منصب
المطرانية لم يعتبر اغراضه النفسانية بل آثر نفع المملكة على نفع نفسه واعرض
ان قسطيلة لا يحسن ادارتها سوى الملك فرديننده حيث انه بكثرة
تجاريبه يعرف ما يضر تلك المملكة وما ينفعها اكثر من غيره ولاجل ان يحسن
لابناء وطنه هذا الرأى ويستميلهم الى قبوله رأى انه لابدان يكون لين العريكة
والجانب فى حق الناس وان كان ذلك على خلاف طبيعته لخفض جناحه وصار

سنة ١٥٠٧

يوالى من يناقضه من الاشراف لجمع بين المداهنة والبراهين ليستميلهم اليه واعانه على ذلك ما ابداه فرديننْد من السياسة المحكمة والتدبير العجيب حيث استمال بعض الناس بالاقطاعات والمزايا وبعضهم بزخرفة القول والمواعيد واستحوذ على الجميع بمراسلات لطيفة تسر الخاطر حتى توصل الى جذب قلوب عدة من اكبر اخصامه ونجح فى هذا المقصد غاية النجاح مع ما كان حاصلا وقتئذ من الفتن فى هذا الشان حتى انه بعد ان اصلح حالة نابلى ورجع الى اسبانيا حظى من غير معارض ولا مناقض بنيابة مملكة قسطيلة وسلك فى الحكم بين الاهالى طريقة لطيفة وان كانت لا تخلو عن الصعوبة والتشديد فالفوه جميعا واحبوه وعاش فى الامن والراحة مع وجود الحكومة الالتزامية التى من شانها الفتن والتحزبات ولم يزل بها فى امن واطمئنان حتى مات مع ان قوانين الحكومة الالتزامية كانت باقية فيها على عنفوانها وعتوها والفضل لفرديننْد على سبطه كرلوس فى ابقاء السكون والامن فى مملكتى اراغون و قسطيلة بل له الفضل عليه ايضا فيما هو اعظم من ذلك وهو ان دول كرلوس الوراثية ازدادت فى مدة نيابة جده فرديننْد واتسعت دائرتها بسبب فتوحاته الجديدة التى اضيفت اليها وذلك انه اضيف الى مملكة قسطيلة مدينة وهران وغيرها من المدائن الحصينة الموجودة فى اطراف بلاد البربر التى هى بلاد الغرب وكان ذلك بهمة الكردينال اكزيمنيس حيث سار بالعساكر الى اهل الغرب وابدى فى قتالهم العجب العجاب من الشهامة والحمية الدينية التى شانها ان تصدر عن امنا الدين واغرب من ذلك ايضا ان جميع المصاريف التى نفدت فى هذا الحرب كانت من امواله وقد تمالى فرديننْد من جهة اخرى بحجج واهية غير مقبولة بعد اهتمامه بتجهيزها من قبيل الخيانة والجبن وطرد الملك حنا دالبرطه من مملكة نوار واستوى على كرسيها بدلا عنه مع ان حق حنا المذكور فى هذه المملكة كان حقا شرعيا لا ريب فيه فاتسعت اراضى اسبانيا بهذه المملكة حتى صارت ممتدة من جبال البرنات الى حدود بلاد البورتغال

مطلب
رجوع فرديننْد الى اسبانيا
حسن تدبيره

مطلب
فتوح مدينة وهران

مطلب
اخذ مملكة نوار

ولم

سنة ١٥٠٧ ولم يكن قصد الملك فرديننند من مشروعاته التى كان يفعلها تكثير الممالك لسبطه كرلوس الذى ورثها بعده لانه كان يعتبره خصما يسلب منه مملكة قسطيلة فى المستقبل لا سبطا قاصرا جعل هو وليا عليه ليقوم بادارة ممالكه على سبيل النيابة والامانة حتى يبلغ رشده فكان يغار منه حتى صار بقلبه منه بغضا لا توارى فلما وضعت زوجته جرمين دوفوا كس ولدا فرح فرحا شديدا حيث ان هذا الولد يرث ممالكه من بعده ويحرم كرلوس من مملكة اراغون ومملكة نابلى ومملكة سيسليا ومملكة سردينيا الا ان هذا الولد لم تطل مدة حياته وعند موته صار فرديننند كانه يتقلب على الجمر لعدم الذرية وظهر عليه القلق

سنة ١٥١٣ والجزع واظهر التلهف على ان يكون له اولاد يرثون عنه ممالكه والظاهر انه لم ينشأ عن جزعه فائدة غير انه عجل باقامة كرلوس على كرسى اسبانيا على خلاف مرامه وذلك انه وان كان لا ينبغى له ان يتوقع نسلا لانه كان وقتئذ قد طعن فى السن وكان فى مدة شبوبيته قليل العفاف منهمكا على اللذات الا انه لتلهفه على الذرية قص امره على الاطبا وطلب منهم ما يعينه على مقصده فاعطوه شرابا من الاشربة التى يزعم ان خاصيتها تقوية الباه مع انه لا ينشأ عنها سوى ضعفه واتلاف الصحة كما تحقق ذلك فى فرديننند فانه بعد تعاطيه هذا الشراب اخذت صحته فى التناقص والضعف خصوصا وان بنيته قبل ذلك كانت ضعيفة فاعتراه مرض شديد وشفى منه الا انه لازمه داء السل فجعل يزداد فى السقم والنحول واختل عقله حتى صار غير صالح لادارة ممالكه واتبع من انواع اللعب واللهو ما لا يليق بالرجال ويئس من الذرية لضعف بنيته الا انه ازدادت غيرته من سبطه الارشدوق كرلوس وصار ينظر اليه بعين الشانئ المبغض كما هى عادة اغلب الملوك من انهم يبغضون من هو معد لان يخلفهم على ممالكهم وحيث بلغ بغضه لكرلوس الى هذه الدرجة كتب وصية للامير فرديننند بالنيابة على الممالك حتى يحضر كرلوس اخوه لما انه كان يعلم ان الامير فرديننند المذكور قد نشأ فى اسبانيا فيرغب فيه اهلها اكثر من اخيه كرلوس وقلده ايضا رياسة الطوائف العسكرية الثلاثة

مطلب
عزم الملك فرديننند على حرمان سبطه كرلوس من مملكة اسبانيا حتى كتب الوصية بذلك للامير فرديننند اخ كرلوس
سنة ١٥١٥

سنة ١٥١٥

ولا يخفى ما للملك فرديننـد فى ذلك من التدبير والمكر حيث ان الامير فرديننـد بالامر الاول وهو النيابة يكون له حق فى التاج الملوكى فينازع اخاه فيه وبالثانى وهو رياسته على الطوائف العسكرية يكون قائما بنفسه فى جميع احواله واطواره حتى لا يكون لاحد عليه ولاء

ولم يزل فرديننـد يغار على ممالكه من غيره غيرة عجيبة الى ان مات حتى انه قبل موته بقليل دعته تلك الغيرة الى ان ينتقل من محل الى آخر كانه يفر من مرضه او يتلاهى عنه وكان حفدته يرون ان صحته دائما فى التناقص والضعف ومع ذلك كانوا لا يتجاسرون على خطابه فى هذا الشان حتى كانوا لا يأذنون لقسيس الاعتراف المرتب عليه ان يذ نومنه وكان هذا القسيس يود ان يخبره بحاله لانه كان يرى ان مراعاة خاطر الملك واخفاء حقيقة حاله عليه يعد من الكبائر المنهى عنها شرعا فلما اتسع الخرق عليهم وعظم خطر الملك لم يمكنهم كتمان الحق فاخبروه بان اجله قد دنا فلم يذعر فرديننـد من ذلك ولم يرعو ابدا وحضر اليه حينئذ اقدم ندمائه واحبهم اليه وهم ثلاثة كرواجال و راباطة و وركاس وترجوه ان يغير وصيته التى كتبها واعلموه بانه ان اعطى الامير فرديننـد نيابة الممالك وقع الحرب بينه وبين اخيه كرلوس لا محالة وان اعطاه رياسة الطوائف العسكرية الثلاثة ضاع من التاج الملوكى رونقه وبهجته وجرد عن اعظم قوته فاستصوب رأيهم ورثا لحال كرلوس ورأى ان ما صمم عليه فى حقه من باب الظلم والتعدى وغير هذين الامرين من وصيته وكتب ان كرلوس هو الذى يرثه وحده فى جميع ممالكه وجعل للامير فرديننـد فى نظير التاج الملوكى الذى توهم انه ثبت له ارضا ايرادها فى السنة خمسون الف دينار معاملة من النقود المسماة دوقات ومات الملك فرديننـد بعد ان وضع امضاءه على هذه الوصية ببعض ساعات كان ذلك فى ٢٣ من شهر كانون الثانى سنة ١٥١٦ من الميلاد

مطلب
تغيير الملك فرديننـد لوصيته التى كتبها

مطلب
موت فرديننـد

فلما مات فرديننـد ورثه شرلكان فى دوله الكبيرة وكان قد بلغ حينئذ من العمر ست عشرة سنة وكان الى ذلك الوقت قاطنا بمملكة البلاد الواطية

مطلب
تربية كرلوس الخامس المسمى شرلكان

التى ورثها عن ابيه والذى اعتنى بتربيته فى صغره هى عمته مرغوريطة اميرة الاوستريسيا ومرغوريطة اميرة يورقة اخت ادوارد الرابع ملك انكلترة وارملة الملك كرلوس لوهردى وكانت كلتا هاتين الاميرتين ذات فضل شهير وعلم غزير قد منحت من كنوز المعارف والفضائل نفائس شتى وبعد موت ابيه فيليبش اعطى اهل الفلمنك مملكة البلاد الواطية لابيه الامبراطور مكسيمليان على سبيل الوكالة لكن كانت تلك الوكالة ظاهرية لا حقيقية حيث كان لا يتصرف فى المملكة بجميع ما يقتضيه حق النيابة فاختار مكسيمليان غليوم دوكرواى ملتزم شيوره وجعله ناظرا على حفيده كرلوس ليحسن تربيته وكان هذا الامير مستكملا لجميع الصفات والمعارف اللازمة لمثل هذا الامر المهم فجعل يوفى به كما ينبغى وانتخب كذلك ادريان دوتريقطه وجعله مودبا للامير كرلوس فرقى هذا القسيس بتلك الوظيفة اعلا مرتبة ارتقى اليها القسيسون والاحبار ولم يدع لذلك لطيب نسبه وحسبه لانه كان مجهول الاصل ولا لصولته ونفوذ كلمته لانه لم يكن له مدخل فى مصالح الدولة وانما كان ذلك لمعارفه التى اشتهر بها بين ابناء وطنه لانه كان ممتازا بين اقرانه بالعلوم الهزئية التى مكثت عدة قرون وهى تدعى بالعلوم الفلسفية واشتهر ايضا بشرح وضعه على كتاب مشهور للمؤلف بطرس لومبرد يسمى معلم الحكم كان وقتئذ معتبرا كمفتاح لكنوز العلوم اللاهوتية المستعملة فى المدارس فقبل هذا الشرح اتم القبول واستحق مؤلفه المدح والثناء ولكن مع هذه الشهرة التى حظى بها ادريان فى ذلك العصر الذى كان عصر جهالة لوحظ بعد مدة قليلة ان مثل هذا الرجل الذى لم يخرج من المدرسة ابدا ولم يعاشر الناس حتى يعرف امور الدنيا ويكون ذا ذوق وادب لا يصلح لتربية الامير كرلوس وتأديبه ولا يمكنه ان يستميله الى التعليم والتحصيل ولذلك اظهر كرلوس من صغره النفرة من العلوم وكان له رغبة شديدة فى تعليم العسكرية التى كانت وقتئذ مطمح نظر الاشراف ولا يعتنون بغيرها فكان الرجل منهم يفخر ويتباهى بفوقانه الاقران فيها وكان الامير شيوره يستحسن

سنة ١٥٠٦

سنة ١٥١٦

منه ذلك ويقره عليه ولا يعلم هل كان ذلك تملقا منه للامير كرلوس ليستميله به اولان نفسه كانت ايضا لا تميل الى العلوم الادبية ومع ذلك بذل الهمة فى تعليمه علم الادارة والتدبير واقرأه تاريخ ممالكه وتاريخ الدول التى كان بينها وبين دوله علاقات وروابط فلما تولى كرلوس على بلاد الفلمنك سنة ١٥١٥ اهتم شيوره ان يعوده على الشغل والاجتهاد فحمله على ان يقرأ جميع الاوراق التى تخص مصالح الدولة وان يحضر مذاكرات شورآته الخاصة وان يقص بنفسه على اربابها المواد المحتاج فيها الى ارائهم وبهذه التربية تعود كرلوس على الانفة والتعالى وما لا يليق بصغر سنه مع انه فى مبدء امره لم يظهر منه ما يدل على البراعة والنجابة التى امتاز بها فيما بعد فلم يكن عنده وهو صغير من النشاط والحمية ما يظهر عادة على من يكون كثير الجد والمشروعات اذا بلغ حد الرجولية وذلك انه كان فى مبدء امره منقادا بالكلية لما يامره به الامير شيوره وغيره من ندمائه ويقبل منهم النصيحة بدون توقف وبمثل ذلك كان لا يلوح منه انه يحوز هذا العقل الواسع الثاقب والرأى الصائب الذى قام فيما بعد بمصالح نصف ممالك اوروبا وادارتها ولكن كان رعاياه مغرورين بحسن صورته ومهارته العظيمة فى المصارعة وغيرها من الالعاب البدنية فاحسنوا فيه الظن كما هى عادة الناس فى حق ملوكهم وقت الشبوبية وحكموا بان يكون له مستقبل سعيد وتزيد به بهجة الممالك التى ورثها عن جده فرديننند

مطلب
طباع كرلوس فى مبدء امره

وكانت حينئذ ممالك اسبانيا تستدعى عظيم حزم وكبير عزم فى ادارتها وتخيير مصالحها كما يفهم مما ذكرناه فى اتحاف الملوك الالبا وذلك ان العوايد الالتزامية التى ادخلها كل من امة الغوطيين وامة السويوه وامة الوندال فى اقاليمها كانت باقية بها على قوتها الاصلية وكان للاشراف شوكة قوية ومهارة فى الفنون الحربية وكانوا قد مكثوا زمنا طويلا يتمتعون بالمزايا الواسعة التى اثبتتها لهم تلك العوايد الالتزامية وكانت مدائن اسبانيا كثيرة العدد والاهل على خلاف ما تقتضيه الحكومة الالتزامية التى هى لا تلايم

التجارة والعمران ولا الضبط والربط الذى يكون به امن البلاد وراحة العباد سنة ١٥١٦
وكان لاهل تلك المدائن مدخلية عظيمة وتأثير قوى فى شان السياسة وكان لهم حقوق شخصية عظيمة جدا واما شوكة الملك فكانت ضعيفة بسبب مزايا الاشراف وتطلبات الاهالى لخصايصهم وكانت محصورة فى حدود ضيقة جدا وبالجملة فمادامت هذه الحكومة المختلة موجودة كانت اسباب الفشل والشقاق كثيرة لا تحصى وكانت الروابط الجامعة بين اجزآء اسبانيا واهية ضعيفة فكانت اسبانيا فى اشد المشاق والمكابدات التى تنشأ عادة من خلل الحكومة الالتزامية وزيادة على ذلك كانت عرضة لمصائب اخرى تنشأ عن بعض امور مختلة فى ترتيبها وقوانينها
نعم لم يقع مدة حكم فرديننذ الطويلة شئ من التعكيرات والفتن الداخلية فى اسبانيا لانه عرف بجودة قريحته وحزمه كيف يقمع نفوس الاشراف حتى لا تغار منهم الجمعيات البلدية فبحسن تدبيره وسياسته فى داخل بلاده وبمهارته وحزمه فى تجهيز مشروعاته فى البلاد الاجنبية صار له موقع عظيم فى قلوب رعاياه وثبت له عندهم فضل جزيل وقدر جليل فى المعارف وبذلك امكنه ان يحفظ فى دوله الامن والاطمئنان وان كان الترتيب السياسى وقتئذ لا يسوغ ذلك بل كان يلايم الفتن والتعكيرات فلما مات فرديننذ انعدمت بموته موانع الفشل والشقاق وعادت التحزبات والتعصبات وتسلطن الهم والحزن فى ممالك اسبانيا بعد ان مكثت زمنا طويلا مستريحة منها وصارت بعد موت فرديننذ اشنع وافظع مما كانت عليه قبله
وكان فرديننذ يتبصر فى العواقب فادرك انه لابد من وقوع هذه الفتن والتعكيرات بعده فبحث قبل موته عما يحترس به من حصولها فكتب فى وصيته ان اكزيمينيس مطران طليطلة هو الذى يكون نائبا عنه فى مملكة قسطيلة حتى يحضر حفيده كرلوس الى اسبانيا وانما خص هذا المطران بذلك لانه كان لحزمه وحسن طباعه وحميد صفاته جديرا بمثل هذا المنصب العظيم ولذلك راينا من اللائق ان نتكلم عليه هنا بخصوصه ونذكر بعض

مناقبه وصفاته العجيبة ثم نرجع الى موضوعنا فنقول كان من عشيرة طيبة الاصل سنة ١٥١٦
الا انها كانت قليلة الغنى والثروة فحملته العيلة والفاقة على الدخول فى زمرة
القسيسين لا سيما وقد كان يميل بالطبع الى ذلك فلما انتظم فى سلكهم فاز فى اقرب
وقت باقطاعات انعامية عظيمة حتى صار ذا ثروة فتحت له ابواب السودد
ومهدت له سبلا رقى بها الى اعلا مراتب الكنيسة ومناصب الاقسة ثم رغب
عن هذه الانعامات الكبيرة واراد الدخول فى دير سنتفرنسيس وهو من
اصعب مراتب كنيسة رومة فامتحنوه امتحانا شديدا صعبا ودخل هذا الدير
وعما قليل امتاز فيه ايضا بالعفة والزهد وحسن الاخلاق وغاية التدقيق
الذى كان اذ ذاك من اجل اخلاق المترهبين وفى اثناء مجاوزات الحد فى الدين
التى لا يقع فيها عادة سوى العقول السخيفة الزائغة التى تميل الى البدع
والترهات كان اكزيمينيس باقيا على حدة ذهنه ووفور عقله لما انه كان بالطبع
جيد الرأى حاد الذهن فتنزهت قريحته عن الزيغ والضلال فلما رأى اهل
طائفته القسيسية انه يفوقهم جعلوه رئيسا على اقليم وكان مشهورا بالزهد
والتقوى فعما قليل دعى الى ان يكون قسيس اعتراف عند الملكة ايزابيلة
ومع شرف هذا المنصب وعظمه توقف فى قبوله ولم يقم به الا كرها بغير رضا وبعد
دخوله فى خدمة هذه الملكة لم يزل مستمرا على اخلاقه من الزهد والتقوى والورع
التى اشتهر بها فى الدير فكان اذا اراد الذهاب الى محل يذهب راجلا كعادته وكان
لا يتعيش الا من الصدقات وكان يكلف نفسه بالامور الشاقة كما كان قبل ذلك
فحصل للملكة ايزابيلة منه غاية الفرح والسرور وقلدته منصب مطرانية
طليطلة وهو اعظم مناصب الكنيسة الرومية بعد منصب البابا ومع ذلك
ابى ان يقبله حتى صدر له امر مخصوص من طرف البابا ولكن لم تتغير
اخلاقه بارتقائه الى هذا المنصب العالى الا انه جبر على ان يظهر فى الناس
بما يقتضيه مظهر منصبه من الابهة والرونق ومع ذلك بقى على ما كان عليه من
الشدة الدينية والصعوبة القسيسية فكان يلبس دائما تحت ثياب منصبه
الحبرية ثوبا خشنا من ثياب رهبان سنتفرنسيس وكان يخيطه بنفسه

سنة ١٥١٦ اذا تمزق وكان لا يلبس القماش الرفيع الناعم على بدنه مباشرة وكان ينام دائما من غيران يخلع ملبوسه وينام فى الغالب على التراب اوعلى الواح من الخشب وقل أن نام على فراش وكان لا يأكل شيأ من الاطعمة اللذيذة اللطيفة التى تقدم له فى مائدته بل كان يكتفى فى ذلك بما اوجبه قوانين طائفته القسيسية فكان يقنع بلقيمات تسد الرمق وكان له معرفة غزيرة فى مصالح الدولة واحوالها حتى انه لما دعى الى الادارة بموجب رأى الملك فرديننـد وزوجته ايرابيلة اظهر من الفضل والمعارف الجلية ما جعل له شهرة فى القريحة والحزم مماثلة لشهرته فى الزهد والتقوى وكان لا يقع بصره الاعلى كل امر جديد لم يسبقه به غيره ولا يهم الا بتنجيز كل مقصد صعب ومشروع خطب وكان حسن نيته فى تلك المشروعات يحمله على ان يتبعها مع الهمة التى لا تكل والتصميم الذى لا يمل حتى ينجزها ويبت امرها ولما كان متعودا من صغره على قمع نفسه وعدم اتباع شهواته كان لا يعفو ابدا عمن مال الى الشهوات واتبع هوى نفسه وكان يعلم بموجب الدين ان الزينة والرفاهية ممنوعة فكان يبغض كل ما يلوح عليه دلائل التصنع والعجب ولم يكن لين العريكة بل كان لا ينفك عنه تدقيق القسوس وتشديدهم الذى يوجب السآمة والنفور خصوصا فى بلاد اسبانيا التى كانت تجهل بها طباع الاقسة ومع ذلك فلم يصفه احد بالفظاظة والغلظ

هكذا كانت حالة اكزيمينيس الذى اقامه فرديننـد نائبا على مملكة قسطيلة وكان قد بلغ من العمر نحو الثمانين ويعرف صعوبة هذا المنصب ومشاقه الجمة التى لا تنفك عنه ومع ذلك لم يتوقف فى قبوله لانه كان بالطبع قوى العزم وكانت له رغبة تامة فى تنجيز ما به تكون مصلحة البلاد ونفع العباد لكن كان ادريان دوتريقطه الذى ارسل الى اسبانيا قبل موت فرديننـد ببعض شهور اظهر اوامر من الارشدوق كرلوس بالنيابة على مملكة قسطيلة بعد موت الملك فرديننـد المذكور غير ان اهل اسبانيا كانوا يبغضون حكومة الغرباء فيهم ويعلمون ان الفرق بين فضل هذا الرجل ومعارفه

مطلب جعل كرلوس ادريان نائبا على مملكة قسطيلة

سنة ١٥١٦

وفضل اكزيمينيس كما بين الثريا والثرى فلم يكن له اعتبار عندهم كاكزيمينيس بحيث كان يمكن ابطال سعيه وخيبة آماله لولا ان اكزيمينيس امتثل اوامر كرلوس واقره على النيابة لكنه شاركه فى الادارة والتدبير على ان نيابة ادريان على المملكة المذكورة لم تكن الا بمجرد الاسم والصورة واما اكزيمينيس فانه بحسن سياسته اخذ يعامل ادريان مع المراعاة والاحترام التام حتى آلت اليه الكلمة النافذة فى الدولة وصار بيده الحل والعقد فى جميع المصالح

مطلب
انفراد اكزيمينيس بادارة الدولة وتحريزه صالحها

واول شئ لاحظه اكزيمينيس وتدارك ما يترتب عليه من العواقب السيئة المضرة هو حال الامير فرديننند بن فيليبش الذى اوصى له الملك فرديننند اولا بالحكومة وكان اقرب من غيره للاستيلاء عليها فلما بدلت الوصية وحرم مما كان يامله لحقه الاسف والتحسر واظهر من الجزع مالا يليق بشبوبيته وصغر سنه فخشى اكزيمينيس ان ما لحق فرديننند من الغم لضياع الحكومة منه يحمله على السعى فى ايقاع فتنة او حادثة مشؤمة وبحث عن احضاره ليمكنه ملاحظته فى سلوكه وافعاله وتعلل فى تنفيذ ذلك المارب بانه يريد مباشرة تربية هذا الامير ليكون تحت رعايتـه فى الحفظ والصون فنجحت حيلته واحضر فرديننند من مدينة وادى لوب التى نشأ بها الى مدينة مدريد التى جعل بها حينئذ الديوان الملوكى ولما حضر فرديننند الى تلك المدينة اخذ اكزيمينيس يلاحظه فى جميع اموره واناط اناسا بالالتفات اليه والى اتباعه فى جميع حركاتهم وافعالهم

واول خبر بلغ اكزيمينيس من البلاد الواطية اورثه الحيرة والقلق حيث بلغه انه فعل امرا صعبا باحضاره للامير فرديننند عنده وجعله تحت ادارة اناس لا يعرفون قوانين اسبانيا ولا اخلاق اهلها وبمجرد ماوصل خبر موت الملك فرديننند الى مدينة بروكسيله انحط راى مشورة الفلمنك على تلقيب الامير كرلوس ملكا على دول فرديننند فقبل قولهم وبحث عن التمكن من ذلك ولكن بموجب قوانين اسبانيا كان كل من مملكة اراغون ومملكة قسطيلة لا يثبت الا للاميرة حانة دون غيرها نعم انها كانت

مطلب
تلقيب كرلوس ملكا

سنة ١٥١٦م

لا تصلح للحكم بسبب امراضها واختلال عقلها الا ان ذلك لم يثبت بتقرير صحيح صادر من مشورة وكلاء مملكة اراغون او مملكة قسطيلة حتى يعلمه الخاص والعام وبناء على ذلك كان اهل اسبانيا يعتبرون ان هذا المقصد من طرف كرلوس محض تعدّ وافتيات على مزاياهم وحقوقهم بل ومخالف لنواميس الطبيعة حيث انه يريد ظلم امه والتعدى على حقوقها ورأوا ان فى ذلك اهانة لاميرتهم لم يحصل لها مثلها من جهة رعاياها

ولكن بعد مداولات بين ديوان مدينة بروكسيله و البابا و الايمبراطور اقر كل من هذين الاخيرين تلقيب كرلوس ملكا على قسطيلة وكان لهما وقتئذ الحق فى ذلك اما الاول فلانه رئيس الكنيسة واما الثانى فلانه رئيس الايمبراطورية وصدر الامر الى اكزيمينيس بان يعلم اهل اسبانيا باستيلاء كرلوس على كرسى مملكتهم وكان اكزيمينيس هو اول من عارض فى هذا الامر لانه كان يرى انه يغضب الملة من غير ان يجدى نفعا للامير كرلوس فلما اقر كل من البابا و الايمبراطور تيقن النجاح وبذل غاية جهده فى حمل الناس على اقرار كرلوس ملكا على اسبانيا فجمع الاشراف الذين كانوا حينئذ بالديوان واعلمهم بمرام كرلوس فاخذوا يتضجرون من ذلك لان فيه سلب مزاياهم واتفق الجميع على ان هذا حق حانة لا ينتقل الى غيرها الا انه كان بينهم وبينها ميثاق اكيد لا يمكنهم نقضه فعند ذلك قطع اكزيمينيس كلامهم وهم قائلا باعلا صوته انى لم اجمعكم لاشاوركم فى هذا الامر واعمل برأيكم وانما جمعتكم لاعلمكم به فما عليكم الا الطاعة والامتثال حيث ان ملككم كرلوس ارسل يطلب منكم الطاعة لا الاستشارة فيلزم ان ينشر ذلك فى يومنا هذا بمدينة مدريد ليعلم الخاص والعام ان كرلوس هو ملك قسطيلة وتقتدى بها غيرها من المدائن وصدرت الاوامر فى هذا الشان لسائر جهات المملكة واقر الخاص والعام بالملوكية لكرلوس وان كان كثير من الاشراف قد حصل له فى الباطن غم شديد من ذلك هذا فى مملكة قسطيلة واما فى مملكة اراغون فلم تنفذ اوامر كرلوس ولم يقر الاهالى على التملك لان اهلها

مطلب
اقرار كرلوس على الملوكية فى مملكة قسطيلة وكان ذلك بانفاس اكزيمينيس وهمته فى ٥ من شهر نيسان

سنة ١٥١٦

كانوا يتمتعون بمزايا اعظم من مزايا اهل قسطيلة لاسيما وقد كان الملك فرديننـد قبل موته جعل مطران سراغوسة نائبا على تلك المملكة وكان فى الصولة والمعارف دون اكزيمينيس وبهذا السبب مكث كرلوس غير معترف له بالملوكية فى اراغون حتى حضر بنفسه الى اسبانيا

مطلب شروع اكزيمينيس فى تقوية الشوكة الملوكية وتوسيع دائرة مزاياها

ومع ان شوكة اكزيمينيس كانت بمجرد النيابة فقط وكان لكبر سنه لا يطمع ان تدوم له الشوكة زمنا طويلا رأى انه بمنزلة الملك فى قسطيلة حيث انه نائب عنه فيها فاخذ يتصرف فى ادارته كانه ملك حقيقى فشرع فى مقاصد مهمة ليقوى بها الشوكة الملوكية ويوسع دائرة مزاياها واخذ يبذل غاية جهده فى تنجيز تلك المقاصد حتى كانه هو الملك وان ثمرة ذلك تعود عليه هذا وكانت مزايا الاشراف حينئذ فى قسطيلة قد جاوزت الحدود حتى لم يبق للملك سوى حقوق واهية هينة فرأى اكزيمينيس ان اثبات تلك المزايا للاشراف مع حرمان الملك منها ليس الا محض ظلم وعدوان فصمم على حرمانهم من بعضها ولا يخفى ان مثل هذا الامر خطر ولكن كان اكزيمينيس يرى ان مقتضيات الاحوال تعينه على تنجيزه وتكسبه نجاحا لم يسبق لاحد من ملوك قسطيلة وذلك انه بحرصه وتوفيره فى صرف ايرادات المملكة واموالها السنوية جمع من الاموال النقدية ما لا يمكن لاحد من ملوكهم ان يجمعها فى اى وقت كان وكان لحسن اخلاقه ورأفته واحسانه قد تسلطن حبه فى قلوب الاهالى حتى كان الاشراف لا يخشون منه فتنة او غدرا او غير ذلك مما يضر بهم فلم يلاحظوه فى حركاته وافعاله كما كانوا يلاحظون بعض ملوكهم

مطلب خفضه للاشراف واضعافه لشوكتهم

وبمجرد ما جعل اكزيمينيس نائبا على مملكة قسطيلة توهم جماعة من الاشراف ان الشوكة الملوكية ستضعف وتضمحل صولتها فاخذوا فى جمع اتباعهم وجندوا جنودهم وعادوا الى تطلب المزايا التى لم يمكنهم تحصيلها فى زمن فردينند لما انه كان ثابت الجنان قوى العزم والحزم ولكن كان لاكزيمينيس حينئذ جيش عظيم من العساكر المستأجرة فافسد عليهم امالهم وجعل سعيهم هباء منثورا من غير ان يحصل له فى ذلك ادنى مشقة لكنه

لم يرض

سنة ١٥١٦

لم يرض ان يكون قاسى القلب شديد الحقد على من كان سببا فى تلك الفتن ولم يذقهم من العذاب ما استوجبوه بجرمهم وانما طلب منهم المبايعة على الطاعة والانقياد وجعل الاعز منهم الاذل

مطلب
شروع اكزيمينس فى ترتيب جيوش من الاهالى

ومادام اكزيمينس لا يصيب بسهام صولته الامزايا بعض اناس مخصوصين وكانت افعاله تحسن بمقتضيات الاحوال بحيث يترآى انهما من قبيل العدل والانصاف وكان تشديده فيها مشوبا بنوع من الرفق ولين الجانب قل ان حصل للناس منها غم او تشك لكنه لما صمم على امر منهم يعود بالضرر على مزايا الاشراف الذاتية اغضب ذلك سائر طائفتهم وكانت وقتئذ قوية الشوكة والصولة وتلك المزية الذاتية هى فن العسكرية وذلك انه بموجب المذهب الالتزامى كان هذا الفن من خصوصيات الاشراف لا يشركهم فيه غيرهم فكان لا يسوغ لاحد من الرعاع ان يحمل السلاح ليبرز الى ميدان الحرب الا اذا كان من اتباع بارون او امير منهم واما الملك فكانت ايراداته قليلة بسبب ضيق دائرة مزاياه وحقوقه فكان يجب عليه مراعاتهم ليعينوه فى جميع مشروعاته وحروبه لانه كان لا غنى له عنهم عند الهجوم على اعدائه او المدافعة عن دوله اذ كان لا جيوش وقتئذ الا جيوش الاشراف وكانت هذه الجيوش لا تطيع لغير الاشراف امرا فكانت شوكة الملك بهذا السبب ضعيفة لا تستقيم بنفسها وكانت ايدى الاشراف فوق يد الملك فاراد اكزيمينس ان ينقذ الشوكة الملوكية من هذا التضييق الذى هو نوع من الاستعباد لكن رأى انه لم يعهد فى الحكومة الالتزامية ترتيب جيوش من العساكر المستأجرة مكثت ملازمة للدولة لا تنفك عنها ولا تسرح فعلم انه ان رتب جيوشا مستأجرة على سبيل الاستمرار والدوام يغضب عليه اهل قسطيلة لانهم كانوا اولى انفة وكان لهم تولع عظيم بالحرب فاستصوب ان يرتب جيوشا من الاهالى وامر ان يجعل فى كل مدينة من مدائن قسطيلة مقدار من الاهالى يشتغل بالتعليمات الحربية فى ايام المواسم والاعياد وسعى حتى جعل ماهيات ضباطهم على طرف الدولة ووعد العساكر تشجيعا لهم بان يعافيهم من جميع انواع

سنة ١٥١٦

الغرامات والجرائم المضروبة على الاهالى وابدى علة مقبولة مستحسنة في تجديد هؤلاء العساكر وهي ان اغارات اسلام الغرب على بلاد اسبانيا كانت لا تنقطع فقال لابد من وجود جيوش تلازم الدولة دائما وابدا حتى تكون اسبانيا في امن من اعدائها مع ان غرضه الحقيقي من ذلك هو ان يجعل للملك جيشا مخصوصا غير تابع للبارونين ليكون ذا قوة بينهم ويمنعهم عن تعدى الحدود في فعل ما يخل بالدولة والامن العام ولكن لم يخف هذا الغرض على الاشراف بل علموا كنه سره وادركوا حقيقة امره وايقنوا ان ذلك من طرق سياسته الدقيقة وحزمه المحكم وانه سينجح ويبلغ غرضه الا انه لم يمكنهم التصدى لمنعه عن انشاء هذا الامر لان العلة الظاهرة التي ابداها وهي منع المسلمين عن البلاد كانت مقبولة مستحسنة عند الاهالى لما انهم كانوا اهل حمية جاهلية لا يعرفون حقيقة الحال ولا يدركون العاقبة والمآل فداخل الاشراف اليأس ولم يمكنهم التصدى بانفسهم لرده عن مقصده خوفا ان ينسبهم الاهالى الى اغراض نفسانية اومصلحة خصوصية فلازموا الصمت والسكوت وان كانت افئدتهم تضطرم بنيران اليأس والخوف ولكنهم بذلوا سرا غاية جهدهم فى حث المدائن على ان لا تسلم فى تنجيز ذلك ولا تطيع لاكزيمينيس فيه امرا حيث انه مخالف لقوانينها ومزاياها فنجحوا بهذه الحيلة حيث عصت مدينة بورغوس ومدينة ولادوليده وعدة مدائن اخرى واخذ بعض الاشراف فى تعضيدها وتأييدها والمدافعة عنها وصار اهل المدن يخاطبون الملك كرلوس بالانذار والتحذير حتى داخله الفزع والرعب واضطربت قلوب ارباب مشورته الفلنكيين ولم يبق من اهل الدولة ثابت القلب سوى اكزيمينيس فانه لم يلحقه جزع ولا روع من ذلك بل اخذ يسلك مع العاصين طورا سبيل التحذير والتهديد وطورا سبيل المداهنة والمخادعة ويسلك تارة مسلك القسر والقوة وتارة مسلك اللين والملاطفة حتى ظفر باعدائه وقهر المدائن العاصية وارغم انوف طغاتها وجعل الاعز منهم الاذل ولم يزل ترتيب العساكر مدة حكم اكزيمينيس كل يوم فى ازدياد فلما مات اهمل هذا الامر وعاد الحال الى ما كان

سنة ١٥١٦

مطلب
شروع اكزيمنيس فى ان يرد للتاج الاقطاعات التى اقطعها الملوك الاولون للاشراف والاكابر

عليه اولا

فلما نجح اكزيمنيس فى اضعاف شوكة الاشراف التى كانت قد تجاوزت الحدود شرع فى تقليل املاكهم والتزاماتهم حيث كانت قد ازدادت حتى تعدت اطوارها وذلك انهم لما كانوا لا يغفلون ابدا عما فيه جلب مصلحة او مزية لهم امكنهم بسبب التعكيرات والفتن التى كانت سابقا لا تنفك عن الدولة ان يستفيدوا فائدة جليلة من ضعف شوكة الملوك واحتياجهم اليهم فتغلبوا بالغصب او بالحيلة على الاراضى الملوكية وجعلوها من جملة التزاماتهم حتى لم يبق للتاج الملوكى شئ من الاملاك والاراضى الواسعة التى كانت له فكانت املاك اغلب الاكابر والتزاماتهم كناية عن اراض اغتصبوها من الملوك لضعف شوكتهم او اقطاعات اقطعها لهم الملوك قهرا عنهم بسبب مقتضيات احوال الجأتهم الى ذلك ولكن لما كان يعسر البحث عن اصل هذه الاراضى المقطعة او المغصوبة لان مبدء استيلاء الاشراف عليها كان حين ظهور المذهب الالتزامى لاسيما والبحث عنها بالنظر الى اصلها يترتب عليه حرمان كل من الاشراف من بعض اراضيه رأى اكزيمنيس ان ذلك يؤدى الى فتن عامة جسيمة وتقلبات عظيمة لا يمكنه مع حزمه وعزمه وسداد رأيه ان يسد بابها ويقمع اربابها فاقتصر على ان يبحث عن اصل هذه الاراضى من عهد الملك فرديننند فبدأ بقطع المرتبات التى كان رتبها هذا الملك وتعلل بان من تبرع بها قد مات وانتقل الحق فيها لغيره فلا معنى لبقائها بعد موت من رتبها وبحث عقب ذلك ايضا عن نزع الاراضى الملوكية التى انتقلت الى الاشراف فى عهد الملك المذكور واسترجع بأمر واحد جميع الاراضى التى كان اقطعها لهم فرديننند فجرد بهذا الوجه عدة من صدور الاعيان عن املاكهم والتزاماتهم نعم وان كان فرديننند لم يبلغ فى السخا والكرم درجة كونه يعطى املاكا كبيرة واقطاعات عظيمة لكن لا يخفى انه وزوجته ايزابيلة لم يحظيا بكرسى مملكة قسطيلة الا بمساعدة حزب عظيم من الاشراف قام معهما فاضطر كل منهما الى مكافأة من اعانهما مكافأة عظيمة ولم يكن لهما شئ يتصرفان

سنة ١٥١٦

فيه لاجل هذا الغرض الا الاراضى الملوكية
فلما ازداد بذلك ايراد الملك وكان اكزيمينيس صاحب توفير غريب واقتصاد في المصاريف عجيب امكنه ان يقضى ديون الدولة التي تراكمت عليها في حكم فرديننند وارسل الى الملك كرلوس ببلاد الفلمنك مبالغ جسيمة جدا وصرف لضباط العساكر التي جددها ماهياتهم وانشأ ترسانات ومخازن ملأها من انواع الاسلحة والمهمات الحربية بما لم يسبق بمثله في اسبانيا وبالجملة فكانت جميع مصاريفه من اموال الدولة في محلها حيث لم يصرف منها الا في مصالح الدولة العامة حتى ان الاهالي استحسنوا ما فعله من نزع المرتبات والاراضي الملوكية ممن كانت بيده وعرفوا ان ذلك من باب العدل والانصاف لا التعسف والاجحاف

مطلب تصدى الاشراف لمنعه عن تنجيز مشروعاته

فلما اضرت افعاله بمزايا الاشراف وحقوقهم ورأوا ان مشروعاته في هذا الشأن دائما في الازدياد رأوا انه لا بد لهم من الاحتراس منه بكل وسيلة تقيهم منه ويكونون بها في امن وطمانينة فتعددت منهم العصب والفتن واتت شكاويهم من سائر الجهات حتى ان بعضهم صمم على فعل مقاصد مهولة عجيبة وما رب غريبة توقع الحكومة في الخطوب والكروب الا انهم قبل شروعهم في ذلك عينوا ثلاثة منهم للبحث عن القوانين التي استند اليها اكزيمينيس فيما فعله وعما سوغ له تلك الاشياء التي لم يفعلها احد قبله وهؤلاء الثلاثة هم اميرال قسطيلة ودوق انفنتادو وقونتة بنيونطة فلما ذهبوا الى اكزيمينيس لم يقابلهم بالبشاشة والطلاقة ولم يجبهم عن سؤالهم الا بكونه ابرز لهم وصية الملك فرديننند بجعله نائبا على مملكة قسطيلة وابرز لهم ايضا فرمان خليفته كرلوس الذي اقره على النيابة فاخذوا يفسدون عليه هذين الامرين ويبرهنون على انهما ليسا مشتملين على شروط الصحة وهو يبرهن لهم على صحتها فلما اشتد الجدال بينهم هم اكزيمينيس وهم معه حتى اتى بهم الى فرجة فاذا هم ينظرون الى جيش عظيم باسلحته ومقدار جم من المدافع فقال لهم اكزيمينيس باعلى صوته هذه هي مستندى واعتمادى بها احكم قسطيلة حتى يأتي

سنة ١٥١٦

ملكها كرلوس فاسلمه عنانها فعند سماعهم هذا القول المشوب بالجرآءة والانفة
حق عليهم الصمت وتوجهوا وهم متعجبون منه وعلموا انه لا ينفعهم العصيان
والخروج على رجل تبصر فى العواقب وأهب مايدافع به عن نفسه وينجز
مقاصده ولم يكن فى وسعهم ان يحزبوا عليه عصبة عامة لمعارضته فى مشروعاته
ولذلك لم يحصل فى مدته شئ مما يوجب خلل قسطيلة ويقلل راحتها ماعدا
بعض فتن صغيرة جزئية نشأت عن بعض الاشراف لما قام بنفوسهم من الغيظ

مطلب
تحزب وزرآء الفلمنك على اكزيمينيس

وكان هنا الذمن غير الاشراف من ينازع اكزيمينيس ويمنعه عن تنفيذ
مقاصده وذلك ان ارباب مشورة الملك كرلوس ببلاد الفلمنك كان لهم
عند هذا الملك كلمة نافذة وقول غير مردود فارادوا أن يجعلوا ادارة اسبانيا
كادارة مملكة البلاد الواطية لاجل اضعاف شوكة اكزيمينيس لانهم كانوا
يغارون منه لمعارفه وفضله لاسيما وكان لايبحث عما يوجب بينه وبينهم المحبة
والمودة بل كان مستقلا عن غيره فى جميع اموره فكان عندهم بمنزلة خصم يمكن
ان يضربهم لا كوزير يبذل جهده فى علوشان ملكهم وتقوية شوكته فكانت
كل شكوى قدمت فى اكزيمينيس تقبل فى ديوان مدينة بروسيله ببلاد
الفلمنك من غير توقف وبذلك حصلت عدة موانع لاثمرة لها الا كونها ضيقت
على اكزيمينيس فى مشروعاته ولكن لما لم يمكن لوزرآ الفلمنك ان يخلعوه عن

مطلب
تولية الملك كرلوس لاثنين يشركان اكزيمينيس فى نيابة قسطيلة

النيابة بدون خوف على انفسهم اواعراضهم بحثوا عن اضعاف شوكته بجعل
اناس معه فى نيابة قسطيلة وذلك لانهم وجدوا ان ادريان دوتر بقطه
الذى ارسل نائبا على قسطيلة مع اكزيمينيس لا يبلغ شأوه فى الحزم
والعزم حتى يمكنه ان يرده عما تتعلق آماله بتنجيزه فحملوا الملك كرلوس على
ان يولى معه فى نيابة قسطيلة الشهير لاشو احدامرآ فلندره وكان
بمكان من وفور العقل وكمال الفطنة والامير امرستوف احد اشراف
الفلمنك وكان شهيرا بالعزم والثبات فلم يخف على اكزيمينيس قصد
الفلمنكيين من تولية هذين الاميرين معه ومع ذلك لما وصلا اليه تلقاهما مع
ما يليق بمنصبهما واظهر لهما من الاحترام والتبجيل مالم يكن فى سريرته ولكن

لما ارادا ان يدققا فى شأن الادارة ويعرفا اصولها وفروعها تكبر سنة ١٥١٦
عليهما وصار يملهما بما عامل به ادريان وقام وحده بادارة مصالح المملكة
هذا واهل اسبانيا هم اشد الملل كراهة لحكومة الغربا عليهم فلا يطيقون
امارة احد اجنبى فاستحسنوا من اكزيمينيس ما كان يفعله لاجل بقائه
على شوكته فى منصبه حتى ان الاشراف لهذا السبب نسوا ما اساءهم به
اكزيمينيس واحبوا ان تبقى النيابة بيده لانه من ابناء وطنهم وبقا الشوكة
الملوكية بيد احد من بلدهم يخشون صولته اوجوره احب اليهم من جعلها بين
ايدى اناس غربا لا يألفونهم بالطبع ولا يطيقون حكمهم فيهم

وكان اكزيمينيس حينئذ قد ثقل حمله وتراكمت عليه الخطوب لما انه مع
اتساع دائرة مقاصده السياسية الداخلية التى كان وزراء الفلمنك بحيلهم
ودسائسهم يعكرون عليه فى تنجيزها كان مشغولا بحربين عظيمين مع البلاد
الاجنبية احدهما كان فى شأن مملكة نوار حيث كان اغار عليها عن قريب
الملك حنادلبرطه واراد نزعها من حكومة اسبانيا وذلك ان المملكة
المذكورة كانت لهذا الملك فغصبها منه فرديننَد فلما مات فرديننَد ظن
حنادلبرطه انه يمكنه استرجاعها الاسيما وكان ظاهر الاحوال يغريه ويزين
له آماله حيث كان كرلوس لم يحضر الى اسبانيا وكان اشرافها فى فشل
وشقاق فظن بذلك حنادلبرطه انه ينجح فى مشروعه ويأخذ بلاده من غير
مشقة ولكن تيقظ اكزيمينيس وفطانته افسدا عليه ما كان دبره فى هذا الشان
حتى ذهب سعيه هباء منثورا فكان اكزيمينيس بفهمه الثاقب ورايه
الصائب قد ابصر العاقبة وادرك انه يخشى على هذه المملكة فكان اول شئ
بدأ به حكمه هو انه ارسل اليها جيشا عظيما يقوم بحفظها وضبطها فبينما كان
الملك حنادلبرطه مشغولا مع بعض عساكر من جيشه بحصار مدينة
سنجانپيدو پورط اذ هجم القرم الخبير ويلالواه على البعض الاخر من هذا
الجيش وبدد شمله فعند ذلك اخذ الملك حنادلبرطه فى الفرار فكانت هذه
الواقعة آخر الحرب المذكور لكن لما كانت مملكة نوار وقتئذ كثيرة المداين

سنة ١٥١٦ والقلاع الغير المحصنة بحيث لايمكن ان تدافع عن نفسها ان اغار عليها جيش ذو انتظام وضبط ودراية بالفنون العسكرية بل ربما كانت هذه القلاع تضر ولا تنفع بان يتخذها الاعداء ملجأ يأوون اليه امر اكزيمينيس الذى كانت لا تفتر له همة بهدمها كلها ماعدا مدينة بمپلونه فانه ابقاها وعزم على ان يحصنها تحصينا جيدا ولولا هذا الاحتراس العظيم لانتزعت نوار من بلاد اسبانيا لان جيوش الفرنساوية اغاروا عليها بعد ذلك المرار العديدة واخذوها بدون مشقة الا انه كان يحصل لهم بعد الاستيلاء عليها جميع المشاق التى تحصل للجيوش فى ارض اعدائها واما اهل اسبانيا فكانوا يأخذون من الاقاليم الاسبانيولية القريبة منهم جميع ما يحتاجون اليه من العساكر وينقضون عليهم كالعقبان فكانوا اذا اشتد الحال بهم لا يجدون قلعة يتحصنون بها ويأوون اليها فيتركون البلاد فى اقرب مدة كما فتحوها ويركنون الى الفرار

واما الحرب الثانى فكان ببلاد افريقة مع الشهير هوروق برروس اى ذى اللحية الصفرا وكان من ارباب الصيال فى البحر فصار بشجاعته ملكا على بلاد الجزائر وتونس ولكن لم ينجح اكزيمينيس فى هذا الحرب كما نجح فى الاول وذلك ان سر عسكر الجيش الاسبانيولى سلك مسلكا رديئا وكذلك الضباط خاطروا بانفسهم من غير تبصر ولا حزم فانتصر عليهم هوروق بدون مشقة وهلك مقدار جسيم من عساكر اسبانيا ومن بقى منهم رجع يجر ذيل الخزى والعار ومع ذلك لم يتغير حال اكزيمينيس من هذه الهزيمة التى لم يسبق له غيرها وقتئذ بل بقى ثابت الجنان وازدادت بهجته ورونقه وما كان احد يظن فيه ذلك لانه كان اذا شرع فى مقصد لا يهنأ له عيش الا بعد تتميمه وتنجيزه

وقد نسيت هذه المصيبة فى اقرب زمن ولكن حصل بعدها بقليل امر اوقع اكزيمينيس فى الحيرة واغضب سائر اهالى اسبانيا وهو قبح سلوك الفلمنكيين ارباب ديوان كرلوس وذلك لان الامير شيوره نديم الملك كرلوس واعظم وزرائه كان مع فضله ومعارفه له خصلة ذميمة وهى طمعه

سنة ١٥١٦

ودناءة نفسه فلما تولى كرلوس ملكا على اسبانيا امكن لهذا الاميران يشفى غليل طمعه وذلك ان كرلوس مادام ببلاد الفلمنك كان كل من يطلب منصبا وانعاما يذهب اليها فكان الناس يدخلونها افواجا افواجا الا انهم رأوا انه لا يمكنهم نيل مرامهم الا بواسطة الامير شيوره فاخذوا يتوسلون اليه ويستميلونه بالرشوة الى اعانتهم على قضاء اوطارهم فانتقلت كنوز اسبانيا وخزائنها الى البلاد الواطية وصارت المناصب وغيرها تباع فى ديوان كرلوس وربما كان المنصب وما اشبهه يطلبه عدة اناس فيتزايدون فيه بالرشوة كانه بضاعة فى سوق نودى عليها بالمزاد ولا يثبت الا لمن يشتريه باغلى الاثمان واقتدى سائر ارباب الدولة بالامير شيوره فى هذا الامر الموجب للعار والفضيحة وجعلوا كلهم بضاعة يتجرون فيها على رؤوس الاشهاد فاغتاظ اهل اسبانيا من ذلك حيث رأوا ان اعظم مناصب بلادهم كان يبيعها اناس غرباء من الفلمنك لا يرغبون فى سعادة اسبانيا ولا فى فخارها ولما كان اكزيمينيس بطبعه يمج مثل هذه الامور الدنيئة وكانت نفسه عزيزة شريفة تجل عن مثل هذه الرذائل التى تدنس المرء وتزرى بالعرض اخذ يتشكى من قبح سلوك الفلمنكيين واخبر الملك بذلك حيث كتب له ان اهل اسبانيا اصحاب حرية وانفة لا يطيقون قبح سلوك الفلمنكيين وقد ازداد غيظهم واشتد غضبهم حتى ضاقت عليهم الارض بما رحبت وان اسبانيا صارت فى حالة تستدعى حضوره اليها بدون تراخ ولا مهلة لكى يزيل بنفسه غمامات الكروب وضبابات المخاوف والخطوب التى انعقدت وتراكمت على المملكة

مطلب
حث اكزيمينيس لكرلوس على الحضور الى اسبانيا

وكان كرلوس يعرف انه قد تأخر زمنا طويلا عن الذهاب الى اسبانيا ليأخذ بعنان ممالكه ولكن كان ثم دواع قوية تمنعه عن ذلك مدة اخرى ولا تاذن له بالارتحال من مملكة البلاد الواطية وذلك ان الحرب الذى انعقد فى بلاد ايطاليا بسبب عصبة كمبريه كان لم يزل باقيا على حاله لم تخمد نيرانه وان كانت جيوش الاحزاب فى هذا الحرب قد سلكت طرقا مختلفة وحصل بينهما الفشل والشقاق حيث تعاهدت مملكة فرانسا مع جمهورية

البنادقة

سنة ١٥١٦

البنادقة بعد أن كانت من جملة المتعصبين عليها وكان الايمبراطور مكسيمليان والملك فرديننند منذ بعض سنوات يحاربان مع الفرنساوية بعد أن كانوا فى مبدء الامر متعاهدين معهما حتى ان الجيوش الفرنساوية هى التى نصرتهما واثبتت لعصبتهما النجاح والظفر فكان فرديننند ترك لحفيده كرلوس ممالك عظيمة ترك له ايضا هذا الحرب الكبير والظاهر ان الايمبراطور مكسيمليان كان يحرض كرلوس على ان لايدع محاربة الفرنساوية لما انه كان شديد التولع بالمشروعات الجديدة ولكن كانت تجارات الفلمنك قد تأسست مدة هذا الحرب على مابقى من آثار تجارة اهل البنادقة وصارت تنمو وتزداد فابوا ان يحاربوا الفرنساوية خوفا من ان يجر ذلك الى اضرارهم وتعطيل تجاراتهم وكان الامير شيوره ذا فراسة عظيمة ودراية كبيرة فى معرفة مصلحة بلاده ولكن كان طمعه فى الغالب يلهيه عنها الا انه فى تلك المرة لم يتبع شهوات نفسه بل اظهر ان الصلح بين الفلمنك و فرانسا ضرورى لابد منه وان الحرب يضر ببلاد الفلمنك كل الضرر فكتبت مراسلات الصلح الى فرنسيس الاول ملك فرانسا وكان حينئذ لاحليف له يعينه حتى يعتمد عليه ويامن على فتوحاته الجديدة التى كان استولى عليها فى ايطاليا فحصل له السرور والفرح باعراض هذا الصلح عليه وكان وكيل كرلوس الامير شيوره المذكور ووكيل فرنسيس الامير بوازى وكان كل منهما ناظرا على مملكة فى صغره فتربى كرلوس تحت ادارة شيوره وفرنسيس تحت ادارة بوازى وكان كل من هذين الوزيرين يرغب فى الصلح لما انهما كانا يعلمان ان معاهدة الملكين معا هى اسعد حادثة لهما ولرعاياهما فتذاكر الوكيلان فى شان ذلك بمدينة نوايون وبتا هذا الامر فى مدة يسيرة وكان الغرض من ذلك عقد مشارطة بين الملكين بها تكون معاهدتهما معا ومدافعتهما عن بعضهما عند الضرورة بحيث لا يتخلى احدهما عن الاخر وكان من جملة الشروط الاصلية زواج كرلوس للاميرة لويزة بنت فرنسيس الاول ولم يكن له سواها وكان عمرها وقتئذ سنة واحدة وكان

مطلب
عقد الصلح بين كرلوس وملك فرانسا فى (١٣) شهر اب

سنة ١٥١٦

فرنسيس قبل هذه المشارطة ينازع كرلوس فى مملكة نابلى فتركها له حينئذ فى نظير شوار بنته وجهازها ولكن حيث كانت هذه المملكة بيد ملك اسبانيا جعل على كرلوس ان يدفع لملك فرانسا مائة الف ريال فى كل سنة حتى يحصل عقد النكاح وبعد ذلك يدفع خمسين الف ريال مادامت الاميرة لم تلد من كرلوس وانحط الراى ايضا على انه حين وصول كرلوس الى اسبانيا يذهب اليه ورثة الملك حنا دلبرطة ليطلبوا حقهم فى مملكة نوار فان لم يرضهم كرلوس وجب على فرنسيس ان يساعدهم بجميع طاقته فنشأ عن هذه المعاهدة اتحاد كرلوس و فرنسيس وكان لها ثمرة اخرى عظيمة وهى ان مكسمليان رأى انه لا يمكنه مقاومة مملكة فرانسا وجمهورية البنادقة معا فاضطر الى عقد الصلح معهما وابطل الحرب الطويل المهول الذى ترتب على عصبة كمبريه وبالجملة فقد ترتب على معاهدة كرلوس و فرنسيس ان بلاد اوروبا بتمامها مكثت بعض سنوات وهى فى الراحة والاطمئنان وان كان قد حصل فيما بعد بين هذين الملكين عداوة كبيرة نشأت عن طمعهما فعكرا بلاد اوروبا واوقعا فيها الفشل والشقاق مدة حكمهما

مطلب
منع اهل الفلمنك كرلوس عن السفر الى بلاد اسبانيا

ثم انه بمشارطة مدينة نوايون فتحت سبل اسبانيا لكرلوس وصار لا يخشى شيأ اذا سافر اليها ولكن كان اهل الفلمنك لا يحبون منه أن يجعل هذا السفر حيث يعلمون انه يعود عليهم بالخسارة والضرر وذلك ان كرلوس مدة اقامته ببلاد الفلمنك كان يصرف ايراده وسنوياته وكانت فائدة تبذيره تعود على ندمائه الفلمنكيين من غير ان يشركهم فيها احد لان بلادهم كانت تحت الحكومة وجميع الانعامات الملوكية كانت توزع بايديهم وشتان بين حالهم فى تلك الصورة وما لهم فى صورة ما اذا سافر كرلوس الى اسبانيا لانه من الجائز ان يحرموا من تلك الفوائد الجليلة وذلك انه عند حلوله باسبانيا ربما اعطى لاهلها عنان ادارة بلادهم فتصير مملكة البلاد الواطية معتبرة كاقليم تابع لبلاد اسبانيا وبعد ان كان اهل الفلمنك يتصرفون كيف شاؤا

فى الانعامات

سنة ١٥١٦

مطلب
خوف الفلمنكيين من اكزيمينيس

فى الانعامات الملوكية ويعطونها لمن ارادوا ويضطرون الى طلبها من ايدى اهل اسبانيا وما كان يخشاه الامير شيوره زيادة على ذلك هو مقابلة اكزيمينيس للملك لان هذا الحبر باستقامته وشرف نفسه كان له فى عقول الناس تأثير قوى فكان من الممكن انه بفضله ومعارفه وجلالته وكبر سنه يأخذ بعقل الملك كرلوس لما انه كان شابا قابلا لان تؤثر فيه النصائح العظيمة وتتمكن منه شعار النفوس الكريمة التى يبديها له اكزيمينيس واذا عرف كرلوس فضائله وخصاله الحميدة قل وثوقه باهل الفلمنك لانه يرى ان طباعهم مباينة بالكلية لطباع هذا الحبر الصادق ورأوا رأيا آخر وهو ان كرلوس ان ترك لوزراء الفلمنك ما كان لهم فى مصالحه من الحل والعقد فان اكزيمينيس يغضب من ذلك ويراه من المعرة للملة الاسبانيولية التى هو منها فيبذل جهده فى المدافعة عن حقوق بلاده كما فعل ذلك لاثبات المزايا والحقوق الملوكية فكل هذه الاسباب دعت وزراء الفلمنك الى بذل جهدهم فى منع كرلوس عن السفر الى بلاد اسبانيا وحيث كان هذا الملك امنة سريع الميل لا تجربة له حتى يعرف قلوب الرجال لا سيما وكان يحب الوطن الذى ولد به ابقى السفر الى وقت آخر ومكث بمملكة البلاد الواطية سنة كاملة بعد مشارطة مدينة نوايون

مطلب
سفر كرلوس الى اسبانيا

ولكن كان اكزيمينيس دائما يرسل الى كرلوس ويلح عليه فى الحضور الى اسبانيا وكان جده مكسيمليان يحثه على السفر حين اظهر اهل اسبانيا القلق من غيبته عنهم فعزم كرلوس على السفر ولم يرجع عن عزمه ولما سافر صحبه الوزير شيوره وعدة من اشراف الفلمنك وبيكزاداتهاوهم فى ابهة وروثق عظيم وانما صحبوه لرغبتهم فى مشاهدة جلالته وقدره فى غير بلادهم وليكون لهم حظ فى فيض احسانه وذممه فركب السفينة ومعه هؤلاء المذكورون وبعد أن جاب مسافة كابد فيها اهوالا واخطارا رسا على مدينة ويلاويسيوزه فى اقليم الاستورى مع ابهج موكب واعظم احتفال وسر لحضوره سائر الناس لانهم كانوا ينتظرونه مع مزيد التشوق كما هو شان ملة

فى (١٣) من شهر ايلول سنة ١٥١٧

مكثت زمنا طويلا تنتظر ملكا جديدا ترغب فى الوقوف على حقيقته واخذ سنة ١٥١٧
اشراف اسبانيا يهرعون اليه من كل فج عميق واظهروا من بهاء الرونق
والزينة ما لا يمكن لاهل الفلمنك ان ينسجوا على منواله
وكان اكزيمينيس مسرورا بحضور الملك ويعد ذلك من اعظم ما تمنته
اسبانيا من الامور السعيدة فاخذ يهرول بين يديه بقدر ما ياذن له به هرمه
وضعف بنيته لان هذا الرجل العجيب مدة نيابته على المملكة كان لم يزل على
تقشفه وزهده الخارج عن الحد وكان مع ذلك له مواظبة عظيمة على الاشغال
الصعبة ولا شك ان هذا يهدم اعظم القوى ويضعف صحة الاجسام فكان
يعتكف كل يوم عدة ساعات للعبادة ويؤدى الصلاة والادعية على الوجه الاتم
ثم يشتغل بالمطالعة وقرآءة الكتب هذا وكان لا يتخلف اصلا عن حضور المشورة
ويقراء جميع الاوراق والعريضات التى تقدم له وعلى المراسلات والاعلانات
اللازمة وينجز بنفسه سائر مصالح الدولة مدنية كانت او عسكرية او قسيسية
فجميع اوقاته كانت لا تخلو عن اشغال مهمة جسيمة وكان اذا اراد ان يريح
نفسه من الشغل يمكث مع الرهبان وعلماء اللاهوت ويناظرهم فى مسائل
مشكلة من علوم اللاهوت التدريسية فبعيشته على هذا الوجه وطعنه
فى السن صارت صحته كل يوم فى التناقص والهبوط فسافر لمقابلة الملك وهو
على هذه الحالة فاصيب فى مدينة بوزيكيلوس ببلاد اسبانيا بمرض
شديد وظهرت عليه علامات مخوفة عجيبة حتى زعم من كانوا معه فى هذا السفر
انهم رأوا فيه علامات السم الا انهم لم يعرفوا من فعل ذلك معه هل هم اشراف
اسبانيا لينتقموا منه بما فعله معهم او هم وزرآء الفلمنك لغيرتهم منه
فلما ثقل على اكزيمينيس المرض ولم يمكنه السفر مكث بمدينة بوزيكيلوس
المذكورة وكتب الى كرلوس ما كان قائما بنفسه من غير ان يخفى منه شيأ
كما هو دأبه فنصحه بان يطرد جميع الامرآء الفلمنكيين الذين كانوا معه لان
افعالهم السابقة اغضبت اهل اسبانيا واذا استمروا معه ولم يطردهم يغضب
منه الاسبانيوليون ويبغضونه ودعاه ان يمن عليه بمقابلته واجتماعه به

سنة ١٥١٧

ليفهم جهة حالة الملة الاسبانيولية ويوجهه على طباعها فتحزب امرآء الفلمنك وامرآء اسبانيا وبذلوا جهدهم فى منع الملك عن مقابلة اكزيمينيس حتى انهم بعدان انتقل اكزيمينيس الى مدينة ارانده صاروا يبذلون جميع وسعهم ويحاولون كل المحاولة فى ابعاد الملك عن هذه المدينة حتى لا يجتمع به وبسعيهم بطلت جميع المقاصد التى اوصى بها اكزيمينيس واخذ كل من امرآء اسبانيا والفلمنك يفعلون مايفهم اكزيمينيس والملة الاسبانيولية ان شوكته قريبة السقوط ولم يبق على فقده اياها بالكلية الا اليسير واهتموا فى اذاعة هذا الخبر بين الخاص والعام فى اسبانيا حتى انهم فى الاشياء الواهية التى يستوى وجودها وعدمها عند اكزيمينيس كانوا يبذلون جهدهم فى فعل ما يظنون انه يغضبه ويوجب غمه وحزنه ومع انه كان من عادته التجلد على تحمل الاساءة والاذى حصل له فى تلك المرة كل الجزع والضجر ولم يمكنه تحمل هذه المعاملة السيئة لانه بسبب نصحه فى الخدمة واستقامته كان يؤمل من كرلوس ان يكافئه باحسن من ذلك حيث انه احيى له مملكته مدة حكمه واصلحها حتى صارت فى حالة زاهية زاهرة لم تحظ بها قبل ذلك وصار للتاج الملوكى شوكة عظيمة متينة لم يثبت مثلها لغيره ممن حكم قبله من الملوك فلم يقدر اكزيمينيس فى عدة احوال على ان يخفى غضبه وغمه ويكتم ما يوجب تشكيه وهمه واظهر التاسف على سوء حظ وطنه وبلاده واخبر بانه سيحصل لها مصائب شتى بسبب سفه الغرباء وظلمهم وجهلهم فبينما كان متحيرا فى امره بسبب هذه الامور اذ جاءه كتاب من الملك كرلوس ليس فيه من الاحترام ما يكفى فى الدلالة على اهتمام المرسل بالمرسل اليه لبرودة عبارته وفيه اذن له بالذهاب الى ابرشيته ليقضى فيها مع الراحة ما بقى من عمره الذى لم يسترح فيه لحظة واحدة فحين وصل هذا الكتاب الى اكزيمينيس وقرأه ازداد غما واشتد المه وكانت عزة نفسه تقضى بانه لا يعيش بعد هذا الخذلان وربما اضر به ما كان قائما بنفسه من انه سيحصل لوطنه مصائب شتى وبالجملة فلم يتحمل الغم الذى قام بنفسه من هذه الفكرة فمات بعدان قرأ كتاب الملك ببعض ساعات واذا نظر

مطلب
خيانة كرلوس

مطلب
موت اكزيمينيس فى ٨ من شهر تشرين الثانى

سنة ١٥١٧

الانسان الى كثرة مشروعات هذا الوزير وعظمها ونجاحها مع انه لم يقم بالنيابة الاعشرين شهرا شهد بانه قد استوجب المدح الجليل والثناء الجميل لفراسته فى المشورات وفطنته وحزمه فى المشروعات وشدة عزمه فى تنجيزها وشهرته بالقريحة والذهن والتقوى وجميع تلك الخصال الحميدة مرسومة الى الآن فى اذهان اهل اسبانيا فتراهم يثنون عليه فى كل وقت وحين وقد اشتهر فى عصره من بين الوزرآء بالتصوف حتى انه بمفرده هو الذى شرّفه ابناء وطنه باسم الصوفى وقال عليه الاهالى مدة ادارته للمملكة ان الله قد اكرمه بظهور خوارق العادات على يديه

مطلب
عقد مشورة القورطس بمدينة ولادوليدة سنة ١٥١٨

وبعد موت اكزيمنيس بمدة قليلة دخل كرلوس فى محفل عظيم بمدينة ولادوليدة وجمع فيها مشورة وكلاء مملكة قسطيلة ومع انه كان ملقبا بالملك لم تقره تلك المشورة على ذلك وكان اهل اسبانيا لم يزالوا يرون ان التاج الملوكى انما هو حق امه حانه فقط اذ لم يوجد فى التاريخ ان ابنا بويع بالمملكة فى حياة ابيه او امه ولهذا السبب لم تقره مشورة وكلاء المملكة على ذلك مراعاة للرسوم القديمة واجتنابا لاحداث امور جديدة كما هى عادة المشورات الاهلية من انها لا تعدل عن الرسوم الجارية ولا تميل الى ابتداع حادثة او بدعة ولكن حين حضر اليهم كرلوس وصار وزرآؤه يبذلون غاية جهدهم من التهديد والتحيل والحذق سلمت مشورة وكلاء المملكة فى هذا

مطلب
مبايعة كرلوس بالملوكية فى قسطيلة

الامر ورضيت بان يكون ملكا مع امه بشرط ان يوضع اسمه بعد اسم امه فى جميع ما يتعلق بالمصالح العامة ووقع الاتفاق ايضا على انه ان برئت حانة من اختلال عقلها وجنونها فلتقطع تنحصر الملوكية فيها من غير ان يشركها احد وانحط الرأى ايضا فى تلك المشورة على ان يعطى للملك كرلوس على سبيل التبرع ستمائة الف من الدوقات يأخذها بالتقسيط على ثلاث سنوات وهو مبلغ جسيم لم يعط مثله لاحد من ملوك قسطيلة

مطلب
غم اهل قسطيلة

ولما طلب كرلوس ذلك المبلغ من ارباب مشورة وكلاء المملكة اجابوه من غير توقف الا ان ذلك كان اول ما فعله بعد تقريره فى الملوكية فنشأ عنه غم عظيم

سنة ١٥١٨ فى سائر اقطار المملكة وكان الوزير شيوره مودب كرلوس قد صار عنده بمنزلة ابيه حتى كان لا يتكلم ولا يحكم بشئ الا بموجب ما يقتضيه رأى هذا الوزير وكان دائما لا ينفك عنه امراء الفلمنك بحيث كان لا يمكن لاحد من اهل اسبانيا ان يدنو منه الا باذنهم ولا يكلمه الا بحضرتهم ولما كان لا يعرف من اللغة الاسبانيولية ما يكفى كان اذا سئل عن شئ يجيب بجواب قصير جدا وفى الغالب لا يحسن العبارة فى الافصاح عن مقصده فظن معظم الاسبانيوليين انه بطئ الفهم قاصر الذهن وزعم بعضهم ان بينه وبين امه شبها عظيما حتى اخذ الناس يقولون فيما بينهم انه لا يصلح لادارة المملكة اكثر منها واما الذين وقفوا على حقيقة طبعه فلم يأخذوا بظواهر حاله بل عرفوا ان له معارف غزيرة وفطنة كبيرة الا انهم اتفقوا كغيرهم على انه يميل لاهل الفلمنك لكونهم ابناء وطنه لاسيما وندماؤه منهم ولكن لسوء حظ كرلوس كان جميع من معه من الامراء الفلمنكيين غير جديرين بوثوقه بهم وركونه اليهم لانهم كانوا لا يحبونه محبة صادقة ولا يسلكون مسلك النصح فى مصالحه بل كان مطمح نظرهم جمع الذهب وكانوا يخشون ان يدرك كرلوس حقيقة حالهم او يغضب منهم الاسبانيوليون فيكون ذلك سببا فى حرمانهم من شوكتهم ونفوذ كلمتهم فى اسبانيا فكانوا اذا وجدوا فرصة يتعدون الحدود فى السلب واكل اموال الناس لانهم كانوا لا يطمعون ان يبقوا زمنا طويلا على صولتهم ونفوذ كلمتهم فكانت جميع المناصب الرفيعة والوظائف الشريفة والانعامات لا يحظى بها الا اهل الفلمنك او من يشتريها منهم على رؤوس الاشهاد وكان شيوره وزوجته والامير سواج الذى لم يصب كرلوس فى توليته قضايبر قسطيلة بعد موت اكزيمينيس يتسابقون الى كل ما كان فيه ازدياد هذا الاختلاس واتساع دائرة بيع المناصب وما اشبهها ولم يذكر هذه الحوادث المورخون الاسبانيوليون دون غيرهم حتى يتوهم عدم صحتها او تعتقد من مبالغات المورخين بل ذكرها المورخون الاجانب ففى مكاتبات المولف بطرس مارتيرانسكوريا الذى كان وقتئذ بديوان اسبانيا مبالغات

سنة ١٥١٨

زائدة فى وصف شره الفلمنكين وطمعهم يستبعدها العقل كل الاستبعاد مع انه لم يكن ثم سبب يحمل هذا المولف على ارتكاب الكذب فى مراسلاته وتدوين اشياء ليس لها وجود وقد قال المولف المذكور انه فى ظرف عشرة اشهر نقل من اسبانيا الى مملكة البلاد الواطية من الدوقات (صنف معاملة) مليون ومائة الف فاكثر وهنالك حادثة اخرى اغضبت اهل اسبانيا اكثر من جميع تلك المظالم وهى تقليد غليوم دوكرواى وهو من اقارب شيوره منصب المطرانية على طليطلة مع انه كان شابا لم يبلغ السن الذى عينته القوانين القسيسية لمن يتولى هذا المنصب فظهر لهم ان ترقية هذا الامير الغريب الى هذا المنصب الذى هو اعلا المناصب الدينية بمملكتهم واعظم مناصب بلادهم على الاطلاق ايرادا وثروة محض ظلم واجحاف بل وفيه ترذيل للملة الاسبانيولية فحملت المصلحة اوالبغضة كلا من القسيسين وامراء اللايك على المعارضة فى هذا الشان

مطلب
جمع كرلوس مشورة وكلاء مملكة اراغون

ثم سافر كرلوس من مملكة قسطيلة وترك اهلها فى غم شديد يتشكون من ادارته وتوجه الى مدينة سراغوسة ليجمع فيها مشورة وكلاء المملكة فاجتمع فى سفره باخيه فرديننذ وكان يريد أن يبعده عن ممالك اسبانيا بوجه حسن فتعلل بان جدهما مكسيليان متشوق الى رؤيته ومتشوف الى مقابلته وارسله الى بلاد المانيا ولا ريب ان هذا احتراس عظيم ناشئ عن الحزم وسداد الرأى لانه لولا هذا الاحتراس لفقد كرلوس جميع ممالك اسبانيا لانه بعد سفر الامير فرديننذ بقليل حصلت ببلاد اسبانيا فتن وانقلابات مهولة بحيث لم يشك احد فى انه لو كان فرديننذ موجودا اذ ذاك لاعطاه الاسبانيوليون تاج مملكتهم لانهم كانوا يحبونه حبا جما ويميلون اليه كل الميل وكان فرديننذ طماعا بحيث لا تأذن له نفسه مع اشارة خاصته عليه ان يعرض عن التاج اذا عرض عليه

مطلب
كون توقف الاراغونيين فى هذا الشان وعصيانهم اكثر من القسطيليين

وكان الاراغونيون الى ذلك الوقت لم يقروا كرلوس ملكا عليهم ولم تجتمع مشورة وكلاء المملكة بامره ولا باسمه بل اجتمعت باسم الجو ستورا

سنة ١٥١٨ (اى القاضى الاعظم) لان هذا الحق كان من خصوصياته ومزاياه مدة خلو الكرسى الملوكى عمن يشغله ولما انعقدت هذه المشورة واجتمع اربابها وعرض كرلوس عليهم ان يبايعوه على الملوكية انكروا عليه ذلك ونازعوه اكثر من ارباب مشورة وكلاء قسطيلة لكنهم بعد مدة طويلة فى المنازعة وعدم التسليم نال منهم ذلك على ان تشركه فيه امه حانة وكان ذلك منهم بعد أن اخذوا عليه موثقا على رؤوس الاشهاد انه لا يهتك حرمة الاراغونيين ولا يتعدى على ادنى شئ من حقوقهم ومزاياهم كما هى عادتهم مع كل من تولى عليهم وقد توقفوا ايضا غاية التوقف حين طلب منهم كرلوس مبلغا على سبيل التبرع كما طلب من مملكة قسطيلة فانه لما طلب منهم ذلك مكث ارباب مشورة وكلاء المملكة عدة اشهر ونفوسهم لا تسمح باعطائه هذا المبلغ قائلين نعده لنفع المملكة ونصرفه فى ديون التاج فقضوا منه تلك الديون التى كانت قد تنوسيت منذ زمن طويل بحيث لم يبق منه للملك كرلوس الا مبلغ قليل ولما شاهد اهل اراغون ما حصل فى قسطيلة صاروا فى حذر عظيم واحترسوا بقدر ما يمكنهم وجعلوا يدافعون عن بعضهم لما رأوا ان المحافظة على حقوق ابناء وطنهم وما يدعونه من المزايا والخصوصيات مهما كانت اولى من كونهم يسلمون للغرباء فى امور مملكتهم فيسلبون اموال وطنهم كما فعلوا بمملكة قسطيلة

وفى اثناء انعقاد المشورة بمدينة سراغوسة اتت رسل الملك فرنسيس الاول ورسل ملك نوار الذى كان شابا الى تلك المدينة ليطلبوا من كرلوس ان يتخلى عن مملكة نوار كما هو مقتضى الشروط المتفق عليها فى المشارطة التى انعقدت بمدينة نوايون ولكن لما كان كرلوس لا يريد تسليم هذه المملكة فوض الامر فى شأنها الاشراف قسطيلة فلم يرضوا به وبعد مدة حصلت مذاكرة بين الفريقين فى مدينة مونتبيليه (احدى مدن فرانسا) لاجل انهاء هذا الامر بالتى هى احسن ولكن كانت هذه المذاكرة لا طائل تحتها ولم ينشأ عنها اتفاق بين الاسبانيوليين والفرنساوية

سنة ١٥١٨ لان رسل الفرنساوية كانوا يتعللون بان عدم تسليمها لاصحابها من محض التعدى والظلم واما رسل اسبانيا فلم ينظروا الا الى عظم تلك المملكة فشق على نفوسهم تسليمها

سنة ١٥١٩ ثم سافر كرلوس من مملكة اراغون الى مملكة قتالونيا فمكث فيها ايضا زمنا طويلا واهلها ممتنعون من مبايعته وما اخذ منهم من النقود كان اقل مما اخذه من مملكة اراغون هذا وكان اهل اسبانيا يبغضون الفلمنكيين لما ارتكبوه من الظلم والاختلاس فى سائر الاقطار الاسبانيولية لاسيما وكانوا اصحاب حرية وعزة نفس فلم يطيقوا أن يفعل الاجانب فى بلادهم على ما تقتضيه شهواتهم النفسانية واطماعهم الفاحشة فبذلوا جهدهم فيما يكون به انقاذ بلادهم من اختلاس هؤلاء الاغراب وظلمهم

ولما اشتد ظلم الفلمنكيين فى قسطيلة صمم اهلها على ان يتركوا الاهمال الذى افضى بهم الى امور شنيعة وجعلهم محتقرين عند غيرهم من اهالى اسبانيا وتعاهدت مدينة سيغوبيا ومدينة طليطلة ومدينة اشبيلية وعدة مدن اخرى من اكبر مدائن قسطيلة على المدافعة عن حقوقها ومزاياها ومع ان الاشراف قد لزموا السكوت فى هذه الفرصة ولم يبذلوا جهدهم كما كان يؤمل منهم كتبت المدائن المتعاهدة للملك تقريرا بينت فيه على وجه التفصيل ان المملكة فى اسوء حال لقبح ادارة ندمائه الفلمنكيين وكان موضوع هذا التقرير هو التشكى من تقليد الغرباء بمناصب اسبانيا ونقل اموالها الى بلاد الفلمنك وزيادة الجرائم والغرامات وطلبت من الملك أن ينصفها فى هذه الاشياء ودققت فى ذلك غاية التدقيق وتجاسرت كل الجسارة حتى قدمت هذا التقرير اولا للملك فى مدينة سراغوسة ثم فى مدينة برسلونه فلما لم يعتن الملك به اغتاظت المدائن المتعاهدة وتعصبت مع بعضها على الملك وترتب على ذلك فى مملكة قسطيلة المعاهدة الشهيرة بمعاهدة الجمعيات البلدية ونشأ عن تلك المعاهدة فى ممالك اسبانيا اختلال عظيم وفشل كبير حتى تزلزل الكرسى الملوكى واضطرب وكادت صورة اسبانيا تتغير

سنة ١٥١٩

مطلب
موت الايمبراطور مكسيمليان فى ١٢ من شهر كانون الثانى

بالكلية وينسخ ترتيبها الذى كانت عليه

ولم يمكث كرلوس مدة قليلة بمدينة برسولونة الاوبلغه وقوع حادثة مشؤومة تأثر منها اكثر من عصيان القسطيليين وتوقف مشورة مملكة قشالونيا معه وامتناعها من اعطائه ما يطلبه منها وتلك الحادثة هى موت جده الايمبراطور مكسيمليان نعم لم يكن موته فى حد ذاته عظيم امر لانه لم يكن صاحب شوكة ولا فضل ومعارف حتى يتأسف على فقده الا انه ترتب عليه عواقب شنيعة صار بها من اعظم الحوادث التى ذكرت فى تواريخ القرون المتأخرة وذلك لانه نشأ عنه تعكير الهدء والصلح العام الذى كان ببلاد الافرنج وترتب عليه أن صار بين فرنسيس الاول وكرلوس عداوة وبغضاء نشأ عنها تعكير اوروبا بتمامها حيث اضطرمت فيها نيران حروب مهولة عمت معظم ممالكها وطالت مدتها اكثر من سائر الحروب التى حصلت فى عهد جمهورية الرومانيين

وكانت التقلبات والفتن التى تسببت عن اغارة كرلوس الثامن ملك فرانسا على بلاد ايطاليا قد افهمت ملوك اوروبا اهمية المنصب الايمبراطورى (منصب ايمبراطورية المانيا) وذلك ان الايمبراطورية الالمانية كانت تدعى ان لها حقوقا فى بعض ايالات ايطاليا وان لها التصرف المطلق والسيادة والولاء على بعض آخر نعم ان الايمبراطرة الذين كانوا قليلى المعارف والشوكة كانوا لا يدعون تلك الحقوق وكانوا لا يستعملون تلك السيادة الا نادرا ولكن كان من المعلوم انه متى حكم فى المانيا ايمبراطور ذو شوكة ودهاء وحزم ونهى واجتهد فى هذا الشأن ينجح كل النجاح ويدخل تحت حكمه معظم بلاد ايطاليا ومع ان مكسيمليان كان ضعيف الشوكة كثير التردد فى المشروعات عرف أن يجلب لنفسه فوائد جليلة من جميع الحروب والمشارطات التى حصلت فى ايطاليا مدة حكمه هذا وكان رئيس الايمبراطورية الالمانية له الكلمة على سائر ملوك النصارى وكان للمنصب الايمبراطورى حقوق عظيمة لاسيما اذا كان المنصب المذكور بيد ايمبراطور ماهر يمكنه احياؤها

سنة ١٥١٩

وتعضيدها فانها تزداد عظما ورونقا وبتلك الاسباب كان هذا المنصب جديرا بان يكون مطمح انظار ملوك الافرنج وميدانا تتسابق فيه اطماعهم

مطلب
سعي مكسيمليان في اثبات التاج الامبراطوري لحفيده كرلوس

ثم ان الامبراطور مكسيمليان كان قبل موته بمدة قد بذل جهده في ابقاء المنصب الامبراطوري لعائلة الاوستريسيا وسعى في ان يجعل حفيده كرلوس ملك اسبانيا خليفته في الامبراطورية ولكن حيث كان من الشروط المقررة وقتئذ ان البابا هو الذي يتوج الامبراطور في محفل عام وكان مكسيمليان لم يتوجه البابا كان معتبرا انه امبراطور ولي بطريق الانتخاب لا غير ولم ينبه احد من المؤرخين على ان هناك فرقا بين امبراطور توجه البابا وامبراطور ولي بطريق الانتخاب ومع ذلك فلم يثبت لمكسيمليان في كل من ديواني ايطاليا و المانيا سوى تلقيبه بملك الرومانيين وحيث لم يثبت في التواريخ ان ملكا من ملوك الرومانيين قد جعل له قبل موته خليفة يحل محله في الحكم وكان اهل المانيا يحترمون قوانينهم ورسومهم القديمة ابوا أن يمكنوا كرلوس من هذا المنصب حيث لم يكن له فيه اسم مقيد في قوانين الامبراطورية وامتنعوا كل الامتناع عن تنفيذ اغراض مكسيمليان في هذا الشان

مطلب
سعي كل من كرلوس وفرنسيس في نيل المنصب الامبراطوري

ولما مات مكسيمليان جد كرلوس بنفسه في طلب المنصب الامبراطوري الذي اهتم جده قبل موته في اثباته له ولم ينجح وبارزه في تطلبه الملك فرنسيس الاول وحصلت بينهما معاداة ومخاصمة عظيمة صارت مطمح انظار ملوك اوروبا لعظم مقام المتسابقين الى هذا الغرض واهمية ما كانا يتطلبانه فكان كل منهما يسعى في تحصيل هذا المنصب بثبات قلب كانه متيقن النجاح في سعيه

مطلب
دعوى كرلوس في شأن المنصب الامبراطوري ووجه طمعه في النجاح

فاما كرلوس فكان يرى ان المنصب الامبراطوري منذ زمن طويل لم يخرج من عائلة الاوستريسيا فهو حق ثابت له بطريق الوراثة لاسيما وكان لا يرى في الامبراطورية اميرا صاحب قوة وشوكة ينازعه فيه وكان يعلم ان اهل المانيا لا يرضون بترقية ملك اجنبي عليهم حيث ان المنصب الامبراطوري

منذ قرون عديدة لم ينتقل الى غيرهم لاسيما وفرنسيس الاول زيادة على كونه سنة ١٥١٩
اجنبيا منهم كان له اسباب اخرى تمنع من صلاحيته لان يكون ايمبراطورا
فى المانيا منها ان رعاياه الفرنساوية كانوا مباينين لاهل المانيا
فى العوايد والاخلاق والحكومة بحيث لا يمكن التأليف بين قلوب هاتين
الامتين هذا وكان كرلوس يأمل ان ما عرضه مكسيمليان قبل موته
فى شأنه ان لم ينجح فقد القى ذكر كرلوس فى اذهان الامرآء المنتخبين وثم امر
اخر كان يقويه فى تطلبه للتاج الايمبراطورى وهو ان دوله الوراثية فى المانيا
كانت حاجزا حصينا تحمى ايمبراطورية المانيا من اغارات الدولة العثمانية
التى كانت تخشاها وقتئذ جميع ممالك اوروبا وكان السلطان سليم الثانى
بفتوحاته العديدة الكبيرة ومعارفه الغزيرة واطماعه قد اوقع الرعب فى قلوب
الملوك الافرنجية لانه هزم دولة المماليك ومحقهم عن آخرهم وضم بلاد مصر
و الشام الى دولته فحصل من ذلك الوقت فى الدولة العثمانية اطمئنان عام
وخلت عن الفتن والتعكيرات الداخلية حتى كان يمكن لهذا السلطان الماهر
ان يشن الغارة على جميع ملوك الافرنج ويوجه اليهم جيوشه التى كانت الى ذلك
الوقت تظفر حيثما توجهت ولا يمكن لاحد من الملوك مصادمتها ومقاومة
قواها التى كانت لا تكل ولا تفتر فلم يكن هناك واسطة فى حماية الايمبراطورية
من قوى هذا السلطان التى كانت كسيل العرم احكم واتقن من كونهم يولون
على الايمبراطورية ملكا مثل كرلوس له دول واسعة فى البلاد الالمانية
التى كانت اذ ذاك عرضة لاغارات الدولة العثمانية بل وكان لا يصلح احد لذلك
اكثر منه حيث كان قوى الشوكة فيمكنه عند الضرورة أن يقاتل جيوش
الاسلام بقوة عزم وثبات جنان لكثرة عساكره واموالة التى كانت ترد له من
محصولات معادن الدنيا الجديدة (امريكه) ومن تجارات البلاد الواطية
فهذه هى الاسباب التى كان كرلوس يعضد بها مقاصده فى شأن الاستيلاء
على الايمبراطورية وقد استحسنها اولو العقول الزكية والارآء السديدة
بل ورأوا انها براهين قاطعة لا يمكن خدشها بشئ ومع ذلك فلم يقتصر هذا الملك

سنة ١٥١٩

على تلك الاسباب القوية بل اخذ يستميل عقول ارباب الحل والعقد فى هذا الشان بمبالغ جسيمة من الاموال حتى لم يبق شئ الا وفعله لاجل الظفر بمقصده واخذ سرا على طرفه الجيش العظيم الذى كانت رتبته مشورة وكلاء اقاليم سوابه وبالجملة فقد استمال بالهدايا النفيسة عقول من يبيع عرضه بقبول الرشوة وحل بذلك كل مشكل قوى واما ضعفاء الناس فانه اخرس السنتهم بالتخويف والتهديد

مطلب الاسباب التى بنى عليها فرنسيس دعواه

واما فرنسيس الاول فكان ايضا يبذل جهده مثل كرلوس فى اخذ المنصب الايمپراطورى ويأمل النجاح والظفر فاذاع رسله الذين بعثهم سرا الى المانيا انه يجب على من يحب مصلحة الايمپراطورية ان يفهم امرآء عائلة الاوستريا ان التاج الايمپراطورى انتخابى لا وراثى بمعنى انه يجوز لغير امرآء تلك العائلة ان يطلبه ولا يليق ان يبلغ من سفهها وحمقها ان تعتبره كانه متاع من امتعتها اوشئ من املاكها لانه ربما لم يكن فى امرائها من يصلح له وانه يلزم للايمپراطورية ملك يكون بكبر سنه قد تربت له ملكة وصار له دراية وخبرة بكثرة تجاربه حتى يمكنه ان يتقن حكومة تلك الايمپراطورية التى كانت وقتئذ فى اضطراب وانقلاب بسبب المذاهب الدينية الجديدة التى كانت متولعة بها عقول بعض الناس وكان يخشى ان تصير لها عاقبة مشؤمة شنيعة واذاعوا ايضا ان كرلوس حيث انه صغير السن قليل الخبرة لعدم تجاربه وممارسته للامور ولم يظهر منه ما يدل على براعته فى الفنون الحربية لا يمكنه ان يقاوم عدوا مثل السلطان سليم الذى قضى عمره فى الحروب وتمكن من فنونها وانتصر فى غزوات عديدة ولا تصعب مقاومة هذا السلطان الجسور الذى فتح بلاد آسيا على ملك مثل فرنسيس ارغم فى صغره انوف السويسيين وفتك بجيوشهم مع انهم كانوا اهل ضبط وربط ودراية تامة بالعسكرية حتى كان لا يظن احد الى ذلك الوقت انه يمكن لاى ملك كان أن يقهرهم ويظهر عليهم فاذا حكم فرنسيس فى الايمپراطورية وضم الخيالة الفرنساوية المشهورة بالشجاعة والشهامة الى القرابة الالمانية المشهورة بالضبط والربط

سنة ١٥١٩

والشبان تألف له من مجموعهما جيش عظيم يفزع منه العدو وبذلك يمكنه عند اقتضاء الحال ان لا ينتظر الجيوش العثمانية حتى تأتى الى بلاده بل يبادر بالاغارة عليهم فى بلادهم واذاعوا ايضا ان تولية كرلوس على الايمبراطورية مخالفة لقانون من قوانينها الاصلية وهو ان كل ملك كانت بيده مملكة نابلى لا يجوز له ان يحكم على الايمبراطورية لا سيما و كرلوس يتطلب دوقية ميلان فلا بد وان يحصل بينه وبين ايطاليا حرب عظيم فاذا ولى على الايمبراطورية ربما جر ذلك الحرب الى اضرارها وصارت عواقبه مشؤمة عليها

وبينما كانت رسل فرنسيس الاول تبدى هذه الاسباب وما اشبهها فى جميع دواوين المانيا اذ بلغ هذا الملك ان توليته على الايمبراطورية فيها عسر لكونه اجنبيا عن ديارها ولا يعرف لغتها ولا اخلاق اهلها وعوايدهم فاخذ يبذل جهده فيما تكون به ازالة تلك الموانع وجعل يستميل عقول ارباب العقد والحل بالهدايا العظيمة والوعود الجسيمة ولين الكلام وزخرفة القول وحيث ان اوراق الحوالات لم تكن معلومة وقتئذ صار رسل فرنسيس يسافرون من بلدة الى اخرى ومعهم قطارات من الخيل محملة بالذهب ولا شك ان هذا الامر مما يوجب العار والفضيحة لباذلها وقابلها

مطلب
آرآء ملوك الفرنج الاخرين

وكان ينبغى لملوك اوروبا الآخرين أن يدخلوا واسطة فى هذا الشأن الذى له سريان عظيم وتأثير كبير فى مصالح ممالكهم حيث ان مصلحتهم العامة كانت تقتضى أن يتعصبوا مع بعضهم على هذين الملكين المتطلبين للايمبراطورية لانه ان ولى احدهما عليها تقوت شوكته وازدادت صولته حتى يخشى منه اضاعة حرية اوروبا باجمعها ولكن لم يمكن لاحد منهم ان يعرف حق المعرفة انه من الضرورى اللازم لتحصيل الراحة والامن العام ان يكون هناك ميزان تعادل بين قوى الممالك وبعضها بحيث لا يتعدى القوى منها على الضعيف لان اذهانهم اذ ذاك كانت لم تصل الى معرفة اهمية هذا التعادل لانه لم يندرج فى مذاهبهم السياسية الا قبل تلك الحادثة بمدة قليلة هذا وكانت الاغراض متسلطنة على نفوس بعضهم وكان البعض الآخر عاجزا عن ادراك العواقب

سنة ١٠١٩

والتبصر فيها لاسيما وكان منهم من يخشى ان يغضب احد الملكين المتطلبين للامبراطورية فلم يأخذوا فى شئ من اسباب تلك العصبة او المعاهدة التى كانت لازمة لتحصيل الراحة العامة ومن حملته نفسه منهم على ان يكون واسطة فى هذا الشأن لم يبذل جهده كما ينبغى ولم يعتن به كل الاعتناء

مطلب
اراء السويسيين

فاما اهل السويسة فكانوا يخشون ان يرقى فرنسيس او كرلوس الى المنصب الامبراطورى ويرغبون فى تولية ملك آخر يكون ضعيف الشوكة قليل الممالك والاراضى ولكن كانوا يبغضون الفرنساوية فبذلوا جهدهم فى تعطيل مقاصد فرنسيس وافساد مادبره وأبدوا ان الاصوب تولية كرلوس على الامبراطورية

مطلب
آراء اهل جمهورية البنادقة

وكذلك اهل البنادقة كانوا يرون ان مصلحتهم تقتضى ان يمنعوا كلا من هذين الملكين عن الاستيلاء على الامبراطورية ولكن كان بغضهم لعائلة الاسترسيا اكثر واشد لطمعها ولان مجاورتها لهم كانت مشؤومة عليهم حيث اضرت بعظم جمهوريتهم وبخارد ولتهم فعدلوا عما كانت تقتضيه الاصول السياسية وقتئذ وبادروا بالدخول فى حزب ملك فرانسا

مطلب
اراء هنرى الثامن

وكان هنرى الثامن ملك انكلترة مقتدرا اكثر من غيره على منع كل من ملك فرانسا والملك كرلوس من الاستيلاء على هذا المنصب الذى يفوق صاحبه سائر ملوك الافرنج ولكن مع ان هنرى المذكور كان يفتخر غالبا بانه ميزان التعادل ببلاد اوروبا لم يكن جامعا لما تستدعيه هذه الوظيفة من التبصر وادراك العواقب واصابة الرأى والتؤدة والحزم فلم يستطع ان يمكث بدون تصد لهذا المنصب الامبراطورى بل بادر مع من يتطلبه فكان ثالث الاثنين المذكورين اللذين كانا مطمح نظر ملوك الافرنج وبعث رسولا من عنده الى بلاد المانيا لطلب التاج الامبراطورى فتلقاه امراء المانيا بالتبجيل والاكرام وكذلك رسول البابا قابله باسنى التسليم والاحترام ولكن لم يتيسر له شئ فى شأن تولية سيده على الامبراطورية فبعد مدة قليلة كتب اليه انه لم يجد وسيلة فى ذلك وان تطلبه لهذا الغرض قد جاء فى الزمن الاخير

فلما وصل كتابه الى هنرى صدق ان تأخيره هو السبب فى عدم نجاحه وانه سنة ١٥١٩
لولا ذلك لم يحظ به غيره والظاهر انه من وقتئذ ضرب صفحا عن هذا الغرض
حتى انه لم يتعرض فيما بعد لمنع كل من الملكين المذكورين عن الاستيلاء على
الايمبراطورية ولا لمساعدة احدهما على الآخر
واما البابا ليون العاشر الذى اشتهر بمعارفه السياسية وتولعه بالفنون
فهو الذى لاحظ دون غيره حركات كل من فرنسيس وكرلوس ملاحظة عالم
ماهر متمكن من الاسباب والمسببات وهو الذى ترآى عليه انه فى حيرة عظيمة
من خوفه على فقد الاطمئنان والراحة من بلاد اوروبا هذا وكانت احكام
البابا واحكام الايمبراطور تتعارض فى امور شتى وكان كل منهما يتعدى
على حقوق الآخر فكان البابا لا يأمن على اراضى الكنيسة الرومانية
الا اذا كانت شوكة من بجواره ضعيفة فكان لا ابغض اليه من ان يتولى على
الايمبراطورية ملك ذو شوكة كبيرة وقريحة غزيرة فحصل عنده قلق عظيم خيفة
من تولية احد هذين الملكين فكانت نفسه لا تطيق ان يعطى كرسى الايمبراطورية
للملك كرلوس لانه كان ملكا على اسبانيا و نابلى والدنيا الجديدة
فكانت شوكته عظيمة لا تدوم معها شوكة الكنيسة الرومانية وكان يرى ايضا ان
من الخطر عليه وعلى كنيسته تولية فرنسيس حيث كان ايضا قوى الشوكة
فكان ملكا على فرانسا ودوقا على ميلانه وملتزم جنويرة فادرك
هذا البابا ان تولية كل من هذين الملكين على الايمبراطورية يضر بالكنيسة
الرومانية كل الضرر ويجر الى سقوط استقلالها وحريتها ويعكر على بلاد
ايطاليا بل ويمكن انه يضر بحرية اوروبا كلها ولكن حيث كان هذان
الملكان ذوى شوكة قوية وبطش شديد بحيث لا يأمن من عاداهما اذ كان
يمكنهما الانتقام منه بطرق مختلفة رأى البابا ليون انه لابد لهذا الامر
عن الخداع والحزم فاستعمل كلا من هاتين الوسيلتين واخذ سرا يحث امراء
المانيا على كونهم ينتخبون اميرا من بينهم ويجعلونه على الايمبراطورية حيث
ان فيهم كثيرا ممن يمكنه ان يقوم بادارة مصالحها ويوفى بها حق التوفية

ودكرهم بان كرلوس لاتسوغ توليته على الايمبراطورية بموجب القوانين والرسوم القديمة لانه ملك على نابلى ومن كان بيده تلك المملكة لايجوزله ان يتقلد بالمنصب الايمبراطورى هذا وكان يحرض فرنسيس على التثبت فى مقصده ولم يكن قصده بذلك نجاح فرنسيس اوانه كان يحب له ذلك ترجيحاله على كرلوس بل كان ذلك منه سياسة وخديعة لانه كان يعلم علما يقينيا ان اهل المانيا يرجحون الملك كرلوس عن فرنسيس الاول فكان يأمل انه اذا حث فرنسيس على تطلب الايمبراطورية ودقق فرنسيس ورأى ان اهل المانيا يرجحون كرلوس عليه يبذل غاية جهده فى اعطاء التاج الايمبراطورى لملك آخر غير كرلوس واذا اتفق ان فرنسيس هو الذى يجد المساعدة والاعانة ورأى كرلوس انه لايمكنه الاستيلاء على الايمبراطورية يسعى بلاشك فى اعطاء تاجها لملك آخر غير فرنسيس واعتقدانه بهذا الوجه ينجح فى خداعه ويحرم كلا منهما من الايمبراطورية ولاريب ان مقتضيات الاحوال كانت اذذاك لاتسوغ للبابا ان يسلك فى هذا الغرض غير تلك الطريقة فدبرها مع غاية من الحزم والحذق الا ان اجرآها لم يكن على ماينبغى من التيقظ والنباهة وذلك ان الرسل الفرنساوية كانوا يلاهون سيدهم ويقوون امله بان المنصب الايمبراطورى يثبت له واخذوا ايضا بعقل وكيل البابا حتى نسى ما اوصاه به سيده واستمر فرنسيس يدقق فى كونه هو الذى يتولى على الايمبراطورية دون غيره ولم يقل باعطاء المنصب الايمبراطورى لاحد غيره او غير غريمه فقسدت آمال البابا ليون وخاب سعيه

سنة ١٥١٩

مطلب
انعقاد مشورة الديت
فى ١٧ من شهر حيزران

هكذا كانت آمال الخصمين وآرآء الملوك الآخرين الذين كان لهم مآرب تدعوهم الى التوسط بينهما حين انعقدت مشورة الديت اى العموم على حسب العادة فى مدينة فرنكفورت لان الحق فى انتخاب الايمبراطورية كان منذ زمن طويل ثابتا لسبعة امرآء معتبرين يقال لهم منتخبون بضم الميم وكسر الخاء المعجمة وقد بينا فى الاتحاف اصل انشاء هؤلاء المنتخبين وبينا

سنة ١٥١٩

صولتهم ووظيفتهم وما يتعلق بها وكان المنتخبون وقتئذ هم الامير ألبرطه دوبرندبورغ مطران ميانسه والثانى هرمان قونتة ويدوكان مطران تريويس والرابع لويز ملك چه والخامس القونتة لويز وكان قونتة بالاطيبيا اى صاحب اطيان واملاك على نهر الرين والسادس فريديريق دوق سكس والسابع جاشم الاول مركيز برندبورغ فاخذ حينئذ رسل الملكين المتقدمين يبدون عللا واسبابا مزينة الظاهر فاسدة الباطن ويتواقعون بين ايدى المنتخبين ويكثرون لهم من الهدايا النفيسة ومع ذلك لم ينس المنتخبون امرا مهما عندهم يعدونه اصلا لحرية القوانين المبنى عليها ترتيب الايمبراطورية وذلك الامر هو ضعف شوكة الايمبراطور لان الجمعية الجرمانية كناية عن جمهورية كبيرة مشتملة على عدة دول تكاد كل دولة منها تكون مستبدة بنفسها فجميع اعضائها يحبون ان تكون شوكة الايمبراطور ضعيفة حتى لا تضيع حقوقهم ومزاياهم وهذا الامر كان موافقا لطبيعة الحكومة الايمبراطورية ولازما لها لزوما ذاتيا حتى ان ارباب السياسة من اهل المانيا كانوا لا يهملون فيه ولا يتحولون عنه باى وجه كان ولذلك مكثت الايمبراطورية عدة قرون من غير ان يولى عليها امير يكون قوى الشوكة او تكون له اراض وممالك واسعة ولولا هذا الامر لما بقى عدة من عائلات المانيا الاعيان يتمتعون باستقلالهم ومزاياهم التى اكتسبوها فى طرف تلك البرهة الطويلة وحيث كان الامر كذلك رأى المنتخبون ان توليتهم لاحد هذين الملكين تفضى بهم الى التعب والنصب حيث رأوا ان تولية احدهما كناية عن اعطاء الايمبراطورية لسيد يتصرف فيها كيف شاء لا لرئيس تكون افعاله مقصورة على ارادة ارباب الحل والعقد فى الدولة ورأى المنتخبون ايضا انهم يصيرون كآحاد الرعية بعد ان كانوا فى رتبة الايمبراطور

مطلب
اراء الامراء المنتخبين

مطلب
عرض المنتخبين التاج الايمبراطورى على الامير فردريق دوق سكس

وبتلك الاسباب صرف المنتخبون النظر عن كل من كرلوس و فرنسيس وجعلوا مطمح نظرهم فريديريق دوق سكس وكان اميرا صاحب

سنة ١٥١٩

معارف وآداب قد استوجب المدح والثناء الجميل من اهل عصره حتى كان جديرا بان يلقب بالحكيم العاقل واجمعوا جميعا على اعطائه التاج الايمبراطورى الا انه لحزمه وعقله لم يغتر برونق هذا التاج وبهجته ولم يبادر بقبوله كالمتلهف الذى لفرحه لا يتبصر فى العواقب لان هذا الامير كان يرى ان هذين الملكين اللذين هما اقوى منه شوكة واعظم منه صولة وبطشا لا يسلمان له فى هذا التاج الذى كانا يجدان فى طلبه فتوقف مدة ليتفكر فى العاقبة ثم ابى ان يقبله فتعجب الناس من وفور عقله حيث ان عظم التاج الايمبراطورى وعلو شان المنصب الذى كانوا يدعونه اليه لم يمنعه عن التبصر فى العاقبة ورأى ان ضعف شوكة الايمبراطور مع انه من عدة وجوه يعد من الامور الصائبة المبنية على العدل الا ان عدم التحول عنه فى جميع الاحوال ليس من الصواب بل لا شئ اكثر منه مخالفة لحسن السياسة والادارة فكتب فى رده يقول فى زمن الامن نحتاج لايمبراطور ضعيف الشوكة حتى لا يتعدى على حقوقنا ومزايانا واما فى زمن خوف الحرب والمحن فلابد لنا من ايمبراطور قوى الشوكة شديد البأس حتى نكون فى أمن واطمئنان وها هى الجيوش العثمانية تصطف الآن تحت لوآء سلطان ماهر ذى بطش وفتك قد تقوى عزمه بنصرته فى غزوات جمة وظفره فى مشروعات مهمة وتتأهب لان تغير على المانيا مع قوة لم يسبق مثلها فى القرون الخالية والاعصر الماضية ولا شك ان لكل زمن مقتضيات مخصوصة تستلزم امورا جديدة وتبطل ما كان من الامور الضرورية معتبرا ومعدودا وبناء على ذلك يلزم اعطاء التاج الايمبراطورى لملك يكون اقوى منى شوكة واشد منى بطشا واما انا فلا قدرة لى على تحمل اعباء الايمبراطورية لانها ثقيلة على وعلى غيرى من امرآء المانيا حيث لم يكن لنا اراض واسعة ولا ايرادات جسيمة ولا شوكة عظيمة تكفى فى مقاومة العدو القوى البطش الذى يخشى منه الاغارة على بلادنا وعلى كل حال فحالتنا الراهنة تستلزم ان نعطى التاج لاحد الملكين السابقين وهما فرنسيس وكرلوس فقد انحصر الامر فيهما لان غيرهما

مطلب
امتناعه عن قبول التاج

سنة ١٥١٩

لا يمكنه عند الاخطار ان يبادر بالجيوش اللازمة لحمايتنا وطننا والذب عنا ولكن حيث ان كرلوس ملك اسبانيا قد ولد في المانيا بحيث يعد عضوا من اعضاء الامبراطورية ومن امرائها بسبب الممالك التي ورثها فيها عن جده مكسيمليان وبسبب ان بلاده متصلة بالاراضي الامبراطورية التي يخشى عليها من اغارات جيوش الاسلام اكثر من غيرها فيظهر لي ان استحقاقه في شأن التاج الامبراطوري مبني على اساس متين واصل مكين وانا ارى توليته على الامبراطورية انسب واليق من تولية فرنسيس لانه اجنبي ليس منا ولا يعرف لغتنا واما كرلوس فهو من دمنا ولحمنا ومن بلادنا وبناء على ذلك ارى ان التاج لا يعطى لسواه وهو مولاه

ولا شك ان هذا الرأي الصادر عن مكارم الاخلاق والهمة العالية التي قل من اتصف بها من الرجال والمعضد بالبراهين المقبولة يكون له ثمرة عظيمة ولذلك صار له موقع عظيم في قلوب المنتخبين فلما رأى رسل كرلوس ان فريديريق قد صنع مع سيدهم صنيعا جميلا ارسلوا اليه مبلغا جسيما من الاموال واخبروه بان ملكهم سيكافئه باكثر من ذلك ولكن لا يخفى ان هذا الامير الذي اعرض عن التاج الامبراطوري لكرم نفسه لا يقدم على ما يوجب الدناءة وتدنيس العرض بقبول مثل هذه الهدايا وموافقتهم على اغراضهم وذلك لانه ان قبلها كان كانه باع رأيه بتلك الهدايا وهذا من اقبح ما يزري بالمروءة والشرف فلم يقبل شيأ منها فاخذ رسل اسبانيا يترجونه في ان يأذن لهم بتوزيع بعضها على ارباب ديوانه فاجابهم بانه لا يمكنه منعهم عن قبول ما يعطى لهم لكنه يطرد فورا من ديوانه كل من ثبت عليه انه اخذ منها ولو درهما واحدا

مطلب
رد فريديريق للهدايا التي ارسلها اليه رسل الملك كرلوس

وحيث أبى فريديريق قبول المنصب الامبراطوري وبين وجه عدم صلاحيته له هو وسائر امراء المانيا يئس كل امير الماني من هذا المنصب وانحصر في الملكين المتقدمين فوجب ان ينتخب واحد منهما ليتقلد به هذا وكان ثم اسباب تدعو لترجيح كرلوس كنسبه وقرابته ووضع دوله التي ورثها عن آبائه وزيادة على ذلك كان رسله الذين بعثهم الى بلاد المانيا صادقين

مطلب
انعقاد مذاكرة جديدة بين المنتخبين

في خدمته باذلين غاية جهدهم في تنفيذ اغراضه واثبات حقه كيف لا وكان سنة ١٥١٩
قد بعث الى المانيا الكردينال دوغوركو والشهير ايرارد ولا مرك
اسقف ليجه فوفيا برسالتهما على وجه اكسبهما الشرف والفخار وابديا من
الحزم وحسن التدبير ما عجز عنه رسل الملك فرنسيس ولا غرو في ذلك
فان دوغوركو مكث زمنا طويلا وهو وزير ونديم للامبراطور مكسيمليان
فوقف على حقيقة اخلاق اهل المانيا وعرف كيفية المداولة معهم واما
اسقف ليجه فكان الملك فرنسيس قد حرمه من المنصب الكرديناليه
فلما لاحت له تلك الفرصة صار يبذل جهده في تعطيل آماله واستعمل في ذلك
جميع ما سولته له نفسه الطماعة وحقده على هذا الملك فمن ثم كان ارباب ديوان
الانتخاب يميلون الى حزب كرلوس شيأ فشيأ حتى ان وكيل البابا بعد
ان مكث مدة طويلة وهو يعارض ولا يسلم في توليته رأى ان معارضته
لا جدوى لها ولا طائل تحتها وان تولية كرلوس لا بد منها فبادر بفعل ما يبعث
كرلوس على رعايته وشموله بنظره حيث اذن له على سبيل النيابة عن البابا
ليون ان يجمع بين التاج الامبراطوري وتاج نابلي مع ان ذلك لم يسبق
لغيره وكان البابا يتعلل به في منع كرلوس من الاستيلاء على الامبراطورية
ويبدي انه ملك على نابلي فلا يجوز له الجمع بين تاجها والتاج الامبراطوري
حيث لم يثبت ذلك لاحد قبله كما هو مقتضى نص القوانين

ولم يتم امر هذه المنازعة التي اوقعت حينئذ بلاد اوروبا في الحيرة الا في ثمانية مطلب
وعشرين من شهر حيزران (سنة ١٥١٩) من الميلاد بعد موت مكسيمليان انتخاب كرلوس
بخمسة اشهر وعشرة ايام وكيفية انتهائها ان ستة انفار من السبعة المنتخبين للامبراطورية
انحط رأيهم على كرلوس ملك اسبانيا واما السابع وهو مطران تريويس
فلم يزل يدافع عن ملك فرانسا ويبرهن على انه هو الجدير بالمنصب الامبراطوري
فلما لم يجد لتوليته سبيلا تحول عما كان عليه اولا ووافق الستة الباقين
فعند ذلك ثبت التاج الامبراطوري للملك كرلوس بموجب اقرار هؤلاء
السبعة ارباب ديوان الانتخاب

ومع

سنة ١٥١٩

ومع ان المنتخبين رضوا العدة اسباب باعطاء التاج الايمبراطورى لكرلوس ظهر عليهم الغم والحزن لانهم كانوا يخشون صولته وقوة شوكته فاخذوا يستعدون بجميع ما يحفظهم منه ويقيهم مما عساه ان يقع من تعديه على حقوق الجمعية الجرمانية ومزاياها الثابتة لها من قديم الزمان وذلك ان هؤلاء الامرآء المنتخبين منذ احقاب ماضية وقرون متوالية كانوا يلزمون كل ايمبراطور عند توليته ان يقرّ تلك المزايا ويأخذون عليه المواثيق والعهود ان لا يتعدى على شئ منها باى وجه كان ولما كان التاج الايمبراطورى لا يعطى الا الملوك ضعاف ليس لهم ما يخشى منه السطوة والبأس كاتساع الاراضى ورجحان العقول كان هؤلاء الامرآء يرون ان التزام الملوك المذكورين بمجرد المشافهة انهم لا يتعدون على مزايا الجمعية الجرمانية يكفى فى صدقهم واجتنابهم لكل ما يضر بحقوق تلك الجمعية ولكن لما كان كرلوس بمكانه من الشوكة والصولة رأوا أن الوعد منه مشافهة لا يكفى فى امنهم على مزاياهم فسلكوا معه مسلكا آخر ليكونوا آمنين من بأسه وبطشه وحرروا قانونا يبنوا فيه مزايا المنتخبين وخصوصياتهم ومزايا امرآء الايمبراطورية ومزايا المدآئن وسائر اعضاء الجمعية الجرمانية وذكروا ان المواد المذكورة فى هذا القانون لا يجوز للايمبراطور ان يتعدى على شئ منها ووضع رسل كرلوس امضاءهم فيه على سبيل النيابة عن ملكهم يعنى وضعوا عليه علامة الصحة واقرّه هو ايضا بنفسه حين لبس التاج الايمبراطورى ومن ذلك الوقت صار المنتخبون يلزمون كل من تولى ايمبراطورا باقرار تلك الشروط وبالجملة فهذا القانون الذى هو كناية عن مشارطة بين الايمبراطور والرعية يعدّ الآن ببلاد المانيا كانه حاجز حصين يقى الاهالى من تعدى الايمبراطرة اوكانه يعتبر اعظم شرطة قانونية يأمنون بها على حقوقهم ومزاياهم

مطلب
اعلام كرلوس بانتخابه ايمبراطورا

وبينما كان كرلوس بمدينة برسولونه مشتغلا بما كان حاصلا وقتئذ من المعارضة حيث كانت مشورة وكلاء مملكة قتالونيا لا تسلم له فى شئ من المواد التى عرضها على اربابها ليتذاكروا فيها اذ جاءه الخبر من مدينة

سنة ١٥١٩

فرنكفورت بان المنصب الايمبراطوري قد تم له وانه ولي ايمبراطورا بموجب اراء المنتخبين فعند وصول هذا الخبر اليه حصل له من الفرح والسرور ما يقوم عادة بنفس كل شاب طماع اذا ظفر بما يترتب عليه تقوية شوكته وحظي بمنصب عظيم يجعله فوق سائر ملوك عصره من ابناء جنسه وتعلقت آماله من وقتئذ بما آرب الفخار والمعالي التي شغلت فكره مدة حكمه * وبمعرفة احواله في ذلك الوقت يقف الانسان على ازدياد اطماعه التي جعلت تاريخه مما تتشوق اليه النفوس وترغب في الاطلاع عليه

فقد حصلت بعد ذلك بقليل حادثة وان كانت غير مهمة الا انها دلت على ما قام بنفسه من الانفة والشمم بسبب رقيه الى اوج المنصب الايمبراطوري وتلك الحادثة هي انه في جميع الوثائق والاوامر الصادرة عنه بوصف كونه ملكا على اسبانيا كان يلقب نفسه بلفظ ماجستة اي صاحب العظمة والزم رعاياه ان يلقبوه بهذا اللقب الجليل حيث جعله علامة جديدة للتشريف والاحترام وكان ملوك اوروبا الى ذلك الوقت يلقبون بلفظ ألتيس اي علو الشان ولفظ غراس فقط اي ولي النعم ولكن حيث ان الطبيعة البشرية تميل دائما الى ما فيه شرفها وعلو مقامها اقتدى دواوين اوروبا بديوان اسبانيا ولقبوا ملوكهم بلفظ ماجستة وصار هذا اللفظ من ذلك الوقت دالا على علو الشان ورفعة القدر حتى ان اضعف ملوك الافرنج في عصرنا هذا صاروا يلقبون انفسهم به واقواهم لم يمكنه الى الآن ان يقترح لقبا آخر اعظم منه واعلى شرفا يلقب به نفسه حتى يمتاز عن غيره

مطلب غم الاسبانيين من هذه الحادثة

وكان من اللازم ان اهل اسبانيا يفرحون بارتقاء الملك كرلوس الى الكرسي الايمبراطوري ويسرون بذلك كسروره به الا انهم كانوا يعلمون ان هذا المنصب لابد ان يحرمهم من حضور ملكهم عندهم واقامته ببلادهم ويجعلهم تحت حكم نائب من نوابه ومثل هذا الحكم في الغالب لا يخلو عن الجور والظلم فلحقهم غم شديد لذلك حيث كانوا يعلمون ان هذه الحادثة لابد ان تفضي بهم الى سفك دماء ابناء وطنهم في حروب لا مصلحة لهم فيها وان كنوزهم وخزآئنهم

سنة ١٥١٩
ستنفد في مصالح غيرهم وان عقولهم ستغرق في لجج سياسات ايطاليا و آلمانيا فبجميع هذه الاسباب رأوا ان تولية ملكهم كرلوس على الايمبراطورية من الحوادث السيئة التي تضر ببلاد اسبانيا وتذكروا ما كان عليه اسلافهم من الشجاعة وحب الوطن حيث منعوا في ثورة قسطيلة الملك الفونس الحكيم عن الخروج من مملكته ليذهب الى المانيا ويتتوج بتاج الايمبراطورية وظهر لهم ان ذلك اليق مايقتدى به في مثل هذه الحادثة

ومع ذلك فلم يلتفت كرلوس الى مالحق رعاياه الاسبانيولين من الغم والحزن في هذا المعنى بل قبل التاج الايمبراطوري الذي اتى به اليه القونتة البالاطيني المسمى لويز في محفل عظيم من امراء المانيا وقدمه اليه باسم الامراء المنتخبين واظهر كرلوس انه يريد الارتحال الى بلاد المانيا ليأخذ منصبه الجديد لان ذلك كان من الضروري اللازم حيث انه بموجب رسوم الجمعية الرومانية وقوانينها لا يجوز ان تجرى احكامه واوامره في الايمبراطورية قبل ان يتكلل بتاجها على رؤس الاشهاد في محفل عام

مطلب
ازدياد غم الاسبانيولين
فلما اشتهر بين الناس ان كرلوس عزم على الارتحال الى بلاد المانيا ازداد غم الاسبانيولين وتمكن الحزن على قلوب اهل المملكة على اختلاف طوائفهم حتى ان البابا ليون كان قد اعطى كرلوس عشر الايرادات القسيسية التي تحصل من مملكة قسطيلة ليستعين به في حربه مع جيوش العثمانية فاجتمع قسوس قسطيلة للمذاكرة في هذا الشان وابوا ان يعطوه ما اذن به البابا زاعمين ان هذا المبلغ لا يصح ان يطلب منهم الا ان كان يخشى حقيقة على دين النصرانية من جيوش الاسلام فلما بلغ ذلك البابا ليون وكان لا يطيق مخالفة امره حكم على المملكة بالمنع وهو عزل القسوس عن وظائفهم ولكن لم يعبأ احد بهذا الحكم ولم يترتب عليه كبير فائدة وجعله كافة الناس من قبيل الظلم حتى ان كرلوس نفسه طلب من البابا ان يبطله ويرجع عنه وبهذه الحادثة حصل لطائفة القسوس الفخر

سنه ١٥١٩

حيث خالفوا البابا فى ظلمه ولم يخشوا بأس كرلوس وعاد ذلك عليهم بالمنفعة حيث انقذوا انفسهم من الغرامة التى اراد البابا ان يفرضها عليهم

مطلب
الفتنة التى حصلت بمملكة بلنسية فى ذلك الوقت

وقد حصل فى اثناء ذلك بمملكة بلنسية التابعة لمملكة اراغون فتنة اشد هولا من الفتنة السابقة حيث نشأ عنها نتائج اعظم منها خطرا وطالت مدتها اكثر من الاولى وكان منشأوها ان راهبا من اصحاب الفتن صار يعظ سكان مدينة بلنسيه التى هى تحت مملكة بلنسيه ويحثهم على حمل السلاح لينتقموا من بعض اناس جاوزوا الحدود واتبعوا سبيل التعسف والبهتان فلما حمل اهل تلك المدينة السلاح ونجحوا فى هذا الامر قام بانفسهم ان لهم شوكة عظيمة وبأساقويا فصمموا على انقاذ انفسهم من كل من قصدهم بسوء وتعدى عليهم فبعدان قمعوا من اراد الراهب السابق قمعهم أبوا ان يتركوا السلاح ويعودوا الى الصلح كما كانوا بل تعاهدوا معا ورتبوا فيما بينهم فرقا على نسق الفرق العسكرية واخذوا يمارسون التعليمات الحربية ويواظبون عليها حتى كانهم جيوش منتظمة وكان الغرض الاصلى لهم من تلك المعاهدة واقوى الاسباب الباعثة عليها هو انقاذ انفسهم من ظلم الاشراف والاكابر لان المزايا الارستوقراتيكية اى مزايا الاشراف كانت بمملكة بلنسية اكثر واعظم مما كانت بغيرها من ممالك اسبانيا حتى ان الاشراف فيها كانوا لا يعترفون ان ثم يدا فوق ايديهم تسألهم عما يصدر منهم وتحاسبهم عليه فكانوا لا يعاملون من عدا طائفتهم من الاهالى معاملة الاتباع فقط بل كانوا يعاملونهم معاملة الارقاء والاسرى فلما دهمتهم هذه الفتنة التى لم تكن تخطر ببالهم حصل لهم منها رعب شديد وفزع عظيم وخافوا ان تقوى شوكة الاهالى ويستمروا على خروجهم وعصيانهم حتى ينقذوا انفسهم من حكومة الاشراف ويستقلوا بانفسهم فبذلوا جهدهم فى اطفاء نارها بسلوك طريق السياسة والتدبير فلما راوا انه لا يمكنهم ذلك الا بواسطة السلاح استعانوا بالامبراطور كرلوس وطلبوا منه ان يأذن لهم بالهجوم على العاصين وكذلك الاهالى بعثوا الى الامبراطور المذكور وكلاء يعلمونه بالمظالم التى كانت حاصلة لهم

مطلب
ازدياد نيران الفتنة
سنة ١٥٢٠

سنة ١٥٢٠ من الاشراف ويتضرعون اليه ان يدخلهم تحت كنفه وحمايته فمن سعد الاهالى وصل رسلهم الى الديوان فى وقت كان به كرلوس فى حنق شديد على الاشراف غيرانه لما كان يلزمه الارتحال الى بلاد المانيا وكان فى قلق بسبب تأخيره عن هذا السفر وكان لخاصة الفلمنكيين رغبة عظيمة فى رحلته لينقلوا الى وطنهم الاموال التى جمعوها من مملكة قسطيلة لم يمكنه ان يذهب بنفسه الى مملكة بلنسيه ليعقد مشورة وكلاء المملكة فعين الكردينال ادريان لينوب عنه فى تلك المشورة وامره ان يأخذ له على الاهالى مبايعة على الطاعة والانقياد وان يثبت لهم مزاياهم وحقوقهم فى محفل عام حسب العادة الجارية وان يطلب منهم مبلغا من النقود على سبيل التبرع كما طلب من مملكتى قسطيلة واراغون ولكن رأى اشراف بلنسية ان ذلك من قبيل العار لبلادهم ومملكتهم حيث ان لها الحق كغيرها من ممالك اسبانيا فى ان تتشرف بحضور الملك اليها وابدوا انه بحسب قوانين مملكتهم ورسومها لا يجوز لهم ان يبايعوا بالملوكية اميرا لم يحضر عندهم ولا ان يعطوه امدادا يستعين به واستمروا مصممين على ذلك حتى لم يمكن تحويلهم عنه باى وجه كان فغضب كرلوس من قبح سلوكهم واخذ بناصر الاهالى وامرهم ان يبقوا على ما هم عليه من حمل السلاح على الاشراف فرجع رسل الاهالى فرحين مسرورين وتلقاهم ابناء بلادهم باحتفال عظيم حيث كانت نجاة الوطن على ايديهم وتكبر الاهالى حينئذ وعتوا عتوا كبيرا وطغوا وبغوا حتى طردوا الاشراف من المدن وانتخبوا جملة من القضاة اقاموهم حكاما فى بلادهم وعقدوا فيما بينهم معاهدة شهيرة سموها معاهدة الجرمانادا اومعاهدة الاخاء فصارت تلك المعاهدة فيما بعد اصلا لجميع الفتن التى وقعت بمملكة بلنسية بل ولجميع المصائب الكبيرة التى حلت بها

وكانت مملكة قسطيلة حينئذ فى اضطراب وانقلاب فلما شاع الخبر ان كرلوس قد عزم على الرحيل من اسبانيا اخذت عدة مدن كبيرة تتشكى من سفره وكتبت له ان يرجع عن ذلك وجددت شكواها التى كانت

سنة ١٥٢٠ عرضتها سابقا فى شأن ظلم اتباعه الفلمنكيين وجورهم فحاول كرلوس الرسل الذين اتوا اليه من طرف تلك المدآئن ولم يأذن لهم بالدخول لديه ليبلغوه ماهم مرسلون بصدده لكنه رأى انه يصعب بهذه الطريقة اطفاء نيران فتن هذه المدآئن الكبيرة فدعا ارباب مشورة وكلاء قسطيلة بمدينة غاليسة فى اقليم قومبوسطيله وكان غرضه من انعقاد تلك المشورة ان يطلب من اربابها مبلغا آخر ليستعين به على مصاريفه لان وزرآء الفلمنكيين كانوا باختلاسهم قد اضروا بخزآئنه فلم يبق عنده مايكفيه حتى يظهر فى المانيا بالمظهر اللائق بالمنصب الايمبراطورى الذى هو مدعو اليه ولكن كان اقليم قومبوسطيله بعيدا عن مملكة قسطيلة وكان الاجل المضروب لدفع المبلغ الذى طلبه اولا لم ينقض فكان هذان الامران وهما عقد المشورة بهذا الاقليم البعيد وطلب الاعانة قبل انقضاء الاجل من اسوء الحوادث عاقبة واشدها هولا وخطرا حتى انه عما قليل نشأ عنها حنق الامة الاسبانيولية وغضبها حيث كانت ذات حرية زآئدة وكانت عادتها ان تقترع على ملوكها فيما يطلبونه لانفسهم فكتب القضاة لكرلوس يتشكون من هذين الامرين هذا وكان سكان مدينة ولادوليدة يأملون ان انعقاد المشورة سيكون بمدينتهم فلما رأوا ان كرلوس يريد انعقادها بمدينة غاليسة غضبوا واشهروا السلاح على الملك وحفدته وبلغ منهم الغضب مبلغا حتى صاروا كالمجانين بحيث لولم تحصل ريح عاصفة ساعدت كرلوس وجماعته على الفرار لقتل كل من كان معه من الفلمنكيين واعسر عليه هو الرحيل الى اقليم قومبوسطيله فكان كرلوس كلما مر بمدينة يتشكى اليه اهلها من كونه امر بعقد المشورة فى مدينة غاليسة الا انه كان قد صمم كل التصميم على عقد المشورة بهذه المدينة فلم يلتفت لقول احد ممن تشكى اليه فى ذلك وقد بذل وزرآء كرلوس مافى وسعهم من الشوكة والحيلة ليكونوا انتخاب ارباب المشورة من اناس يساعدونهم على اغراضهم حتى لايتوقفوا فى قبول مقاصدهم ومع ذلك كان غضب جمهور الملة شديدا بحيث انه عند افتتاح المذاكرة فى المشورة

ملطب
افتتاح المذاكرة بالمشورة فى اول يوم من شهر نيسان

ظهرت

سنة ١٥٢٠ ظهرت علامات الحزن والغم على وجوه كثير من رسل العمالات ووكلاء الملة
حتى كان يخشى ان يناقضوا الملك كل المناقضة ويفسدوا عليه وعلى وزرائه
جميع مقاصدهم فاما مدينة طليطلة ففعلت ما تقتضيه العادة الجارية
عندهم من قديم الزمان وهى ان الوكلاء ينتخبون بطريق القرعة فوقعت
القرعة فى تلك المرة على رجلين ثبت عليهما انهما اخذا ارشوة من الوزراء
الفلمنكيين فلما ثبت عليهما هذه الخيانة لم يرض اهل طليطلة
ان يبعثوهما فى تلك المشورة ويأتمنوهما على مصالحهم وارسلوا بدلهما اثنين
اوصوهما بان لا يقرا صحة انعقاد المشورة فى مدينة غاليسه واما رسل
مدينة سلمنكه فأبدوا انهم لا يأخذون على انفسهم ميثاقا بالصدق والامانة
مطلب ازدياد غم اهل قسطيلة الا اذا رضى كرلوس بانتخاب محل آخر لعقد المشورة غير اقليم قومبوسطيله
واما رسل مدينة تورو ومدينة مدريد وقرطبة وعدة مدائن اخرى
فأبوا كل الاباء ان يسلموا للملك فى الامداد الجديد الذى طلبه قائلين انه
لم يسبق لهم مثل ذلك من ملوكهم بل هو امر مخالف لقوانين المملكة مع
عدم الحاجة اليه الان كرلوس ووزراءه لم يدعوا شيأ مما يؤثر فى الجمعيات
الاهلية ويستعطف قلوب اربابها الا فعلوه فاخذوا يستعطفون بعض الناس
بالاموال وبعضهم بالمناصب والمواعيد وبعضهم بالتخويف والتهديد وكان
الامير شيوره وغيره من الامراء الفلمنكيين لا ينفك عن مواساة طائفة
الاشراف بالتملق والمداهنة وكان الاشراف فى غيظ وغيرة شديدة من
استقلال الجمعيات البلدية الاهلية وحريتها الحاملة لها على العصيان
والخروج فانضم بعضهم الى حزب كرلوس وساعدوه فيما كان يطلبه
وبعضهم كف عن معارضته ومناقضته فى نيل ماربه وتنفيذ اغراضه وبالجملة
فمع تشكى الملة من هتك حرمة الرسوم القديمة المبنية عليها الحكومة انحط رأى
الجمهور فى المشورة على اعطاء كرلوس ما يطلبه من الاموال على سبيل
التبرع فاخذه الان ارباب المشورة عرضوا عليه ان ينصفهم فى المظالم التى
تشكت منها الملة سابقا ولكن لما نال ما كان يأمله ضرب صفحا عن هذا الامر

سنة ١٥٢٠

لعلمه انه لا يصيبه ضرر اذا ارتده عليهم ولم يقل لهم شكوى فى شأنه
وحيث لم يبق ثم ما يمنع الايمبراطور كرلوس عن السفر اظهر مقاصده التى
كان اضمرها الى هذا الوقت وهى انتخاب اناس يجعلهم نائبين عنه فى اسبانيا
ليقوموا بتدبير مصالحها مدة غيبته فجعل الكردينال ادريان بالنيابة على
مملكة قسطيلة والامير جوانى دو.نوزه على مملكة اراغون
وولى الامير ديبغ ماندوزه قونتة ميليطو على بلنسيه ففرح
القسطيليون بتولية الاخيرين واما ادريان فمع انهم كانوا يحترمونه
ويعظمونه دون غيره من سائر الامرآء الفلمنكيين لم ينشأ عن توليته الا ازدياد
كراهتهم لاهل الفلمنك وغيرتهم منهم حتى ان الاشراف وان كانوا قد تحملوا
من المظالم ما هو اعظم من ذلك غضبوا كل الغضب ورأوا ان تولية هذا الرجل
مما يزرى بهم ويكسبهم العار والخزى فادعوا ان هذا الانتخاب فاسد لمخالفته
لاصول المملكة وقوانينها وبذلوا جهدهم فى ابطاله ولكن كان كرلوس على
غاية من التشوق الى الارتحال الى بلاد المانيا وكان ندماؤه الفلمنكيون
فى قلق عظيم من المكث فى اسبانيا فلم يعتن بتشكى القسطيليين ولم يبحث
عن ادنى وسيلة يحترس بها من اضرام نيران فتنة كانت وقتئذ آخذة فى الظهور
بمدينة طليطلة وترتب عليها فيما بعد عواقب سيئة مشؤمة فركب البحر
من مدينة كورونيا فى ٢٢ من شهر ايار وعجل بالرحلة الى المانيا
ليأخذ تاجه الجديد مع انه بهذه العجلة عرض نفسه لاضاعة تاجه القديم الذى
هو اعظم فائدة من الجديد واشد تمكنا منه

مطلب
جعل كرلوس اناسا ينوبون عنه ويقومون بمصالح ممالك اسبانيا مدة غيبته

مطلب
ارتحال كرلوس الى البلاد الواطية

(المقالة الثانية)

من اتحاف ملوك الزمان بتاريخ الايمبراطور شرلكان

قد كان ثم عدة مقتضيات تدعو كرلوس الى الحضور ببلاد المانيا حتى
جعلت حضوره بها من اشد الاشياء لزوما وذلك ان الامراء المنتخبين كانوا
فى قلق عظيم من طول غيبته لان الكرسى الايمبراطورى كان خاليا عمن يقوم
بادارة الايمبراطورية وزيادة على ذلك كانت دول كرلوس الوراثية فى هرج

مطلب
لزوم حضور كرلوس ببلاد المانيا

سنة ١٥٢٠

واضطراب بسبب الفتن الداخلية التى كانت وقتئذ تنمو فى جهاتها وتزداد بارجائها وكانت المذاهب الدينية الجديدة تتقدم كل يوم تقدما عجيبا حتى كان اطفاء نيران الفتن الناشئة عنها يستدعى زيادة الحزم والعزم ومع ذلك كله كان ملتفتا الامر آخر جسيم وهو حالة سلوك ملك فرانسا فان كرلوس رأى نفسه عرضة للاخطار العظيمة ان لم يحترس بجميع ما فى وسعه للمدافعة عن نفسه من هذا الملك الشديد البأس والشوكة

مطلب
منشأ العداوة بين كرلوس وفرنسيس الاول وازديادها بالتدريج

ولما اخذ كرلوس وفرنسيس الاول يتنازعان فى شأن التاج الايمبراطورى تعاهدا ان يبقيا مع بعضهما على المراعاة والاحترام بحيث لا يظهر من احدهما لصاحبه ادنى شئ يدنس عرضهما ويزرى بشأنهما فقد قال فرنسيس الاول مع خلوص طويته كما هو عادته فى معاهداته ما معناه نحن نسعى فى تحصيل غرض واحد فيلزم ان يبذل كل منا جميع وسعه فى تحصيل هذا الغرض فاذا ساعد احدنا الحظ ودعى الى هذا الامر وجب على الآخر ان يرضى بالمقدور ويحفظ عهود الصلح وعلائق المحبة انتهى ولا شك ان مثل هذين الملكين الشابين ذوى الشمم وشرف النفس المتولعين على حد سوآء بنيل العلا والفلاح لا يستغرب منهما البقاء على هذا الميثاق لكنهما ادركا فيما بعد انهما قد تعاهدا على امر لا يمكنهما مراعاته وحفظه حيث انه فوق طبيعة البشر لان النفوس البشرية لضعفها لا تستطيع ان تمكث على حفظ ميثاق الصلح اذا رأت ان عدوها قد تغلب على غرض هو اقصى مناها فانه لما رجح جانب كرلوس عندها الى اوروبا ودعى الى الكرسى الايمبراطورى غضب فرنسيس غضبا شديدا وداخله من الحقد ما يقوم عادة بكل نفس طماعة خابت آمالها فمن ثم نشأت العداوة التى لم تخمد نيرانها من قلوب هذين الملكين مدة حكمهما لاسيما وكانت اغراضهما تتعارض وكانت اسباب الاختلال والفشل متراكمة حينئذ فكادت نيران الحروب لا تنطفى ابدا من بينهما فاما الاغراض التى كانت تتعارض فهى ان كرلوس لم يعمل بما فى البند الاصلى المسطر فى مشارطة نوايون السابق ذكرها (وحاصل هذا البند هو أن حنا دالبرطه متى طلب

سنة ١٥٢٠

مملكته من كرلوس ولم ينصفه جاز للملك فرنسيس ان ينضم الى حزبه ويدافع عنه على اى وجه كان) فلم يعتن كرلوس بهذا الشرط وابى ان ينصف حناد البرطه الذى كان ملك نواره وطرد منها بدون حق لاسيما وكانت مصالح فرنسيس وشعائر شرفه تدعوه الى اعادة حناد البرطه الى كرسى نواره حيث سلب منه بطريق الافتيات والتعدى واما فرنسيس فكان يتطلب تاج نابلى لانه كان للملكة الفرنساوية فتغلب عليه الملك فرديننند ظلما وعدوانا من كان ملكا على فرانسا قبل فرنسيس وضمه الى مملكة اسبانيا وكان الايمبراطور كرلوس يتطلب دوقية ميلان لانها من اراضى الايمبراطورية فتغلب عليها فرنسيس وبقيت فى حكمه بدون ان يقره عليها من يلزم اقراره وكان كرلوس ايضا يعد دوقية بورغونيا من مخلفات ابائه واسلافه فتغلب لويز الحادى عشر ملك فرانسا عليها بمحض الاغتصاب هذا وكان فرنسيس قد جدد حينئذ عهود محبة اكيدة بينه وبين دوق غو يلدروس وكان الدوق المذكور عدوا لكرلوس ولعشيرته فأودع ذلك فى قلبه غيرة شديدة

مطلب
المذاكرات التى حصلت قبل حصول الحرب بين فرنسيس وكرلوس

ولاشك ان مثل تلك الاسباب السابقة توجب الشقاق والحرب ولو بين ملكين آخرين خاليين عن المعاداة والطمع وحيث كان هذان الملكان يعلمان ان الحرب بينهما يكون خطرا وعواقبه شنيعة وانه بعد نصب ميدانه لا يرجى لهما عود الى الصلح ظهر على كل منهما انه فى حيرة كبيرة خوفا من العواقب الخطرة التى تنشأ ضرورة عن هذا الحرب فمكث كل منهما مدة وهو يتبصر فى عاقبة امره ويختبر قواه العسكرية ويقابل بينها وبين قوى خصمه ويسعى فى استمالة ملوك اوروبا الآخرين ليعينوه فى مشروعاته

مطلب
مداولاتهما مع البابا

وكان البابا ليون يخشى كلا من هذين الخصمين لانه كان يعلم ان من يغلب منهما يستولى على بلاد ايطاليا ويتصرف فيها كيف شاء وكان احب شئ اليه ان يسعى فى اضرام الحرب بينهما الا انه رأى ان بلاد اللنبردية البنادقة تصير ميدان الحرب والازدحام ولولا ذلك لبذل جهده فى ايقاع الفشل والتفاقم

بينهما

بينهما حتى تنعدم قواهما فى الحروب لكنه كان يرى ان ذلك يعود عليه بالضرر سنة ١٥٢٠
وانه بمجرد حصول الحرب بينهما تسير جيوش فرانسا وجيوش اسبانيا
حتى تتلاقى بدوقية ميلان فتصير تلك الدوقية ميدان القتال بين الحزبين
وحيث انها قريبة من تخته وله مصلحة كبيرة فى هذا الحرب ولا يمكنه ان يمكث
خليا اى لا يجعل لنفسه مدخلا فيه وينضم الى احد الحزبين اضطر بهذه
الاسباب الى ان يسلك على حسب مقتضيات الاحوال اذ ذاك واخذ يتداول
مع كل من الامبراطور كرلوس وملك فرانسا وسلك طريق المداهنة والتملق
ليستوجب محبتهما بمخادعته فترجاه كل منهما الرجاء الكلى ان يكون ظهيره
ونصيره فاظهر انه خلى الاغراض مع انه كان يضمر حقيقة نيته ولا يبدى ما فى
طى طويته واستعمل طرق الخداع والمكر التى امتاز بها فى عصره ارباب
السياسة من اهل ايطاليا

وكانت مصالح اهل البنادقة فى هذا الحرب كمصالح البابا فكانوا يخشون مطلب
ايضا عن ان لا تكون ايطاليا ميدان الحرب بين الفريقين وان لا يكون مداولاتهما مع اهل
لجمهوريتهم مدخلية فيه ولكن مع مخادعة البابا ليون وما اظهره من البنادقة
التخلى عن الاغراض كان ثم علامات جلية وامارات واضحة تدل على انه يميل
لحزب الامبراطور وذلك اما لانه كان يخشاه اكثر من فرنسيس اولانه كان يعلم
انه انفع له منه واما اهل البنادقة فكان يظهر منهم انهم ان الجأتهم الضرورة الى
الدخول فى احد هذين الحزبين لا يدخلون الا فى حزب ملك فرانسا لاسباب
عندهم مضاهية للاسباب التى بعثت البابا على الدخول فى حزب
الامبراطور كرلوس ولكن كان لا ينبغى ان ينتظر كبير اعانة من ملوك ايطاليا
لانهم كانوا يغارون غيرة شديدة مما عداهم من ممالك الافرنج ولا يحبون
ان تزيد شوكة مملكة منها عن الاخرى بل كان اهم مقاصدهم السياسية
المحافظة على ابقاء المساواة والمعادلة بين شوكة هذه الممالك حتى كان لا يمكن
لاحد ان يحولهم عن هذا الرأى ويدخلهم فى حزبه لاعانته الا ان اظهر لهم
المنافع الجسيمة والفوائد العظيمة

سنة ١٥٢٠

مطلب
مداولاتهما مع ملك انكلترة

وقد بذل كل من الامبراطور كرلوس وملك فرانسا غاية جهده فى استمالة ملك الانكليز اليه وادخاله فى حزبه لانهما كانا يعلمان ان هذا الملك يعين من يتعاهد معه اعانة قوية لا تؤمل من غيره وانه ليس كملوك ايطاليا يجعل ذلك موقوفا على احتراسات سياسية وكان ملك الانكليز وقتئذ هو هنرى الثامن وقد تولى على هذه المملكة سنة ١٥٠٩ وكان طالعه سعيدا حتى كان يؤمل ان حكومته ستكون اسعد الحكومات واعظمها بهجة ورونقا وكان جامعا بين حقوق عشيرة يورقه الملوكية وعشيرة لنكستره وهذه الحقوق كان يعارض بعضها بعضا فلما سعى فى معاهدته كل من كرلوس وملك فرانسا واذعناله بالطاعة ازداد بهجة فى اعين رعاياه وغيرهم حتى امكنه ان يتصرف فى ادارة مملكته كيف يشاء وصار يحكمها مع شوكة قوية وكلمة مطلقة لم يتجاسر احد ممن سلف قبله من الملوك على مثلها الا ويكون عرضة للاهوال والاخطار بل وامكنه ايضا ان يجعل لنفسه مدخلية فى مصالح الممالك الافرنجية البرية القارة مع ان انكلترة مكثت قبله زمنا طويلا تبذل جهدها فى هذا الغرض ولم تتمكن منه لما كان فيها من الفتن والتقلبات الداخلية وزيادة على ذلك كان هنرى المذكور قد ورث عن اسلافه خزائن واموالا لا تحصى فصار بها من اغنى ملوك الافرنج واعظمهم ثروة وذلك ان الملك الذى كان على انكلترة قبله عرف بحسن ادارته وحزمه ان ينشر الوية الامن فى المملكة حيث اصلح الخلل والفساد الذى نشأ فيها عن الحروب المدنية الداخلية غير ان هذا الامن لم يمكث مدة مستطيلة حتى تعود للمملكة الانكليزية شوكتها ويقوى عزمها فلما سئمت نفوس الانكليز من الفشل والشقاق الذى كان بينهم ولحقهم الخزى والعار من كونهم مكثوا زمنا طويلا وهم يجعلون وطنهم ميدانا لسفك دماء ابناء ملتهم جزعوا كل الجزع رغبة فى اظهار شهامتهم وشجاعتهم فى حرب اجنبى اى مع ملة اجنبية لكى يحيوا ذكر فخار آبائهم وما ثر اسلافهم وكانت طبيعة هنرى تلايم حال مملكته وميل رعاياه فكان طماعا نشطا ذا مهارة وجسارة وكان ممتازا بنجابته وخفته فى سائر

مطلب
بيان عظم شوكة ملك انكلترة

مطلب
مناقب هنرى واخلاقه

انواع

سنة ١٥٢٠

انواع التعليمات العسكرية التى كانت فى ذلك العصر الجزء الاهم فى تربية الاشراف وبذلك صار من صغره له ولوع عجيب بالحرب والقتال وكان متولعا كل التولع بالتصدى الى حرب اجنبى كى يشهر اوائل حكومته بحادثة عظيمة فبينما كان كذلك اذ لاحت له تلك الفرصة العظيمة وكان قد انتصر فى واقعة غنغات وفى محاصرة مدينة تروانه ومدينة تورين فصار بتلك التصرات يرفل فى حلل الفخر والسودد وان لم يترتب عليها كبير جدوى لبلاد انكلترة وثبت عند ملوك الافرنج انه ذو شوكة عظيمة وتيقن كل من كرلوس وملك فرانسا انه ينفع من يتعاهد معه كل النفع وزيادة على تلك الاسباب كان هنرى آمنا من كل اغارة اجنبية بسبب وضع دوله خصوصا وكانت مدينة كاليس من جملة بلاده فكان يسهل عليه بواسطتها ان يدخل فى مملكة فرانسا ومملكة البلاد الواطية فبهذه الاسباب القوية كان ملاذا لبلاد اوروبا وراعيا لحمى حريتها وكان لا يصلح غيره لان يكون حكما بين ملك فرانسا والامبراطور كرلوس وكان يعلم انه بهذه الاسباب السابقة يرجح على غيره ويعرف انه لاجل ابقاء المعادلة والمساواة بين ملوك الافرنج حتى لا يتعدى ملك على آخر يلزمه ان يحافظ على ابقاء تلك المعادلة بين كرلوس وملك فرانسا بحيث لا يظهر احدهما على الآخر لان من قوية شوكته منهما اضر بالآخر وخشى منه على بقية ممالك اوروبا غير انه لم يكن خليا عن الاغراض ولا مستكملا للسياسة والحزم اللازمين لتنجيز هذا المشروع الجسيم بل كان صاحب اغراض سهل الانقياد الى شهوات نفسه سريع الاجابة لداعى اطماعه وكان يميل الى المباهاة والتفاخر ومن كانت هذه صفته لا يمكنه ان يدبر مثل هذا الامر السياسى الجسيم ولا ان يتتبعه بدون فتور حتى يتمه ويقضى امره ففى كل وسيلة احترس بها مدة الحرب بين كرلوس و فرنسيس قل أن يراعى المصلحة العامة او مصلحة نفسه بل كانت جميع تلك الوسائل تبعثه عليها شهواته النفسانية التى طمست على بصيرته فعمى عن ادراك مصالحه الحقيقية وهذا هو الذى منعه عن ان يكون له صولة عظيمة ومدخلية كبيرة

سنة ١٥٢٠

في مصالح اوروبا فلم يجن ثمرة تلك الفرصة الجليلة التي كان يسهل عليه اجتناؤها بموجب مقتضيات الاحوال اذ الدول لولاحت هذه الفرصة لملك آخر اكثر منه سياسة وتحيلا ولو كان ادنى منه قريحة وعقلا لاغتنم منها فوائد جليلة ومنافع جزيلة

مطلب
بيان طباع وزيره الاول وهو الكردينال ولسي

ومع ذلك فلا ينبغي ان نقول ان مثالب هنري وعيوبه الذاتية هي التي اوقعته في سبل الغي التي سلكها في ادارته وتدبيره بل نقول ان الذي اوقعه في اغلبها هو خيانة وزيره ونديمه الكردينال ولسي لانه كان شرها طماعا كثير الاغراض قبيح السلوك خبيث الطوية وكان من اراذل الناس فرقي من حضيض الرعاع الى اوج الامراء وصارت له صولة وشوكة لم يصل اليها قبله احد من الرعايا فكان له موقع عظيم في قلب هنري وان كان اشد الملوك عتوا وتكبرا ولما كان هذا الوزير له معارف غزيرة في كل مادة امكنه ان يجمع بين امرين متناقضين وهما الوزارة والمنادمة وكان ذا عقل ثاقب وفهم صائب لا يكل من المداومة والمواظبة على الشغل وكان يعرف ظاهر الدولة وباطنها حق المعرفة ويعرف اغراض الممالك الاجنبية ومقاصدها فامكنه ان يوفي على ما ينبغي بما يخص تصرفه المطلق وكان ذا ادب في احواله واطواره ظريف المنطق بديع العقل تميل النفوس الى مسامرته وحكاياته وتتسارع الى سماع عباراته يحب التزين والتجمل له براعة عظيمة في العلوم الادبية التي كان هنري مشغوفا بها وبهذا كله استولى على قلب هنري المذكور حتى صار يأتمنه ويثق به كل الوثوق ويعتمد عليه في كل امر قل او جل وصارت شوكته تقرب من الشوكة الملوكية الا انه كان لا يستعمل تلك الشوكة في نفع الملة الانكليزية او فيما يكسب ملكه العظم والجاه وكان طماعا مبذرا لا ما قنعت نفسه قط من الاموال والغنى ولم يكتف بما حصله منها بل كانت آماله متعلقة بتحصيل امور جديدة يزداد بها عظمه وعلو شانه ولما رأى انه صار ذا شوكة كبيرة وموقع عظيم في قلب الملك هنري وان كان لا يستطيع ان يصغي الى مشورة غيره في شيء اخذ يسلك مسلك الكبر والعتو الذي

سنة ١٥٢٠

تنفر منه النفوس ولم يلتفت الى غير اغراضه وشهواته النفسانية حتى اضطر كل من اراد استمالته او استمالة ملكه هنرى ان يتملق له ويداهنه ويوفيه بما يرضي نفسه الخبيثة الطماعة

مطلب
مداولة الملك فرنسيس مع الوزير ولسى

وفي ذلك الوقت كان جميع ملوك الافرنج يبحثون عن استمالة هنرى اليهم فسلكوا جميعا مع وزيره ولسى سبيل التملق والمداهنة وارتكبوا من الدناءة ما يزرى بمقام الملوك فلم يبق احد منهم الا واتحفه بهدايا نفيسة او وعده بامور جسيمة ليستعطفه ويستميل نفسه الطماعة الكثيرة الشره وفي سنة ١٥١٨ اختار الملك فرنسيس الامير بونيويطه وجعله قبطان باشا وكان من احذق ارباب ديوانه وامهر ندمائه واكثرهم نشاطا وامره بان يبذل غاية جهده في استعطاف ولسى واستمالته الى حرب فرانسا واظهر فرنسيس بنفسه الى ولسى المذكور سائر ما يدل على التبجيل والاحترام وصار يثق به ويعتمد عليه في كل شئ فكان يشاوره في اهم المصالح ويمتثل ما يأمره به ويقبل نصحه بدون توقف وجعل له مرتبا عظيما فاحبه ولسى وظهر منه ما يدل على ذلك حيث انه الح على الملك هنرى برد مدينة تورنى الى ملك فرانسا وحسن له ان يزوج بنته مارية لابن فرنسيس وان يجيب هذا الملك فيما كان يطلبه منه وهو ملاقاته والاجتماع عليه ومن ذلك الوقت تجددت روابط اكيدة بين ديواني مملكة انكلترة ومملكة فرانسا وكان فرنسيس يعتقد ان استمالة الوزير ولسى اليه واستعطافه اياه من اهم الاشياء واكثرها نفعا فلم يزل يحافظ على ابقاء المحبة بينهما ويظهر له غاية ما يمكن من الاحترام والاكرام فكان لا يخاطبه في مراسلاته الا بقوله الى والدنا ووصينا وولينا ومربينا واما كرلوس فقام

مطلب
مودة الامبراطور كرلوس للوزير ولسى

بنفسه غيرة عظيمة من تجديد ميثاق هذه المحبة لكنه كان له قرابة قريبة بهنرى ملك انكلترة فرأى انه احق بمحبته من الغير فبعد ان اخذ تاج مملكة قسطيلة بقليل سعى في استعطاف ولسى واستمالته اليه ورتب له سنوية ثلاثة آلاف من الفرنكات (الفرنك اربعة قروش) واول ما اهتم به كرلوس هو

سنة ١٥٢٠

البحث عما يمنع به مقابلة ملك انكلترة مع ملك فرانسا لانه كان يخشى عاقبتها حيث ان ملك انكلترة وملك فرانسا كانا شابين فمن الجائز انهما عند مقابلتهما تقع بينهما المحبة الاكيدة والمودة المتينة لاسيما وكانت طباعهما تقتضى ذلك فيأخذ كل منهما بعقل صاحبه ولكن لم يمكن لكرلوس ان يمنع هذه المقابلة وبعد ان اعدت جميع الاشياء ومواد الاحتفال اللازمة لمقابلة هنرى و فرنسيس واحترس كل من ديوان فرانسا الملوكى وديوان انكلترة كل الاحتراس حتى لا يخشى على هذين الملكين من تلك المقابلة وعين زمانها ومكانها ولم يكن ذلك الا بعد مدة مستطيلة بسبب تجهيز لوازم الاحتفال واتخاذ وسائل الاحتراس المتقدم ذكرها ارسلت البرد والسعاة الى سائر الدواوين الملوكية ليدعوا منها الامرآء للحضور بميدان السباق والعاب التورنواس والمرماح التى ستحصل بين هنرى و فرنسيس وامرائهما الشوالرية اى الفرسان وكان لكل من هنرى و فرنسيس محبة كبيرة فى مثل هذه المحافل فكان يصعب منعهما عن البراز بهذا المحفل العجيب المبتهج وعن الحظ والفخار الذى يحصل لهما منه لاسيما وكانا يعلمان انهما سيظهران فيه بمظهر الابهة والرونق فيصير لهما موقع عظيم فى قلوب الناس وكان للكردينال ولسى كذلك رغبة تامة فى اظهار بهجته بحضرة ارباب ديوانى هنرى و فرنسيس ليرى الملة الانكليزية والملة الفرنساوية صولته العظيمة عند هنرى و فرنسيس فلما رأى كرلوس انه لا يمكنه منع مقابلة هذين الملكين اهتم بان يجعلها غير مجدية بحيث لا يخشى عاقبتها ولا يتم لفرنسيس غرض منها ولا مأرب فبادر الى ملاقاة هنرى قبل ذهابه الى فرانسا لملاقاة الملك فرنسيس ولاجل ان يستميل الملك هنرى ووزيره ولسى اظهر من الادب وشعائر التملق والمداهنة اكثر مما فعله ملك فرانسا وذلك انه لما سافر من مينا قورون كما تقدم قصد انكلترة ورسا على مدينة دورس ولم يخش على نفسه من شئ اعتمادا على كرم الملك هنرى الشاسن ومروءته فتعجبت الملة الانكليزية من مجيء كرلوس الى انكلترة

مطلب
ذهاب كرلوس الى انكلترة

على

سنة ١٥٢٠ على حين غفلة ولكن كان الوزير ولسى يعلم سبب مجيئه وجميع مقاصده وذلك انه حصلت من قبل مذاكرة فى هذا الشان بين هذا الوزير وارباب ديوان اسبانيا الملوكى فانحط الرأى على ان كرلوس يتوجه الى انكلترة ليزور ملكها هنرى وكان كرلوس اذا كاتب ولسى اوخاطبه يقول المحب الاعز واضاف الى المبلغ الذى كان رتبه له اولا سبعة آلاف من الدوقات (نوع من النقود) وحين رسا كرلوس على دورس المتقدمة كان الملك هنرى بمدينة كنتوبيرى قاصدا الذهاب الى مملكة فرانسا فلما بلغه مجيء كرلوس اسرع بارسال وزيره ولسى اليه فى مدينة دورس وسر بهذا الخبر سرورا عظيما وتلقى كرلوس مع غاية الترحيب والاكرام والتبجيل والاحترام وكان الزمن عزيزا عند كرلوس فلم يمكث بانكلترة الا اربعة ايام لكنه فى هذه المدة القليلة عرف بنباهته وحزمه كيف يستميل اليه ملك انكلترة ويرغب الوزير ولسى حتى اخذ بعقله ونقله من حزب فرانسا وجعله فى حزبه وذلك ان هذا الوزير لم يكن مكتفيا بالمقام والثروة والصولة والكلمة النافذة التى كانت له بل كان دائما يبحث عن منصب البابا الذى هو اعظم المناصب الدينية وحيث كان فرنسيس يعلم رغبته فى ذلك رأى ان وعده اياه باعانته على تحصيل هذا المنصب هو اقوى واسطة فى استمالته اليه فوعده بانه عند خلو كرسى البابا يبذل غاية جهده فى اجلاسه عليه وكان الامبراطور كرلوس اعظم من فرنسيس صولة وانفذ كلمة فى هذا الشان فحين وعد ولسى بانه يعينه بجميع جهده على تحصيل منصب البابا فرح ولسى كل الفرح وعدل عن العصبية لفرنسيس واخذ يبذل غاية جهده فى تنجيز مقاصد كرلوس مع ان ما وعده به الامبراطور كرلوس كان بعيد الحصول جدا لان البابا ليون العاشر كان حينئذ فى عنفوان شبابه ولكن لم تنعقد مشارطة فى ذلك الوقت بين هنرى و كرلوس وانما وعده هنرى بانه بعد مقابلته لملك فرانسا يذهب اليه فى البلاد الواطية ويزوره فى نظير زيارته له

مطلب
استمالة كرلوس للملك هنرى ووزيره ولسى

سنة ١٥٢٠

مطلب
مقابلة هنرى لفرنسيس الاول فى ٧ من شهر حزيران سنة ١٥٢٠

ثم ان مقابلة هنرى مع ملك فرانسا كانت فى سهل متسع بين مدينة غينه ومدينة ادروس وبهذا السهل اظهر كل من الملكين واتباعهما ابهة ورونقا عظيما حتى سمى هذا السهل معسكر الجوخ المذهب لما كان به يومئذ من الخلع المرصعة والحلل المزركشة ومكث الملكان مع بعضهما ثمانية عشر يوما وفى تلك المدة كان الامرآء ارباب ديوان فرانسا وديوان انكلترة يبدون مايدهش العقل من العاب الفرسان والمحافل الظريفة وغيرها من الملاعب البهية التى كان يمتاز بها ذلك الزمن وسلك فرنسيس مع هنرى فى تلك المدة مسلك الادب وعامله المعاملة التى تستعطف القلوب فأثر ذلك فى هنرى ومال الى فرنسيس الا ان الوزير ولسى اذهب بخداعه ماكان قد رسخ فى قلبه من المحبة لفرنسيس ومحته ايضا مقابلته مع الايمبراطور كرلوس بمدينة غزاولينوس نعم ان كرلوس لم يقابله مع الرونق والبهجة التى تلقاه بها فرنسيس قريبا من مدينة غينه لكنه اعتنى بمصالحه السياسية اكثر من فرنسيس وفاقه فى النجاح

فى ١٩ من شهر تاموز

مطلب
ماقام بنفس هنرى من عظم شوكته

ولما رأى هنرى ان كلا من كرلوس و فرنسيس كان يبحث عن استمالته والتودد اليه وهما اعظم ملوك الافرنج ظن ان ذلك منهما اعتراف له بانه ميزان التعادل بين الممالك الافرنجية ولم يزل هذا الظن يقوى فى نفسه حتى كان دائما يلهج بقوله من ساعدته ايقن بالنجاح وظفر بالمقصود وتمكن من نفسه هذا الظن حين عرض عليه كرلوس ان يكون حكما بينه وبين فرنسيس فى جميع الامور واى شئ يدل على صفاء باطن كرلوس وخلوص طويته اكثر من كونه يتخذ من هو محب له ولخصمه على حد سوآء حكما بينهما ولكن كان قد اخذ بعقل الوزير ولسى فاتخاذه لهنرى حكما بينه وبين خصمه كان فى الواقع اعظم الاشياء مخادعة واسوءها عاقبة لملك فرانسا كما علم ذلك مما حصل فيما بعد

مطلب
تتويج كرلوس بالتاج الايمبراطورى

ومع ان كرلوس كان يحب البلاد الواطية لانها اصل غرسه ومسقط رأسه لم يمكث بها فى تلك المرة مدة مستطيلة بل بعد ان هناه ابناء وطنه وفعلوا معه مايليق بمقامه من الاكرام والتبجيل والاحترام سافر سريعا الى مدينة

سنة ١٥٢٠

في ٢٣ من شهر تشرين الاول

اكسيلاشبيلا ليلبس فيها تاج الايمبراطورية لانه بموجب فرمان الذهب كانت هذه المدينة محل تتويج الايمبراطرة فالبس كرلوس بتلك المدينة تاج الايمبراطور شرلمانيا بحضرة جمعية كبيرة لم يسبق مثلها وسمى من ذلك الوقت شرلكان اى كرلوس الخامس وكان تتويجه مع الرونق والبهجة التى يعتنى بها اهل المانيا فى محافلهم العمومية لاسيما محافل الايمبراطرة

مطلب
تولية السلطان سليمان الفاخر على كرسى الدولة العثمانية

١ من بابا
٢ من امبراطور
٣ من فرانس
٤ من الملك

وبعد تولية الايمبراطور شرلكان بقليل تولى على الدولة العثمانية خصم صعب وخطر عليه وهو السلطان سليمان الفاخر الذى فاق سلاطين الدولة العثمانية فى الخصال الحميدة الجليلة والمشروعات العظيمة وفاقهم ايضا فى النجاح والظفر باعدآئه وكفى ذلك العصر فخرا ان وجد به اعظم الملوك الذين ظهروا الى ذلك الوقت ببلاد اوروبا فلو كان السلطان سليمان والبابا ليون العاشر والايمبراطور شرلكان والملك فرنسيس الاول والملك هنرى الثامن قد ظهروا فى اعصر مختلفة لكانت معارف كل واحد منهم تكفى فى فخار العصر الذى ظهر فيه فما بالك وقد ظهروا كلهم كالكواكب الساطعة فى القرن السادس عشر فكان لهذا القرن من الرونق والبهجة مالم يسبق لغيره من القرون فلم يحصل حرب بين فريقين منهم الا وبادرا الى ميدانه بقوى عظيمة ومعارف جسيمة فكانت اذا تعارضت قواهم وقرآئحهم تراها على حد سوآء فلا تفوق قريحة احدهم ولا قواه العسكرية قريحة الآخر ولا قواه ونشأ عن ذلك حوادث جسيمة ووقائع عظيمة تثير الرغبة وتشوق النفوس الى الاطلاع على تاريخ ذلك العصر ونشأ عنه ايضا منع ازدياد قوة احد هؤلاء الملوك على غيره وذلك من اهم الاشياء لانه لو زادت شوكة احدهم على الآخر ربما اضر ذلك بحرية اوروبا وترتب عليه شقاء البشر وسوء حظ العالم

مطلب
انعقاد مشورة الدييتة فى مدينة وورمس

واول شئ افتتح به الايمبراطور شرلكان تدبيره فى ايمبراطورية المانيا هو انه امر بعقد مشورة الدييت اى مجلس العموم بمدينة وورمس

في ٦ من شهر كانون الثاني سنة ١٥٢١ وكتب في مراسلاته الى امراء المانيا ان الغرض من عقد تلك المشورة المذاكرة في معرفة الوسائل التي بها يكون منع تقدم الاراء الدينية الجديدة حيث انها خطرة يخشى منها تعكير بلاد المانيا واضرام نيران الفتن فيها ويخشى منها نسخ دين آبائهم واسلافهم سنة ١٥٢٠

مطلب منشأ ما وقع في دين النصرانية من النسخ

وكان شرلكان يعني بذلك المذاهب الدينية التي نشرها المشرع لوتير واصحابه منذ (سنة ١٥١٧) فان هذه المذاهب كانت سببا فيما لحق دين النصرانية من النسخ وانقذت بعض اوروبا من اسر البابا وحكمه واضعفت هذا الحكم في البعض الآخر حتى صار لا ثبات له وترتب على ذلك انقلابات وتغيرات كانت اكثر نفعا للنوع البشري واكبر من سائر التغيرات التي حدثت منذ ظهور دين النصرانية فاذن ينبغي مزيد الالتفات الى معرفة الحوادث التي كانت سببا في ظهور هذه المذاهب الدينية الجديدة ومعرفة الاسباب التي نشأ عنها سرعة التقدم وقبولها فنقول

قد اتفق محققو المؤرخين ممن تجل قر يحته عن ارتكاب الخرافات واتباع سبل البدع والترهات على ان نجاح لوتير في مشروعاته انما هو محض مقدرات الهية واحكام ربانية كيف لا وقد نسخ دينا قديما متمكنا من قلوب الناس منذ قرون خالية واعصر ماضية ومؤيدا باهل الشوكة والسطوة وله من يدافع عنه ويذب عن شعائره مع الفطنة والحزم بدين جديد يغايره ثمرة وغاية وتجز هذا المشروع الجسيم الصعب من غير ان يكون له شوكة قوية حتى يحمل الناس ويكرههم على قبوله فان الله عز وجل اذا تعلقت ارادته بشيء ولو عده اذكياء الناس من المستحيلات دبر امره باسهل الطرق وقضى بتنجيزه وقد استدل الناس على نصر الله عز وجل لدين النصرانية في عهد عيسى عليه السلام بايات باهرة ومعجزات ظاهرة اثبتت ان هذا الدين حق صحيح لا ريب فيه وبناء على ذلك لو فرض ان من نسخ دين النصرانية بما استظهره من المذاهب الدينية ليس ملهما او منعما عليه بفيض رحماني او اودع سرا الهيا اخرجه عن طور البشر من بعض الوجوه نقول ان من العجيب الذي يعد من خوارق

العادات

سنة ١٥٢٠

العادات كون الدهر بمقتضياته قد ساعد هؤلاء المستظهرين المشرعين حيث مهد العقول الى قبول مذاهبهم فظفروا بمرامهم مع ضعف شوكتهم وسياستهم وانتصروا على اعدآئهم مع انهم كانوا اصحاب شوكة وسطوة ونشروا اعلام مذاهبهم رغما عن انف اخصامهم فهذا يدل على ان القدير جل جلاله كما انه هو الذى شرع دين النصرانية اقتضت حكمته ايضا ان يخرج عنه دين جديد وينقل من حالة الضعف والخمول التى كان عليها فى مبدء امره الى اقصى درجات القوة والظهور

مطلب
ضعف اسباب الدين الجديد فى مبدء امره

واسباب هذه الحادثة العظيمة (اى تغيير الدين) كانت فى مبدء امرها واهية ضعيفة ولم تكن بحسب الظاهر الامن قبيل الصدفة والاتفاق وذلك ان البابا ايون العاشر حين جلس على كرسى الكنيسة الرومانية لم يجد شيأ من ايراداتها الا انها كانت قد نفدت فى المشروعات الكبيرة التى تعلقت بها آمال البابا اسكندر السادس والبابا جاليوس الثانى اللذين كانا قبله على كرسى الكنيسة وكان هو سخيا كريما بالطبع فلا يمكنه ان يسلك مسلك التوفير والتقتير مع انه كان لا بد منه فى اعادة خزآئن الكنيسة الى ما كانت عليه فكانت مصاريفه كل يوم فى ازدياد لانه كان يريد ارتقاء عائلته ويحب المباهاة والتفاخر فى امور معيشته ويعطى لارباب العلم والمعارف والقرائح والعوارف العطايا الجزيلة ويصلهم بالصلات الجليلة فلما رأى ان ايراد الكنيسة لا يكفى فى ذلك اخذ يبحث عما يكون به ازدياد تلك الايرادات من الوسايط والوسائل واستعمل فى ذلك ما يمكن اختراعه لقرائح القسوس التى لا تضاهى فى هذا المعنى فكان من جملة تلك الوسايط أن اخترع هذا البابا طريقة بيع الغفران وتكفير السيأت (بمعنى ان من اقترف ذنبا يعترف به للبابا ويدفع له مبلغا معلوما فيتجاوز عنه ويغفر ذنبه) وذلك انه على حسب الدين الرومانى يقال ان ما عمله القديسون البررة من الاعمال الصالحة يؤخذ منه ما يزيد على ما لا بد منه فى نجاتهم وسلامتهم ويضم الى حسنات سيدنا عيسى عليه السلام ودعواته الصالحة للجنس البشرى ويودع فى كنز لا يعتريه فراغ ولا انفاد ولو استعار منه

مطلب
بيع الغفران الذى جدده البابا ليون العاشر

سنة ١٥٢٠

جميع العباد واعطيت مقاليد هذا الكنز لمارى بطرس خليفة المسيح عليه السلام ثم توارثها عنه البابات فيفتحونه متى شاؤا فاذا اعطى احد النصارى للبابا الذى هو خليفة عيسى عليه السلام مقدارا من الاموال وسمح له البابا فى نظير ذلك بشئ من هذه البركات غفرت خطاياه وذنوبه وكذلك اذا احب انقاذ روح ميت من العذاب ودفع المبلغ فى نظير ذلك فان روح الميت تطهر من ذنوبها وتخلص من العذاب واول ما ظهر هذا الغفران فى القرن الحادى عشر وكان على يد البابا اوربان الثانى حيث كان يجعله جزاء لمن يحمل السلاح ويسير الى فتح ارض القدس واخذها من ايدى الاسلام ثم صار هذا الغفران يعطى لمن يحضر رجلا يقاتل فى تلك الغزوات ثم توسع فيه حتى صار يعطى لمن يدفع مبلغا من الدراهم يستعان به على تنجيز بعض امور دينية امر بها البابا فلما حكم البابا جاليوس الثانى عمم هذا الغفران وجعله لكل من بذل شيأ من الدراهم لاجل بناء كنيسة مارى بطرس فى مدينة رومة ولما بذل ليون العاشر جهده بعد جاليوس فى تتميم هذه الكنيسة الفاخرة الكثيرة المصاريف علل بما علل سلفه فى بيع الغفران ثم ان ألبرطه منتخب ميانسه ومطران مكدبورغ هو الذى انيط باذاعة هذا الغفران وجعل له فى نظير ذلك نصيب من ثمن تلك البضاعة فوكل ألبرطه المذكور راهبا من رهبان عيد الاحد يقال له تتزيل باذاعة هذا الغفران فى بلاد سكس وكان هذا الراهب شرس الاخلاق الا انه كان جيد القريحة ممتازا بالفصاحة التى تميل اليها قلوب العامة يراعى مقتضيات الاحوال وزيادة على ذلك اعانه رهبان طائفته فوفى بهذه الوظيفة على ما ينبغى ونجح فيها غاية النجاح لكنه سلك سبيل السفاهة والوقاحة فكان هو ورهبان طائفته يبالغون فى مدح الاسرار والبركات التى اودعها الله فى غفران الكنيسة وكانوا يبيعونها بثمن بخس حتى ربحت تجارتهم بين الاخلاط الذين يعتقدون ما يلقنون ويثقون بكل ما يسمعون وتجاوز هؤلاء الرهبان حدود الحياء والادب فى مخاطباتهم وسلكوا مسالك تنفر منها القلوب وتشمئز منها

سنة ١٥٢٠
النفوس حتى اغضبوا الناس ودنسوا خرقة القسوس واشتد غضب الملوك
والامرآء والاشراف حيث رأوا اذهب اتباعهم ذاهبا الى كنز البابا ليون
العاشر ليصرفه مع الاسراف والتبذير وكان القديسون من النصارى يتأسفون
على ضلال العامة ويرثون لحالهم حيث كانت تعوّل على هذا الغفران وتهمل
فى شعائر الدين وعلم العبادة وتعدل عن الفضائل التى يحث عليها دين النصرانية
حتى انتهى الحال أن صار اجهل الناس واعماهم بصيرة يتأذى من قبح سلوك
تتزيل واصحابه حيث انهم كانوا ينفقون فى اللعب واللهو والسكر والمعاصى
الموجبة للعار والفضيحة جميع الاموال التى كانت ترد لهم من التجارة
فى الغفران مع العامة التى باعتقاداتها الباطلة واوهامها العاطلة لا تبخل
ببذل ما تكون به فى السعادة الابدية والخيرات السرمدية وبالجملة فصار جميع
الناس فيما بعد يتمنون ابطال هذه التجارة المضرة بالجمعية والدين

مطلب فى الكلام على لوتير ومناقبه

ثم ان المشرّع مارطين لوتير رأى انه لا يجد فرصة اعظم من هذه لتنجيز ما ربه
وانه لا يمكن ان تصير عقول ابناء وطنه مستعدة لسماع مقالته اكثر مما كانت
عليه وقتئذ فاخذ يحدثهم فى شأن فساد هذا الغفران ويبرهن لهم على انه باطل
لا اصل له ويبين قبح سلوك من كانوا يسعون به وفساد عقائدهم وزيغهم
وفسقهم وكان لوتير المذكور قد ولد فى مدينة اسلابان بمملكة سكس
وكان اهله من ذوى الفاقة والفقر ومع ذلك تربى تربية جيدة وتمكن من العلوم
وفى اثناء تعلمه اظهر امورا عديدة مما يدل على انه من ذوى النهى والقرائح
النادرة وكانت نفسه تميل بالطبع الى كل امر صعب تقصر دونه همم الرجال
وترغب فى التقشف الدينى الذى يزهد به المرء الدنيا وزخارفها ويحب العزلة
والخمول والتورع فاعتكف فى دير من اديار الطائفة اوالرتبة الاوغسطينية
(هى رتبة من القسوس متمسكة بمذهب عابد شهير يرى ان ارواح القديسين
لا تصعد الى السماء الا بعد يوم الحساب حتى يعلم مالها وما عليها) وبذل اقاربه غاية
جهدهم فى تحويله عن هذا المقصد فلم يمكنهم منعه عنه حيث كان يميل اليه
بالطبع فدخل الدير المذكور ولبس حلة اقسته فلم تمض مدة قليلة الا وا كتسب

سنة ١٥٢٠

فيه شهرة عظيمة بالتقوى وبالتحصيل والاجتهاد العجيب حيث كانت همته لا تفتر ابدا واخذ عن مدرسين عظام الفلسفة السكولاستيكية وعلم اللاهوت السكولاستيكى (راجع سكولاستيكى فى الاتحاف) وكان كل من هذين العلمين اذذاك كبحر زاخر يغرق فى لججه واسع القريحة وغزير العقل فبذهنه الثاقب وفهمه الصائب امكنه ان يدرك اسرار دقائقهما ويقف على مكنون حقائقهما ولكن لما كان ذوقه سليما وذهنه حادا مستقيما تمكن من هذه المعارف ورأى انها عديمة الجدوى وعرف انها من الامور الجزئية التى لا طائل تحتها فعدل عنها بالكلية وسئمت منها نفسه واخذ يبحث فى الكتاب المقدس عما هو اقوى واكد منها فى الاصول الدينية والعلمية فوجد نسخة من كتاب العهد القديم والجديد كانت مهملة فى كتبخانة الدير الذى كان به فاخذها وبذل جهده فى مطالعتها وتفرغ لها بالكلية واستمر على ذلك مع الرغبة الزائدة حتى انه بعد مدة قليلة تعجب منه سائر اقرانه حيث كانوا لم يتعودوا على اقتباس شئ فى علم اللاهوت من الكتاب المقدس وحصل له تقدم عظيم فى هذا الامر الجديد وازداد صيته وشهرته فى المعارف والعبادة حتى ان الامير فريدريق منتخب سكس لما انشأ مدرسة فى مدينة ويتانبرغ التى كانت دار اقامته اختاره من بين اقرانه وادخله بتلك المدرسة ليعلم بها اولا الفلسفة ثم علم اللاهوت فوفى لوتير بما دعى اليه على وجه عجيب حتى كان يعتبر انه زينة المدرسة وبهجتها

مطلب
تصدى لوتير لمنع بيع الغفران

وكان لوتير ذا كلمة نافذة وشهرة عظيمة حين اخذ الراهب تتزيل فى اذاعة الغفران بالبلاد التى حول مدينة ويتانبرغ وهو يعزو اليه خصوصيات وفضائل بدعية خيالية قد اثرت تأثيرا قويا فى عقول الناس بغير تلك البلاد وصار لها فى قلوبهم موقع عظيم ولما كان اهل اقليم سكس ليسوا اكثر معارف من غيرهم من اهالى الاقاليم الالمانية حصل لهذا الراهب عندهم فى مبدء الامر نجاح عظيم حيث وجد فيه اناسا امنة كما وجد فى غيره وكان لوتير يتأذى ويتألم غاية الالم من زور من كانوا يبيعون الغفران

وبهتانهم

سنة ١٥٢٠ وبهتانهم وحمق من كانوا يشترونه وسخافة عقولهم وكان بيع الغفران مبنيا على مذهب الشهير توماس داكين وغيره من العلماء السكولاستيكية وكان لوتير لا يثق بآراء هؤلاء العلماء ولا يعول على مذاهبهم لكونه قرأ الكتاب المقدس واتخذه دليلا فى حقائق علم اللاهوت فلم يجد فيه شاهدا يعضد بيع الغفران الذى هو من البدع المضرة المخلة بالمروءة والديانة وكان شديد الحمية فلم يمكنه ان يخفى رأيه ويكتم ما فى ضميره وقد رأى اهل بلاده متوغلين فى اودية الغفلة ضالين فى عرصات الزيغ والغى فصعد على منبر الكنيسة الكبرى بمدينة ويتانبرغ وصار يقدح ويبالغ فى فساد من كانوا يبيعون الغفران ويوذيهم بلسان حاد ويأتى ببراهين قاطعة جلية تقضى بان هذه الحادثة من البدع الفاسدة والاوهام الكاسدة وافهم الاهالى انه يخشى عليهم الاعتماد فى نجاتهم على غير ما ذكره الله سبحانه وتعالى فى كتابه المقدس * وحيث ان النفس تتشوق لكل امر جديد وترغب فيه غاية الرغبة صارت اراء لوتير مطمح انظار الناس كافة لاسيما وكان له شهرة عظيمة من قبل وحين صعد للخطابة كان كانه قس عكاظ او سحبان وائل فاخذ يشنع على ضلال من كانوا يذيعون الغفران ويبيعونه ويفند هذا المذهب وينذر الناس بانهم لا تسلم لهم عاقبة ان اعتمدوا فى نجاتهم على غير ما هو منصوص فى كتاب رب العالمين فسحر الالباب بفصاحته واستولى على القلوب ببلاغته فلما رأى ان العامة قد جنحت الى مذهبه واخذت تدرك اسرار مآربه ثبتت قدمه وقوى عزمه فكتب فى هذا الشان الى منتخب ماينسه (وهى جزء من اقليم سكس كان تحت حكم هذا المنتخب كما تقدم) وبالغ فى قبح سلوك الرهبان والاقسة الذين اناطهم باذاعة الغفران ونشره بين الناس وفى تفنيد آرائهم وعقائدهم ولكن كان هذا الكاهن يحب نجاح هؤلاء الرهبان فلم يفكر فى قمعهم عن سلوكهم القبيح الذى تجاوزوا فيه الحدود واول شئ اهتم به لوتير هو انه اعتنى باستمالة عقول العلماء اليه ليوافقوه على آرائه واقترح لهذا الغرض خمسة وتسعين مسئلة تتضمن آراءه فى شأن الغفران ونشر هذه المسائل بين الناس لكن لم ينشرها فى صورة

مطلب
نشر لوتير مسائل لاجل ابطال بيع الغفران

سنة ١٥٢٠

مسائل يقينية مجزوم بها بل فى صورة مواد ظنية قصده بنشرها المناظرة فيها حتى يعلم صحيحها من فاسدها ودعا العلماء الى نقض مالا يستحسنونه منها اما بالمكاتبة او بالمشافهة وعين الايام التى جعلها لاجتماع العلماء عليه لاجل المذاكرة فيها ومع ذلك كله اظهر انه منقاد غاية الانقياد لكنيسة رومة وانه مطيع لكل ما يحكم به البابا فمضت الايام التى اعدها لاجتماعهم من غير ان يظهر له معارض ولا مناقض فعما قليل انتشرت تلك المسائل فى جميع بلاد المانيا وقرئت فى سائر ارجائها مع رغبة غريبة وهمة عجيبة وتعجب كل الناس من فرط جسارة لوتير التى ادته الى الشك فى صحة ما اقره البابات الذين هم عماد دين النصرانية والى القدح فى عرض الرهبان الدومينيقانية اى رهبان عيد الاحد مع انهم كانوا رؤساء محكمة التفتيش والقصاص فى امور الدين فكانوا امها بين يخشى بأسهم كافة الناس

مطلب
تعضيد قسوس الطائفة الاوغسطينية التى كان لوتير من جملة اربابها لرأيه وتأييدهم لمذهبه

ثم ان قسوس الطائفة الاوغسطينية الذين كان لوتير من زمرتهم كانوا مطيعين كل الطاعة لكنيسة رومة كغيرهم من قسوس الطوايف الدينية الاخرى ومع ذلك فلم يعارضوا لوتير ولم يتصدوا لمناقضة ارآئه او منعه عن اذاعتها واشهارها بين الناس لانه كان له عندهم هيبة كبيرة وموقع عظيم بسبب معارفه واخلاقه الا انه كان الى ذلك الوقت يحترم احكام البابا احتراما صادقا ولا يخفى ان المنافسة والبغضة الباطنية لا تنقطع ابدا من بين طوائف قسوس الكنيسة الرومانية لعدم انقطاع طمع الرهبان وغيرتهم من بعضهم وبسبب ذلك حصل لقسوس الطائفة الاوغسطينية غاية السرور والفرح من قدح لوتير وذمه فى قسوس الطائفة الدومينيقانية وتشنيعه عليها لانهم كانوا اعداءهم وفرحوا حين رأوا ان ذلك يجر الى احتقار قسوس تلك الطائفة وبغضها عند سائر الاهالى واما منتخب سكس الذى كان وقتئذ اعقل امراء المانيا وكان لوتير من رعاياه فلم يلحقه غم ولا غيظ من تصدى لوتير لنقض بيع الغفران بل كان يعضد رأيه سرا ويود أن تكون المنازعة التى حصلت اذ ذاك بين القسوس فى هذا المعنى سببا فى تحقيق مظالم كنيسة رومة التى بذل

سنة ١٥٢٠

الامراء جهدهم زمنا طويلا فى ابطالها ولم ينجحوا

مطلب
فيما كتبه عدة من علماء اللاهوت فى مناقضة لوتير

وقد تصدى عدة من العلماء لمناقضة لوتير وبذلوا غاية جهدهم فى تأييد الاراء والمذاهب التى كانت اساس الشوكة الكنيسة الرومانية ومنشأ ثروتها وغناها فكتب الراهب تتزيل رده على مسائل لوتير ونشره بمدينة فرنكفورت التى على نهر اودير وكذلك العالم التيولوجى (اى اللاهوتى) المسمى اكسيوس بذل وسعه فى مناقضة اراء لوتير واما الراهب پريورياس وهو احد رهبان الطائفة الدومينيقانية وكان رئيس المحكمة ومفتش عموم اقضية محكمة القصاص والتفتيش الدينية فقد كتب على مسائل لوتير وشنع عليه كل التشنيع الا ان لوتير كان قدحه فى بيع الغفران مبنيا على براهين قاطعة جلية مستنبطة من العقل اومقتبسة من الكتاب المقدس واما اخصامه فكانوا لا يحتجون عليه فى ردهم الا بآراء العلماء السكولاستيكية واوامر البابات والاصول القسيسية التى كانت موجودة اذ ذاك فكانت ادلتهم غير كافية واحتجاجاتهم غير شافية حتى ظهر للناس انهم عاجزون عن الرد وان مجادلتهم مبنية على مجرد الاغراض النفسانية وصاروا لا يثقون باقوالهم حيث رأوها مخالفة لما يقتضيه العقل والنقل وما أتت به الشريعة النصرانية

مطلب
عدم اعتناء ديوان رومة بمذهب لوتير فى مبدء امره

واما ديوان رومة فلم يخش من ظهور مذهب لوتير وان كانت به بلاد المانيا فى اضطراب وانقلاب بل لم يعبأ به اصلا وذلك ان البابا ليون العاشر كان ذا تولع عظيم بالمسرات والفنون وكان دائما مشغول الفكرة بمقاصد سياسية جسيمة وكان لا يميل الى المجادلات التيولوجيكية اى اللاهوتية وان لم يكن يحتقرها ولو فورعة له فحين وصلت اليه الاخبار بما صدر عن لوتير فى بلاد المانيا من التشنيع والقدح فى الاصول الدينية لم يحمله ذلك على الغضب بل عده من جملة المجادلات والمشاكلات السكولاستيكية حيث رأى ان لوتير ليس الا راهبا من آحاد الرهبان المهملين الذين لا يعبأ بهم رأى رايا فى مسائل سكولاستيكية اخذ يعضده فى جزء صغير من المانيا وانما سلك

سنة ١٥٢٠

فى عبارته مسالكا غير مألوف حيث افرغها فى قالب خشنى غير مقبول هذا ماظنه البابا المذكور وكان لا يخطر بباله بل ولا يبالى لوتير نفسه ان عاقبة هذا الامر تضر بالكنيسة الرومانية لانه كان بعد المجادلة الحاصلة فى هذا المعنى بين الطائفة الاغورطينية والطائفة الدومينيقانية من جملة المجادلات التى تقع عادة بين القسوس بسبب بغضهم وغيرة بعضهم من بعض حتى ظهر منه انه قد عزم على عدم التصدى لهذه المجادلة وصمم على ان يترك امرها الكلى من الطائفة الاوغسطينية والطائفة الدومينيقانية لتتذاكر فيها مع ما فى قلوبهم من العداوة لبعضهم

مطلب
تقدم آراء لوتير وانتشارها

ولكن لما اغضب لوتير اخصامه بقدحه فيما حرروه ردا عليه وخطأ اقوالهم وما الفوه فى كل عبارة صاروا يلحون على البابا ويحثون ديوان رومة على عقاب لوتير فى نظير جرآته وجسارته الزائدة عن الحد لاسيما وكانت آرآء لوتير قد اثرت تأثيرا قويا فى جميع الاقطار الالمانية فاستيقظ حينئذ ديوان رومة من غفلته واخذ يبحث عن كل وسيلة يسلم بها من عاقبة تلك الآرآء واضطر ليون العاشر نفسه الى البحث عما يدفع عن الكنيسة الرومانية سوء عاقبة الآرآء المذكورة حيث صارت من الامور الخطرة التى لا ينبغى اهمالها والسكوت عنها فامر لوتير ان يحضر بعد ستين يوما الى مدينة رومة

مطلب
امر البابا الصادر الى لوتير بالحضور الى رومة

فى الديوان بين يدى العالم بريورياس وكان من جملة من ردوا عليه وتصدوا لتفنيده ونقض آرائه كما تقدم ولذلك وكله البابا بالنظر فى آرآء لوتير والحكم عليه بما يراه مناسبا وكتب هذا البابا ايضا الى الامير منتخب سكس يترجاه ان لا يتعرض لحماية رجل دنس ابناء النصرانية ببدعه وضلالاته وكتب لرئيس الطائفة الاوغسطينية ان يزجر هذا الراهب السفيه الذى دنس الطائفة الاوغسطينية باجمعها وعكر على الملة المسيحية فى سائر الاقطار النصرانية فلما رأى لوتير مراسلات البابا وعلم ان العالم الذى اماطه البابا بالنظر فى رأيه والحكم عليه هو عدوه بريورياس ادرك حقيقة الحال وعرف ما يقضى به فى شأنه اذا هو توجه الى رومة

فلذلك

سنة ١٥٢٠

مطلب
امر البابا وكيله بان يحكم على لوتير فى ألمانيا

فلذلك بذل غاية جهده فى عدم الذهاب الى رومة وطلب ان يحكم عليه فى بلاد المانيا بحضور جمعية خلية عن الاغراض وليست محلا للتهمة وكان علماء مدرسة ويتانبرغ يحبون لوتير ولا يستطيعون ان يلحقه ادنى ضرر او أذى لما ان الطائفة الاوغسطينية كانت به فى شرف ومهابة فكتبوا للبابا يترجونه ان يعافى لوتير من الحضور الى مدينة رومة والتمسوا منه ان يوكل فى النظر فى قضيته والحكم عليه بعض اناس من بلاد المانيا يكونون من الثقاة المشهورين بالمعارف وقد طلب ذلك ايضا الامير منتخب سكس من وكيل البابا ومن مشورة العموم الالمانيسة التى كانت بمدينة اوكسبورغ وكان لوتير وقتئذ لا يقصد مناقضة احكام البابا ولا الخروج عن شوكته بل كان يجزم بان اصل هذه الشوكة سر الهى اودعه الله فى البابات فكتب الى ليون العاشر كتابا فى قالب التضرع والابتهال والانقياد والامتثال ووعده انه يقبل اوامره من غير توقف فلبى دعوته وعافاه من الحضور الى مدينة رومة وامر نائبه فى المانيا ان يبحث عن حقيقة الحال ويحكم بما يستحسنه وهذا النائب هو الكردينال كاتيجان احد ارباب الطائفة الدومينيقانية وكان له شهرة عظيمة بين العلماء السكولاستيكية وكان قائما بخدمة الكنيسة الرومانية على ما ينبغى ويحب نفعها ويسعى بجميع جهده فى تحصيل ما تكون به فائدتها ومصلحتها

مطلب
حضور لوتير بين يدى نائب البابا

وكان يمكن لوتير لاسباب مقبولة ان يأبى فصل دعواه بين يدى كاتيجان لانه كان من جملة اعدائه الخطرين عليه الا انه لم يتوقف ابدا فى الحضور بين يدى كاتيجان المذكور حيث توجه فورا الى مدينة اوكسبورغ ليقابل هذا النائب بعد ان اخذ من الايمبراطور تذكرة الطريق فتلقاه كاتيجان بالترحيب والاكرام والتبجيل والاحترام واخذ اولا يسلك معه سبيل اللين والرفق ليرده عن آرائه لكنه لما رأى انه لا يليق بمثله ان يتحاور معه كانه قرين له الزمه بموجب اوامر البابا ان يرجع عن آرائه الفاسدة التى اذاعها بين الناس فى شأن الغفران والقدح فى الدين وان لا يتفوه بعد ذلك بمثله ولكن كان لوتير يعلم

سنة ١٥٢٠

ان آراءه على منهج الحق لا خطأ فيها لاسيما وكانت مستحسنة مقبولة عند اعظم
علماء ذلك العصر واكثرهم معرفة وديانة فتعجب من قول كانيجان حيث
دعاه الى الرجوع عن آرائه قبل ان يبين له وجه فسادها وعدم صحتها مع انه كان
يأمل قبل ذلك انه فى محاورته مع هذا النائب العالم الغزير المعارف يسهل عليه
ان يبرئ نفسه مما اتهمه به اخصامه الذين هم ما بين جاهل لا يدرك فحوى آرائه
ومتحامل يريد اطفاء اضوائه فينكر الحق ولو حصحص وظهر ويؤيد الباطل
وان خفى واستتر فلما رأى ان كانيجان يسلك معه مسلك الامارة والعنف وان
خاب امله فيه ويئس كل اليأس ولكن لم يرعو من تهديده له فقال للنائب مع
ثبات جنانه وطلاقة لسانه ان ذمتى لا تأذن لى بالرجوع عن آراء هى الحق
ولا محالة حيث لم يظهر فيها شئ يحملنى على جحدها بعد اقرارها ونشرها لاسيما
وجحد مثل هذا الامر يعد من الجبن ومما يسخط الله جل وعلا ويغضبه ثم افاد انه
لا يزال فى طاعة الكنيسة والامتثال لاوامرها وانه لم يقصد بتلك الآراء
اضرارها بل غرضه ان يعرض مسائله التى حررها على بعض العلماء الماهرين
فيقضون فيها بما يرونه مناسبا ووعد بعد ذلك انه لا يكتب فيما بعد شيأ فيما يتعلق
بالغفران لكن بشرط ان يسكت اخصامه ولا يتفوهوا بشئ فى هذا الشان
فلم يعتن نائب البابا بقوله بل استمر على تهديده والزامه بالرجوع عن اعتقاده من
غير أن يشترط شيأ قل اوجل وهدده بانه يصير مطرود الكنيسة رجيما محروما
من نعمها ونعيمها ان لم يبادر بالاذعان ويمتثل ما يأمر به وامر أن لا يدخل عنده
ما دام مصمما على عقيدته وظهر زيادة على ذلك مقتضيات اخرى يخشى منها على
لوتير فخاف عليه احبابه وظنوا ان تذكرة الطريق التى اخذها من الامبراطور
لا تكفى فى حمايته من نائب البابا لشدة حقده وغضبه منه فحملوه على الخروج
سرا من مدينة اوكسبورغ ليعود الى وطنه فقبل لوتير نصحهم
الا انه قبل خروجه من تلك المدينة استعان بامر قد سبق بمثله وهو انه قرر حيث
ان البابا لم يقف على حقيقة آرائه يريد فصل دعواه بين ايدى جمعية قسيسية
عامة تفهم سرها فيظهر الحق من الباطل

مطلب
جسارته فى سلوكه

مطلب
رفع دعواه الى غير كانيجان

سنة ١٥٢٠

مطلب
اعانة منتخب سكس للراهب لوتير

فغضب كاتيجان من هروب لوتير وكتب الى فريدريق منتخب سكس يقسم عليه بمحبته لراحة الكنيسة وابقاء شوكة سيدها ان يقبض على لوتير ويرسله اسيرا الى مدينة رومة اويطرده من بلاده وكان فريدريق الى ذلك الوقت يدافع عن لوتير ويمانع عنه ولم تكن الاسباب الحاملة له على ذلك اسبابا تيولوجية اى ناشئة عن ممارسته لعلم اللاهوت لان هذا الامير كان لا يتعرض ابدا للمجادلات التيولوجية والمحاورات اللاهوتية ولم يكن له فيها رغبة اصلا وانما كان الباعث له على محاماة لوتير مجرد اسباب سياسية كما تقدم وكان لا يتظاهر بها بل ولا يقدم عليها الا بعد الاحتراس التام وكان لم يسمع قط وعظ لوتير ولم يقرأ شيأ من مؤلفاته وعلى ما كان له من الشهرة العظيمة ببلاد المانيا لم يحضره فريدريق اصلا ولم يقبله فى منادمته لكن لما طلب منه كاتيجان ان ينفيه اويرسله اسيرا الى رومة رأى انه لابد له ان يسلك غير ما كان يسلكه اولا من المحافظة على عدم التظاهر فى اعانة لوتير وذلك لانه كان قد صرف مصاريف كثيرة فى انشاء مدرسته واعتنى بها غاية الاعتناء حتى صارت مهمة جدا عند جميع امراء المانيا وكان يعلم ان بعد لوتير عنها يضر بشهرتها فتعلل باموره عديدة وأبى ان يقبل ما دعاه اليه الكردينال كاتيجان فى حق لوتير واظهر انه لا يسلم ابدا فيما يكون به اضرار لوتير وانه يدافع عنه كل المدافعة هذا وكتب انه مع ذلك ملازم اعتبار الكردينال كاتيجان وتعظيم البابا واحترامه

مطلب
الاسباب التى حملت كاتيجان على ان يسلك مع لوتير ما سلكه اولا

ثم ان تشديد الكردينال كاتيجان فى الزام لوتير بالرجوع عن مذهبه اغضب من وقتئذ من تمسك بمذهب لوتير المذكور حتى لامه على هذا التشديد عدة من المؤلفين القاثوليقية ولكن كان لا يمكن للكردينال كاتيجان ان يسلك مع لوتير خلاف ذلك وذلك ان قضاة رومة الذين طلب لوتير اولا للحضور بين ايديهم لفصل دعواه كانوا على غاية من التشوق والرغبة فى تخطئة آرائه وافسادها حتى انهم قبل فراغ الستين يوما التى جعلها البابا مهلة للوتير حكموا عليه بانه خارجى مبتدع بل وصفه البابا ليون نفسه

في عدة من اوامره ومكاتباته بانه ليس الا من عداد الشبان الذين هم مطية سنة ١٥٢٠
للمآثم والفواحش اوالارجلاف الالا يعتد به وبناء على ذلك لم يكن ثم ماتسلم به
الكنيسة الرومانية من عاقبة مذهب لوتير وتبقى على شرفها واحترامها سوى
جبر هذا الرجل على العدول عن مذهبه واقراره بانه صادر عن خطاء لاسيما
وكان من قواعد هذه الكنيسة ان لاتتساهل في حكم من احكامها وانى لها
ذلك وقد حزمته على نفسها بادعائها العصمة عن الخطأ والزلل

مطلب لما لقاه الخطرة التي كان عليها لوتير

ومع ذلك فكان لوتير في حالة خطرة جدا بحيث لو كانت لغيره لحرمت عليه
الامن والراحة وكان لا يظن ان فريدريق يخاطر بنفسه في حمايته والممانعة عنه
لما انه كان صاحب رأى وتدبير وحزم واحتراس شهير فلا يعرض نفسه لغضب
الكنيسة وبطش البابا الذي يحق بأسه وصولته بعض افراد من عظماء
ايمبراطرة المانيا واقواهم شوكة وكان ايضا اذ ذاك اسباب اخرى تمنع لوتير
من انتظار الاعانة من فريدريق وذلك انه كان يعلم ان الناس في ذلك الوقت
يحترمون اوامر الكنيسة وينقادون لاحكامها ويخشون غضبها ويعلم ايضا
انه لا شئ اسهل من تهديد فريدريق وتخويفه وحمله على ان يسلم فيه ويتخلى
عنه لما ان اصل محاماته له كانت لعلل سياسية لا لكونه ممن يسلم بمذهبه وقرا
مؤلفاته على صحتها واقرها حتى يدافع عنه ولا يبالى وكان يعلم ايضا انه
ان طرد من بلاد سكس لا يجد له ملجأ آخر ولا مأوى يأوى اليه ويصير
عرصة لاذى كل حقود واجتراء كل حسود ومع انه كان يعلم انه في حالة خطرة
تجلد كل التجلد ولم يظهر عليه رعب ولا فزع بل ما زال يبرهن على صحة آرائه
وحسن سلوكه واستقامته ويخطئ اخصامه ويفسد آراءهم ويتمدح فيهم [illegible]
مما كان يفعله اولا

مطلب معيبة عمومية من القسوس

ولما رأى لوتير ان ديوان رومة لا يسلك معه سبيل الحق والاستقامة حيث حكم
عليه بدون تحقيق بانه من الفرق المبتدعة علم ان البابا ليون لا بد وان يعدو به
ويحث عن اضراره ويلقيه الى التهلكة فبحث عما يقى به نفسه من غضب البابا
ولم يكن له في ذلك الا وسيلة واحدة وهي أن يطلب فصل دعواه بحضرة جمعية

سنة ١٥٢٠

عمومية منعقدة من القسوس على سبيل النيابة عن الكنيسة القاتوليقية وما ينحط عليه الرأى فيما يكون العمل بمقتضاه لان حكمها حجة يوثق بها اكثر من حكم البابا الذى هو فرد من جملة افراد الانسان وكل انسان قابل للخطاء فان مارى بطرس مع كونه اعظم البابات واكملهم وقع فى الخطاء غير مرة

مطلب
فرمان جديد لتأييد عادة الغفران وتعضيدها

وبعد ذلك بقليل ظهر ان لوتير لم يخطئ فيما ظنه بديوان رومة وذلك انه صدر من البابا فرمان تاريخه قبل تاريخ عرض لوتير يتضمن طلب عقد مجلس قسيسى عام لفصل دعواه ومدح الغفران بعبارة لم تسبق لاسلافه بل ولا فى اعصر الجهالة والخشونة وامر فيه جميع النصارى ان يعتقدوا صحة الغفران ويعتبرونه شطرا من دين الكنيسة القاتوليقية وذكر فيه ايضا انه يصمى بسهام غضبه كل من عضد او اتبع مذهب من يقول بعدم صحة الغفران مع ان مقتضيات الاحوال كانت وقتئذ تمنع التفوه بمثل ذلك وتستدعى حسن التدبير والمواساة ولم يؤثر هذا الفرمان فى قلوب اصحاب لوتير بل اعتبروه من الامور التى لا يمكن ان يلتبس امرها باوجه يؤيدها وعلموا ان البابا لم يأمر به الا لاجل بقاء المحصولات الكثيرة الواردة عليه من بيع الغفران ومع ذلك فلولا موت

مطلب
كون موت الايمبراطور مكسيمليان من الامور التى اعانت لوتير

الايمبراطور مكسيمليان لنفذ ما حكم به البابا على لوتير وضاع حقه عند معظم اهل المانيا لان هذا الايمبراطور كان ذا ميل الى تنفيذ مقاصد الكنيسة وتأييد احكامها لاسيما وكان البابا وقتئذ صاحب شوكة وصولة عظيمة واوعد بانضرار من يتبع مذهب لوتير او يؤيده فبعد موت هذا الايمبراطور انتقل الى الامير فريدريق منتخب سكس ما كان من بلاد المانيا محكوما بالقوانين السكسونية فصار لوتير بذلك فى حمى هذا الامير الذى كان يدافع عنه ويقيه من حقد اعدائه واضرارهم وصار على غاية من الامن والاطمئنان ومكث مذهبه جاريا بين الناس بدون حرج فى خلال المدة التى كانت بين موت مكسيمليان وانتخاب شرلكان ايمبراطورا بدلا عنه حتى صار ثابتا بعد مستقرا فى عدة محال وتمكن من قلوب كثير من الناس وزيادة عن ذلك

سنة ١٥٢٠

كان البابا ليون العاشر وقتئذ مشغولا بشأن انتخاب الايمبراطور لكون ذلك اهم عنده من المجادلة التيولجية حيث كان لا يدرى فيها شيأ ولا يمكنه ان يتبصر فى عواقبها فلما رأى ان فريدريق يميل الى حزب لوتير لم يدقق فى دعواه خوفا من ان يغضبه وهو ذو شوكة عظيمة وصولة كبيرة فى ديوان المنتخبين ولم يعجل بالحكم على لوتير بالكفر والخروج عن دين الكنيسة الصحيح مع ان لوتير كان له اعداء كثيرون لا يغفلون طرفة عين عن حث هذا البابا وتحريضه على ايذاء لوتير واضراره

مطلب تأخير الحكم على لوتير

ولما كانت تلك الاسباب والمآرب السياسية قائمة بنفس البابا ليون العاشر حاول فى امر لوتير حتى مضت ثمانية عشر شهرا ولم يحكم عليه بشئ لاسيما وكان البابا يكره بطبعه كل مجادلة ومحاورة تسابق فى ميدانها الاخصام ولكن فى تلك المدة لم تنقطع مذاكرات رومة فى شأن انهاء هذا الامر بالتى هى احسن وبهذه المذاكرات عرف لوتير فساد ديوان رومة واختلاله وعلم انه لا وجه الى تحويل اربابه عن بدعهم واوهامهم الفاسدة وضلالهم فى اعتقاداتهم الكاسدة وانهم لا يسمعون الحق ولو ظهر بالبراهين الرادعة والادلة القاطعة حتى ظهر عليه انه داخله الشك فى كون شوكة البابا من الاسرار الالهية وحصل بمدينة لبسيك على رؤس الاشهاد مناظرة فى هذه المسئلة بينه وبين العالم اكسيوس وكان لسعة علمه ودقة فهمه من اعلم اخصام لوتير واشدهم خطرا عليه ولكن انتهت هذه المناظرة كغيرها من المناظرات السكولاستيكية بدون أن يترتب عليها ثمرة ولم يلزم احدهما الآخر حجة بل بقى كل منهما على رأيه ولم ينهيا شيأ فى شأن المسئلة المذكورة

مطلب الفسخ ببلاد السويسة

وكما ان بلاد سكس نفرت من دين الكنيسة الرومانية لكثرة جورها وظلمها كذلك بلاد السويسة حصل فيها مثل ذلك فان الاسباب بعينها اثارت فى ذلك الزمن تقريبا العقول وحملتها على هتك حرمة دين تلك الكنيسة وذلك ان رهبان طائفة فرنسيس لما امروا باذاعة بيع الغفران فى بلاد السويسة سلكوا سبيل الاختلاس والظلم الذى اوجب بغض الرهبان الدومينيقانية

اى الاحدية فى بلاد المانيا ومع ذلك فلم يزل الواعظ ينشر بيع الغفران بدون سنة ١٥٢٠
عائق حتى وصلوا الى مدينة زوريكة فلما ارادوا ان يذيعوا بها بيع الغفران
برزامهم العالم زيونقل ولم يكن دون لوتير فى الجسارة والرغبة فى سعادة
النوع البشرى فعارضهم وابى ان يقر هذا الامر الردىء الذى يسخط المولى
ويضر بالعباد وكانت حكومة السويسة وقتئذ حكومة جمهورية فلم يكن
زيونقل كلوتير مكبولا بقيود الحكم بل كان حرا مطلق التصرف فى حركاته
وسكناته فمن ثم تتبع مقاصده مع ثبات القلب والجسارة على رؤس الاشهاد
ولم يخش بأس احد وصمم على هدم قواعد دين الكنيسة ومحو اثره بالكلية فسر
لوتير لذلك حيث وجد له ظهيرا يؤيد مذهبه ويعضد آراءه وفرح فرحا شديدا
من قبول هذا الراهب وانتشار آرائه الا ان اعداءه انتصروا عليه من وجه
آخر فى مدرسة كولونيا ومدرسة لوان حيث فند علماء هاتين المدرستين
آراءه وحكموا عليها بانها خطأ محض

ولكن كان لوتير جسورا لا يخشى بأسا فلم يزده تعصب اعدائه وتدقيقهم
الاغضباوحمية فاخذ يقدح فى دين الكنيسة ويفحص مع التدقيق عن اصوله
ويفسدها واحدا بعد واحد حتى زلزل القواعد المتينة التى تأسست عليها شوكة
ديوان رومة وثروتها فايقن البابا ليون العاشر انه لا يمكن ارجاع لوتير
بالتى هى احسن هذا واخذ جماعة من الاحبار المتبحرين فى المعارف يوافقون
اعداء لوتير ويلومون البابا على حلمه واغضائه عن سفهه وجسارته مع قدحه
فى الكنيسة بكل منقصة ويتعجبون من كونه لم يغضب عليه ولم يحكم بكفره حتى
يحرم من نعم الكنيسة الرومانية التى قدح فيها وهتك حرمتها مدة ثلاث سنوات
وكانوا يقولون ان عظم شأن الكنيسة يقضى بعقاب هذا الرجل العقاب الشديد
فى نظير وقاحته ومسبته لها وان الايمبراطور الجديد يعضد البابا ويكون نصيره
وظهيره ومن البعيد ان الامير فريدريق منتخب سكس يترك سبيل
السياسة والحزم وما هو دأبه من الاحتراس والتبصر ويتصدى لحماية هذا الرجل
ويعادى البابا والايمبراطور وانعقدت فى ذلك مشورة الكردينالات عدة

مطلب
جسارة لوتير وتقدم مذهبه وازدياد قبول آرائه

سنة ١٥٢٠

مرات لتختبر هذه القضية وتقف على حقيقتها فصدر حكمها فى شأنه على وجه مقبول لا يحتمل نقضا ولا ردا فراجعوا القوانين ليحثوا فيها عن صيغة حكم صحيحة لا تقبل الخدش بوجه من الوجوه فلما كان اليوم الخامس عشر من شهر حيزران (سنة ١٥٢٠) صدر فى شأن لوتير فرمان الحرمان الذى كانت عاقبته مشؤومة على كنيسة رومة واستخرجوا من مؤلفات لوتير احدى واربعين مسئلة حكموا عليها بانها من عقائد الفرق الزائغة التى تزرى بالمروءة والانسانية وتنابذ مكارم الاخلاق وكان هذا الفرمان يتضمن ايضا تحريم قرآءة مؤلفات لوتير وان من تجاسر وقرأها حكم عليه ايضا بالحرمان والطرد وفيه ايضا امر بان من عنده بعض نسخ من تآليفه يجب عليه ان يقذفها فى النار وبعد ستين يوما ان لم يرجع لوتير عن مذهبه ويعترف على رؤوس الاشهاد بان ذلك من الخطاء المحض ويحرق ما تركتبه يعد من الفرق المبتدعة ويحكم عليه بالحرمان حتى يصير مخذولا مدحورا ويكون ممن استهوته الشياطين فعدل عن الحق وحاد وضل عن سبيل الرشاد وكان فى هذا الفرمان ايضا امر لسائر الامراء ان يقبضوا عليه ويذيقوه من العذاب ما استوجبه لنفسه بسبب ما ارتكبه من الموبقات والكبائر ولما انتشر هذا الفرمان ببلاد المانيا اضطربت الآراء وتعددت المذاهب فكانت آراء الناس تختلف بحسب اختلاف البلاد والحال فاما اعداء لوتير واخصامه ففرحوا كل الفرح ظنا بان هذا الفرمان يكون به ابطال مذهبه ومحق اصحابه واما احزاب لوتير فكان احترامهم للپاپا كل يوم فى التناقص فلما قرأوا الفرمان ازداد غضبهم وسخطوا على الباپا بل فى بعض المدن تصدى الاهالى لمنع اشاعة هذا الفرمان وفى بعض آخر اسىء من تصدى لاشاعته ومزق الفرمان كل ممزق ووطئته الاقدام

مطلب
فرمان حرمان لوتير والحكم بكفره وطرده عن باب الكنيسة

مطلب
تأثير هذا الفرمان فى بلاد ألمانيا

ولم تفتر همة لوتير بهذا الحكم حيث كان يعلم من قبل انه لا يسلم منه وانه لا بد من وقوعه فبعد ان رفع فصل دعواه الى مجلس قسيسى عام كتب بعض ملحوظات ناقش بها فرمان الحرمان وكان يعلم ان الباپا ليون قد سلك

مطلب
تأثير هذا الفرمان فى لوتير فى ١٧ من شهر تشرين الثانى

سنة ١٥٢٠ فى الحكم عليه من ذلك الجور والتعدى فقال على رؤوس الاشهاد ان هذا البابا هو المسيح الدجال الذى نص على ظهوره كتاب العهد الجديد وصار يصفه بالظلم والتعدى ويبالغ فى ذمه والقدح فيه اكثر مما كان عليه اولا وحرض جميع ملوك الافرنج وامراءهم على القيام عليه والخروج عن طاعته حيث ان احكامه لا تكسبهم الا العار والمذلة وصار يتمدح ويفتخر على رؤوس الاشهاد بانه استوجب غضب البابا فى نظير جسارته على حماية حرية البشر ورغبته فى حفظ السعادة البشرية ولم يكتف فى اظهار احتقاره للبابا بمجرد الخطابة والكلام بل لما رأى فى الفرمان الامر بحرق كتبه فى رومة اراد ان يفعل فى حق البابا مثل ما حكم عليه به فجمع المدرسين والطلبة الذين كانوا وقتئذ بمدرسة ويتانبرغ حتى صارت جمعية كبيرة ورمى فى النار كتاب القانون الرومانى واصحبه بفرمان الحرمان وتأسى به فى ذلك عدة من مدائن المانيا ثم ان الطريقة التى سلكها فى تزكية نفسه وتحليل هذا الفعل وانه من قبيل الصواب كان فيها اساءة ادب اكثر من الفعل نفسه وذلك لانه استخرج من القانون الرومانى بعض مسائل يستبعدها العقل تتضمن ان شوكة البابا فوق شوكة كل ملك وامير وحقير وخطير ووضع على هذه المسائل شرحا بين فيه فسادها وبرهن على انه مع تداول الايام يترتب عليها محق الحكومات الملكية ودمارها

مطلب الحالة التى كان عليها الدين حين دخول شرلكان فى بلاد المانيا

هكذا كانت حالة مذهب لوتير حين دخول شرلكان فى المانيا فلم يكن احد من الامراء والملوك الى ذلك الوقت اتبع المذاهب الجديدة وعمل بها ولم يكن حصل ادنى تغيير فى صورة الدين ولا ادنى تعد على حقوق القسوس واحكامهم وبالجملة فلم يكن انحط الرأى على ترجيح احد المذهبين على الآخر فانه وان كانت نيران الجدال قد اضطرمت بين الحزبين الا انه لم يحصل بت ولا انتهاء فى هذا المعنى بل كان كل من الفريقين يسأل ويجيب ويصاب ويصيب وتتعارض الادلة فيسقط المعلول بسقوط العلة ومع ذلك فقد اثرت هذه المجادلة فى عقول الناس تأثيرا قويا وقل احترامهم لدين الكنيسة ورسومها وادركوا ضعف الاوهام الكاسدة والبدع الفاسدة وبالجملة فلم تزل العقول من ذلك

سنة ١٥٢٠

الوقت تزداد تفطنا واستيقاظا حتى توفرت من يومئذ اسباب الفتن التى انتشرت نيرانها فيما بعد ببلاد المانيا فتزلزلت ارجاؤها واضطربت كل الاضطراب فكان الطلبة يأتون افواجا من سائر اقاليم الامبراطورية الى مدينة ويتانبرغ للاخذ عن لوتير فقد سعى الى تلك المدينة الشهير ميلانختون والحبر كرلستاد وغيرهما من المدرسين العظام واخذوا عن لوتير المذاهب الجديدة ونقلوها الى ابناء وطنهم فتلقوها عنهم مع الرغبة التامة التى تكون عادة للنفس فى كل امر جديد مرغوب فيه يعتقد ان صحته قطعية لا تنكر وكان ديوان رومة فى اثناء تلك الحوادث يحكمه رجل يعد من امهر البابات الذين حكموا فى الكنيسة الرومانية ومع ذلك فلم يبد هذا الديوان فى تلك الواقعة ما اشتهر به غير مرة ببلاد اوروبا من الحزم فى تدبير مقاصده والعزم فى تنجيزها حيث كان يتخذه الافرنج قدوة فى حسن السياسة والتدبير وذلك ان لوتير حين قدحه فى بيع الغفران كان هناك طريقتان لو سلك البابا احداهما لافسد على لوتير مشروعه ولو سلك الاخرى لسكن هيجانه واخمد لهيبه وكان يلزم بمجرد عدوله عن الدين ان يبادر بالقبض عليه ويعامله بالتعزير والتعنيف حتى يرجع او يحكم عليه بما يرج الكنيسة منه ولنبين هاتين الطريقتين فنقول لو قبض على لوتير من مبدإ الامر قبل تمكنه وهدد بغضب الكنيسة عليه وصدر فى حقه فرمان بالحرمان لزجر هذا الفرمان الامير فريدريق منتخب سكس ومنعه عن التصدى لحماية لوتير ومنع الاهالى ايضا عن اتباع مذهبه بل وكان لوتير نفسه يلحقه الرعب والفزع ولا يتجاسر على فعل شئ مما فعله وكان اسمه لا يعرف الآن بين الانام الا بكونه قد بذل جهده فى امر ممدوح وهو شروعه فى محو مظالم ديوان رومة الا انه استعجل بهذا الشئ قبل اوانه فعوقب بحرمانه والطريقة الاخرى التى كان ينبغى للبابا سلوكها هى انه كان ينبغى له ان يظهر من مبدإ الامر الغضب من قبح سلوك من كانوا مأمورين باشاعة بيع الغفران وانهم جاوزوا الحدود وفعلوا اكثر مما يجب عليهم وكان ينبغى له ايضا ان يمنع المجادلة على رؤوس الاشهاد فى اى مسئلة كانت من المسائل

مطلب
ملحوظات فى شأن سلوك ديوان رومة

سنة ١٥٢٠

الخلافية المشكلة لانه يخشى على الكنيسة من الجدال فى تلك المسائل العويصة اذا كان الى ذلك العصر لم يظهر من يقوم حقيقة بحل مشكلاتها وفك معضلاتها اور بما كان ذلك يمنع لوتير عن تقوية مذهبه وتوسيع دائرته ولولا ان ديوان رومة شدد عليه والزمه بالبحث عما يدافع به عن نفسه لخمدت نيران مجادلته وتلاشت شيأفشيأ اوبعدت عن اسماع الناس وانحصرت فى المدارس وضاعت بين المحاورات السكولاستيكية ولامكن لديوان رومة ان يحاجه فى هذه المسئلة من غير ان يضر بالكنيسة الرومانية فى شئ كما لم يحصل لها ضرر بسبب غيرها فتكون كمسئلة حمل مريم عليها السلام من حيث عدم الاضرار بالكنيسة حيث لم يترتب على ما وقع فيها من الاختلاف بين قسوس طائفة فرنسيس وقسوس الطائفة الدومينيقانية ضرر ولا اختلال وكذلك مسئلة عفو الله التى حصل الخلف فيها بين الطائفة الجنسيناستية والطائفة اليسوعية ولكن كان البابا ليون يتردد بين هاتين الطريقتين فضاعت منه ثمرتهما حيث شدد على لوتير اكثر مما يلزم فعوضا عن كونه يقمعه بهذا التشديد ويرده عن حميته لم يزده الا تصميما وعنادا وكان حلم البابا وصبره عليه واسماله له فى غير محله حيث استعان به لوتير على نشر مذهبه من غير ان يخشى بأس الكنيسة وكان صدور فرمان الحرمان اخيرا فلم يؤثر فى عقول الناس ولم يكن له موقع فى قلوبهم ولو صدر قبل الوقت الذى صدر فيه لاثر تأثيرا قويا وتم الغرض منه

مطلب سلوك لوتير

ومن الغريب ان ديوان رومة لم يحكم سياسته ولم يتقن ادارته فى هذا الامر مع انه قل ان استوجب لنفسه لوما فى سياساته اوقيل فى حقه انه لا يعرف مصلحة نفسه ولا من اين يوكل الكتف واغرب من ذلك ما ابداه لوتير من الحزم والتدبير فى هذا الغرض فانه وان كان لا دراية له بمواقع عواقب الامور بسبب حمية طبعه وشدة خلقه احكم السياسة والادارة فى اظهار مذهبه ونشره حتى نجحت مساعيه كل النجاح بحيث لو كانت بيد احد من ارباب السياسة المتمكنين لما نجحت اكثر من ذلك وحين تصدى لمناقضة الراهب تتزيل فى مبدء الامر كان

لا يظن ان عاقبة آرآئه تصل الى هذه الدرجة فى الاضرار بالكنيسة ونسخ دينها سنة ١٥٢٠
ولو خطر حينئذ ببالة هذا النسخ العام الذى صار فيما بعد يفتخر به لارتعدت فرائصه واضطربت من الفزع والخوف علما بانه لا طاقة له على تجيزه لكونه من المشروعات الصعبة التى تجل عن امثاله هذا وعلم الحقيقة لم ينطبع فى قلبه دفعة واحدة اى لم يكن له من الامور اللدنية او الالهامية بل كان ثمرة مطالعته وممارسته للعلوم بحيث لم يصل اليه الا بالتدريج وكان مذهب الكنيسة الرومانية مرتبطة اجزآؤه ببعضها ارتباطا كليا حتى كان ظهور الخطا فى قاعدة واحدة يجر الى الخطا فى الباقى فكانه بناء هدم بعضه يؤدى الى ارتجاج اساس بقية اجزآئه بل ربما ترتب عليه هدمها بالكلية فلاجل ان يزيل لوتير من عقول الناس ما كان قائما بها من استحسان بيع الغفران واقراره اضطرّ الى البحث عن السبب الحقيقى الذى يكون به برآءة الانسان من خطاياه وذنوبه والعفو عنه فيما جنى فلما علم هذا السبب بنى عليه عدم لزوم الحج والاحتفالات والتضرع الى القديسين فى الشفاعة والتوسل بهم وعدم لزوم المواسم التى تعمل لاجلهم وبطلان الاعتراف بالذنوب للقسوس مشافهة واستنبط منه ايضا انه ليس هناك محل تطهر فيه ارواح المذنبين لتستوفى ما استوجبته بذنوبها ومعاصيها وقد وصله بحثه عن تخطئة هذه الامور وافسادها الى معرفة حقيقة القسوس الذين كانوا متكفلين بتجيزها ورأى ان منشأ فسادهم انما هو غناهم المفرط وتحريمهم الزواج على انفسهم وتشديدهم كل التشديد فى شأن المناسك الدينية والرسوم الرهبانية وبناء على ذلك كان قريبا من ان يشك فى كون شوكة البابا من الاسرار الالهية حيث ان هذا البابا يبيح مثل تلك الامور الفاسدة الباطلة ويبذل جهده فى تأييد تلك الاوهام العاطلة وبعد ان اثبت ذلك بنى عليه امرا جديدا وهو انكاره عصمة البابا عن الوقوع فى الخطاء وصحة ما تحكم به الكنيسة والقسوس وغيرهم من امناء الدين قائلا لا يتمسك الانسان الا بنص كتاب الله الذى لا تغيير ولا تبديل لكلماته فهذا هو الاقرب للصواب وعين الحقيقة وهو

سنة ١٥٢٠

قاعدة صحيحة تعرف بها الحقائق التيولوجيكية فلما كان لوتير يسلك على هذا المنوال البديع ويعضد امر ابامر ويبنى شيأ على شئ نجح فى مساعيه كل النجاح وحل بذلك فى ذرى الفلاح حيث كان لا يعرض على الناس من اول وهلة ما تمجه اسماعهم بان يكون مخالفا بالكلية لاوهامهم القديمة اوبعيدا عن اعتقاداتهم الراسخة فى اذهانهم بل صار يلاعب عقولهم وينقلهم من عقيدة الى اخرى من غير ان يشعروا بشئ تنفر منه نفوسهم فكان كلما استكشف شيأ جديدا تنشرح منه صدورهم وتقبله عقولهم بحيث تمتزج بهم كامتزاج الروح بالجسد ونشأ ايضا عن سلوكه على هذا المنوال ان البابا ليون اهمله فى اول الامر ولم يعتن بصنعه فامكنه ان ينشر مذهبه بين الناس وصار له موقع فى قلوبهم قبل ان يتفطن احد الى ادراك عواقبه ولو تغالى لوتير من اول وهلة فى القدح فى الكنيسة الرومانية لبادرت الى الانتقام منه بغاية وسعها الا انه كان فى مبدء امره غير مصمم على هذا المشروع حتى مكث زمنا طويلا وهو يظهر للبابا كل الانقياد والطاعة ويحترم احكامه كل الاحترام بحيث كان لا يتراآى عليه انه سيعصاه ذات يوم اويقدح فيه وينتقد احكامه ويزيفها بكل ما يمكنه ولذلك اهمل البابا فى مشروعه واغضى عنه فصار يسعى كل يوم فيما فيه ازدياد مذهبه واضاعة حجة الكنيسة الرومانية ولم يشعر البابا وديوان رومة بان عاقبة مشروعه تضربهم كل الضرر ولم يحتوا عما يسلمون به من تلك العاقبة السيئة الا بعد أن صار الداآء عضالا لا ينفعه دوآء

مطلب
الاسباب التى اعانت تقدم النسخ

نعم ان لوتير قد ساعده فى تأييد مذهبه وتعضيده حسن سلوكه وتدبيره وقلة تبصر اخصامه وقبح اداراتهم لكن لا ينبغى ان نحصر اسباب تقدم مذهبه فى هذين السببين بل كان ثم اسباب اخرى اعانته اتم اعانة حيث ان عدة من الاحبار الماهرين كانوا قد كتبوا قبل وجوده بزمن طويل فى التشنيع على الكنيسة وسلكوا مسلكه فى القدح فى احكامها وتفنيد آرائها ورسومها وبرهنوا على ذلك بمثل البراهين التى تمسك بها فقد ظهر فى القرن الثانى عشر الحبر ولدوس وفى القرن الرابع عشر الشهير وكليف وفى القرن

سنة ١٥٢٠
الخامس عشر الماهر الحاذق حنا هوس وكلهم بينوا ضلال الكنيسة الرومانية وزيغها مع الجسارة التامة واقاموا على بطلانها وتخطئتها براهين جلية تجل عما يتوهم فى اهل اعصر الجهالات التى كان هؤلاء الاحبار موجودين بها الا ان جميع مشروعاتهم فى شأن النسخ لم تنجح وخاب سعيهم فيها الا انها كانت فى غير ابانها وقبل اوانها فلم تكن فى تلك الاعصر الخشنية الا كاشعة ضعيفة من وراء حجاب فلم يمكنها ان تمزق الغيوم الكثيفة التى كانت مخيمة على الكنيسة الرومانية فعما قليل ذهب ضوءها وانكسف نورها وعلى فرض ان مذهب هؤلاء الاحبار القديسين كان له موقع فى قلوب الناس وكان له تأثير فى البلاد التى انتشر بها فكان تأثيره ضعيفا ودائرته ضيقة بمعنى انه لم تمكن ولم يتشبث به كثير من الناس لان معظم الاسباب التى اعانت لوتير على تأييد مذهبه وانتشاره كان مفقودا فى عصر هؤلاء الاحبار او كان قليل التأثير والجدوى فى مثل ذلك العصر بخلاف مذهب لوتير فظهر فى ابانه حيث كان الوقت وقت شدة واضطراب فوجدت ثم مقتضيات احوال كثيرة اعانته على تتميم مقاصده وتنجيز اغراضه ومشروعاته

مطلب الشقاق الطويل الذى حصل مدة القرن الرابع عشر

هذا وقد حصل فى الدين نزاع كبير وشقاق كثير مكث زمنا طويلا حيث استغرق القرن الرابع عشر وبعض الخامس عشر فاورث الكنيسة العار والامتهان وقل احترام الناس للباپا وذلك ان اثنين او ثلاثة من الباپات كانوا يطوفون فى آن واحد بلاد اوروپا ويتملقون لمن يريدون استمالته من الملوك ويظلمون البلاد التى كانت تحت حكمهم ويحكمون بالكفر على من خرج عن طاعتهم فكل ذلك جر الى تمزيق عرض الباپات والى احتقارهم واحتقار مناصبهم حتى نفرت منهم القلوب وانكر الناس عصمتهم عن الخطاء والزلل ولما كان كل فريق من المتشاحنين يرفع دعواه الى محكمة اللاييك (اى الامرآء) اخذ اللاييك يعدون ان حكمهم لا حكم فوقه وبالغوا فى ذلك حتى صاروا ينتخبون من شاؤا من القسوس ويجعلونه باپا وازداد احتقارهم لكنيسة رومة بسبب الاوامر التى صدرت فى شأنها من المشاور القسيسية

التى

سنة ١٥٢٠

التى انعقدت بمدينة قونستنسة ومدينة باله وكبرت جسارة هؤلاء اللاييك وعظمت شوكتهم حتى كانوا يعزلون من شاؤا ويولون من شاؤا من البابات فعلم الناس من ذلك انه يوجد فى رتب الكنيسة رتبة اعلا من رتبة البابا التى كانت قبل ذلك معتبرة انها اعلا مراتب الكنيسة واعظمها شوكة وصولة

مطلب فى الكلام على البابا اسكندر السادس والبابا جاليوس الثانى

وقبل ان يبرأ الجرح الذى اصيبت به شوكة البابا بسبب افتيات اللاييك تولى البابية اسكندر السادس ثم جاليوس الثانى وكانا لا يوفيان بحقوق العصابة القسيسية وان كانا ماهرين بالنسبة الى حسن تأدية الاحكام الملكية فظهر منهما ما اكسب الكنيسة الرومانية عارا على عارها فى جميع الاقطار النصرانية اما اسكندر السادس فكان فاسد الاخلاق غير مستقيم الحال فى معيشته وادارة نفسه وكان ذا خداع ومكر ظلوما غشوما جبارا فى ادارة المملكة فعد لهذه الاسباب من الطوائف الجبارين الذين دنسوا نوع البشر واما الثانى فكان خاليا عن الشهوات القبيحة المشؤمة التى اوقعت سلفه اسكندر السادس فى الخطايا العظيمة والذنوب الجسيمة التى تنفر منها النفوس الكريمة لكن كان طمعه فوق كل نهاية وحرصه لا يقف عند حد وغاية وكان لا يحترم حقوق من له الفضل عليه وينتهك حرمات الادب والحشمة اذا كانت مراعاتها تؤدى الى تعطيل مقاصده وافساد مآربه فكان يعسر على الانسان ان يعتقد ان اسرار دين النصرانية الذى يحرض على الاحسان والمروءة قد اودعت فى قلب الجاحد اسكندر والسفيه جاليوس ومن ثم كانت آراء من ارادوا جعل احكام الجمعية القسيسية العمومية فوق احكام البابا فى ايامهما حالة محل القبول هذا وكان ايمبراطور المانيا وملوك فرانسا فى جدال وقتال مع ديوان رومة فاغضوا عما صدر من رعاياهم فى حق هذين الظالمين من الذم والقدح والمسبة فدار على الالسن من وقتئذ سب البابات وذمهم فلذا لم يغضب احد من لوتير واتباعه حين قذفوا كنيسة رومة وبالغوا فى ذمها والاستهزاء بها

سنة ١٥٢٠

مطلب فساد اخلاق القسوس

ثم ان هذا الظلم الشديد المفرط لم يكن خاصا بالبابا الذى هو رئيس الكنيسة لان اغلب كبار القسوس على الاطلاق كانوا من عائلات الاشراف والاعيان ولم يؤثروا الدخول فى خرقة القسوس الا طمعهم فى الوصول الى ذرى المناصب العالية والتمتع بارزاقها الواسعة فكانوا يهملون بالكلية ماتقتضيه وظائفهم القدسية من الواجبات ويتبعون اهوآءهم ويركنون الى ارتكاب الرذآئل التى هى من عادة ارباب الثروة والدعة واما صغارهم فكانت فاقتهم تمنعهم من التأسى بكبارهم فى الرفاهية والزينة لكنهم لتوغلهم فى الجهالة والمفاسد وافراطهم فى الموبقات والآثام كان الناس يحتقرونهم كما كانوا يبغضون كبارهم وهناك امر صعب مخالف للطبع البشرى وهو ايجاب رهبانية تلك الخرقة ومنع تزوجها فقد ترتب عليه من المفاسد والفسق ماتقصر عنه العبارة حتى انه فى عدة محال من الامبراطورية الالمانية لزم ان يؤذن للقسوس بالاجتماع بالخطيات ومرافقة الاجنبيات لقيامهن مقام الزوجات بل وامروا بذلك فمعالجة دآء الرهبانية بدوآء مخالف لدين النصرانية يدل دلالة قوية على كثرة مفاسد القسوس وفسقهم وقتئذ وقبل القرن السادس عشر بمدة طويلة ظهر عدة من ثقات المؤلفين المشاهير كتبوا فى هذا الشان فبينوا فساد اخلاق تلك الخرقة ووصفوها باوصاف يستبعدها العقل فى عصرنا هذا وبالجملة ففسادهم اغضب الناس كافة واورثهم من الخزى والعار مالامزيد عليه وليس هذا المجرد كون مثل تلك الاخلاق الفاسدة لاتليق بوظائفهم المحترمة بل لانهم كانوا فى الاصل من رعاع الناس وسفلتهم ثم ارتقوا من حضيض الفاقة وعدم الاعتبار الى اوج العلا والفخار وصاروا ممكان من الغنى والثروة فكان اللابيك يتأثرون منهم كل التأثر ولايغضون عن هفواتهم كغيرهم من القسوس العريقين فى النسب المتاصلين فى الثروة ولما كان حسدهم لهؤلاء اشد من حسدهم للآخرين كان قدحهم فيهم ايضا اشد واعظم فبناء على ذلك كان لااحب على الناس من سماع قدح لوتير وذمه فى القسوس فكان كل من اصغى اليه وجد فى ملحوظاته فى هذا المعنى براهين وضيحة وادلة صحيحة ترى

ان

سنة ١٥٢٠

مطلب
سهولة نيل الانسان العفو فيما جناه على نفسه كقتل اوغيره

ان ذمه لهذه الحرقه صادف محلا
وقد ازدادت مفاسد القسوس حتى جاوزت الحدود لما انه كان يسهل عليهم كالعامة نيل الغفران مما يجنونه من القبائح وبذلك صارت شوكة القضاة والحكام المدنية واهية فى جميع دول اوروبا حتى كادت تنعدم بالكلية لانه لما كان الحكم حينئذ على الوجه السابق قبيح الترتيب ردىء الادارة اضطر هؤلاء القضاة الى ان يسلكوا فى احكامهم طريقة التساهل وعدم التدقيق فى اقامة شعائر العدل والانصاف حتى كانوا يتجاوزون عن الفواحش والكبائر بواسطة دفع مغارم عينتها القوانين ولما كان ديوان رومة دائما يبحث عما يكون به ازدياد ايراد الكنيسة الرومانية اتبع هذه العادة وادخل تلك المغارم فى المصالح الدينية حتى صار يعفو عن كل مذنب بدفع المغارم المذكورة وحيث ان كفارة الكبائر بدفع هذا المقدار من المال كان موجودا من قبل وكان الناس متعودين عليه لم ينفروا منه حين اتخذه ديوان رومة وسيلة فى ازدياد ايراداته ولذلك صارت تلك العادة عامة بين الافرنج كافة حتى انه لاجل منع ما يمكن ان يتطرق اليها من الغش والتدليس صنف قضاة رومة كتابا كتعريفنامة محتويا على تعيين المقدار اللازم فى كفارة كل جناية بخصوصها فكانت كفارة القتل اذا وقع من الشماس دفع مغرم قدره عشرون ريالا وكان يمكن لكل من الاساقفة ورؤساء الاديار ان يقتل النفس بشرط ان يدفع للبابا ثلثمائة من الفرنكات وذلك الف ومائتان من القروش وكان ايضا يجوز لكل قسيس ان يسلك سبيل الفساد وينهمك على المحارم والمآثم بشرط ان يدفع ثلث المبلغ المذكور وطالما عفى عمن جنى جناية عظيمة او ارتكب كبيرة نادرة الوقوع بل ولا تخطر الا ببال الفساق الجبابرة الخالين عن المروءة والانسانية فى نظير دفعه مغارم يسيرة هينة ولكن لما حسنت الاحكام فى دواوين الامراء والاديلة وصارت تجرى على منهج الاصول الدينية والادبية ظهر للناس ان هذه العادة التى كانت لديوان رومة فى تكفير الخطايا والذنوب مخلة بالديانة والادب وانها منشأ ضلالات القسوس وعدم

سنة ١٥٢٠

مطلب
سعة ثروة الكنيسة الرومانية وزيادة اموالها عن الحد

اتباعهم نهج العدل والاستقامة

وربما كان يمكن الاغضاء عن فساد اخلاق القسوس لو لم يغتروا بكثرة اموالهم وسعة ثروتهم وشوكتهم حتى صاروا يظلمون بقية طوآئف الاهالى ويعاملونهم اسوء المعاملة ومن المعلوم ان دأب اولى البدع الفاسدة والاوهام الكاسدة الميل الى الزينة والمباهاة وفرط السخاء على من يعتقدون حرمتهم بل يرون ان ما يفعلونه فى حقهم قليل لا يفى بما يجب لهم عليهم حتى يرقوهم الى اوج الغنى والثروة والشوكة فهذا هو منشأ ثروة كنيسة رومة ونفوذ كلمتها فى سائر بلاد اوروبا حتى سئمت منها طائفة اللاييك مع ان كرمهم المفرط او اسرافهم كان هو السبب فى ذلك

مطلب
فرط غنى الكنيسة وظلمها فى المانيا

واعظم ظلم القسوس كان ببلاد المانيا ولذلك ترى ان الالمانيين مع شدة ميلهم الى عوايدهم القديمة كانوا مستعدين اكثر من غيرهم من الملل الافرنجية لاتباع من يشير عليهم بطلب الحرية والخلوص من اسر الكنيسة ففى اثناء المشاجرات والمنازعات التى مكثت مدة مستطيلة بين الايمبراطرة والبابات فى شأن التقليد بالمناصب والوظائف هل هو حق البابا أو حق الايمبراطور وفى مدة الحروب التى تسببت عن هذه المشاجرات انضم اغلب كهنة المانيا الاقوياء الشوكة الى حزب البابا وكانوا فى مدة عصيانهم على الايمبراطور يتغلبون على ايراداته ويحوزونها لانفسهم بالقهر والغلبة وافتاتوا ايضا على احكامه الخاصة به فيما يتعلق بابرشياتهم وبعد انعقاد الصلح استمروا على حفظ ما كانوا غصبوه كأن طول مدة وضع اليد عليه بمحض التعدى جعله حقا شرعيا لهم وكانت شوكة الايمبراطرة حينئذ ضعيفة بحيث لا يمكنهم ان يسترجعوا ما غصبه منهم هؤلاء الكهنة فاضطروا الى ان ينزلوا لهم عن جميع الاراضى الواسعة التى غصبوها منهم لتكون التزاما لهم فصار الكهنة من وقتئذ يتمتعون بجميع المزايا والخصوصيات التى كان يتمتع بها الاشراف والبارونات بموجب المذهب الالتزامى ومن ثم صار معظم الاساقفة ورؤساء الاديار ملوكا لا قسوسا وصارت طبائعهم واخلاقهم كطبائع دواوين امراء

اللاييك لا كطبائع القسيسين الذين من دأبهم العفة والديانة والزهد فى زهرة الحياة الدنيا سنة ١٥٢٠

وزيادة على ذلك كانت حكومة المانيا مضطربة لا تستقرّ على حال وكانت الحروب لا تنقطع منها ابدا فاعان ذلك القسوس على تحصيل غناهم وازدياد شوكتهم وفى مدة الحروب التى كانت بها بلاد المانيا فى اسوء الاحوال لم يسلم من ظلم الاكابر والاعيان واهوال الحرب الا أراضى الكنيسة والتزامات القسوس لان الناس وقتئذ كانوا يحترمون القسوس كل الاحترام ويخشون ان يحكموا بالحرمان والكفر على من يتعدى على اراضيهم لانهم كانوا دائما يعاقبون باللعن والطرد من تعدّى على املاكهم ولذلك اضطرّ عدة من الملتزمين الى ان ينزلوا عن اراضيهم للقسوس ثم يسترجعوها فتكون تحت ايديهم على انها من التزامات الكنيسة وانما فعلوا ذلك لانهم كانوا بعد صيرورتهم بذلك فى حمى الكنيسة واندراجهم فى زمرة اتباعها يصيرون فى أمن عظيم لا يمكنهم تحصيله بمحض قواهم وشوكتهم

مطلب
تغلب القسوس على بعض الاراضى

ولما ترتب على ذلك كثرة اتباع الكنيسة تقوت شوكة القسوس وصار لهم صولة عظيمة لاسيما وكانت الاراضى التى يعطيها صاحبها لغيره على سبيل الالتزام ترجع اليه غالبا بموجب الرسوم الموجودة اذ ذاك فى شأن الاقطاعات المؤجلة فعما قليل كثرت اراضى القسوس واتسعت دائرة التزاماتهم

مطلب
مزايا القسوس الذاتية

وكان اعتناء القسوس بتحصيل الامن لانفسهم اكثر من اعتنائهم بتحصيله لاملاكهم واراضيهم فكان نجاحهم فيه اعظم وذلك ان الانسان عند دخوله فى خرقة القسيسين كان ينصب له موكب واحتفال عظيم ثم بعد دخوله فيها وعدّه من زمرة اصحابها يمتاز عن بقية طوائف الاهالى فى الملابس والمعيشة وتثبت له مزايا وخصوصيات لا يشركه فيها غيره من النصارى فصار القسوس بذلك محترمين كل الاحترام وكان كلما ازدادت الاوهام والبدع ازداد اعتقاد الناس فيهم واعتبروهم كانهم خلق آخر غير اللاييك الذين هم مطية الخطايا والمعاصى فاذن لا ينبغى معاملتهم كمعاملة الناس ولا الحكم عليهم

سنة ١٥٢٠

بموجب القوانين المرتبة لكافة الناس ومن فعل ذلك معهم فقد أثم اثما عظيما وبعد ان كانت معافاتهم من الاحكام المدنية اولا ليست الا على سبيل التفضل والاكرام طلبوا ان تصيراهم من جملة حقوقهم الذاتية التى لا يمكن نزعها منهم ولا انفصالها عنهم وايدهم فى ذلك البابا والاوامر الصادرة من المشاور القسيسية واقرهم عليه ايضا اعظم الايمبراطرة فكان الانسان مادام موصوفا بوصف القسيسية محترم الذات لا يجرى عليه شئ من الاحكام المرتبة ولا يقضى عليه بين يدى قاض من القضاة الا بعد عزله وانسلاخه من الطائفة القسيسية وكان عزل القسيس من خصوصيات المشاور القسيسية فكان اذا ارتكب قسيس ذنبا لا يعاقب غالبا بما جنى لان صاحب الحق كان اذا اراد خلاص حقه من احد القسيسين يلزمه مصاريف واسعة حتى يتوصل الى عزل خصمه وقل ان امكنه الفوز بعزله بعد المشقة والعناء ولذلك عهد ان كثيرا من اشرار الناس كان يدخل فى خرقتهم لمجرد التمتع بتلك المزية العظيمة ولينجو من العقاب الذى استحقه بسبب الذنوب والمفاسد الكبيرة التى ارتكبها وطالما تشكى اشراف المانيا من كون هؤلاء القديسين الاشرار انما دخلوا فى خرقة القسوس ليتخلصوا من القتل الذى وجب عليهم بما جنوه حيث ان الواحد منهم بعد دخوله فى تلك الطائفة لا يلحقه ادنى ضرر ولو كان قبل ذلك فعل ما فعل ويفهم مما كتبته الاشراف فى تشكيهم من هذا الامر انهم كانوا يتضررون كذلك من معافاة القسوس من الاحكام السياسية ويعدونها من المزايا التى تضر بالناس وتعين على فساد اخلاق القسوس وتزيد فى طغيانهم وبغيهم

مطلب
تغلب القسوس على الاحكام المدنية

وكما كان القسوس يبذلون غاية جهدهم فى اثبات مزاياهم كانوا يتعدون ايضا على مزايا اللابيك حيث زعموا ان جميع الدعاوى المتعلقة بالنكاح والوصايا والرباء واثبات كون الولد متولدا من حلال او حرام وكذلك ما يتعلق بالارادات القسيسية كل ذلك من الامور الخاصة بالدين فلا يجوز فصلها فى محاكم اخرى غير المحاكم القسيسية ولم يكتفوا بتغلبهم على هذا الامر الذى يدخل تحته

سنة ١٥٢٠

نصف المخاصمات والدعاوى التى تقع بين الاهالى حتى تحيلوا وجعلوا سائر الدعاوى انما تقام فى محاكمهم ودواوينهم وحيث ان ذالك العصر كان عصر جهالات ومعارفه اليسيرة مقصورة على طائفة القسوس كانت معارف القضاة من القسيسين فوق معارف قضاة اللاييك حتى ان الناس فى مبدء الامر ظنوا ان مصلحة حالهم تقتضى ان يساعدوا القسوس ويعينوهم على توسيع دائرة فتاواهم واحكامهم لانهم كانوا يثقون بهم اكثر من الآخرين من طائفة اللاييك لما كانوا يرونه فيهم من كثرة المعارف بالنسبة لقضاة اللاييك وترتب على ميل الناس للقسيسين أن صارت احكام اللاييك تضمحل شيأ فشيأ حتى كادت تنعدم بالكلية وكان ذلك ايضا من جملة الاسباب التى اعانت على ازدياد شوكة القسيسين حيث اتسعت دائرة ايراداتهم بما كان يرد لهم من فصل الدعاوى

مطلب
خوف الناس من القسيسين

وكان الناس حينئذ يخشون بأس الكنيسة ويخافون غضبها الان الحرمان لم يكن الغرض منه بحسب الاصل الابتداء طهارة الكنيسة واذهاب الرجس عنها فكان لا يقع الحكم به الا فى صورة ما اذا اريد تطهير الجمعية النصرانية من كل فاسق عنيد له عقائد زائغة تجعل عيشته بين الناس موجبة لتدنيس دين النصرانية ولكن توسع فيه القسيسون فيما بعد حتى جعلوه آلة يستعينون بها على ازدياد شوكتهم الدنيوية فكانوا يحكمون به على الانسان فى نظير اشياء هينة لا تزرى بمروءة ولا انسانية فكان كل من احتقر شيأ من احكامهم ولو فى الامور المدنية المحضة يحكم عليه بالحرمان وتسلب منه جميع المزايا النصرانية ويحرم من الحقوق الثابتة لابناء وطنه بل ومن حقوق كل انسان من الجمعية من حيث كونه انسانا وبناء على ذلك كان الناس يخشون عاقبة الحرمان فكنت تراهم على اختلاف احوالهم ينقادون لاوامر القسوس ويمتثلون احكامهم لا فرق بين صغير وكبير وحقير وخطير

مطلب
تحيل القسوس فى تحصيل الوسايط التى يامنون بها على ما ابتزوه لانفسهم من الحقوق والمزايا

وكان القسوس سلكوا سبل التحيل والمهارة فيما يكون به ازدياد ثروتهم وغناهم ونفوذ كلمتهم لم يهملوا كذلك فى تحصيل الوسايط التى بها يأمنون على بقاء تلك

سنة ١٥٢٠

الثروة لهم حتى لا تنفك عن ثروتهم على مدا الايام فاعلنوا ان اراضى الكنيسة واملاكها لا تباع ولا تشرى ولا ترهن ولا تنتقل الى ملك غيرها باى وجه كان لانها موقوفة لوجه الله تعالى ومن المعلوم ان الاموال التى تكون دائما فى الزيادة من غير ان يضيع منها شئ تبلغ فى الكثرة اقصى الدرجات ولا يكون لها حد تقف عنده فبموجب الحسابات التى حررت فى المانيا وجد بين ايدى القسوس ما يزيد على نصف اموال الملة وكانت هذه النسبة تختلف باختلاف الممالك ولكن كانت اموال القسوس فى كل محل قد بلغت مبلغا لا مزيد عليه وايضا كانت اراضيهم الواسعة معافاة مما كان مفروضا على املاك اللاييك من الخراج والجبايات ففى بلاد المانيا كان القسيسون معافين من سائر انواع الجرائم وكان اذا طرأت عوارض جسيمة غير المعتادة واعطى القسيسون شيأ للدولة لتستعين به يكون ذلك بمحض تفضلهم واحسانهم ولا حق للحاكم المدنى فى الزامهم بذلك بل ولا فى مجرد التماسه منهم وبسبب هذه الاشياء التى لا يرضاها عاقل كان على اللاييك فى المانيا جميع اثقال الجرائم والمغارم وكان القسوس معافين من ذلك كله ولا يجب عليهم شئ مما لا بد منه فى اعانة الدولة والمدافعة عنها مع انهم كانوا اغنى الناس واكثرهم عقارا واملاكا

مطلب القسوس الذين كانوا بألمانيا كان اغلبهم اجنبيا منها

ومع ان اهالى الجمعية الجرمانية كانوا يتضررون من مزايا القسوس وسعة ثروتهم نقول انه لو كانت تلك المزايا بين ايدى قسوس قاطنين ببلاد المانيا لما تضرروا منها بهذه المثابة وذلك لانهم لو كانوا قاطنين بها لما طغوا وتمردوا لكثرة اموالهم ولما بغوا وجاوزوا الحدود بسبب الحقوق التى كانت ثابتة لهم الا ان اساقفة رومة كان لهم من مبدء الامر دعوى عريضة لم يصدر مثلها عن النفوس الطماعة وهى انهم كبار رؤساء دين النصرانية وانهم معصومون عن الخطاء والزلل وكانوا يسلكون سبل المخادعة والسياسة من غير ان تفتر لهم همة او تمنعهم العوائق الجمة ويغتنمون كل فرصة لاحت لهم من جهل الاهالى وتتذوم من بدع بعض الملوك واضطرار البعض الآخر فلم يزالوا كذلك حتى توصلوا الى النجاح فى تلك الدعوى وان كانت مخالفة للعقل والمصلحة

العامة

سنة ١٥٢٠م

العامة فكان القسوس فى بلاد المانيا مطلق التصرف اكثر من غيرها حيث كانوا ينقون اعظم ايمبراطرتها اويعزلونهم متى شاؤا وكانوا يوقعون الفتنة بينهم وبين وزرآئهم ورعاياهم بل واولادهم حتى يقوموا عليهم ويخرجوا عن طاعتهم وفى اثناء هذه الفتن والمنازعات كان الپاپات لا يغفلون عن توسيع دائرة مزاياهم وكانوا يسلبون من طائفة اللابيك والامرآء اعظم خصوصياتهم وحقوقهم وبالجملة فبلاد المانيا حصل لها غاية المشقة والتعب من شدة ظلم هؤلاء القسوس الاجانب وفرط طمعهم الذى جاوز الحد

مطلب
كان قسوس المانيا ينصبهم البابا

وفى اثناء الفتن والتقلبات التى حصلت بتلك البلاد تغلب باپات رومة على حق اقطاع الاراضى فكان ذلك سببا آخر فى تقوية شوكتهم الدنيوية وازديادها وكان ايمبراطرة المانيا وامرآؤها قبل ذلك بزمن طويل يتمتعون بهذا الحق فكانت به سطوتهم ساطعة وايراداتهم واسعة فلما اغتصبه منهم الپاپات صارت السطوة لهم حتى كان يمكنهم ان يملأوا الايمبراطورية من اتباعهم واشراقاتهم فكنت ترى فى كل اقليم اناسا كثيرين قد تعودوا على عدم الطاعة للايمبراطرة وصاروا ينقادون للكنيسة الرومانية وفى جميع البلدان كانوا يعطون الاقطاعات الواسعة النفيسة للغرباء لا للاهالى فكانت خزآئن ممالك اوروبا تنفد فى تزيين ديوان رومة وزخرفته وازداد عتو القسوس وبغيهم حتى ان البدع الكثيرة والاوهام التى كانت تحمل الناس فى تلك الاعصر الجاهلية على احترام القسوس لم تمنع نفور الناس من ظلم القسيسين وتجاوزتهم الحدود فقد اكثر اهل المانيا الشكاوى وعيل صبرهم حتى خشى البابات ان تكون عاقبة ذلك مشؤومة عليهم فتساهلوا ورضوا بالنزول عن بعض حقوقهم واكتفوا بحق اقطاع الاراضى التى تمكث بدون مالك مدة ستة اشهر من السنة وتركوا ما عدا ذلك للامرآء والسادات يتصرفون فيه كيف شاؤا

مطلب
الوسايط التى استعملت لتضييق دائرة شوكة البابات ولم يكن لها ثمرة

ولكن لم يمكث ديوان رومة مدة الا ووجد له وسايط يتخلص بها من هذا

سنة ١٥٢٠

الامر الذى ضاقت به دآئرة شوكتهم وذلك انه كان ثم عادة قديمة تشكى منها الناس غير مرة وهى ان البابا كان له فى كل بلدة بعض اراض مخصوصة لا يقطعها الا هو فبعد ان ضاقت شوكتهم من الجهة السابقة جعلوا تلك العادة مطمح انظارهم وتوسعوا فيها حتى جاوزت حدودها القديمة فجعلوا من جملة ماصدقاتها جميع الاقطاعات التى يملكها الكردينالات وارباب الوظائف بديوان رومة الذين كان لا يحصى لهم عدد وجميع ماانحل من اقطاعات القسوس الذين يموتون فى مدينة رومة او يموتون بالبعد عنها بمسافة اربعين ميلا سوآء كان الميت ذاهبا اليها او آيبا منها وكان يدخل تحتها ايضا جميع الاقطاعات التى تبقى خالية بعد انتقال مالكها الى محل آخر وكذلك اقطاعات اخرى لا حصر لانواعها وبالجملة فالبابا جاليوس الثانى والبابا ليون العاشر توسعا فى ذلك بقدر ما امكنهما حتى ان اغلب الاراضى التى اقطعاها لم تكن من جملة ما هو مقرر فى الشروط على وجه الصراحة وتعللا بانهما ابقيا لانفسهما فى الذهن والنية حق الاختصاص بهذه الاقطاعات مع ان حق ابقاء الاختصاص ذهنا او نية كان وقتئذ لا يعمل به الا فى شأن الاقطاعات التى تكون خالية عن الولى او المالك عند عقد نية الاختصاص فلاجل ان يتخلص البابات من ذلك ويكونوا مطلقى التصرف فى شأن الاقطاعات كما كانوا اولا جددوا امرا آخر سموه بالانعامات المترقبة أن تكون محلولة وهو ان يكون لهم الحق فى تعيين من يكون له الاستيلاء على ارض عند خلوها من المالك فبهذه الواسطة صارت الامبراطورية الالمانية مشحونة بقسوس لا ينقادون الا لديوان رومة ولا يميلون الى حزب غير حزبه بسبب تلك الاقطاعات المترقبة التى لا يكون الحق فيها لسواه وحرم الامرآء ثانيا من اغلب مزاياهم وصارت حقوق امرآء اللاييك عرضة للزوال او لا نفع لها

مطلب
بيع ديوان رومة للاقطاعات

ومما سلكه القسوس فى هذا الشان من الطرق العجيبة ازداد بغضهم عند الناس وسئمت منهم النفوس وجاوزت اطماعهم ومظالمهم الحدود حتى صار يضرب المثل بديوان رومة فى ذلك اذ كان هذا الديوان يبيع الاقطاعات جهرة على

سنة ١٥٢٠

رؤوس الاشهاد حتى صار التجار يشترون من مرتزقة البابا اراضي الابرشيات الالمانية بجملة ويبيعونها مفرقة فيكسبون فيها مكسبا عظيما وكان الاخيار يتضررون من هذه الفعال التي هي بيع الدين بالدنيا ولا تليق بالاقسة حيث انهم عماد دين النصرانية كما ان اهل الدول وارباب السياسات كانوا يتأسفون كل الاسف على ما يعرض للدول من الخسارة بسبب تلك التجارة التي كانت تذهب باموالها الى الدولة الرومانية

مطلب
كان ديوان رومة يستغرق اموال سائر الدول ويحوزها

وبالجملة فالمبالغ التي كان يأخذها ديوان رومة من جميع البلدان التي تحت حكمه كانت جسيمة جدا بحيث لا يستغرب نفور الناس من ضرب مغارم اخرى عليهم زيادة على ذلك وان كانت قليلة جدا ما لم تكن ناشئة عن ضرورة ظاهرة جلية وذلك لان كل قسيس اخذ ارضا كان يدفع للبابا ايراداتها في السنة الاولى فكان يتحصل من ذلك مبالغ جسيمة ومقادير عظيمة وزيادة على ذلك كان البابا يطلب دائما من القسوس مبالغ اخرى على سبيل التبرع وكان له العشر في محصولاتهم متعللا بانه يصرفها في الحرب مع المسلمين مع ان ذلك لم يكن يخطر له ببال فاذا تأمل الانسان في تلك الابواب التي كان يأتي منها ايراد ديوان مدينة رومة علم عظم المبالغ والكميات الجسيمة التي كانت تحوزها تلك المدينة

مطلب
مجموع نتائج هذه الاسباب السابقة

هذا ويمكن للانسان ان يستدل بذلك كله على فساد اخلاق القسوس وفرط غناهم وثروتهم وعظم مزاياهم وشوكتهم قبل تظاهر لوتير بنقض دين الكنيسة ويستدل ايضا على ظلم البابات واجحافهم بالنصارى وعلى اعتبار الناس لهم في اوائل القرن السادس عشر* ولا يخفى اني لم انقل هذه الاشياء المتقدمة عن مؤلفي ذلك العصر الذين كانوا يقدحون في الكنيسة ويناقشون امورها حتى يتوهم ان ذلك من قبيل المبالغة لما ان هؤلاء المؤلفين كانوا يريدون دمار الكنيسة فبالغوا في ذمها وتعداد خطاياها ومفاسد احكامها وانما استنبطتها من مواد صحيحة يعتمد عليها فاستخرجتها من دفاتر مشاور الديت الالمانية ومن تقارير شكواها حيث يوجد في تلك الدفاتر جميع المظالم التي

كانت تشتكى منها الايمبراطورية وتطلب ازالتها الاسيما وكانت تلك المظالم سنة ١٥٢٠
مذكورة بعبارات باردة تدل على انها خالية عن المبالغة والاطراء حيث ان عباراتها ليست عبارات المتحامل فاذا علم الانسان ان هذه المشاور مع صولتها ونفوذ كلمتها اذ ذاك كانت تشتكى من هذه المظالم وتطلب ازالتها اعتقد ان الاهالى كانوا يشتكون اكثر من ذلك وكادت تزهق نفوسهم من ظلم القسوس

مطلب
استعداد الناس وصلاحيتهم لاتباع مذهب لوتير

ولما كانت العقول حينئذ بهذه المثابة وكان الناس يحبون الخلاص من اسر ديوان رومة كان لوتير متيقنا النجاح فى مشروعه فبعد أن اضر بهم ظلم هذا الديوان كل الاضرار ومكثوا ازمناطويلا وهم فى كرب شديد من ظلم القسوس وبغيهم فرحوا كل الفرح بتلك الفرصة التى تنقذهم من هذا الظلم فمن ثم استحسنت الاراء والمذاهب الجديدة وقبلت مع غاية الفرح والسرور وعما قليل انتشرت فى سائر اقاليم المانيا نعم ان حمية لوتير وماسلكه من الطرق فى نشر مذهبه وذم من لم يتابعه عليه اوجبت له اللوم فى الاعصر التى تهذبت فيها الاخلاق وعدت من المثالب التى تزرى بعرضه ولكن لم تنفر منها النفوس فى عصره بل انشرحت منها الصدور لان الناس وقتئذ كانوا فى كرب عظيم من ظلم البابا وفساد الاخلاق القسيسية التى كان لوتير يريد اصلاحها

فلم تنفر نفوسهم مما ذكره فى مؤلفاته من اسائتهم والقدح فيهم ولا من سخريته واستهزآئه بهم حتى كان فى بعض الاحيان يمزج الجد بالهزل لانه فى تلك الاعصر الخشنية كان الناس فى مجادلاتهم مع بعضهم لا يتجنبون المسبة والفحش بل كانوا يأتون بالهزل فى كل مقام جليل وكان ذلك من الاسباب الاكيدة التى اعانته على افهام الناس ضلالات البابا ومظالم القسيسين التى نفرت منها القلوب وحملت الناس على التخلى عن حزب الكنيسة

مطلب
اختراع فن الطبع واعانته على تقدم النسخ

وقد انضم الى هذه الاسباب المستمدة من نفس هذا المشروع ومن مقتضيات الاحوال اذ ذاك اسباب اخرى اجنبية استفاد منها لوتير فوآئد جليلة

لم تتيسر لمن سبقه فى التصدى لتخطئة الكنيسة الرومانية فن اقوى هذه الاسباب الاجنبية واعظمها نفعا اختراع فن الطبع الذى كان موجودا من قبله بنصف قرن وذلك ان هذا الفن النفيس كان نفعه عميما حيث سهل به اكتساب العلوم وانتشارها على وجه عجيب فانتشرت به فى اقرب وقت مؤلفات لوتير ببلاد الافرنج باسرها ولولا هذا الفن لما وصلت هذه المؤلفات الى البلاد البعيدة الا مع غاية البطئ وربما كان لا يترتب عليها ثمرة اذ كانت المؤلفات لا يقرؤها الا العلماء والاغنياء لانه قبل اختراع فن الطبع كان لا يتيسر لغير الاغنياء تحصيل الكتب لغلوها وندرتها واما مؤلفات لوتير فكثرت بايدى الناس وقرأها الغنى والفقير والجليل والحقير وكان لوتير يعرض عليهم مذهبه بصورة الاستفهام عن آرائهم هل يوافقون عليه ام لا فاغتروا بكونه جعلهم حكما بينه وبين اخصامه وبحثوا فى اصول الدين واحكام الكنيسة ورفضوا ما لم تستحسنه عقولهم وانما كانوا مكرهين على اتباعه واعتقاده من غير ان يعرفوا اصله ولا كيفية استمداده من الدين

مطلب
اعانة علم الاداب على تقدم النسخ

وقد حصل فى ذلك الزمن ايضا احياء علم الآداب فكان من الاسباب الطارئة التى اعانت لوتير كل الاعانة على تقدم مذهبه وذلك ان الناس اشتغلوا بمطالعة كتب قدماء مصنفى اليونانيين واللاطينيين فعرفوا منها اللطائف التى تؤدب الانسان وتهذب ذوقه وطبعه واستيقظت بذلك العقول وخرجت من غياهب الغفلة بعد أن مكثت فيها عدة قرون فتربى للناس حينئذ على حين غفلة ملكة التفكر والتعقل التى كانت فقدت منهم ولما فتحت لهم تلك الابواب واتضحت لهم السبل اخذت عقولهم تجول فى كل مادة من غير أن تخشى الجولان فيها حيث ظهرت لهم معالمها واتضحت لهم مسالكها فصاروا لا يخشون التمسك بالمذهب الجديد حيث كانت الافكار تزن كل مادة وتعرف غثها من سمينها وتميز هجانها من هجينها وصار الناس يرغبون كل الرغبة فى كل أمر جديد ويعتبرون فضل مجدده فما بالك اذا كان فى مادة شريفة كمادة الدين فلذا لم يفزعوا من لوتير حين تجاسر على كشف الغطاء عن ضلالات الكنيسة

البـاطلة وترهاتها العاطلة بل حصل لهم غاية السرور من جسارته واعانوه على سنة ١٥٢٠
تتميم مقصده نعم لم يكن قلم لوتير في التأليف سيالا ولا عباراته عذبة منسجمة
الا انه بذل جهده في احياء الآداب القديمة وتوسيع دائرتها فانه لما كان
يعرف ان الانسان لا يمكنه كشف اسرار الكتاب المقدس ولا الوقوف على
دقائقه الا بعد التمكن من العلوم الادبية تفرغ بكليته لمعرفة اللغة اليونانية
والعبرانية حتى صار له في هاتين اللغتين الحظ الاوفر وقد نجح عدة من تلامذته
في تلك العلوم نجاحا عظيما منهم الشهير ميكنختون ثم ان جهلة الرهبان
الذين توقفوا في مذهب لوتير وتصدوا لابطاله وتخطئته بذلوا جهدهم
في منع دخول العلوم الادبية ببلاد المانيا حيث قالوا ان ما هو واقع من
قبول الناس لمذهب لوتير انما هو من جملة ما ترتب على تقدم تلك العلوم
فمن ثم كانت هي ومذهب لوتير معتبرين كانهما امران متلازمان لا ينفك
احدهما عن الآخر وكان لهما في كل بلدة مساعد ومعاند وبالجملة فبمعرفة
الآداب فاق الناسخون اخصامهم حتى كانوا يفحمونهم ويلزمونهم الحجة في كل
مادة جادلوهم فيها وذلك ان الناسخين كان لهم سعة اطلاع ومزيد ثبات وتمكن
وذهن ثاقب له اقتدار على الجولان في المواد العويصة وكانت عبارات تأليفهم
تأخذ بمجامع القلوب لرقتها وعذوبتها واشتمالها على الملح الادبية والنكات
المستحسنة فكان يسهل عليهم افحام الرهبان حيث كانوا وقتئذ جاهلين
لا معرفة لهم بعلم الميزان فلا يحسنون اقامة برهان ولا تركيب قياس بل كانوا
يأتون بعبارات ركيكة مستهجنة تمجها الاسماع فلم يكن لهم اقتدار على تعضيد
ضلالات الكنيسة التي لم يمكن لمن تصدى من نجباء المتأخرين لتأييدها ان يستروا
عيوبها مع انهم اعظم منهم علما وحزما

فلما انتشرت العلوم الادبية في بلاد اوروبا وانسلت العقول من اوحال الغفلة
صار الناس يفحصون عن كل شيء ويرغبون في معرفة اصوله وفروعه فاعان
ذلك كثيرا على تقدم النسخ ونجاحه وتوسيع دائرته حتى ان عدة اناس كانوا
قبل ذلك لا يرغبون في نجاح لوتير اعانوه على مشروعه اتم الاعانة وحسنوا

للناس

سنة ١٥٢٠ للناس قبول مذهبه واتباعه بل ظهر لاغلب ذوى العقول الذين اجتهدوا في العلوم الادبية القديمة في اواخر القرن الخامس عشر واوائل القرن السادس عشر فساد عدة من اصول الكنيسة وقواعدها فعرفوا ان ما اقامه الرهبان والقسوس على تأييد تلك القواعد لا يقوم دليلا على ذلك مع انه لم يكن لهم غرض في نسخ دين الكنيسة

فصار هؤلاء العلماء يقدحون في عدة من احكام الكنيسة ويخطئون كثيرا من اصولها ويحتقرون جهلة القسوس الذين كانوا يعضدونها وآل امرهم أن صاروا يسخرون من تلك الاصول التي هي مبنية على الخطاء والضلال ويشنعون بها على الكنيسة فحسن تشنيعهم هذا لعقول الناس ذم لوتير وقدحه في الكنيسة واضاع من قلوبهم احترامهم لاخصام لوتير وقدعم ذلك سائر الاقطار لاسيما اقطار بلاد المانيا فانه لما شرع اهلها في احياء علوم الآداب القديمة وكان قسوسها اجهل من قسوس البلاد الاخرى تصدوا لمنع هذا المقصد وبذلوا في تعطيله غاية جهدهم غيران المتولعين باحياء تلك العلوم جدوا في ايذاء هؤلاء القسوس وذمهم والوقوع في اعراضهم بشكل كريهة فطالما شنع الشهير روشلين والماهر هوتان وغيرهما ممن احيوا الآداب في بلاد المانيا على الكنيسة الرومانية وتجاوزها الحد في المفاسد وبالغوا في ذلك حتى ان مؤلفاتهم لم تكن في هذا المعنى دون مؤلفات لوتير ومما ترتب على علوم الآداب ايضا ان الشهير ايراسم كان يقذف الكنيسة احيانا ويبين ضلالاتها ويطري في ذم جهالة القسوس ورذائلهم وكان له في اوائل القرن السادس عشر شهرة عظيمة وكلمة نافذة ببلاد اوروبا فلذا كان الناس كافة يرغبون في مؤلفاته وتنشرح صدورهم بمطالعتها حتى ان ما ترتب عليها من الثمرات حرى بالذكر هنا حيث انه من اعظم الاسباب الاكيدة التي نجح بها لوتير فنقول ان ايراسم اعد من مبدء امره للدخول في الكنيسة فدارس من صغره علوم القسوس حتى فاق احبار عصره في الفحص عن اسرار العلوم التيولوجيكية اى علوم اللاهوت

واستكشف بذهنه الثاقب وفهمه الصائب واتساع دائرة علمه مقدارا جما سنة ١٥٢٠
من ضلالات الكنيسة الرومانية وبدعها فى المعاملات والعبادات وانكر بعض
هذه الضلالات بادلة قاطعة البرهان فصاحته الساطعة وشنع على البعض
الآخر ورماه بنبال الاستهزاء والذم وكان يحسن الرمى فى هذا المعنى حتى اثر قوله
فى قلوب الناس تأثيرا قويا وبالجملة فقد عثر هذا الحبر الشهير على العقائد الفاسدة
والعوايد الكاسدة التى كانت فى كنيسة رومة وشرع لوتير فى محوها
ونسخها وشنع عليها ذلك الماهر كل التشنيع قبل لوتير ولم يفته منها الا القليل
النادر فلما اخذ لوتير فى القدح فى تلك الكنيسة وافساد قواعدها اجابه
ايراسم بالتهاليل وسعى فى تجديد المحبة بينه وبين عدة من اصحاب لوتير
واحزابه وبذل كل جهده فى ذم اخصامه وقمع اعدائه واستحسن آرآءه على
رؤوس الاشهاد واعانه على قهر الاحبار الذين كانوا يدرسون بالمدارس العلوم
التيولوجيكية وشنع على القسوس الذين كانوا يعظون الناس ويحثونهم
على اتباع مذهب الكنيسة الذى يوجب المضرة والمعرة واعانه ايضا اتم الاعانة
على استمالة عقول الناس الى مطالعة الانجيل واتخاذه قدوة يرشدهم الى
حقيقة دين النصرانية وتحريضهم ان لا يعملوا الا بما نص عليه من العقائد
والاحكام

ولكن كان ثم عدة اسباب منعت ايراسم عن اقتفاء اثر لوتير فى النسخ
وتلك الاسباب هى انه لم يكن عنده جسارة حتى يخاطر بنفسه مثل لوتير بل
كان شديد الخوف والفزع مجردا عن ثبات الجنان الذى به يتأتى للانسان
ان يقتحم اخطار مثل هذا المشروع الجسيم وهو نسخ شئ من قواعد هذا الدين
الذى كان متمكنا من قلوب الناس ومتسلطنا عليها حتى صار لامنائه اعنى
القسوس سلطنة كبيرة على جميع البشر وصار اجلالهم من الامور الواجبة
على كل انسان لاسيما وكان ايراسم المذكور يطيع الاكابر وارباب المناصب
ولا يرد لهم امرا وذلك لاسباب منها انه كان يخشى ان يجردوه عما انعموا به عليه
من المرتبات والمزايا ومنها انه كان يحب دوام الصلح والراحة ويبغض التعكير

والتين

والفتن فكان لا يرضى ان يتصدى لنقض دين الكنيسة الرومانية لعلمه بما يترتب عليه من الشقاق بل كان يأمل انه مع الرفق والملاطفة وطول الزمن يمكن ازالة مظالم الكنيسة وضلالاتها ومحو مفاسدها شيأ فشيأ وبالجملة فكانت مقتضيات الاحوال اذ ذاك تحمله على العدول عما صدر منه فى مبدء الامر من التشنيع على الكنيسة حتى صار اشبه بمصلح بين لوتير واخصامه لا ظهير له يأخذ بناصره فيما شرع فيه من النسخ لكن وان عدل ايراسم عن مذهبه الاول وصار من جملة من يلوم لوتير على جسارته وجمينه حتى لزمه فيما بعد ان يؤلف كتابا شنع فيه على لوتير الا انه كان فى الواقع حليفه وظهيره فى نزاله فى ميدان المنازعة مع كنيسة رومة كما انه كان اول من فتح له ابواب هذا الحرب ومهد له سبله فهو الذى غرس اول زرع و لوتير عاناه واعتنى به حتى طابت ثمرته فجناها فسخرية ايراسم من الكنيسة ونكاته اللطيفة فى التشنيع عليها هى التى مهدت السبل للوتير فى ذمها والتشنيع عليها على رؤوس الاشهاد كما يشهد بذلك احزاب الكنيسة الرومانية ممن كان معاصرا لايراسم وذلك لا يخفى على من قرأ تاريخ ذلك العصر وعرفه حق المعرفة

ولا يخفى انى فيما ذكرته من الاحوال التى اعانت لوتير وحسنت مذهبه للعقول واعيت اخصامه واعداءه لم اتعرض لذكر شئ من المناقشات فى شأن قواعد الكنيسة الرومانية ولم ابرهن على ان هذه القواعد مخالفة لفحوى دين النصرانية وانها لا اصل لها فى العقل ولا فى الكتاب المقدس بل ولا فى رسوم الكنيسة بحسب الاصل بل تركت ذلك لمؤرخى القسيسين لانه من خصوصياتهم ولكن اذا نظر الانسان الى هذه الاشياء المقتبسة من الدين ونظر ايضا الى الاسباب السياسية التى كانت موجودة وقتئذ لا ينبغى له ان يستغرب ما نشأ عن هذين الامرين على حين غفلة من التأثير فى عقول الناس وذلك ان عصريى لوتير كانوا على شدة القرب من محل الواقعة فلم يتحنوا اسبابها مع التؤدة والتأنى لما داخلهم من مزيد التعجب من امرها وسرعة نجاحها او كان لهم فيها مصلحة وغرض فلم يمكنهم ان يقفوا على حقيقة تلك الاسباب

سنة ١٥٢١

واشكل على بعضهم سرعة انتشار مذهب لوتير فعدّ ذلك من الاتفاقات العجيبة التى صارت بها عقول الناس مستعدة لقبول هذا المذهب والحق ان نجاح لوتير فى ذلك اثما نشأ عن عدّة اسباب معلومة اعانته حتى الاعانة على تتميم مقصده هذا ونأمل ان ما ذكرناه فى بيان هذه الحادثة الغريبة المهمة ومعرفة اسبابها لا يعدّ من باب الاقتضاب المجرد عن الفائدة ولنرجع الى موضوع تاريخنا الاصلى فنقول

مطلب
مذاكرة مشورة الديت بمدينة وورمس سنة ١٥٢١

لما انعقدت مشورة الديت بمدينة وورمس طالت مدة المذاكرة كما هو العادة فى المشاور العمومية من البطئ والتدقيق ومكث اربابها مدّة طويلة فى وضع قوانين داخلية لضبط الايمبراطورية وربطها واستوافيها للمجلس الايمبراطورى ان تكون له الكلمة العليا فى الحكم وان يكون المرجع اليه وجعلوا صورة مستحسنة لاقامة الدعاوى به حيث ابدلوا طريقتها الاولى بطريقة اخرى احكم منها واتقن وجددوا مجلسا يقال له مجلس النيابة او المعاونة اعدّوه لمساعدة الامير فرديننده على تدبير امور الايمبراطورية مدّة غيبة اخيه الايمبراطور شرلكان لانه لكثرة ممالكه ومصالحه كان لا يمكنه ان يستمر على الاقامة بالمانيا ثم تفاوضوا فى شأن الدين وكان هناك اسباب تدعو الايمبراطور شرلكان الى حماية لوتير واعانته على تتميم مقصده ولو باطنا لانه كان له فى المانيا اراض واملاك كثيرة ولو لم يكن له من الالتزامات سوى الجفالك الموجودة بها ولامس التيجان سوى تاج الايمبراطورية لكان ذلك كافيا فى حمله على اعانة لوتير وحمايته حيث انه كان يدافع عن الخصوصيات التى مكث ايمبراطرة المانيا يدافعون عنها من بابات رومة زمنا طويلا لا غير انه لما كان الملك فرنسيس ملك فرانسا يسعى دائما فى اضراره وتعطيل مصالحه الجأته الضرورة ان يسلك فى مقاصده مسلكا اوسع مما يسلكه امير من امراء المانيا فلم يجسر على اعانة لوتير وحمايته لما رأى ان ذلك يضر بمصالحه فى غير بلاد المانيا ورأى انه لابد له من استمالة قلب البابا والتودد اليه فاساء لوتير واغلظ عليه ظنا ان ذلك اعظم واسطة

فى

سنة ١٥٢١

في استمالة البابا الى حزبه فمن ثم كان لا يبعد ان يسلم لقسوس المانيا فيما طلبوه من ارباب مشورة الديت من الحكم بقتل لوتير على الفور حيث ان البابا طرده وحكم عليه بالحرمان وعده من الفرق المبتدعة المخذولين المطرودين عن باب الكنيسة المحرومين من نعمها الا انه لما ظهر لارباب مشورة الديت ان هذا من محض الظلم والتعدى انحط رأيهم على ان يدعوا لوتير اليهم ليسألوه هل هو باق الى الآن على آرائه واعتقاداته التى اوجبت له غضب الكنيسة او رجع عنها ومحا ما جناه بالتوبة فاعطاه الايمبراطور شرلكان تذكرة الطريق وكذلك جميع الامرآء الذين يلزمه ان يمر ببلادهم عند ذهابه الى المشورة المذكورة وكتب له شرلكان ان يأتى الى مشورة الديت بدون تراخ ولا يخشى اساءة احد ابدا فبمجرد وصول الامر الى لوتير تأهب للسفر ولم يتوقف اصلا وسافر ومعه رسول الايمبراطور وتذكرة الطريق حتى وصل الى مدينة وورمس التى كانت منعقدة بها الشورى وكان كل من قابله فى الطريق من احبابه يتذكر ما وقع للعالم حنا هوس وكان مثل لوتير فى الذنب وكان معه ايضا تذكرة طريق من الايمبراطور فلم تنفعه فصاروا يحذرونه وينصحونه ان لا يذهب الى مشورة الديت ويلقى بنفسه الى التهلكة لكنه كان ثابت الجنان فاسكتهم بقوله انى مطلوب الى وورمس وها انا ذاهب اليها باسم الله فلا ابالى ولو تحزب على من هؤلاء الشياطين ما يبلغ قدره عدد الحجر والحصى

مطلب
الزام لوتير بالحضور الى مشورة الديت

فى ٦ من شهر ادار

ولما دخل مدينة وورمس تلقاه اهلها بالاكرام والتبجيل بحيث لو كان غرضه من التشنيع على الكنيسة مجرد التفاخر بين الناس وحب المحمدة والشهرة لكان ما حصل له فى هذه المدينة كافيا فى جزائه على سعيه واجتهاده وذلك انه احدق به من الناس المتشوقين لرؤيته اكثر ممن اجتمع منهم حول الايمبراطور شرلكان حين دخوله تلك المدينة مع الموكب والاحتفال وكان يتردد اليه الناس كثيرا حتى كان المحل الذى نزل به يمتلئ كل يوم من الامرآء والاعيان واحسنوا معاملته واحترموه احترام من له اقتدار على

مطلب
دخوله بمدينة وورمس

سنة ١٥٢١

الخام الخصم والزامه الحجة ولا شك ان مثل هذا الاحترام من اولى الفضل العظام اشرف والفخر للانسان مما يستوجبه بعلومقامه وشرف منصبه او بحسبه ونسبه لما انه يكون صادرا عن صدق نية وخلوص طوية ولما حضر لوتير فى مشورة الديت سلك مع اربابها مسلك الحشمة والادب واظهر فيها مايدل على ثبات جنانه وعلوشانه حيث اعترف انه تجاوز فى مؤلفاته الحد واطرى فى تشنيعه على الكنيسة لكنه قال لااتحول عن آرائى ولاارجع عن مذهبى الا اذا اقيمت لى ادلة قاطعة وبراهين ساطعة على بطلانها وخطائها وابى ان يقبل من البراهين الا ماكان مستنبطا من كلام الله ونصوص الانجيل

فلما لم ينفع معه التهديد ولا التحذير وابى ان يرجع عن مقصده عرض بعض القسوس على ارباب الديت ان يتأسوا بجمعية قونستنسة القسيسية ويبادروا بقتل هذا المبتدع ويريحوا منه الكنيسة قبل ان يفر من ايديهم فلم يسمع ارباب المشورة قول هذا البعض لما رأوا ان ذلك يخل بمروءة اهل المانيا ويكسبهم العار حيث كان معه منهم ورقة الامان وكان الايمبراطور شرلكان ايضا لايحب ان يدنس مبادى حكمه بمثل هذه الفعلة الذميمة فخلوا سبيله وانطلق آمنا مطمئنا الا انه بعد ارتحاله من مدينة وورمس

فى ٢٦ من شهر نيسان

مطلب
الامر الصادر بالقبض على لوتير

ببعض ايام صدر امر باسم الايمبراطور ومشورة الديت ان لوتير قد استحق القتل وهو مذموم مخذول يجب تجريده عن سائر المزايا التى يتمتع بها بوصف كونه من رعايا الايمبراطورية ولايجوز لاحد من الامراء ان يدخله فى حماه بل يجب عليهم ان يقبضوا عليه بعد فراغ الاجل المسمى فى ورقة الامان التى معه ولكن لم يجر العمل على مقتضى هذا الامر وذلك لسببين احدهما ان الايمبراطور عرضت له اشغال كثيرة لما حصل اذ ذاك من التعكيرات والفتن فى اسبانيا والحروب التى وقعت فى ايطاليا ومملكة البلاد الواطية وثانيهما هو ان الامير فريدريق منتخب سكس كان يحب لوتير محبة صادقة ويبذل جهده فى محاماته والذب عنه فتحيل فى انقاذه من ذلك

مطلب
القبض على لوتير واخفائه عن اعدائه فى وارتبورغ

باحتراسات

سنة ١٥٢١ باحتراسات مبنية على الحزم وسداد الرأى وذلك ان لوتير عند رجوعه من مدينة وورمس مر بقرب مدينة ألتنستين فى اقليم تورنجه فخرج عليه من اجمة هنالك جماعة من الخيالة متنكرة فاحتاطت به وبجماعته وكان فريدريق هو الذى اخفاهم بهذا المحل لذلك الغرض فبعد ان صرف الخيالة من كان مع لوتير اخذوه واتوا به الى وارتنبورغ وهى قلعة قريبة من الاجمة التى قبضوا عليه فيها فامر فريدريق حالا بان يعطى له كل ما يحتاج اليه وان يجاب فى كل ما طلبه الا انهم ضيقوا عليه باخفائه فى محل مجهول من هذا القصر لئلا يطلع عليه احد ومكث على تلك الحالة حتى تغيرت احوال اوروبا وخمدت نار حقد اعدائه وكانت مدة مكثه فى هذا المحل تسعة اشهر وكان يسميه البتموس وفى هذه التسمية اشارة لطيفة لان البتموس اسم للجزيرة التى نفى فيها الحوارى مارى يوحنا ولم يزل فى تلك المدة يعضد مذهبه ويؤيد اراءه ويبرهن على بطلان مذهب اخصامه مع الحمية والشدة التى كان عليها قبل ذلك وكتب فى هذا المعنى عدة تاليف ونشرها بين الناس فاحيت ميت عزم اصحابه واعادت لهم همتهم بعد فتورها لغيبته عن اعينهم

مطلب تقدم مذهبه

ولم يزل مذهبه فى عزلته آخذا فى التقدم والانتشار حتى تمكن من عقول الناس فى اغلب مدائن سكس وفى ذلك الزمن تقوت قلوب قسوس الطائفة الاوغوسطينية الذين كانوا بمدينة ويتانبرغ بسبب قبول مذهب لوتير فى الاونيورسيتة (مجمع العلماء ومنبع الاحبار) وتصدى فريدريق لحمايته لانه كان ظهيره ونصيره فى الباطن وشرعوا فى احداث امر جديد فى كيفية العبادة فأبطلوا اقامة صلوات القداس الصغير واشركوا طائفة اللاييك فى كل من نوعى القداس الكبير والصغير وكان لوتير يسلى فى سجنه بما يبلغه من الاخبار فى شأن اجتهاد اصحابه ونجاحهم وتقدم مذهبه فى وطنه الا انه حصل فى اثناء ذلك حادثتان نغصتا عليه عيشه حيث رأى انهما مانعتان من انتشار مذهبه فى مملكتى فرانسا و انكلترة اللتين هما اعظم ممالك

سنة 1521

مطلب
الامر الصادر من اونيورسيتة باريس ببطلان مذهب لوتير
مطلب
صنف الملك هنرى الثامن ملك الانكليز تأليفا يفسد وينقض به مذهب لوتير

اوروبا شوكة وصولة الاولى هى ان جمعية العلوم بباريس حكمت ببطلان مذهبه وصدر منها فرمان فى هذا الشان علمه الخاص والعام وكانت هذه الجمعية المسماة الاونيورسيتة اقدم واعظم مجامع العلماء والاحبار التى كانت زاهية زاهرة اذ ذاك ببلاد الافرنج والحادثة الثانية هى ان الملك هنرى الثامن ملك الانكليز صنف كتابا بصدد الرد على كتاب لوتير الذى الفه فى اسر بابل وكان والد هذا الملك الشاب كثير الظن والوسوسة نخشى ان يقف ولده على مصالح الدولة فيغدر به فشغله عن ذلك بتعلم الآداب فلما تولى على انكلترة لم يزل باقيا على الرغبة فى المطالعة والاجتهاد اكثر مما كان يظن فيه بالنظر لما فيه من الحدة الغريزية والميل الى الشهوات النفسانية وكان يحب ان يكون له فخر فى كل شئ ويحب الكنيسة الرومانية حبا جما لاسيما وكان فى غيظ شديد من لوتير على ماوقع منه من القدح والذم فى حق المؤلف توماس داكين وكان هنرى يحبه كثيرا فرأى انه لا يكفيه ان يستعمل شوكته الملوكية فى ابطال مذهب لوتير وتفنيد آرائه واقواله بل عزم على محاربته ببواتر البراهين السكولاستيكية وصوارم الحجج والادلة التيولوجيكية فنشر فى هذا المعنى مؤلفا سماه بالاسرار السبعة وقد صار الآن نسيا منسيا كغيره من التآليف الجدلية التى تزول بزوال مقتضياتها وهو مع ذلك لا تنكر دقته بل تشهد لمؤلفه بالفضل فى المحاورات والمجادلات وقد حمل التملق ندماءه وخاصته على الاطراء والمبالغة فى مدح هذا الكتاب حتى وصفوه بانه جمع من درر المعارف والعلوم مايقضى بتبحر الملك هنرى الثامن وسعة اطلاعه وفضله على غيره من المؤلفين فى العلوم الادبية كافضلهم فى الرتبة والمقام وقدم الكتاب المذكور للبابا فى احتفال عظيم حضره الكردينالات وغيرهم فتكلم البابا فى شأن هذا الكتاب مع الاحترام التام حتى كانه يتكلم فى شأن كتاب صادر عن الهام الهى اوفيض ربانى ولقب مؤلفه بحامى حمى الدين ليريه ان الكنيسة تثنى عليه وتشكره على سعيه المبرور وهو مدافعته عنها ولكن لم يثبت هذا اللقب

لهنرى

سنة ١٥٢١

لهنرى الثامن زمناطويلا فى عقول من لقبوه به بل بقى لخلفائه وان تخلفوا وعدلوا عن العقائد التى استحق هنرى الثامن بتأييدها وتعضيدها ان يلقب بهذا اللقب ولما كان لوتير لا يخشى باس جمعية احبار باريس ولا بطش ملك انكلترة بادر بنشر ملحوظات تتضمن الرد على الفرمان الصادر من الجمعية المذكورة وعلى كتاب هنرى وقد سلك فى عباراتها مسلك الخشونة والقدح حتى كانه انما كان يرد على احقر اخصامه واصغرهم ولم تنفر نفوس اهل ذلك العصر من جرآته ووقاحته فى هذا الشان بل عدت ذلك برهانا جديدا على ثبات جنانه ولما كان ابطال هذا الميدان كلهم مشهورين وممتازين كانت مجادلاتهم مطمح نظر الخاص والعام وكانت عقول الافرنج اذ ذاك قد تعودت على الابداع والاختراع وكانت براهين اصحاب المذاهب الجديدة اكيدة جلية لا تقبل ردا حتى لم يتمكن القسوس ولا الملوك من نقضها بل كان يظهر لها كل يوم انصار واحزاب حتى فى مملكتى فرانسا و انكلترة

مطلب
رد لوتير

وكان الايمبراطور شرلكان يود كثيرا ان يمنع تقدم مذهب لوتير الا انه مدة انعقاد مشورة الدييت بمدينة وورمس كان مشغولا بامور اخرى اهم من امر لوتير تستدعى مزيد الالتفات اليها فلم يأل جهدا فى تدبيرها وذلك ان الحرب كان قريب الوقوع بينه وبين فرنسيس فى مملكة نوار والبلاد الواطية وبلاد ايطاليا فكان يلزمه ان يسلك سبل النشاط والسياسة ليمنع وقوع هذا الحرب بالكلية او يحترس بما ينقذه من اخطاره ان لم يمكنه منعه لكن كانت مقتضيات الاحوال اذ ذاك تلزم الايمبراطور بترجيح الامر الاول وهو منع وقوع الحرب لان بلاد اسبانيا كانت حينئذ فريسة للفتن والحروب الداخلية ولم يكن له فى ايطاليا حليف يثق به ويعول عليه وكان رعاياه فى البلاد الواطية يخافون من معاداة الفرنساوية لما حصل لهم قبل ذلك غير مرة من الضنك والكساد فى التجارة بسبب معاداتهم لهم وزيادة على ذلك كان الوزير شيورة مدة وزارته يبذل غاية جهده فى ابقاء الصلح بين الايمبراطور والملك فرنسيس فبهذه الاسباب لم يعجل الايمبراطور شرلكان

مطلب
حالة المصالح بين شرلكان والملك فرنسيس الاول

سنة ١٥٢١

باشهار الحرب بل كان يحاول ابقاء الصلح بينه وبين الفرنساوية الا ان الملك فرنسيس ووزرآءه كانوا لا يميلون الى الصلح لان فرنسيس كان يعلم ان الصلح لا يمكن دوامه بينه وبين الايمبراطور وانه لا يمكن التأليف بين قلوبهما لاختلاف اغراضهما ولمعاصرتهما وشدة طمعهما وكان له عدة امور يطمع بها في الظهور على خصمه اذا فاجأه بالهجوم قبل ان يستعد للمدافعة والمقاومة وهي ان مملكة فرانسا كانت وقتئذ ملتئمة الاجزآء لا منافسة بين اهلها خالية عن الفتن الداخلية والحروب الاهلية وكان الملك فيها يكاد ان يكون مطلق التصرف وكان اهلها يميلون الى الحرب ويحبون ملوكهم حبا جما ولا شك انه بهذه المثابة كان لها اقتدار اعظم من دول الايمبراطور شرلكان نعم ان دول الايمبراطور كانت اوسع من مملكة فرانسا الا انها كانت في شقاق لا ينقطع وفتن لا تمتنع فكان بعضها يعصى على الوزرآء وكانت شوكة الايمبراطور فيها اضعف من شوكة خصمه فرنسيس في دوله

مطلب انضمام هنرى الثامن ملك انكلترة للايمبراطور

واما الملوك الذين كان لهم اقتدار على تسكين نيران هذا الحرب او على اطفائها بالكلية فمنهم من اهمل في ذلك ومنهم من قواها واجد في اضرامها وكان الملك هنرى الثامن يظهر انه يريد الاصلاح بينهما حتى اتخذاه حكما يعرضان عليه جميع امورهما ومع ذلك فلم يكن خليا عن الاغراض مع ان ذلك لازم للحكم وذلك ان وزيره والسي بخداعه ومكره اوجب بغضته لملك فرانسا فكان هنرى يضرم سرا نيران الشقاق التي كان يلزمه اطفاؤها وكان مصمما على ضم الجيوش الانكليزية الى جيوش الايمبراطور لقتال الفرنساوية وانما كان ينتظر لذلك فرصة او سببا مقبولا يتعلل به ويستند اليه

مطلب تردد ليون بين الحزبين

واما البابا ليون فكان سعيه في ايقاع الفشل بين الايمبراطور والملك فرنسيس الاول على وجه اظهر واقوى تأثيرا مما سلكه الملك هنرى الثامن مع ان الواجب عليه بالنظر لكونه ابا النصارى كافة وبالنظر لمصالحه الخصوصية حيث انه ملك ايطاليا ان يكون محافظا على الامن العام

وان

وان يتجنب كل ما يترتب عليه فساد المذهب السياسى الذى لم يكن نشره سنة ١٥٢١
فى ايطاليا الا بعد المشاق والتعب الشديد وسفكت من اجله دماء كثيرة
وقد ادرك من مبدء الامر انه لا يليق به الا اتباع هذا السبيل فبمجرد استوآء
شرلكان على الكرسى الايمبراطورى صمم هذا البابا على ان يكون حكما بينه
وبين خصمه فرنسيس وان يداهن كلا منهما على حدته من غير ان يجدد معه
علائق الفة اكيدة ولو استمر البابا ليون على سلوك هذا الطريق لامكنه ان
ينقذ بلاد اوروبا من المصائب التى كان يخشى منها عليها الا انه كان جسورا
طماعا وكان فى عنفوان شبابه فكان يريد أن يشهر ايامه بواقعة مهمة جسيمة
لاسيما وقد كانت أخذت منه حينئذ دوقية برمه ودوقية بليزنسه فكان
جزعا قلقا يود أن يتطهر من درن الخزى والعار الذى لحقه بسبب اخذ هاتين
الدوقيتين منه وكان فى حنق شديد من كونه يرى الاجانب يأتون من خلف
جبال البه ويحكمون بلاد ايطاليا حتى ان الايطاليين اقتدآء
باهل جمهورية قدماء الرومانيين كانوا يسمون هؤلاء المتغلبين باسم المتبربرين
وكان البابا يؤمل انه بمساعدته لاحد الملكين المتقدمين اعنى شرلكان
والملك فرنسيس على تجريد الآخر من البلاد التى يملكها فى ايطاليا
يمكنه ان يتوصل فيما بعد الى طرد الغالب من بلاده ويثبت له مثل البابا
جاليوس الثانى الفخر بكونه انقذ بلاد ايطاليا من الرق والاستعباد واعاد
لها السعادة التى كانت تتمتع بها قبل اغارة الملك كرلوس الثامن حين كانت
كل دولة يحكمها ملك من اهلها وتعمل بشرآئعها وقوانينها التى رتبتها لنفسها
ولم تكن دخلت تحت حكم الاجانب ومع ان هذا الامل كان من قبيل الهوس
والتسولات النفسية التى لا طائل تحتها وافقه عليه اصحاب العقول والنهى
والطمع من الايطاليين حتى مكثوا معظم القرن السادس عشر وهم يجعلون
هذا المقصد مطمح نظرهم فى كل مشروع هموا بتتميمه وتنجيزه فكانوا يعللون
انفسهم بالامانى والاباطيل ويطمعون انهم لاتقانهم فن السياسة والتدبير
والخداع والمكر يمكنهم ان يغلبوا اعدآءهم المتبربرين وان كانوا اكثر منهم قوة

سنة ١٥٢١

وشجاعة واغتر ليون ايضا بهذه الامانى حتى انه وان كان يميل بطبعه الى الصلح والرفاهية والتمتع بالراحة بادر الى تعكير اوروبا واوقع نفسه فى حرب خطر مع عزم كبير يكاد يكون مساويا لعزم جاليوس الثانى الذى كان ذا طيش وحمية لا تفتر له همة من الحرب

ولكن كان ليون مخيرا بين ان يكون مع من شاء من هذين الملكين وينضم الى حزبه وكان كل منهما يرغب فى استعطافه واستمالته اليه ويسعى فى ذلك بجميع وسعه وطاقته فمكث مدة وهو يتردد بين الجانبين ثم عقد معاهدة مع الملك فرنسيس كان الغرض منها اخذ مملكة نابلى واقتسامها وكانت هذه المملكة بأيدى الايمبراطور شرلكان والظاهر ان البابا لما كان يعهده فى الملك فرنسيس من النشاط والمهارة والجسارة اعتقد انه ان ساعده برعاياه الايطاليين الذين هم موصوفون بتلك الاوصاف يظفر بالايمبراطور شرلكان لبطئ مشاوره فى بت الامور وكثرة تردده اوبذلك يسهل عليه ان يتغلب على نابلى لانها منعزلة من ممالك الايمبراطور بعيدة عنها رديئة التحصين لا تستطيع المدافعة عن نفسها فكانت دائما عرضة لان تكون غنيمة لمن شن الغارة عليها ولكن عما قليل تخلى هذا البابا عن حزب فرنسيس واخذ يتداول مع الايمبراطور سرا ولا يعلم سبب ذلك هل هو كون ملك فرانسا ظهر منه ما يدل على كونه غير واثق بالبابا فخاب امله فيه ورأى ان معاهدته معه لا تجدى نفعا اوانه من مبدء الامر لم يعقد معه هذه المعاهدة الا ليتوصل بها الى التمكن من المداولة مع الايمبراطور شرلكان اوانه رأى فيما بعد ان معاهدته مع الايمبراطور اوفق به من المعاهدة مع فرنسيس اوانه احب الايمبراطور ومال اليه بسبب انه شرف الكنيسة بعقابه لوتير ومنع الناس عن مطالعة كتبه

مطلب
المشارطة المنعقدة بين البابا والايمبراطور

هذا وكان الامير حنا منويل نديم الملك فيليبش ابى شرلكان قد اخرج من السجن بعد موت الملك فرديننذ وكان صاحب سياسة وحزم حتى انه افسد على الملك فرديننذ جميع ما كان يدبره من المقاصد والامور السياسية

فارسله

سنة ١٥٢١ م

فارسله الايمبراطور شرلكان الى ديوان رومة لما كان يعلم انه لا احد اعظم منه اقتدارا على استعطاف البابا واستمالته الى حزبه ففوض له امر المداولة مع البابا واخفى هذا الخبر عن الامير شيوره لانه كان يحاول منع وقوع الحرب بين الايمبراطور ومملكة فرانسا فلو علم هذه المداولة لافسدها وصارت سدى ولذلك انعقدت المعاهدة فى اقرب وقت بين البابا والايمبراطور التى حصل عليها الاتفاق وكانت تلك المعاهدة اساسا للشوكة العظيمة التى اكتسبها شرلكان فى ايطاليا وكانت موادها الاصلية سبعة الاولى ان الايمبراطور والبابا يضمان عساكرهما الى بعضهم ليطردا الفرنساوية من دوقية ميلان ويعطياها الى ابن الملك لويز لوسور وهو الامير فرنسيس سفورس وكان قاطنا فى طرنته منذ غصبت البلاد من اخيه مكسيمليان وكان الغاصب لها ملك فرانسا الثانية ان ترد الى الكنيسة دوقية برمه ودوقية بلزنسه الثالثة ان الايمبراطور يعين البابا على اخذ اقليم فراره الرابعة ان يزاد فى الخراج السنوى الذى كانت تدفعه نابلى لكنيسة رومة الخامسة ان الايمبراطور يدخل فى حماه عائلة المديسيس السادسة ان يجعل للكردينال دوميديسيس عشرة آلاف من الدوقات على مطرانية طليطلة السابعة ان يعطى ما يساوى هذا المبلغ من الاراضى فى مملكة نابلى للامير اسكندر وهو ابن الامير لورنت دوميديسيس من الزناء

فى ٨ من شهر اياد

مطلب
موت شيورة وزير الايمبراطور ونديمه

فلما علم الوزير شيوره بهذه المعاهدة العظيمة ولم يكن له دخل فيها ايقن بضياع الكلمة التى كانت له على تلميذه شرلكان الى ذلك الوقت حيث كان قبل ذلك لا يفعل شيأ الا باستشارته فحصل له غم شديد لاسيما وكان يعلم انه سينشأ عن الحرب مع مملكة فرانسا مصائب كبيرة واهوال كثيرة فيقال ان غمه عجل بهلاكه فمات بعد هذا الخبر بايام قلائل والظاهر ان هذا ليس الا من موضوعات المؤرخين الذين يحبون ان ينسبوا الى الاسباب غير العادية جميع ما يقع للمشاهير المتمازين من الناس حتى انهم ينسبون امراضهم وموتهم

سنة ١٥٢١

الى اسباب سياسية مع ان تلك الاسباب فى الغالب انما تنغص على الانسان عيشه ولا مدخل لها فى تقصير اجله وغاية ما يقال ان موت هذا الوزير مؤدب شرلكان فى وقت كثرت اهواله وخطوبه منع الناس من الطمع فى امكان منع الحرب بين الايمبراطور ومملكة فرانسا ولم يتأسف شرلكان على موته حيث كان يضيق عليه ويمنعه عن تنجيز مقاصده لانه كان متعودا على الطاعة والامتثال اليه من صغره فكان لا يمكنه ان يفعل شيأ بدون رأيه واستشارته وكان ذلك لا يليق وقتئذ بمقامه ولا بسنه فلما انقذته المنية منه ظهرت نفائس قريحته ونمت قواه العقلية ولاح عليه الفلاح حتى ابدى فى مشاوره وتجيز مشروعاته من الحزم والاصابة فوق ما كان يؤمله فيه اهل عصره واستوجب به مدح الاجيال التى اتت بعده

مطلب بدء الحرب فى مملكة نوار

وبينما كان البابا والايمبراطور يستعدان للهجوم على دوقية ميلان بموجب المعاهدة التى انعقدت بينهما سرا اذ وقع الحرب فى مملكة اخرى وذلك ان اولاد حناد لبرطه ملك نوار طلبوا عدة مرات من الايمبراطور أن يرد لهم مملكة ابيهم حسبما هو مقرر فى المشارطة المنعقدة بمدينة نوايون على يد الملك فرنسيس وكانوا كلما طلبوا من الايمبراطور ذلك يحاولهم ويتعلل بامور عديدة فرأى الملك فرنسيس انه يجب عليه اعانة هذه العائلة الملوكية التى افرغ عليها الدهر نكباته وكانت ظواهر الاحوال وقتئذ تقضى بمساعدته فى هذا المشروع لان الايمبراطور شرلكان كان بعيدا عن مملكة نوار والجيوش التى كانت بها دعيت لتسكين الفتنة التى كانت حاصلة حينئذ فى اسبانيا لاسيما ومن كان من اهل هذه المملكة فى غيظ من شرلكان كان يلح على فرنسيس ان يتغلب على مملكة نوار ويفيده ان معظم سكانها ينتظرون اعانته ليقوموا على حزب الايمبراطور ويدخلوا فى حزب عائلة ملوكهم الاقدمين هذا وكان الملك فرنسيس يحاول ان لا يغضب الايمبراطور وملك انكلترة فجمع العساكر وابتدأ الحرب باسم هنرى دلبرطه لا باسمه وكانت قيادة الجيش للامير اندرودوفوا كس دولسبار وكان شابا لا تجربة عنده بامور الحرب والقتال

سنة ١٥٢١

مطلب
تقدم الفرنساوية وظفرهم

وانما قلد هذا المنصب المهم لانه كان حليفا صادقا للملك هنرى دلبرطه لاسيما وكان اخا العشيقة فرنسيس وهى القونتيسة شاتوبريان فلما دخل هذا الامير مملكة نوار ولم يجد بها جيشا مستعدا لمقاومته تغلب عليها كلها فى ايام قليلة ولم يعقه فى سيره الا قلعة بمبلون الا ان المبانى التى كان الوزير اكزيمنيس اخذ فى تجديدها للتحصين هذه القلعة لم تكن تمت فقاومت مقاومة قليلة كانت لا تستحق الذكر فى التاريخ لولم يكن جرح بها الامير ايناس دولوايوله جرحا خطرا فمكث هذا الامير مدة طويلة وهو يعالج وكان يتسلى فى تلك المدة بقراءة مناقب القديسين فحصل لها موقع عظيم فى نفسه واثرت فى عقله تأثيرا قويا لاسيما وكان بالطبع يميل الى الحماسة وكان صاحب طمع وجسارة فاخذته الحمية والغيرة واراد ان يساوى فى الفخار قديسى الكنيسة الرومانية لما قام بنفسه من العجب بعد قراءة مناقبهم مع ان هذه المناقب مخترعة لا اصل لها ولم يكن هنالك من القديسين من اتصف بها وبناء على ذلك تصدى الامير المذكور لامور هوسية كانت عاقبتها انشاء الجمعية او الطائفة العيسوية التى صارت احسن الطوائف القسيسية واعظمها سياسة وادارة وان انضرت بالنوع البشرى اكثر من غيرها كما نفعته ايضا اكثر من غيرها

مطلب
دخول الفرنساوية فى مملكة قسطيلة

ولو اكتفى الامير اسبار بعد اخذه قلعة بمبلون بكونه يحترس بقدر الامكان حتى يأمن على حفظ فتوحه لكان من الجائز ان تبقى مملكة نوار مع الفرنساوية الا انه لطيشه جاوز حدود تلك المملكة ووضع الحصار امام لوغرونيو وهى مدينة صغيرة من مملكة قسطيلة لاسيما وكان الملك فرنسيس يفرح اذا نالت رماحه اولاح نجاحه فلما علم بنصرة الفرنساوية بعث يحرض الامير اسبار حتى هم بهذا المشروع الخطر واخذ يحاصر مدائن مملكة قسطيلة وكان اهالى هذه المملكة الى ذلك الوقت لا يفكرون فيما وقع من الفرنساوية بمملكة نوار ولكن لما اخذوا فى حصار مدائن مملكتهم استيقظوا من غفلتهم وتهيأوا للمدافعة بجميع جهدهم هذا وكانت

سنة ١٥٢١

نيران الفتن باسبانيا قد خمدت فانضم اهل اسبانيا الى اهل قسطيلة ليدافعوا عن وطنهم وكان فريق منهم يقصد بقتال الفرنساوية ان يمحو ما لحقه من المعرة فى تقاعده وتكاسله فى مبدء الامر وكان قصد الفريق الآخر ان يثبت لنفسه الفخار بطرد اعداء الامبراطور كما ثبت له الفخر بكونه قمع نفوس رعاياه الخارجين عن طاعته فجاءت جيوش اسبانيا بغتة وانضمت الى اهل مدينة لوغرونيو فاضطر قائد الجيوش الفرنساوية الى ترك مشروعه الخطب ورفع الحصار عن المدينة المذكورة وركن الى الفرار بجيشه فتبعه جيش اسبانيا وصار يطرده ويهجم عليه مع الشدة والقوة ولعدم تبصر هذا الامير وقلة رأيه لم يفر الى قلعة بمبلون حتى يأمن من اعدائه ولم يصبر حتى تصل اليه العساكر التى كانت مبعوثة لاعانته بل رجع وهجم على جيش اسبانيا وكان اكبر من جيشه واشتد القتال بين الفريقين وكان لسپار لا يحسن ادارة العساكر فهزم فى اقرب وقت واسر هو واعيان ضباطه واخذ اهل اسبانيا مملكة نوار فى زمن اقل مما لزم للفرنساوية فى التغلب عليها

مطلب
هزم الفرنساوية وطردهم من مملكة نوار

وكان الملك فرنسيس يحاول ليبرهن على ان اغارته على مملكة نوار من باب العدل والانصاف لانها كانت باسم هنرى دلبرطه وكان يبحث من جهة اخرى عن حجة يتعلل بها للهجوم على اراضى الامبراطور شرلكان وذلك ان الامير روبيردولامرك ملتزم اقليم بولون وهو اقليم صغير مستقل بنفسه على ضواحى اقليم لوكزمبورغ واقليم شمبانيا خرج عن طاعة الامبراطور شرلكان ودخل فى حمى ملك فرانسا وادعى ان المشورة الاوليقية (المشورة العليا الامبراطورية) قد افتاتت على حقوقه ومنعته من قضائه وحكمه فى التزاماته فاشار عليه من يثق به ان يبعث رسولا الى الامبراطور يطلب الحرب معه فمن شدة غيظه وحنقه سمع قوله وبعث الى الامبراطور رسولا فى هذا الشأن فتعجب شرلكان من وقاحته وجزم انه لا يقدم على مثل ذلك من نفسه بل لا بد وان يكون ملك فرانسا وعده بالاعانة

مطلب
ابتداء الحرب فى مملكة البلاد الواطية

سنة ١٥٢١
فى هذا المشروع وقد ظهر بعد ذلك بقليل ان ما فهمه الايمبراطور فى محله لان الامير روبير جمع سرا من فرانسا جيشا برضاء الملك فرنسيس وان كان فى الظاهر يتراآى انه لم يأمر بذلك وسار الامير روبير مع هذا الجيش حتى دخل اقليم لوكزمبورغ فبعد أن خرب المهول وضع الحصار امام قلعة ورطون فاخذ شرلكان يتشكى من ذلك ويبدى ان فيه هتك حرمة الصلح المنعقد بينه وبين ملك فرانسا وطلب من ملك انكلترة هنرى الثامن ان يوجه جيوشه الى قتال ملك فرانسا حيث انه بموجب المشارطة المنعقدة فى لوندرة (سنة ١٥١٨) تعهد بان يكون عدوا لمن يبدء بالتعدى من الفريقين وانه ينضم الى الفريق المتعدى عليه لقتال المتعدى فزعم الملك فرنسيس انه ليس كفيلا ولا ضامنا للامير روبير حتى يطالب بما يفعله وان هذا الامير اشهر الحرب مع الايمبراطور باسمه ولمصلحة نفسه وان دخول الفرنساوية فى عسكر الامير روبير لم يكن عن ارادته بل كان على خلاف اوامره ولكن لم يلتفت ملك انكلترة الى هذه الحجة ولم يقبل منه صرفا ولا عدلا فرأى فرنسيس انه لا ينبغى له ان يغضب ملك انكلترة لان غضبه يفسد عليه مآربه فبعث الى روبير يامره ان يسرح العساكر ويخلى سبيلهم

ومع ذلك جمع الايمبراطور جيشا لينتقم من روبير فى نظير وقاحته وكان قدر هذا الجيش عشرين الفا وكان قائده القونتة ناسو فانقض به على ارض روبير وفى ظرف ايام قليلة تغلب على سائر مدنه وقلاعه ما عدا قلعة سيدان وبعد أن أراه انه لا قدرة له على غضب الايمبراطور ولا طاقة له على العصيان والخروج عليه توجه الى ضواحى مملكة فرانسا لان الايمبراطور شرلكان كان جازما بان ملك انكلترة يؤثره على الملك فرنسيس فكان لا يخشى العواقب مثله وامر ناسو بمحاصرة مدينة موزون وكان محافظو هذه المدينة اهل فشل وجبن فاضطر حكمدارها الى التسليم بعد مقاومة قليلة وبعد ذلك حاصر الامير ناسو مدينة ميزيير ولم تكن حصينة منيعة الا انها

مطلب
محاصرة جيش الايمبراطور لمدينة ميزيير

سنة ١٥٢١

بسبب وضعها وتغلب عليها جيش الامبراطور لسهل عليه ان يدخل اقليم شمپانيا ولو دخل هذا الاقليم لسهل عليه الجولان فى داخل فرانسا لانه كان لا يوجد حينئذ بهذا الاقليم مدن حصينة لها اقتدار على صده ومنعه ولكن لقيام حظ فرانسا كان الملك فرنسيس يعلم اهمية هذه المدينة فلما رأى انه يخشى عليها من العدو سلمها للامير بيار وكان بطلا هماما ممتازا بين اهل عصره ومعروفا عندهم بالشجاعة وشرف العرض حتى لقبوه بهذا اللقب وهو الامير المنزه عن الخوف والملامة لانه كان ذا عزم عجيب وتجلد غريب فى الهيجاء وكان صاحب عرض شريف ومزاج لطيف وكان حائزا لاعظم اخلاق ابطال الشوالرية القديمة وكان ذا دهاء ونهى مستكملا لسائر صفات الابطال وفحول الرجال كما يشهد بذلك ما وقع منه غير مرة فى المدافعة عن ميزيير حيث انه بعزمه وحزمه طالت مدة المحاصرة حتى اضطرت عساكر الامبراطور الى رفع الحصار بعد أن فقد منهم اناس كثيرون وركب الملك فرنسيس حينئذ فى جيش عظيم واسترجع مدينة موزون ثم سار بجيشه الى مملكة البلاد الواطية وتغلب منها على عدة قلاع ومدائن هينة لكنه فى هذه المرة بلغ حد الافراط فى الاحتراس حتى ضاعت منه فرصة عظيمة لا حد له وهى انه كان يمكنه ان يقطع الطريق بقرب مدينة والنسين على الجيش الامبراطورى وهو آخذ فى الفرار ووقع منه امر آخر اعظم من ذلك اضرت به عاقبته كل الضرر وهو انه اغضب سر عسكره الامير بوربون حيث اعطى للدوق دالنسون قيادة مقدمة الجيش مع ان هذه الوظيفة الشريفة كانت من وظائف الامير بوربون ومعدودة من جملة خصوصيات منصبه

مطلب
رفع الحصار

وفى مدة هذا الحرب كان بمدينة كالس جمعية من الوزراء منعقدة لقطع الحرب بالتى هى احسن وكان ملك انكلترة هنرى الثامن هو الواسطة فى ذلك والمصلح بين الفريقين ولو كان باطنه موافقا لظاهره لحسنت عاقبة المداولة التى حصلت بتلك الجمعية وترتب عليها غاية ما يؤمل فى الاصلاح بين فرنسيس

مطلب
انعقاد جمعية الوزراء بمدينة كالس وتوسط ملك انكلترة فى ذلك

والامبراطور

سنة ١٥٢١

والايمبراطور الاان الملك هنري فوض هذا الامر لوزيره ولسى فافسده واضاع ثمرته لان هذا الوزير كانت آماله دآئما متعلقة باخذ منصب البابا وكان ذلك غاية امله ونهاية مرامه فكان احب شئ اليه اعانة الايمبراطور لان هذا الامر كان بيده وكان هذا الوزير لا يخفى اغراضه مع الايمبراطور حتى ان الملك فرنسيس كان لا يرضاه واسطة لولم يكن يخشى بأسه لانه كان من طبعه الحرص على الانتقام من خصمه ولو بعد حين فمكث ارباب الجمعية مدة مستطيلة وهم يبحثون عمن بدأ بالحرب من الفريقين هل هو الايمبراطور او الملك فرنسيس وكان الوزير ولسى يدقق فى معرفة البادى ءليثبت ان فرنسيس هو الذى بدألانه ان ثبت ذلك امكنه بسبب المشارطة المنعقدة فى لوندرة ان يبنى عليه صحة المشارطات التى تنعقد فيما بعد بين ملك انكلترة والايمبراطور ووقعت المفاوضة بعد ذلك فى شان الشروط التى يمكن اتمام الصلح بها الاان ماطلبه الايمبراطور دل على انه لا يميل الى الصلح ابدا اوانه كان معتمدا على الوزير ولسى وجازما بانه يستحسن كل ماطلبه ويقره عليه فطلب الايمبراطور ان ترد له دوقية بورغونيا وهو اقليم يمكن بواسطته أن يدخل فرانسا وطلب ايضا انه لا يكون لمملكة فرانسا امارة على اقليم الفلمنك ولا على اقليم ارتوارة مع ان ذلك كان ثابتا لها من قديم الزمان واقره آباؤه واسلافه بل واقره هو ايضا فى المشارطة المنعقدة بمدينة نوايون فلم يرض فرنسيس بهذه الشروط واستنكف ان يقبلها والواقع ان كل ملك كريم شريف النفس لا تطيق نفسه ان يقبل مثل هذه الشروط ولو بعد هزيمته وتدمير عساكره غيران الايمبراطور وعد ملك فرانسا بامور اخرى احسن واصوب من الاولى وهى ان يرد مملكة نوار الى ملكها الاحق بها وان يأمر برفع الحصار عن مدينة تورنة وبناء على ذلك تمت مذاكرة الجمعية بدون ثمرة ولا جدوى وانما كانت ثمرتها ايقاع الفشل والتنافر بين الفريقين مع انه كان القصد منها التأليف بينهما

مطلب
اضاعة ثمرة المداولة

وفى اثناء المذاكرة بتلك الجمعية السابقة سافر الوزير ولسى الى مدينة

مطلب
عصبة الايمبراطور وهنرى ملك انكلترة على الملك فرنسيس

سنة ١٥٢١

ابروجه ليقابل الايمبراطور متعللا بان الايمبراطور بنفسه يمكن ان يتساهل في الشروط ويرضى بما لم ترض به وزراؤه وكان الايمبراطور يعلم ان هذا الوزير يعجب بنفسه ويحب الزينة والظهور فتلقاه في احتفال عظيم واكرمه غاية الاكرام كانه ملك انكلترة ولكن لما قابله ولسى لم يسع في عقد مشارطة الصلح بينه وبين ملك فرانسا بل عقد معه باسم ملك انكلترة مشارطة بها يكونان عصبة على الملك فرنسيس وكان مضمون هذه المشارطة ان الايمبراطور يهجم على مملكة فرانسا من جهة اسبانيا والملك هنرى يهجم عليها من جهة پيكارديه ومع كل منهما اربعون الفا وان الايمبراطور يتزوج بالاميرة مارية بنت الملك هنرى ووارثته في بلاده ودوله حيث لم يكن له وقتئذ غيرها ولم يجد الملك هنرى اصلا يبنى عليه صحة تلك العصبة التي كانت في حد ذاتها من محض الظلم والعدوان وتضر بمصالحه السياسية الا كونه استند على بند من المشارطة المنعقدة في لوندرة كان مضمونه انه يجب على ملك انكلترة ان يحارب من تعدى من الفريقين سواء كان الايمبراطور او الملك فرنسيس وحيث ثبت ان فرنسيس هو المتعدى اتخذ ملك انكلترة تعديه علة بنى عليها صحة تعصبه مع الايمبراطور وابدى سببا آخر وهو ان الملك فرنسيس رضى برجوع الدوق دلباني الى مملكة ايقوسيا مع انه كان رئيس عصبة تبحث عن اضرار هنرى الثامن ملك انكلترة هذا وكان لهنرى المذكور مآرب اخرى حسنت له الدخول في حزب احد الفريقين وذلك انه كان يومئذ في عنفوان شبابه متولعا بالظهور والمعالى فرأى ان المنفعة التي تعود على رعاياه من تخليه عن كل من الحزبين والشرف الذى يعود عليه من بقائه حكما عدلا بينهما ليس كبير شىء بالنظر للفخر الذى يحصل للايمبراطور شرلكان والملك فرنسيس من قيادة الجيوش وفتح الاقاليم والبلدان فكان لا يمكنه ان يمكث مدة مستطيلة من غير ان يكون له دخل بين الفريقين فبمجرد ما تصدى لهذا الغرض رأى من اوجه عديدة ان معاهدته مع الايمبراطور اوفق له وانفع من معاهدة الملك فرنسيس وذلك

انه

سنة ١٥٢١

انه لم يكن له شبهة حق فى شئ من دول الايمبراطور لاسيما وكان موقع اغلبها يمنع الاغارة عليها الامع المشقة العظيمة والخسارة الجسيمة بخلاف مملكة فرانسا فكان اغلب اقاليمها البحرية قد مكث زمنا طويلا فى ايدى ملوك انكلترة حتى ان هؤلاء الملوك كانوا الى ذلك الوقت يدعون ان لهم الحق فى تاج مملكة فرانسا لاسيما وكانت مدينة كالس بيد الملك هنرى فبها كان يسهل عليه ان يدخل فى بعض اقاليم فرانسا ويرجع فى امن واطمئنان اذا عانده الدهر ولم تسعفه المقادير وكان يقوم بنفسه ان الايمبراطور اذا هجم على فرانسا من جهة وهجم هو عليها من جهة اخرى لا يجد فى تلك الجهة من يقاومه وكان يعتقد ان الله تعالى كتب له ان يكون له الفخر بكونه يضيف ثانيا الى مملكة انكلترة جميع البلاد التى كان يملكها اسلافه فى الاراضى القارة من اوروبا وكان الوزير ولسى يقوى عنده تلك الامانى ويحسنها له حيث كانت تعينه على تتميم ما ربه القائمة بنفسه لاسيما وكانت بغضة الانكليز للفرنساوية متوارثة من جيل الى جيل ومن نسل الى نسل فلم يستقبحوا من ملكهم عزمه على الحرب مع مملكة فرانسا

مطلب
وقوع الحرب فى ايطاليا

هذا وكانت العصبة المنعقدة بين البابا والايمبراطور قد ترتب عليها امور جسيمة وحوادث عظيمة فى بلاد ايطاليا ونتج عنها كون بلاد لمبرديا اعظم ميادين الحرب واكبرها * وكان بين اخلاق الفرنساوية واخلاق الايطاليين مباينة كلية حتى ان الايطاليين لم ينفروا ابدا من حكم الاجانب كما نفروا من حكم الفرنساوية وكان سكون اهل النمسا وعدم طيش اهل اسبانيا يلايمان طبع الايطاليين اكثر من طبع الفرنساوية لان الايطاليين يميلون بالطبع الى سلوك طرق التكليف فى معاملة الغير ويراعون نواميس الادب ورسوم المجالس ومن طبعهم الغيرة والحمية بخلاف الفرنساوية فمع ما عندهم من البشاشة والخفة لا يتكلفون شيأ ولا يراعون تلك النواميس ولكن لما تولى الملك لويز الثانى عشر على فرانسا وكان مهذب الاخلاق عدلا فى احكامه اعطى اهل ميلان مزايا وخصوصيات اعظم مما كانوا يتمتعون به

سنة ١٥٢١

في عهد ملوكهم فامكنه بذلك ان يضعف حقدهم للفرنساوية ويؤلف بينهم واما الملك فرنسيس فانه لما استرجع هذه الدوقية لم يقتف اثر لويز الثاني عشر فانه وان كان حليا لا يحب ان يظلم رعاياه الا انه كان يأتمن اخصامه ويثق بهم كل الوثوق فكان لا يلتفت الى سلوك من يوليهم الحكم على العباد فمن ثم ارتكبوا عدة مظالم تأباها النفوس الشريفة فبذلك وقع التنافر بين الايطاليين والفرنساوية

سامة اهل دوقية ميلان من حكومة الفرنساوية

وكان الملك فرنسيس قد قلد حكومة دوقية ميلان للامير اوديتدوفوا كس مارشال لوتريك وهو اخو مدام شاتوبريان وكان من اهل الخبرة والتجارب ذا شهرة عظيمة الا انه كان متكبرا جبارا طماعا لا يقبل نصيحة ولا يستطيع ان يعارضه احد فيما يفعل فباساءته وظلمه اغضب اهل ميلان ونفرت نفوسهم منه وذلك انه نفى عدة من اكابرهم واشتد ظلمه لهم حتى اضطر بقية الاكابر الى المهاجرة من البلاد ليأمنوا على انفسهم وكان ممن هاجر منهم الشهير جيروم مورون وكيل قنجليير دوقية ميلان وكان له اقتدار غريب على ايقاع الفتن والاقدام على المشروعات الجسيمة لاسيما وكان ذلك العصر عصر فتن وتحزبات وكانت الاحوال وقتئذ تقتضي ذلك خصوصا في هذه الدوقية فانه كان لا تخمد فيها نيران الفتن والشقاق وكان جيروم مورون قد خان الامير مكسيمليان ومع ذلك التجأ بعد مهاجرته الى اخيه الامير فرنسيس سفورس ولما ادرك مورون المذكور ان البابا يريد الهجوم على دوقية ميلان لطرد الفرنساوية منها مع ان المشارطة المنعقدة بين البابا والامبراطور في هذا الشان كانت لم تشع بين الناس عرض للبابا باسم فرنسيس سفورس انه يريد ان يهجم بغتة على عدة من قلاع ميلان ومدائنها مع بقية الاعيان المنفيين لانهم لبغضهم للفرنساوية ومحبتهم لعائلة ملوكهم الاقدمين كانوا مستعدين لاقتحام الاخطار والاهوال حتى يتمكنوا من طرد الفرنساوية من دوقية ميلان فلما وقف البابا ليون على قصد مورون استحسنه وصار يحثه ويحرضه على تنجيزه بل واعطاه

مبلغا

سنة ١٥٢١
في ٢٤ من شهر حيزران

مبلغا جسيما ليستعين به على ذلك ولكن طرأت احوال افسدت ماهموا به فاذن البابا للمنفيين الذين كانوا مجتمعين لاجل هذا الغرض ان يذهبوا الى مدينة رغجيو وكانت تلك المدينة وقتئذ من مدآئن الكنيسة وكان المارشال دوفوا كس يحكم في ميلان مدة غيبة اخيه فاعتقد انه يمكنه القبض على هؤلاء المنفيين الذين هم اعدآء الملك فرنسيس في دوقية ميلان ويسهل عليه ذلك بسبب اجتماعهم في محل واحد فخاطر بنفسه ودخل اراضي الكنيسة وهجم على مدينة رغجيو وكان حكمدار هذه المدينة اذ ذاك هو المؤرخ غيشاردين الشهير فلسياسته وحسن سلوكه صد المارشال دوفوا كس وجبره على العدول عن مشروعه والتحول عن تلك المدينة على وجه يزرى به فلما وقف البابا ليون على هذا الخبر سر غاية السرور واتخذه حجة مستحسنة في فسخ الصلح بينه وبين مملكة فرانسا وعقد فورا مشورة الكردينالات وعرض عليهم شكواه من اغارة ملك فرانسا على بلاده ومدح لهم كثيرا في الايمبراطور ومحبته للكنيسة واستدل على ذلك بما فعله ذلك الايمبراطور مع لوتير الذي هو عدو الكنيسة وعرض عليهم انه لامنه وامن بلاده يلزم ان يضم عساكره الى عساكر الايمبراطور لقتال الفرنساوية وانه لا توجد واسطة اخرى يؤمن بها على دول الكنيسة واراضيها وعقد حينئذ مشارطة في هذا الشان مع الامير حنا منويل وزير الايمبراطور شرلكان حتى كأن تلك المشارطة لم تنعقد بينهما منذ عدة شهور وحكم البابا بالحرمان على المارشال دوفوا كس في نظير هجومه على حرم الكنيسة وهتك حرمتها

مطلب
تخاصم البابا مع الملك فرنسيس

وكان البابا ليون وقتئذ قد جهز المهمات واستعد للحرب حيث استأجر جيشا عظيما من اهل السويسة ولكن ابطأت جيوش الايمبراطور في مجيئها من نابلي و المانيا حتى مضى نصف فصل الخريف قبل ان يصلوا الى ميدان الحرب وكان قائدها الشهير پروسپير كولون وكان انشط جنرالات ايطاليا واشهرهم وكان لكثرة تجاربه وحزمه احق من غيره بمقاومة

مطلب
الحرب في دوقية ميلان

سنة ١٥٢١

الفرنساوية وفى اثناء ذلك كان المارشال دوفواكس يرسل للملك فرانسا بريدا بعد بريد يخبره انه عرضة للاخطار والخطوب ولكن كان بعض عساكر الملك فرنسيس مشغولا فى البلاد الواطية وكان البعض الآخر مجتمعا فى ثغور اسبانيا وكان هو نفسه لا يترقب الهجوم على بلاده التى بمملكة ايطاليا فعند وقوفه على هذا الخبر بعث رسلا الى السويسيين المتعاهدين معه ليطلب منهم عساكر وصدر منه امر الى الامير لوتريك ان يذهب الى دوقية ميلان ليقوم بحكمها غير ان هذا الامير كان يعلم ما هنالك من الاهمال وعدم التدبير فى ادارة خزائن الملك فرنسيس وكان يعلم ان العساكر لحقهم فى ميلان ما تقصر عنه العبارة من المشاق الفادحة لعدم صرف ماهياتهم فابى السفر الا اذا اعطى ثلاثمائة الف ايكو (ريال) فوعده الملك فرنسيس وامه لويزة دوسبوه وكذلك سمبلانسى مباشر الخزينة انه بمجرد وصوله الى ميلان يجد هنالك ذلك المبلغ فاعتمد لوتريك على قولهم وسافر الى ميلان ولكن من سوء حظ فرانسا كان من دأب الملكة لويزة ام الملك فرنسيس الخيانة والشره وكانت تؤثر ماربها وشهواتها النفسانية على كل شئ ولو ترتب على ذلك ما ترتب من المضار والمفاسد وكان لها كلمة نافذة عند ابنها ولا يستطيع مخالفتها لانها ربته واعتنت به فى صغره لاسيما وكانت ذات معارف غزيرة وسياسة شهيرة وكانت مصممة على ان لا تفى بوعدها الى لوتريك لانه لكبره وشممه كان لا يواليها ولا يراعى مرضاتها وان كان يحادثها فى شأن ما وقع له من الامور الغريبة الغزلية والنوادر العشقية فلاجل ان تنتقم منه هذه الملكة ارادت حرمانه من الفخر الذى يثبت له بمدافعته عن دوقية ميلان وظفره بالاعداء فاخذت المبلغ الذى وعد به واعدته لخصوص مصارفها

مطلب
ظفر العساكر الامبراطورية

ومع حرمان لوتريك من هذا المبلغ الذى كان يعينه اتم الاعانة وكان ضروريا من اجله وجد وسايط اخرى امكنه بها ان يجمع جيشا عظيما وان كان اقل عددا من جيش المتعاهدين ودبر امر المدافعة على احسن وجه يلايم الحالة التى

كان

سنة ١٥٢١

كان عليها فكان يتجنب ملاقاة صفوف الاعداء وانما كان يحمل عليهم مع عساكره الخفيفة وينهب مساكنهم ويقطع عنهم الذخائر والزاد ويصدهم عن كل قلعة ارادوا الهجوم عليها اويساعد اهلها على منعهم فبحسن سلوكه وحزمه انحط قدر عساكر الايمبراطور وواعي البابا حيث انه الى ذلك الوقت هو الذى كانت عليه جميع مصاريف الحرب تقريبا واعي الايمبراطور ايضا لان ايرادات اسبانيا كانت قد نفدت مدة الفتن التى حصلت بها وكان يلزمه القيام بمصاريف الجيش العظيم الذى كان بمملكة البلاد الواطية لحفظها ومحاماتها ولكن فى اثناء ذلك طرأت عوارض اوقعت لوتريك فى الارتباك والخبل واودت بمملكة فرانسا الى سوء الحظ والشقاوة وذلك انه كان يوجد فى الجيش الفرنساوى اثناعشر الفا من السويسيين كانوا يخدمون فى عساكر الجمهورية السويسية التى كانت وقتئذ متعاهدة مع مملكة فرانسا وكان بموجب القانون الذى رتبته دول جمهورية السويسة لا يجوز للعساكر السويسيين ان يدخلوا فى خدمة الايمبراطور او الملك فرنسيس ولا شك ان ذلك موافق لحسن السياسة وشعائر المروءة الا ان حب الكسب احوج فى بعض الاحيان الى اهمال هذا القانون فرخص لبعض افراد فى الدخول فى خدمة من احبوا من الفريقين ولكن لم يكن ذلك تحت الوية الجمهورية بل كان تحت الوية بعض ضباط مخصوصين وكان للكردينال دوسيون كلمة نافذة بين ابناء وطنه وكان يبغض مملكة فرانسا فاستأذن ان يجمع عساكر من السويسة فاجيب لذلك وجمع اثنى عشر الفا من السويسيين ليضمهم الى جيش المتعاهدين (الايمبراطور والبابا) فلما رأت دول جمهورية السويسة انه قد انضم الى الملتين المتحاربتين كثير من العساكر السويسيين وانه سيدمر بعضهم بعضا وكانت تعلم ان ذلك يورثها العار بين الدول بعثت رسلا الى العساكر السويسية ليتخلوا عن الفريقين ويعودوا الى وطنهم فاما الرسل الذين بعثوا الى جيش الايمبراطور والبابا فرشاهم الكردينال دوسيون فلم يوصلوا الامر الذى معهم الى العساكر

سنة ١٥٢١

السويسيين الذين كانوا فى ذلك الجيش واما البرد الذين بعثوا الى جيش فرنسيس فوصلوا الامر الذى كان معهم الى العساكر السويسية الذين كانوا فى هذا الجيش وكانوا قد سئموا من طول الحرب وكلت قواهم لاسيما وكانت ماهياتهم لاتصرف لهم فبمجرد وصول الامر اليهم بادروا بالطاعة والامتثال وما ملكه معهم لوتريك من الترغيب تارة والتهديد اخرى لم يجد نفعا فلما تخلوا عنه وكان مدار قوة جيشه عليهم لم يتجاسر على مقاومة المتعاهدين فرجع الى مدينة ميلان ونزل بعساكره على شواطئ نهر آدا ولم يجد حيلة الامنع الاعداء عن عبور هذا النهر وهى حيلة ضعيفة هينة قل أن نجحت اونفعت مع سر عسكر ماهر ذى خبرة ودراية كالشهير كولون الذى كان سر عسكر جيش البابا فلذا اجتاز كولون المذكور هذا النهر مع مهارة لوتريك ونباهته ولم يخسر فى ذلك الا خسارة هينة فعند ذلك اضطر لوتريك الى دخول مدينة ميلان وغلق ابوابها فهم حينئذ جيش الايمبراطور والبابا بحصار هذه المدينة فجأ منها رجل مجهول الى الامير مورون سر عسكر جيش الايمبراطور واخبره بانه ان قرب بجيشه ليلا من المدينة فتح له حزب الجبليين اى حزب الايمبراطور بابا من ابوابها ثم انطلق لوقته ولم يظهر ثانيا حتى يفتخر بهذا الصنيع اويطلب مكافأة فى نظيره وكان الجنرال كولون لايحب المخاطرة فى المشروعات ومع ذلك امر الملتزم بسكير ان يتوجه بالقرابة الاسبانيولية الى المدينة وتبعه هو بنفسه مع بقية الجيش فما جاء الليل الا ووصل الملتزم المذكور الى الباب الرومانى على ضواحى المدينة ونزل بغتة على العساكر الفرنساوية الذين كانوا هنالك فعند ذلك فرعساكر التحصينات القريبة من الباب المذكور وصار الملتزم بسكير يتغلب على كل محل تركته العساكر الفرنساوية ولم يزل سائرا جهة المدينة مع غاية الاحتراس والثبات حتى تغلب عليها من غير أن يسفك فى ذلك دماء كثيرة بل لم يجد من يقاومه اويصده حتى حصل التعجب لكل من الفريقين من هذه الواقعة وسرعة نجاحها على هذا الوجه وبمجرد ما تغلبوا على المدينة

مطلب
تغلب جيش الايمبراطور على مدينة ميلان

سنة ١٥٢١ فر الجنرال لوتريك الى ارض البنادقة مع بقايا جيشه وتأست سائر مدائن دوقية ميلان بالتخت فسلمت لجيش البابا والايمبراطور وانضمت مدينة پرمة ومدينة بليزنسة الى دولة الكنيسة وضاع من الفرنساوية جميع البلاد التي فتحوها في بلاد لومبردية ولم يبق لهم منها سوى مدينة كريمون وقلعة ميلان وبعض قلاع اخرى صغيرة

مطلب موت البابا ليون العاشر ولما بلغ البابا ليون اخبار هذه النصرة العظيمة كاد يطير فرحا حتى ذكر بعض المؤرخين انه لفرط سروره لحقته حمى شديدة واهملها في مبدء امرها فتمكنت منه حتى مات بها في اثنين من شهر كانون الاول وكان في ابان شبابه فرحا بظفره ونخاره وبموته انحلت روابط المتعاهدين ونشتت شملهم فترك كل من الكردينال دوميون والكردينال دوميديسيس الجيش وذهبا ليحضرا ديوان الكردينالية لاجل انتخاب بابا بدلا عن البابا ليون ودعيت العساكر السويسيون الى بلادهم وتفرق باقي العساكر المستأجرة لعدم صرف ماهياتهم فلم يبق في دوقية ميلان من يدافع عنها الا العساكر الاسبانيولية وبعض عساكر من المانيا في خدمة الايمبراطور فكانت ذلك فرصة عظيمة للجنرال لوتريك في اخذ دوقية ميلان الا انه لم يكن عنده رجال ولا مال فلم يمكنه ان يغتنم من هذه الفرصة ما كان يوده نعم انه هجم على دوقية ميلان عدة مرات الا انه لم يبلغ مرامه لتيقظ الجنرال موروني وحسن سلوك الجنرال كولون وهجم ايضا على مدينة پرمة مع الهمة والثبات فلم ينجح ايضا بسبب سياسة الشهير غينياردين وشهامته

سنة ١٥٢٢ ثم انه حصل الشقاق والانشقاق بين الكردينالات في مشورة الكردينالية المنعقدة بعد موت ليون العاشر لانتخاب من يكون بابا بدلا عنه فسلك الكردينالات في هذا الشان جميع طرق الحيل التي يقدر على اقتراحها رجال شبوا على الدسائس وشابوا في المخادعات وتجود بها عقولهم عند المحاورة في غرض جسيم مهم كتاج البابا فلم يذكر في هذا الديوان اسم الكردينال واسي (وزير ملك انكلترة) مع انه ذكر الايمبراطور حينئذ بذلك وكان قبل ذلك وعده

سنة ١٥٢٢

أن يعينه فى نيل هذا المنصب وانحط رأى خمسة عشر من ارباب ديوان الكردينالية على اعطاء هذا التاج للكردينال جاليوس دوميديسيس وهو من اقارب البابا ليون وكان اعظم الكردينالات امتيازا واعتبارا لثروته ومعارفه وتجاربه وتعوده على ادارة الامور الجسيمة والمصالح المهمة العظيمة وكان من اصول ديوان الكردينالية ان هذا القدر يكفى فى منع غير من انحط عليه الرأى ولكن لا يكفى فى انتخاب انسان وتقليده بمنصب البابا فتعصب على جاليوس سائر الشيوخ من الكردينالات ولم يرضوا بجعله بابا الا انه لم تتفق كلمتهم على غيره وبينما كان ارباب الديوان يتنازعون ويتعبون بعضهم بالمحاورة والمجادلة ويرشو بعضهم بعضا اذ خرج الكردينال جاليوس دوميديسيس ذات يوم فى الصباح مع حزبه من الكردينالات وذهبوا الى مجلس الانتخاب وكان على حسب العادة وقتئذ ينعقد كل يوم واعطوا رأيهم بان الذى يتولى بابا هو الكردينال ادريان دوتريك وكان اذ ذاك يحكم فى اسبانيا نيابة عن الايمبراطور ولم يكن غرضهم من اتفاقهم على تولية هذا الرجل الاجنبى منهم الا ان يجدوا زمنا يكفيهم فى اخذ اهبتهم واستعدادهم لتنفيذ ما ربهم لكن حصل خلاف ما اضمروه ووافقهم فوار بقية الكردينالات على هذا الرأى وتعجبوا هم انفسهم غاية العجب وكذلك سائر اهالى اوروبا من تولية رجل غريب لا تعرفه اهالى ايطاليا بل ولا يعرفه احد ممن انحط رأيهم عليه ويجهل بالكلية اخلاق الامة التى دعى الى ان يمسك بزمام حكومتها ويجهل منافعها وما تقتضيه مصالحها السياسية وكانت توليته على كرسى البابا فى وقت صعب فكان لا يتصور ان يعطى هذا المنصب الا لمن يفوق بفراسته ودرايته سائر العصابة الكردينالية ولما خرج الكردينالات من الديوان فى زفاف واحتفال سخط عليهم الاهالى فى نظير انتخابهم لهذا الغريب وعجز الكردينالات انفسهم عن ان يذكروا لذلك وجها الا قولهم ان ذلك الهام من روح القدس والصواب ان يقال ان ذلك الهام من الامير جنامنو يل فانه مراعاة لمصلحة سيده الايمبراطور شرلكان

مطلب
انتخاب ادريان للبابية

فى ٩ من شهر كانون الثانى

هو

سنة ١٥٢٢

هو الذى الجأهم بتحيله ومكره الى انتخاب هذا الرجل لانه من رعايا الايمبراطور وكان صادقا فى خدمته فصنع ذلك مراعاة لمصلحة نفسه وحبا فى الايمبراطور واقرارا له بالشكر لما اغدق عليه به من الخيرات الجليلة واسبغه عليه من النعم الجزيلة

مطلب
ابتداء الحرب ثانيا فى دوقية ميلان

وبارتقاء ادريان الى كرسى البابا ازدادت شوكة الايمبراطور وصار لتدبيره وادارته فى ممالكه رونق جديد ومما يدل على عظم شوكته حينئذ وعلو شانه هو انه كافأ ادريان الذى كان مؤدبه مكافأة عظيمة حيث جعله بابا كنيسة رومة وهو الذى رقاه ايضا قبل ذلك ورفعه الى اوج المعالى حتى جعله حاكما على اسبانيا نيابة عنه فحصل للملك فرنسيس من ذلك غيرة عظيمة حملته على ان يبذل غاية جهده فى التغلب على دوقية ميلان ثانيا وحيث كان خروج العساكر السويسيين من جيشه هو منشأ ضياع هذه الدوقية رأى اهل السويسة انه يجب عليهم ان يعينوا ملك فرانسا ثانيا فى اخذها لتطييب نفسه من الاساءة التى فرطت منهم فى حقه وهو اخذ عساكرهم منه فاذنوا له ان يأخذ من بلادهم اثنى عشر الف رجل يستعين بهم فى مشروعه فلما وصل هؤلاء العساكر الى الجنرال لوتريك وكان الملك فرنسيس قد ارسل اليه ايضا مبلغا هينا من الاموال رأى انه يمكنه ان يحارب الاعداء ويقاومهم فهجم عليهم واخذ منهم عدة قلاع وتقدم جهة التخت وكان جيش المتعاهدين لا يمكنه فى تلك المرة ان يمنع جيش الفرنساوية الا ان الجنرال مورون بحيله وخداعه امكنه ان ينفر نفوس اهل ميلان من حكم الفرنساوية حتى اعانوه عليهم حق الاعانة واعطوه امدادات كثيرة ومع ذلك كان جيش الفرنساوية كسيل العرم لا يأتى على شئ الا اخذه حتى كان لا يمكن الجنرال كولون ان يثبت فى المحطة الحصينة التى عسكر بها قريبا من مدينة بيكوك وكان يضطر الى تسريح عساكره لعدم الاموال الا ان العساكر السويسيين الذين كانوا مع الفرنساوية فعلوا ما كانوا فعلوه اول مرة وتخلوا عن الفرنساوية عند الشدة

وطالما عذر السويسيون بالحزب الذين هم منه اذ كانوا اهل سفه ووقاحة لا يدومون على حالة واحدة فكان احبابهم يخشون غدرهم كما كان اعداؤهم يهابونهم لشجاعتهم وبراعتهم فى الفنون العسكرية وانما تخلوا عن الفرنساوية فى هذه المرة لانهم مكثوا فى خدمة فرانسا عدة اشهر ولم نصرف لهم ماهياتهم فاخذوا يتشكون من ذلك ويظهرون السامة والقلق فبعث اليهم من مملكة فرانسا مبلغ ليصرف عليهم وكان يخفره سرية من الخيالة الا ان الجنرال مورون كان متيقظا لا يغفل عن حركات الفرنساوية ابدا ولا يخفى عليه امر من امورهم فوضع عساكر على الطريق الذى يأتى منه هذا المبلغ واحكم وضعهم حتى لم يمكن للخيالة الذين كانوا يخفرونه ان يمروا بهم فلما وقف السويسيون على هذا الخبر عيل صبرهم فاجتمعوا كلهم ضباطا وانفارا وطلبوا من الجنرال لوتريك ان يعطى لهم ماهياتهم او يعدهم بان يتوجه بهم فى غد لملاقاة الاعداء صباحا وان لم يفعل احد هذين الامرين تخلوا عنه حالا وذهبوا الى حال سبيلهم ولم يصغوا لقول لوتريك حين عرض عليهم انه لا يمكنه بوجه من الوجوه ان يوفيهم حقهم وانه لا يليق التوجه لملاقاة الاعداء لتحصين معسكرهم حيث كان محكم الوضع من اصله وزادوا احكامه بالتحصينات التى جددوها فيه فلا ثمرة فى الهجوم عليهم بل هم الغالبون بدون مرية الا ان السويسيين كانوا لا يعقلون وكانوا يرون ان شجاعتهم تكفى فى ازالة كل عائق وتظهر على كل مانع فالحوا عليه كل الالحاح والتزموا ان يكونوا فى مقدمة الجيش ليكونوا اول من يحمل على الاعداء فلما رأى الجنرال لوتريك شدة عنادهم وانه لا يمكن ردهم عما صمموا عليه قبل ذلك منهم مؤملا ان تسعفه حادثة من الحوادث الاتفاقية التى تطرأ على حين غفلة لاسيما فى الحرب فعساه أن ينجح بها فى هذا المشروع ولقد عهد تخلف الظنون وايضا كان يعلم ان الانهزام لا يضر به اكثر من تخلى السويسيين عنه اذ كانوا على النصف من جيشه وفى صبيحة اليوم الثانى كان السويسيون اول من برز الى ميدان الحرب وحملوا على معسكر الاعداء وكان محصنا من سائر جهاته محاطا

بالطوابى

مطلب
انهزام الفرنساوية فى واقعة بيكوك

فى شهر ابريل

سنة ١٥٢٢

بالطوابى والمدافع ومستعد للملاقاة لعدوه فضربت عليهم المدافع من جهة المعسكر ضربا شديدا فثبتوا امامها ولم يتأخروا عن السير حتى تصل اليهم مدافع الفرنساوية بل هجموا على تحصينات معسكر الاعداء بقلوب ثابتة لا تفزعها الاخطار ولا تفجعها الاهوال ولكن مع ما ابدوه من الشجاعة الغريبة والشهامة العجيبة التى تقف دونها العقول ولا تصدر الا عن الابطال والفحول واعانهم الفرنساوية كل الاعانة هلك منهم اشجع ضباطهم واحسن عساكرهم ورأوا انه لا يمكنهم الجولان فى معسكر الاعداء فرجعوا على اعقابهم مطرودين لا مغلوبين حيث انهم عند الرجعة لم يزالوا باقين على غاية من الترتيب والانتظام ولم يمكن للاعداء ان يشتتوا شملهم او يوقعوهم فى الخلل والارتباك

مطلب
طرد الفرنساويه من دوقية ميلان

فلما كان اليوم الثانى سافر السويسيون الذين نجوا من واقعة بيكوك الى بلادهم فعند ذلك رأى الجنرال لوتريك انه لا يمكنه مقاومة الاعداء فرجع الى مملكة فرانسا بعد أن وضع محافظين فى قلعة كريمون وبعض قلاع اخرى وكلها لم يمكنها المقاومة بل سلمت الى الجنرال كولون ماعدا قلعة كريمون المذكورة

مطلب
اخذ جنويرة من الفرنساوية

وكان للفرنساوية ارض عظيمة فى بلاد ايطاليا غير دوقيه ميلان وهى ارض جنويرة فكان يسهل على الملك فرنسيس ان يأخذ دوقية ميلان الان الجنرال كولون لما ظفر باعدائه غير مرة صار يستحقر كل خطب ويستسهل كل صعب فعزم على اخذ بلاد جنويرة لاسيما وكان يحثه على ذلك حزب الادورنى الذى كان عدوا للغريغوريين وكانوا تحت حماية الفرنساوية فلذا كان له ببلاد جنويرة الكلمة النافذة فاخذ كولون المذكور البلاد مع غاية السهولة كما تغلب على دوقية ميلان وتمكنت فيها صولة الحزب الادورنى وحكومة الامبراطور من غير معارضة ولا سفك دم

مطلب
اشهار الملك هنرى الثامن للحرب مع مملكة فرنسا فى ٢٩ من شهر ايار

ولا شك ان هذه المصائب المتوالية قد اودعت فى باطن الملك فرنسيس الاما

شديدة واحزانا كبيرة ازدادت شدتها حين اتى اليه فى اثناء تلك المدة على سنة ١٥٢٢
حين غفلة رسول من طرف ملك انكلترة بصدد طلب الحرب عن لسان هذا
الملك وكان منشأ ذلك هو المشارطة المنعقدة فى مدينة بروجه بين الايمبراطور
والوزير ولسى وكانت الى ذلك الوقت خفية لم يقف لها احد على جلية
فتعجب الملك فرنسيس من ذلك كل العجب حيث انه كان يبذل جهده
فى استعطاف ملك انكلترة واستمالة وزيره ولسى ومع ذلك قابل الرسول
بالترحيب والاحترام ولاطفه واكرمه كل الاكرام ثم اخذ اهبته واستعد بامور
جسيمة ليدفع عن نفسه هذا الملك ولم يزل على عناده مصمما على مراده الذى
كان يضمره للايمبراطور وحيث كانت خزائنه قد نفدت فى الحروب السابقة
وفيما صرفه من المبالغ الجسيمة على نفسه فى اللعب واللهو اضطر الى ارتكاب
امور غير عادية لتحصيل المبالغ اللازمة له فاخترع مناصب جديدة فى الدولة
وعرضها للبيع وباع الجفالك والاراضى الملوكية وضرب على الاهالى مغارم
زائدة عن الحد واخذ ضريحا من خالص الفضة كان الملك لويز الحادى عشر
لكثرة ديانته قد وضعه حول قبر القديس سنت مارطين وبهذه الوسايط امكنه
ان يجمع جيشا كبيرا ويحصن جميع المدن التى على ضواحى مملكته تحصينا
عظيما

مطلب ذهاب الايمبراطور الى انكلترة

هذا ولم يهمل الايمبراطور شيأ يجلب به لنفسه كل فائدة لاحت له من الملك
هنرى فقد حصل انه لما رأى اذ ذاك قيام حظه واقبال الدهر عليه
وان مصالحه تسوغ له الذهاب الى اسبانيا وكان ذهابه اليها مما لا بد منه
فاراد وهو متوجه اليها ان يمر بمملكة انكلترة ليقابل الملك هنرى ولم يكن
قصده بذلك مجرد تأكيد روابط المحبة بينهما وتحريضه على الاستمرار فى الحرب
مع الفرنساوية بل كان قصده ان يأخذ بخاطر الوزير ولسى حتى تطيب نفسه
وينسى ما لحقه من الحنق والغيظ بسبب ما كان يؤمله من اخذ منصب البابا
وكان الايمبراطور قد وعده بالاعانة على تحصيله فلما مات البابا لم يوفه
الايمبراطور بما وعده به بل ولم يكن له ذكر فى ديوان الكردينالية الذى انعقد

سنة ١٥٢٢م

لهذا الشان وقد نجح الايمبراطور شرلكان وزاد نجاحه عما كان يؤمله وذلك انه لما نزل بانكلترة تلقاه الملك هنرى بحسب ما يليق بمقام الايمبراطورية لاسيما وكان الايمبراطور قبل ذلك قد اظهر له الاحترام التام فى كل فرصة لاحت له فى هذا المعنى فبعد ان اكرمه هنرى كل الاكرام وافقه على جميع مقاصده ووعده بتتميمها معه واما الوزير ولسى فلما كان يعلم ان ادريان لطعنه فى السن لا تطول مدة اقامته على كرسى البابا نسى غمه او اخفاه لاسيما وزاد الايمبراطور فى المرتبات التى كان جعلها له قبل ذلك ووعده بانه سيعينه على اخذ منصب البابا فصار ولسى من وقتئذ يبذل جهده فى خدمة الايمبراطور ليكون اهلا للانعامات التى انعم عليه بها وليحمله على ان يعينه اتم اعانة فى نيل هذا المنصب ولما كانت ملة الانكليز تقتسم مع ملكها حظه وفخاره حصل لها غاية المسرة والانشراح من ائتمان الايمبراطور له واعتماده عليه حيث جعل الامير سورى الانكليزى سر عسكر جيوشه البحرية ولم تكن رغبتها اقل من رغبة ملكها فى اشهار الحرب مع مملكة فرانسا

مطلب
دخول الانكليز فى ارض فرانسا

ولاجل ان يتحقق الايمبراطور شرلكان قبل ارتحاله عن انكلترة من رغبة الملة الانكليزية فى تنفيذ ما رتبه سافر الامير سورى الى فرانسا بالسفن التى كانت متجهزة اذ ذاك وخرب نواحى بلاد نورمندية ثم نزل ابريطانيا ونهب مدينة مورلكس وحرقها وكذلك بعض مدن اخرى اصغر منها وبعد هذه الاغارات الصغيرة التى كان اذلالها للفرنساوية اكثر من اضرارها بالتدمير والتخريب لبلادهم رجع هذا الامير الى كالس واخذ الجيش الانكليزى الكبير وكان ستة عشر الفا وضمه الى الجيش الفلمنكى الذى كان يقوده القونتة بوران ودخل بالجيشين فى اقليم پيكردية وكان الجيش الذى جمعه الملك فرنسيس اقل عددا من مجموع هذين الجيشين الا ان الفرنساوية بممارستهم للحروب الطويلة التى حصلت قبل ذلك بينهم وبين الانكليز عرفوا مكايد الانكليز حق المعرفة وعلموا الطرق التى يمكنهم بها

سنة ١٥٢٢

مدافعتهم عن بلادهم فكانت النكبات قد علمتهم ان لا يحاربوا الانكليز صفا وان لا يعجلوا بقتالهم بل يحاولونهم ويمطلونهم لانه كلما طالت مدة الحرب مع الانكليز عظمت ثمرته لاعدائهم وانقرض جيش الانكليز شيأ فشيأ وعلمتهم ايضا ان يجعلوا محافظين على القلاع التى يمكنها المقاومة وان يفجأوهم فى جميع حركاتهم ويقطعوا عنهم الزاد والذخائر وان يحملوا على طلائع عساكرهم وان لا يغفلوا عن الاغارة عليهم فى كل وقت مع جم غفير من الخيالة وقد سلك معهم هذا المنوال الدوق واندوم وكان اذذاك رئيس جيش الفرنساوية فنجح غاية النجاح حتى ان القونتة سورى لم يمكنه ان يتغلب على شئ من المدائن الكبيرة المهمة بل اضطر الى الرجوع بعد ان نقص جيشه نقصا بينا لشدة ما لحقه من المشاق والمكايد وقلة الزاد ولما هلك منه فى عدة مصادمات حصلت بينه وبين الفرنساوية وكان الجيش الفرنساوى فيها هو الغالب

وكان ذلك آخر الواقعة الثانية من هذا الحرب الذى كان اعظم الحروب التى حصلت الى ذلك الوقت ببلاد اوروبا نعم قد ضاع من الملك فرنسيس جميع البلاد التى كانت له بايطاليا وكان السبب فى ضياعها حقدامه للجنرال لوتريك وظلم جنراله للناس وتخلى العساكر الاجنبية التى كان يستأجرها ومع ذلك فنقول ان الدول التى كانت متحزبة عليه لم يمكنها ان تأخذ شيأ من دوله الوراثية بل كانت اينما تتوجه او تهجم تراها حصينة متينة مستعدة لمقاومتها حق المقاومة

مطلب فتح السلطان سليمان لجزيرة رودس

وبينما كان ملوك النصرانية يضعف بعضهم قوى بعض ويدمرون عساكرهم فى الحروب اذ دخل السلطان سليمان الفاخر بلاد المجار فى جيش جرار وحاصر مدينة بلغرادة وكانت اعظم المدائن والثغور الحصينة التى تحمى مملكة المجار من جيش الدولة العثمانية ومع ذلك سلمت فى اسرع وقت وتولى عليها السلطان المذكور فلما نجح فى هذا الحرب تقوى قلبه ووجه جيوشه المنصورة الى جزيرة رودس وكان فيها حينئذ طائفة الخيالة

سنة ١٥٢٢ المسماة سنت جان دوجور برزاليم اى انصار بيت المقدس وهجم على تلك
الجزيرة بسواد عظيم من تلك الجيوش الكبيرة التى لا يعجز عن جمعها ملوك
آسيا الذين هم مطلقو التصرف فى رعاياهم حيث اغار عليها بمائتى الف رجل
ومعه دونمة تحتوى على اربعمائة سفينة حربية وحاصر تخت جزيرة رودس
ولم يكن فيه من العساكر الا ستة آلاف وستمائة من خيالة وجاق الشوالرية
وكان رئيسهم الشهير وليبردوليل آدم وكان لحزمه ومهارته وعزمه
وشجاعته جديرا بتلك الرياسة فى مثل هذا الوقت الذى كان كثير الخطوب
والاهوال فبمجرد ما بلغه ان السلطان سليمان عزم على اخذ جزيرة رودس
ارسل بردا الى ملوك النصرانية يطلب منهم المدد والاعانة على عدو الملة المسيحية
وكان جميع هؤلاء الملوك يعلمون ان تلك الجزيرة هى حصنهم ببلاد المشرق
وان شجاعة من كان بها من خيالة الشوالرية هى اعظم سور يمكن اقامته لحماية
بلادهم من جيوش الاسلام ومع ذلك لم يسعفوه بالاعانة واغرب من ذلك
ان البابا ادريان حث الفريقين المتشاحنين مع الحمية التى يقتضيها كونه
ابا النصارى كافة ورئيس كنيستهم على ان ينسيا ما بينهم من العداوة والبغضاء
وان يتفقا جميعا حتى يمنعا جيوش الاسلام من تدمير طائفة بيت المقدس التى
هى فخر ابناء النصرانية ولكن كانت البغضة بينهما قد تمكنت فلم يؤثر فيهما
وعظ ولا تحريض ولم يلتفتوا الى الاخطار التى كانت بلاد اوروبا عرضة
لها ولم تأخذهما رأفة لتضرع الرئيس وليبردوليل آدم ولا لالحاح البابا
ادريان عليهما بل قطعا النظر عن جزيرة رودس وتركاها للسلطان
سليمان يفعل بها ما شاء وبعد ان ابدى الرئيس وليبردوليل آدم فى هذه
المحاصرة التى مكثت ستة اشهر العجب العجاب واظهر هو وجماعته من الشهامة
والعزم والتجلد والحزم ما لا يتصوره الفكر ولا يحصره الذكر وثبت امام المسلمين
فى عدة مصادمات وعارضهم اينما توجهوا بهمة عجيبة غلبت كثرة المسلمين
شجاعته واضطر الى التسليم لكنه لم يسلم فى المدينة الا على وجه اوجب له
الشرف والفخار حيث لم يتركها الا بعد ان صارت اطلالا ليس فيها ما يسد الرمق

حتى ان السلطان تعجب من شجاعته كل العجب فلذلك احترمه غاية الاحترام واجابه فيما طلبه من الشروط واما الايمبراطور شرلكان والملك فرنسيس فلما لحقهما من المعرة والخزى حيث كانا سببا فى حصول تلك الخسارة لابناء النصرانية اخذ كل منهما يبرى نفسه ويوجه اللوم على صاحبه ولكن الافرنج ينسبون ذلك لهما معا الان منشأه هو الحرب الذى كان واقعا بينهما لمجرد اطماعهما واغراضهما النفسانية وفى نظير ذلك انعم الايمبراطور شرلكان على امرآء تلك الطائفة بجزيرة مالطة وصارت من ذلك الوقت دار اقامتهم وهم الى الآن باقون فيها على شجاعتهم القديمة وبغضهم للمسلمين وان كانوا قد انحطوا عن العهد القديم بهجة وشوكة

انتهت المقالة الثانية

المقالة الثالثة من اتحاف ملوك الزمان بتاريخ الايمبراطور شرلكان

مطلب الحروب المدنية التى وقعت فى مملكة قسطيلة

ثم ان الايمبراطور شرلكان بعدان شفى غليله وحظى بمرامه من ايقاع الحرب بين مملكتى فرانسا و انكلترة ودع الملك هنرى وسافر من انكلترة حتى وصل الى اسبانيا فى ١٧ من شهر حيزران وكانت نيران الفتن قدا خذت تسكن واخذ الاهالى يستظلون بظلال الامن والاطمئنان وشرعت المملكة فى اصلاح ما حصل فيها من التلف والفساد بسبب الحرب الداخلى الذى اضر بها وافسد حالها مدة غيبة الايمبراطور عنها وقد اخرنا الى هنا ذكر منشأ هذا الحرب وسبب اتساع دآئرته لانه لا رابطة بينه وبين الحوادث الاخرى التى كانت وقتئذ حاصلة فى بلاد اوروبا فنقول

مطلب قيام اهل طليطلة

ان الاهالى بمجرد ما بلغهم ان مشورة القورطس المنعقدة فى مدينة غاليسة قد سمعت للايمبراطور بمبلغ من الدراهم على سبيل التبرع مع انه لم يجبهم فى شئ من الامور التى تشكوا له منها غضبوا غضبا شديدا ونفرت نفوسهم كافة وكان اهل مدينة طليطلة بموجب ما كانوا يتمتعون به من المزايا العظيمة والخصوصيات الجسيمة يرون فى انفسهم انهم حفظة على حرية الجمعيات البلدية فى مملكة قسطيلة فلما اعطت مشورة القورطس للايمبراطور المبلغ

المتقدم

سنة ١٥٢٢

المتقدم ولم تعبأ بمخالفة رسل تلك المدينة اشتد حنق الطليطليين واظهروا العصيان لاسيما وكان اعطاء هذا المبلغ للايمبراطور مما يخالف القوانين والاصول المبنية عليها احكام المملكة وتغلبوا على الابواب المحصنة من المدينة وهجموا على القلعة مع عزم متين وجهد مكين فاضطر حكمدارها الى التسليم فلما نجحوا فى هذا المشروع قويت قلوبهم واجحفوا بكل من توهموا فيه انه من احباب الدولة واحزابها وجردوهم عن وظائفهم ومناصبهم ورتبوا فيما بينهم نوعا من الحكومة الاهلية وجعلوا اربابها وكلاء انتخبوهم من خوريات المدينة وجمعوا ما يلزم من العساكر للمدافعة عن انفسهم من اهل الدولة وبطش الملك وكان اعظم رؤساء الاهالى فى هذه الفتنة هو الامير حنا دوپاديلة بكر حاكم قسطيلة وكان شابا ذا انفة وشجاعة عجيبة وكان له من الطمع والمعارف ما يعلو به المرء فى مثل تلك الحروب المدنية اقرانه ويرتقى به فى درجات الصولة والشوكة اعلى مكانة

مطلب قيام اهل مدينة سيغوبيه

وكذلك اهل مدينة سيغوبية كان لغضبهم وغيظهم عواقب شنيعة وكان توردزيلاس احد رسلهم بشورة القورطس فى تلك المرة الاخيرة قد وافق من انحط رأيهم من ارباب تلك المشورة على اعطاء المبلغ المتقدم للايمبراطور وكان رجلا جسورا لا يخشى بأس احد فلما رجع من المشورة جمع اهل المدينة فى الكنيسة الكبرى على حسب عادتهم وقص عليهم ما فعله فى المشورة فبمجرد سماعهم انه اقر اربابها على تبرعهم للايمبراطور بالمبلغ السابق غضبوا كل الغضب لاسيما حين تجاسر على تصويب هذا الفعل الذى كانوا يرونه من باب الخطاء الذى لا عذر لمرتكبه وبلغ منهم الغضب أن عمدوا الى ابواب الكنيسة فكسروها وقبضوا عليه وصاروا يسحبونه على الارض فى ازقة المدينة ويلعنونه ويسبونه حتى وصلوا به على تلك الحالة الشنيعة الى الميدان الذى يقتل فيه كل من استحق القتل فخرج رئيس الكنيسة وجمع الرهبان فى احتفال وبايديهم القربان المقدس قاصدين تسكين غضب الاهالى فما زادوهم الا غيظا وحنقا وكانوا كلما مروا به على دير يخرج رهبانه ويتضرعون للاهالى

سنة ١٥٢٢ ويلتمسون منهم العفو عنه اوتركه حتى يعترف بذنوبه وخطاياه ويسأل الغفران لكن لم يجد ذلك شيأ بل صاحوا حينئذ قائلين لا يبرىء من خان وطنه سوى يد الجلاد ثم سحبوه على الارض مع غاية القسوة حتى زهقت روحه وهو بين ايديهم فاخذوا جثته وعلقوها فى المشنقة العامة وجعلوا رأسه الى اسفل

وقد غضب كذلك اهالى مدينتى بوغوس و زاموره وعدة مدائن اخرى وارادوا ان ينتقموا من رسلهم الذين كانوا فى مشورة القورطس غيران هؤلاء الرسل لما بلغهم ما صنع بسيىء الحظ توردزيلاس هربوا فقام الاهالى بحرق التماثيل المصنوعة على صورهم وهدموا بيوتهم من اساسها والقوا فى النار جميع امتعتهم واثاثهم وكان ذلك عاقبة غضب الاهالى على هؤلاء الناس الذين اتهموهم بانهم خانوا الحرية العامة ولم تطمع نفس احد من الاهالى ان يأخذ شيأ من امتعتهم مع انها كانت محتوية على كثير من الاشياء النفيسة

مطلب الوسايط التى استعملها ادريان فى معاقبته

وكان ادريان اذذاك نائبا عن الملك فى بلاد اسبانيا وكان قد جعل دار اقامته مدينة والادوليدة فلما بلغه وقوع هذه الفتن امر فورا بجمع ارباب مشورته ليتذاكروا فيما يكون به تسكين تلك الفتن ونشر لواء الأمن والاطمئنان بين الناس فوقع الخلف بين ارباب هذه المشورة فقال بعضهم يلزم استعمال القوة والقسوة لاجل اطفاء نيران تلك الفتن قبل ان يتسع الخرق على الراقع وقال آخرون يجب سلوك سبيل الرفق ولين الجانب لان غضب الاهالى فى محله من بعض الوجوه وابدوا انه لا يليق معاملتهم بمحض القوة والقهر لان ذلك يجر الى خطر عظيم فانه ربما ازداد عصيانهم وكبر طغيانهم وكان رئيس المشورة مطران غرناطة فاستحسن الرأى الاول وكان رجلا مشهورا اذا كلمة نافذة الا انه كان فيه حدة وحمية وصدق عليه الوزير آدريان لفرط حرصه على تأييد صولة سيده الايمبراطور شرلكان وابقاء دولته ولو عمل على مقتضى طبعه من شدة الخوف والرهبة والاحتراس لما وقع منه ذلك وصدر منه امر الى قاض من قضاة الملك يقال له رونكيلو ان

فى ٥ من شهر حزيران سنة ١٥٢٠

يسافر

سنة ١٥٢٢

يسافر حالا الى مدينة سيغوبية التى بدأت بنشر العصيان والقيام ليحكم على المذنبين بما تقتضيه القوانين ووجه خلفه طائفة كبيرة من العساكر وكان اهل هذه المدينة يعرفون طبع هذا القاضى حق المعرفة فادركوا انه سالك فى معاملتهم مسلك الشدة والقسوة فاخذوا اهبتهم وحملوا اسلحتهم وغلقوا ابواب المدينة فى وجهه فغضب من ذلك وحكم بانهم عاصون واهدر دماءهم وتغلب مع عساكره على طرق المدينة ومنافذها ظنا منه انهم سيضطرون الى التسليم فى اقرب وقت لفقد الزاد من عندهم وعدم الجالب لكنهم مع ذلك دافعوا عن انفسهم حق المدافعة حتى اتاهم الامير باديلة من مدينة طليطلة بطائفة كبيرة من العساكر فصدت القاضى المذكور وحملت عليه حملة منكرة فالجأته الى الفرار واخذت جميع ما كان معه من المهمات والذخائر الحربية

مطلب — طرد عساكره فى مدينة سيغوبية

وبعد هذه الهزيمة صدر امر من ادريان الى انتواندوفونسيكة وكان الايمبراطور شرلكان قد ولاه سرعسكر الجيوش الاسبانيولية ان يجمع جيشا عظيما ليحاصر مدينة سيغوبية محاصرة مستكملة الاركان والشروط وكان الوزير اكزيمينيس قد جعل فى مدينة مدينة دلكمبو مخزنا كبيرا وملأه بانواع المهمات الحربية فاراد السرعسكر فونسيكة ان يأخذ منه ما يلزم له فى تلك المحاصرة فلم يسلم له اهالى مدينة مدينة دلكمبو فى ذلك ولم يستطيعوا ان يأخذ شيأ لهلاك ابناء وطنهم حيث ان هذه الاسلحة معدة لتدمير اعداء مملكتهم من الاجانب ولما كان فونسيكة لا يمكنه ان ينفذ اوامر ادريان بدون هذه المهمات عزم على التغلب على مخزنها بمحض القوة والقهر فاستعد سكانها للمدافعة وهجم على المدينة بكل ما فى وسعه فلاقاه السكان بقلب لا يفزع وجنان لا يجزع وثبتوا امام عساكره فلما يئس فونسيكة من الظفر بهم ورأى انه لا يمكنه التغلب على المدينة امر بوضع النار فى بعض بيوت منها حتى يترك السكان الاسوار ويشتغلوا بانقاذ عائلاتهم وامتعتهم من الحريق فيسهل عليه اخذ المدينة لكن خابت آماله فانهم

مطلب — طرد عساكره فى مدينة مدينة دلكمبو

فى ٢١ من شهر اب

سنة ١٥٢٢

لم يلتفتوا الى النار بل ازداد غضبهم منه ولم يزالوا يقاتلونه حتى هزموه وطردوه بالكلية هذا وكانت النار لم تزل تتنقل من زقاق الى آخر وتتسع فى المدينة حتى كادت تجعلها رمادا وكانت هذه المدينة اذ ذاك من اعظم مدائن اسبانيا واكبر مخازن المحصولات الخارجة من فبريقات مدينة سيغوبية وغيرها من المدائن الكبيرة وكانت مخازنها وقتئذ مشحونة بالبضائع المعدة للبيع فى سوقها لان زمنه قد قرب فاحترقت جميع هذه البضائع وكانت خسارة المملكة بذلك عظيمة وكان اهالى مملكة قسطيلة منذ زمن طويل قد نسوا اهوال الحروب المدنية فاشتد غضبهم حتى كنت تخال ان بهم جنة وصار فونسيكة مبغوضا عند الناس كافة وسموه محرق وطنه وعدوه والى ذلك الوقت كان سكان مدينة والادوليدة منقادين للامبراطور ولم يخرجوا عن طاعته وكان يمنعهم من ذلك حضور ادريان بين اظهرهم لكن لما رأوا ما فعله فونسيكة بمدينة مدينة دالكمبو اظهروا انهم لا يستطيعون السكوت على ذلك وابناء وطنهم فى اكبر المصائب فبادروا الى اسلحتهم لما قام بهم كغيرهم من الحمية الغضبية وحرقوا بيت فونسيكة وانتخبوا قضاة غير القضاة الذين كانوا موجودين اذ ذاك وجمعوا عساكر وجعلوا عليهم ضباطا ومكثوا يحافظون اسوار مدينتهم حتى كأن العدو واقف على ابوابها

مطلب تسريح الكردينال ادريان للعساكر

ومن المعلوم ان الكردينال ادريان كان من اهل الفضائل والعفة خاليا عن الاغراض ولو كانت المملكة حينئذ خالية عن الفتن والتعصبات لامكنه ان يحكمها بطريقة مستحسنة توجب له المدح والثناء الا انه لم يكن مستكملا للشجاعة والمهارة التى كانت تستدعيها مقتضيات الاحوال اذ ذاك فلما علم انه لا يمكنه اطفاء نيران الفتن بطريق القوة والقهر اخذ يسلك مع الاهالى مسلك اللين والرفق ليستعطفهم ويسكن غيظهم ويثبت عندهم ان السرعسكر فونسيكة قد جاوز الحد فيما امر به وانه يعنى نفسه قد لحقه غم شديد من الفعال القبيحة التى ارتكبها هذا السرعسكر ولكن لما كان هذا الاستعطاف ناشئا عن عجزه وعدم اقتداره لم يزد العاصين الا طغيانا وبغيا فامر بعد ذلك بقليل

السر

سنة ١٥٢٢

السرعسكر فونسيكة ان يرجع من الجهة التي كان فيها وسرح العساكر لانه كان لا يمكنه ان يدفع لهم ماهياتهم لما ان خزائن المملكة كانت قد نفدت باختلاس الوزراء الفلمنكيين وكانت المدائن الكبيرة لم تزل متعصبة عليه فعلم انها لا تساعده ادنى مساعدة ولا تعطيه شيأ من الاموال يستعين به وترك الاهالي يفعلون مابدا لهم حتى لم يبق له عندهم من الشوكة والصولة سوى خيالها

مطلب
مقاصد الجمعيات البلدية في مملكة قسطيلة ودعواها

ولم يكن خروج تلك الجمعيات البلدية من قبيل الغضب الوقتي الذي يطرأ على امة مثلا حتى اذا خمدت ناره ترجع الى طاعة حكامها بل كان مبنيا على مآرب جسيمة ومقاصد مهمة عظيمة وهي ابطال عدة مظالم كانت موجودة بالمملكة اذ ذاك واقامة دعائم الحرية العمومية على اساس متين بحيث لا يعتريه فيما بعد تزلزل ولا اضطراب ولا شك ان هذه المقاصد حرية بما بذله الاهالي في شأنها من الجد والاجتهاد ومنشأ ذلك هو ان الحكومة الالتزامية في بلاد اسبانيا كانت حينئذ تلايم الحرية اكثر مما في غيرها من ممالك اوروبا وكان السبب الاصلي في ذلك هو كثرة المدائن الممتازة بتلك المملكة كما نبهنا عليه فيما سبق وهو الذي اعان اكثر من غيره على تلطيف الحكومة الالتزامية في هذه المملكة واضعف شدة قوانينها وسهل صعوبة احكامها وجعل تلك الحكومة في بلاد اسبانيا اعدل والطف مما كان في غيرها من الممالك الافرنجية فكان سكان كل مدينة وجاقا واحدا كبيرا له مزايا جمة وخصوصيات مهمة وكانوا معافين من الرق والتبعية وكان لهم مدخل عظيم في التشريع ووضع القوانين وكانوا بمكان من الفنون والصنائع التي بدونها لا يستقيم حال اي مدينة كانت وكانوا على غاية من الغنى والثروة لعظم تجاراتهم واتساع دائرتها وبالجملة فكانوا احرارا مستقلين بانفسهم ليسوا اتباعا لغيرهم ولذلك كانوا محافظة على الاستقلال وانصار الحرية العمومية لا سيما وكانت حكومتهم الداخلية مبنية على شعائر الحكومة الديموقراطيقية والحكومة الجمهورية فكانت الحرية عزيزة عندهم بحيث لا تسوغ لهم

سنة ١٥٢٢

انفسهم ان يفرطوا فيها ادنى تفريط ولا ريب ان الحكومة اذا كانت بهذه المثابة تكون الحرية عزيزة عند اهلها ولو كان حاكمها مطلق التصرف ولذا كانت عادة وكلاء الاهالى ببلاد اسبانيا انهم متى حضروا مشورة القورطس التى هى مشورة العموم يناقضون الملك فيما لم يستحسنوه من مشروعاته ومقاصده ويعارضون الاشراف والاعيان حتى لا يلحق الاهالى ضرر من ظلمهم وجورهم وكانوا دائما يجنحون الى ما فيه توسيع دائرة مزايا الاهالى وخصوصياتهم ويبذلون جهدهم فى محو المضار التى كانت باقية من شعائر الحكومة الارستوقراطية اى الالتزامية ولم يكتفوا بانهم كانوا من اعظم الطوائف فى الدولة بل كانوا يطلبون ان يكونوا اقواها شوكة

مطلب
معاهدة الجمعيات البلدية المشهورة بالمعاهدة او العصبة المقدسة

وكان يظهر لهم اذ ذاك ان مقتضيات الاحوال تعينهم اتم الاعانة على تنجيز مشروعاتهم التى كانوا عازمين عليها الان ملكهم وهو الامبراطور شرلكان كان حينئذ بعيدا عنهم وكان قد نزع حبه واعتباره من قلوب رعاياه لقبح سلوك وزرائه فلما سئمت نفوس الاهالى من عدة مظالم حلت بهم من طرف الحكام شهروا السلاح واخذوا فى العصيان وان كانوا لم يدبروا امره من قبل وكان غضبهم شديدا بحيث كان يمكن ان يفضى بهم الى مجاوزة كل حد وغاية لاسيما وكانت الخزينة الملوكية قد نفدت اموالها وكانت المملكة خالية من العساكر والجيوش وكانت الحكومة بيد رجل اجنبى ليس عنده من المعارف ما يكفى فى القيام باعباء المملكة وان كان صاحب فضائل وخصال حميدة واول شئ فعله الامير پاديله وبقية رؤساء العصبة الذين كانوا يلتفتون كل الالتفات الى ما تقتضيه الاحوال اذ ذاك حتى لا يضيعوا ما يلوح لهم من الفرص هو انهم جددوا بين العصاة نوع معاهدة به امكنهم ان يتموا امورهم بدون اختلال واختلاف وان يكون مطمح نظرهم واحدا وحيث ان الاسباب التى حملت المدائن على الخروج والعصيان كانت واحدة بل وكانت تلك المدائن ترى نفسها انها اوجاق ممتاز عن بقية الرعايا امكن للامير پاديله وغيره من بقية رؤساء العصبة ان يبلغ مرامه بدون مشقة وتعين لهذا الشان مشورة عامة فى مدينة آويلة وحضرها

رسل

رسل المدائن التى كان لها الحق فى ارسال وكلاء بمشورة القورطس وتحالفوا جميعا على ان يحيوا او يموتوا على خدمة ملكهم وحماية مزايا خرقهم وخصوصيات طائفتهم وتسموا من وقتئذ باسم المعاهدة المقدسة واخذوا يتذاكرون فى شأن مصالح الاهالى وما ينبغى ابطاله من المظالم التى كانت موجودة اذ ذاك بمملكتهم فكان اول شئ افتتحوا به مذاكراتهم هو عدم اقرار الاجنبى على نيابة مملكتهم قائلين ان ذلك مخالف لاصول المملكة وانحط الرأى على ان يبعثوا الى الوزير ادريان وكان هو النائب وقتئذ رسلا من طرفهم يأمرونه بالنزول عن الكرسى الملوكى زاد لا يتشبث من الآن فصاعدا بشئ من امور الدولة لانهم لا يقرّونه على ذلك ولا حق له بدون اقرارهم

مطلب قبضهم على الملكة حانة ام الامبراطور شرلكان ٢٩ من شهر آب

وبينما كانوا يأخذون اهبتهم لتنجيز هذه العزيمة الجسيمة اذ حصل ان الامير باديلة بت امر مشروع جسيم هو من اعظم المشروعات فائدة فى اعانتهم على تتميم مآربهم وذلك ان هذا الامير بعد ان انقذ مدينة سيغوبية توجه الى مدينة توردزيلاس وكانت بها الملكة حانة منذ مات زوجها فيليبش وكانت دائما بين احزان واشجان وتقرح اجفان فبذل هذا الامير جهده واعانه السكان حتى دخل تلك المدينة وقبض على الملكة حانة وكان الوزير ادريان قد اهمل فى حفظها حتى تكون آمنة من مثل هذا الامر وبمجرد دخول الامير المذكور هذه المدينة ذهب لزيارة الملكة فلما تمثل بين يديها مع الاحترام والادب التام الذى كانت توجبه على بعض افراد كانت تأذن لهم بالدخول عندها قص عليها تفصيلا الحالة المحزنة التى حلت برعاياها القسطيليين تحت حكم ولدها شرلكان لانه لصغر سنه وقلة تجاربه واختباره للامور جعل عليهم وزراء من الاجانب شدّدوا عليهم كل التشديد واساؤهم كل الاساءة حتى سئمت نفوسهم وضاقت عليهم الارض بما رحبت فاظهروا العصيان وشهروا السلاح ليدافعوا عن حرية بلادهم فلما سمعت الملكة ذلك انتعشت كأنها افاقت من عتهها وتحسرت على سوء حال رعاياها واخبرته بانها الى الآن لم يبلغها موت ابيها فرديننذ ولا ما حل

سنة ١٥٢٢

برعاياها من الضنك فاذن لا لوم عليها ولكنها من الآن فصاعدا تهتم باصلاح تلك المفاسد ومحق تلك المظالم والمكايد وكان آخر كلامها معه أن قالت حافظ ايها الامير على فعل ما فيه المصلحة العامة للرعايا وكان بادية يصدق عاجلا بما يلايم بغيته ويوافق سنيته فاعتقد انه عاد اليها عقلها لا محالة واخبر بذلك رسل العمالات اى وكلاء المملكة ودعاهم الى المجيء الى مدينة توردزيلاس ليعقدوا مشورتهم بها فبمجرد ما وقف الوكلاء على هذا الخبر ذهبوا الى تلك المدينة وتحولت الدعاوى اليها وتلقت الملكة على وجه حسن تقريرا عرضته عليها العصبة المقدسة يتضمن تضرع تلك العصبة اليها ان تأخذ بعنان المملكة فرضيت حانة بذلك وكانت علامة رضاها انها اذنت لوكلاء المملكة أن يقبلوا ايديها وحضرت ايضا ملعب التورنواس الذى نصب لهذا الشان وظهر عليها كل السرور من رؤية هذا الملعب لاسيما وكانوا لاجل شرح صدرها قد اظهروا فيه فنونا عجيبة وفروعا مغربة غريبة لكنها بعد ذلك بقليل عادت الى عتهها واختلال عقلها ولم يمكن بوجه من الوجوه ان يستميلها احد الى وضع امضائها على شيء من مصالح الدولة

مطلب
ادارة المملكة باسمها

فاخذت حينئذ العصبة المقدسة تخفى هذا الخبر واستمرت على ادارة المملكة باسم الملكة حانة لان اهل قسطيلة كانوا يحبونها حبا جما لما كان لهم من المحبة الصادقة فى امها الملكة ايزابيلة فبمجرد ما بلغ الاهالى ان الملكة حانة رضيت باخذ عنان المملكة ظهرت عليهم علامات الانشراح والفرح وزال عنهم بذلك كل هم وترح ولما اعتقدوا انها افاقت حقيقة من عتهها وخبالها زعموا ان الله سبحانه وتعالى لم يقض بذلك الا لكونه اراد انقاذ المملكة من ظلم الاجانب ولما رأت هذه العصبة انه قد صار لها شهرة عظيمة وصولة جسيمة باظهارها انها تحكم الدولة باسم الملكة حانة طلبت من ادريان ان يتخلى عن نيابة المملكة ولا يتشبث بشيء من امور الدولة وارسلت كذلك بادية الى مدينة والادوليدة ومعه سرية عظيمة من العساكر وامرته ان يقبض على كل من كان باقيا فى هذه المدينة من ارباب المشورة الملوكية ويحضره معه الى

مدينة

سنة ١٥٢٢

مدينة توردزيلاس ويأتى معه ايضا باختام المملكة ودفاترها ودفاتر الخزينة فحين وصول بادبلة الى مدينة والادوليدة رحب به اهلها وتلقوه كأنه منجى الوطن وحاميه وفعل بادبلة كما امرا الا انه اذن للوزير ادريان بالاقامة فى مدينة والادوليدة كآحاد الناس

مطلب
تأسف الايمبراطور وغمه

وكان الايمبراطور حينئذ ببلاد الفلمنك وكانت تأتيه الاخبار بكل ما يحصل فى بلاد اسبانيا وعرف حقيقة الخطاء الذى ارتكبه وزراؤه بكونهم مكثوا زمنا طويلا وهم يحتقرون تشكى اهل قسطيلة ولا يقبلون منهم صرفا ولا عدلا فكان فى حيرة كبيرة وغم عظيم حيث كان يرى ان تلك المملكة التى هى اعظم ممالكه واصل شوكته وصولته كادت تخرج عن طاعته وتقع فى المصائب العظيمة والاهوال الجسيمة التى تنشأ عن الحروب الداخلية والفتن المدنية وكان من الممكن ان حضوره يسكن تلك الفتن ويمنع تلك المصائب الا انه كان لا يمكنه حينئذ ان يرجع الى اسبانيا خوفا من ان يضيع منه التاج الايمبراطورى لانه اذا غاب يسهل على خصمه فرنسيس الاول أن يتم مقاصده ويفوز باغراضه فرأى انه لا يمكنه ادخال اهل قسطيلة تحت الطاعة الا باحد امرين اما ان يستميلهم بالعطايا ويسلك معهم مسلك الرفق واللين او يأخذهم بالقهر ومحض القوة لكنه لم يصمم على واحد منهما بعينه بل صار يتردد بينهما حتى ظهر له ان الاوفق ان يتبع الامر الاول ليعلم ما يترتب عليه وان يتأهب فى اثناء ذلك ويستعد للامر الثانى اذا لم ينجح الاول فكتب لسائر

مطلب
ما دبره فى شأن العاصين

مدن قسطيلة عبارات عذبة رقيقة يعدهم فيها بعطايا جزيلة ومزايا جليلة اذا هم القوا السلاح واقلعوا عن العصيان ووعدهم انه لا يطلب من المدائن التى لم تعص المغرم الذى انحط عليه الرأى فى مشورة العموم المنعقدة اخيرا وكذلك جميع المدائن التى ترجع الى الطاعة وتترك التشبث بالعصيان والقيام والتزم انه من الآن فصاعدا لا يولى اجنبيا على مملكة قسطيلة ولا يعطى مناصبها الا لاهلها وكتب ايضا الى الملتزمين والاشراف يحرضهم على الجد والاجتهاد فى المدافعة عن حقوقهم وحقوق الملك من تعدى الجمعيات البلدية

سنة ١٥٢٢

ودعواهاواقام مع الوزير ادريان اثنين آخرين فى نيابة المملكة وهما الاميرال الاكبر (قبودان باشا) فدريق هنريكيز والامير انيغودويلاسكو سرعسكر قسطيلة وكل من هذين الاميرين كان له معارف غزيرة وصولة كبيرة وعين لهم اصولا يعملون عليها ورخص لهم ان يسلكوا سبيل القهر والغلبة فى تأييد الشوكة الملوكية ان ازداد العاصون بغيا وعتوا ولم ينفع معهم الاخذ بالرفق واللين والمعاملة بالتى هى احسن

مطلب تقرير العصبة المقدسة المشتمل على شكاويهم والمظالم التى يريدون رفعها عنهم

ولا شك ان المزايا والاقطاعات التى سمحت نفسه حينئذ باعطائها كانت تكفى فى ارضاء خواطر الاهالى لو فعل ذلك حين سافر من اسبانيا ولكنه فعله فى غير وقته فلم ينشأ عنه ثمرة وذلك ان جميع الاهالى اقروا العصبة المقدسة وكانوا ظهيرا لها وكانت قد قويت همة تلك العصبة وازداد عزمها بما حصل لها من النجاح فى مشروعاتها الاسيما وكانت لا ترى للدولة عساكر وجنودا قادرين على قمعها ومنعها عن تنجيز مقاصدها فارادت حينئذ ان ترفع مظالم الدولة وتمنع الاجحاف بحقوق الاهالى فمكثت مدة وهى تحرر تقريرا مشتملا على تلك المظالم التى تريد رفعها وعلى جميع الاصول والقوانين التى رأت ان ترتيبها لازم فى اثبات مزايا الجمعيات البلدية وتعضيد حقوقها وكان هذا التقرير مؤلفا من عدة بنود تخص ارباب الدولة ودواوين الادارة والتدبير فهو يفيدنا مقاصد العصبة المقدسة افادة اصح واأكد من معاينة المؤرخين الاسبانيوليين المتأخرين لانهم كانوا فى عصر جرت العادة فيه ان المؤلف اذا اراد تدوين تاريخ امة او قبيلة عاصية يطرى فيما حصل منها ويصف افعالها واطوارها بكل كريهة ويبالغ فى الاسباب التى حملتها على الخروج والعصيان فهو لا يذكر شيأ على حقيقته *وصورة هذا التقرير انه صدر بمقدمة طويلة مشتملة على المصائب الكبيرة والاهوال الكثيرة التى كان يكابدها الاهالى وعلى اختلال حكومة اهل الدولة وفسادها وقبح ادارتهم الذى هو السبب فى جميع تلك المصائب ثم بين ان الاهالى قد تحملوا ما لا طاقة لهم عليه حتى عيل صبرهم ورأوا ان مصلحة انفسهم ومصلحة وطنهم توجب عليهم أن يجتمعوا كلهم ويتفقوا جميعا على تدبير

امر

سنة ١٥٢٢ امر موافق مستحسن يحق اتباعه فيه ملونه ويأمنون به على انفسهم وعلى بقاء القوانين المبنية عليها مملكتهم وصونها عن الخلل والفساد فكتبوا ان الملك يجب عليه ان يرجع الى مملكة اسبانيا ويجعلها دار اقامته كسلفه من الملوك الذين حكموا على تلك المملكة ولا يجوز له ان يتزوج الا برضاء مشورة وكلاء المملكة وانه ان اضطر بموجب مقتضيات الاحوال الى الغيبة عن المملكة لا يجعل نيابتها في يد احد من الاجانب الذين ليسوا من اهلها وان تقليد الكردينال ادريان بهذا المنصب لم يقره الاهالى بل عزلوه منه وانه يجب على الملك عند رجوعه الى اسبانيا ان لا يصحب معه احدا من الاجانب سوآء كان فلمنكيا او غير فلمنكي وان لا يدخل ابدا عساكر من الغرباء فى المملكة باى وجه كان ولا باى علة كانت وان غير اهل اسبانيا لا يجوز ان يعطى لهم منصب او وظيفة فى الدولة او فى الكنيسة وانه لا يجوز اندراج احد من الغرباء فى جريدة السكان المتاصلين بحيث يعد منهم وتعطى له الوثيقة اللازمة لذلك ولا يجوز من الآن فصاعدا ان تكون سكنى العساكر مجانا وان لا يسكن بيت الملك بالعساكر الا مدة ستة ايام بشرط ان يكون ذلك وقت سفر الديوان الملوكى وجميع الفرد والغرامات ترجع الى ما كانت عليه حين موت الملكة ايزابيلة ويجب أن ترد سائر الاشياء التى خرجت من ايراد الملك ومن الجفالك والاراضى الملوكية بعد موت هذه الملكة سوآء كان خروج هذه الاشياء وانتقالها بالبيع او تبرع او غير ذلك ويجب ابطال سائر المناصب والوظائف التى حدثت بعد وفاتها وان لا يؤخذ من اقليم جليقية المسمى غاليسة الاعانات التى رضيت بها مشورة وكلاء المملكة وان كل مدينة من الآن فصاعدا تبعث فى كل مشورة عموم تنعقد وكيلا ينوب عن طائفة القسوس ووكيلا ينوب عن طائفة الاشراف ووكيلا ينوب عن طائفة الاهالى وكل من هؤلاء الوكلاء الثلاثة تنتخبه طائفته ولا مدخل للديوان مباشرة او بواسطة فى انتخاب هؤلاء الوكلاء ولا يجوز لاحد من ارباب مشورة العموم ان يقبل وظيفة او مرتبا يعطى له او لاحد من اقاربه من طرف الملك ومن خالف

ذلك عوقب بالقتل وضبطت جميع امواله لجانب الديوان ولكن يجب على كل سنة ١٥٢٢
مدينة او جمعية بلدية ان تدفع لوكيلها ما يليق بمصاريفه مدة اقامته بمشورة
العموم ويلزم ان مشورة العموم تجتمع فى كل ثلاث سنوات مرة فاكثر سواء
دعاها الملك اولم يدعها واذا انعقدت تلك المشورة ثم تذاكرت فى شأن المصالح
العامة ابتدأت فى النظر هل عمل فيها بمقتضى هذا التقرير ام لا ويلزم
الرجوع فى كل مكافأة اعطيت اوستعطى لارباب مشورة وكلاء اقليم جليقية
ولا يجوز ان يخرج من مملكة اسبانيا ذهب ولا فضة ولا حلى ومن اخرج
شيأ من ذلك كان عقابه القتل ويعين للقضاة شئ معلوم حتى لا يأخذوا شيأ من
المغارم التى تضرب على المذنبين ولا من اموال اصحاب الجنايات الكبيرة التى
تضبط اموالهم وتضم لجانب الديوان وكل ما وقع التبرع به من الاموال من
المتهمين فهو باطل مالم يكن تبرعهم به قبل الحكم عليهم وكل مزية ثبتت
للاشراف فى اى زمن كان يجب الرجوع فيها متى كانت تضر بالجمعيات
البلدية ولا يجوز من الآن فصاعدا ان تعطى حكومة المدن للاشراف ويجب
ان يضرب على اراضيهم جميع ما يضرب على اراضى الجمعيات البلدية من
العوايد والجرائم العمومية ويجب ايضا البحث عن كيفية سلوك كل من انيط
بادارة الاراضى والاملاك الملوكية الوراثية من وقت استيلاء الملك فرديننَد
على الكرسى وان لم يعين الملك فى ظرف ثلاثين يوما لهذا الشان اناسا يصلحون
كان لمشورة العموم الحق فى تعيين من يصلح ولا يجوز اذاعة الغفران ولا الوعظ به
فى المملكة الا بعد ان تبحث مشورة العموم عن الاسباب المبنى عليها هذا الامر
وتجرى ما تستحسنه وجميع النقود التى تحصل من بيع الغفران تصرف
فى المحاربة مع المسلمين اعداء دين النصرانية وكل قسيس لا يمكث فى ابرشيته ستة
اشهر من كل سنة يحرم من ايراده المدة التى غابها والقضاة قسيسون واتباعهم
لا يطلبون الاقدر المبلغ الذى يدفع فى دواوين اللاييك وحيث ان مطران
طليطلة الآن اجنبى وجب عزله واعطاء منصبه لواحد من اهل قسطيلة
ويجب على الملك ان يقرّ جميع ما تفعله العصبة المقدسة ويعده نصحا له وللامة

سنة ١٥٢٢م

بأسرها وان يعفو عما ارتكبته المدآئن لفرط غيرتها على حقوقها لان له اصلا صحيحا وان يحلف انه يفعل بموجب هذه البنود ولا يتعداها ولا يحاول ابدا ابطالها ولا يتساهل وانه لا يتضرع ابدا الى البابا او الى قسيس آخر يأذن له فى الحنث فى هذا اليمين ليخلص من وزره بحيث لا يكون مطالبا به

مطلب
تولع تلك العصبة بالحرية وغيرتها عليها

فهذه هى البنود الاصلية التى احتوى عليها هذا التقرير الذى قدمته العصبة المقدسة لملكها شرلكان وحيث ان القوانين والرسوم الالتزامية كانت فى الاصل متحدة فى سائر الممالك الافرنجية كانت الحكومات المبنية على اصول المذهب الالتزامى تميل الى مآرب واحدة تقريبا فالقوانين التى كان اهل قسطيلة حينئذ يسعون فى انشائها بمملكتهم كانت تخالف قليلا القوانين التى اهتمت بانشائها الملل الاخرى عند منازعاتها ومجادلاتها مع ملوكها فى شان الحرية فالمظالم التى تشكت منها الجمعيات البلدية فى بلاد انكلترة حين تنازعت مع امرآء عيلة ستوار الملوكية والقوانين التى رتبتها تلك الجمعيات لابطال هذه المظالم هى اقرب شبها بالاصول والقوانين التى كانت العصبة المقدسة حينئذ تدقق فى طلب انشائها بمملكة اسبانيا الا ان اهل اسبانيا كانوا من ذلك الوقت يعرفون للحرية والاستقلالية قيمة غالية واهمية عالية وكان لهم فى السياسة مجال عظيم ودآئرة واسعة لم يصل اليها الانكليز الا بعدهم بقرن كامل

مطلب
سبب تكدر طائفة الاشراف

ومع ذلك فالظاهر ان النسيج لما اشتهر بين اهل قسطيلة واشرب فى قلوبهم حبه ولم يمكن للدولة ان تمنعهم عن اتباعه تجاوز الحدود حتى حمل العصبة المقدسة على ان تطلب انشاء امور جديدة عادت عليها بالضرر والسوء حيث نفرت منها قلوب الطوآئف الاخرى وسبب ذلك هو ان الجمعيات البلدية مادامت لا تطلب الا ابطال المظالم الناشئة عن عدم اختبار الملك وقلة تجاربه لصغر سنه او عن طمع الوزرآء الاجنبيين وعدم حسن ادارتهم كان الاشراف لا يتصدون لها ولا يعارضونها بل كانوا يساعدونها فى مشروعاتها ومن لم يكن يساعدها منهم كان يغضى عما تفعله ولكن بمجرد ما اخذت تلك

سنة ١٥٢٢

الجمعيات فى خدش مزايا الاشراف غضبوا كل الغضب وعرفوا حق المعرفة ان اعمال العصبة المقدسة تجر الى ابطال شوكة الاشراف كما تجر الى تضييق مزايا الملك نعم وان كان الاشراف فى حنق عظيم من تولية الكردينال ادريان نائبا عن الملك فى المملكة الا ان هذا الحنق تناقص منذ اشرك الايمبراطور مع ادريان فى منصب النيابة الاميرين المشهورين المتقدمين وهما سرعسكر البر وسرعسكر البحر لاسيما ورأى الاشراف ان اتساع دائرة مزايا الملك لا يحط بقدرهم كدعوى الاهالى العريضة الزائدة عن الحد فعزموا على ان يعطوا للملك الامدادات التى كان يطلبها واخذوا فى جمع اتباعهم لتنفيذ هذا المقصد هذا وكانت العصبة فى جزع وقلق وهى فى انتظار جواب الملك عن مضمون التقرير الذى بعثته لتعرضه عليه مع رسل مخصوصين من طرفها فبمجرد ما اخذ الرسل التقرير سافروا بدون تراخ ولا مهلة الى بلاد المانيا الا انهم وهم فى اثناء سفرهم جاءتهم النصائح من عدة جهات انهم ان ظهروا فى الديوان الايمبراطورى ببلاد المانيا يخشى عليهم ان يكونوا عرضة للهلاك فامسكوا عن السفر وبعثوا يخبرون العصبة بذلك فلما وصل هذا الخبر الى العصبة اشتد غضبها حتى جاوزت حدود ما يوجبه الحزم والكياسة واصالة الرأى وحسن السياسة

مطلب
عدم تجاسر رسل العصبة على عرض التقرير الذى هم مبعوثون به الى الملك * فى ٢٠ من تشرين الاول

فلما سمعت انه يخشى على الرسل المبعوثين من طرفها الى الملك تعجبت كل العجب حيث لم يسبق فى العادة ان احدا من ملوك قسطيلة أبى ان يسمع شكوى رعاياه ورأت ان ذلك هو الظلم الذى لم يسمع بمثله ولا طاقة على تحمله وعلمت انه لا ينقذها من هذا الظلم الشنيع الا السلاح وهو الذى به يمكنها ان تبعد عن الملك سائر الغرباء الذين كانوا محدقين به حيث انهم لم يكتفوا بسلب اموال المملكة بل بعد أن اكلوا اموالها وافسدوا احوالها ارادوا ان يمنعوا اهلها عن الذهاب الى الملك ولا يمكنوهم من الوصول اليه حتى يبثوا اليه شكواهم ويبينوا له الجهة التى يحصل لهم منها الضرر ومن وقتئذ اختلفت آراء ارباب العصبة فمنهم من شدد فى العمل بموجب رأى كان قيل به قبل ذلك وهو ان شرلكان

مادامت امه فى قيد الحياة لايثبت له لقب الملوكية على قسطيلة ولايجرى سنة ١٥٢٢م
له امر عليها وان اقراره على هذين الامرين لم يكن مبنيا الا على ظن ان الملكه
حانة امه لااقتدار لها اصلا على القيام بادارة المملكه ومنهم من راى انها تزوج
بامير كبيرة وارث ملوك نابلى الذين هم من عائلة اراغون الملوكية
ليعينها فى الادارة وكان الملك فرديننند قد افتات على اجداد هذا الامير وتغلب
على ملكهم ووضع هذا الامير فى السجن فلم يزل مسجونا حتى حصلت تلك الفتن
ورآى الجميع انهم قد اخطأوا فى كونهم املوا ان الملك سينصفهم ويثبت لهم
حريتهم وفى كونهم اقتصروا على عرض تقرير يتضمن شكواهم وانحط رأيهم
على انه يجب الخروج عن الطاعة وان يجمعوا سائر قواهم ليحاربوا كلا من
حزب الملك والاشراف ولا يفرطوا فى حريتهم
وبرز من الاهالى فى ميدان الحرب عشرون الف رجل الا انه حصل بينهم مطلب
منازعة كبيرة فى شأن من تكون له رياسة الجيش وكان الاهالى والعساكر مبارزة العصبة المقدسة
يحبون الامير باديلة فاتفقوا على انه هو الجدير بشرف هذا المنصب ولكن
كان هناك اميرآخر من ذوى الحسب والنسب وهو الامير پدروجيرون ابن
القونتة اورونة البكرى وكان هذا الامير قد غضب من الايمبراطور
شرلكان فانضم الى حزب الجمعيات البلدية فنزل له باديلة عن هذا
المنصب نظرا الى جلالة قدره وعراقته فى الحسب والنسب الملايمة للمنصب
المذكور لاسيما وكان هناك جماعة من ارباب العصبة يغارون من باديلة ٢٣ من شهر تشرين الثانى
لميل الاهالى اليه وملاطفته اياهم فلاجل اغاظته اقتضى رأيهم تولية
پدروجيرون فعما قليل حين حلت بهم المصائب وخسروا خسرانا كبيرا
عرفوا انه ليس اهلا لهذا المنصب حيث لم يكن جامعا لما يلزم له من التجاريب
والشجاعة والمعارف والبراعة
واما نواب المملكة فجعلوا مدينة ريوزيكو موعدا لاجتماع عساكرهم مطلب
وكان هؤلاء العساكر دون عساكر الجمعيات البلدية عددا الا انهم كانوا تسلح النواب والاشراف
يفوقونهم فى الشجاعة والمهارة والفنون الحربية وذلك ان النواب اخذوا

سنة ١٥٢٢

من مملكة نوار العساكر المشاة القديمة فجمعوا منها وجاقا عظيما وكان اعظم قواهم الخيالة حيث كان فرسانهم مؤلفين من الاشراف والبيكزادات المتعودين على الحرب العارفين باصوله وفروعه وكانوا بمكان من الشجاعة بمعنى انهم كانوا حائزين لتلك الصفة التى امتاز بها وجاق الاشراف فى ذلك العصر واما مشاة العصبة المقدسة فكانت كناية عن اخلاط من الاهالى والصنائعية لا معرفة لهم باستعمال السلاح ولا يحسنون الضرب وكانت خيالتها قليلة ومتجمعة من اخلاط من رعاع الناس لا المام لهم باصول الخيالة ولم يسبق لهم ركوب الخيل وكما كان هنالك بون بعيد بين عساكر الجيشين كان هنالك ايضا فرق كبير فى الادارة والمعارف بين سر عسكر حزب الملك وسر عسكر حزب الاهالى لان جيش الملك كان رئيسه القونتة هارو ابن الامير انيعردو يلاسكو البكرى سر عسكر الجيوش البرية القسطيلية وكان هذا القونتة لكثرة تجاربه ومزيد اختباره له اقتدار عظيم ورأى سديد قويم بحل كل مشكل ويفض كل معضل

وتوجه الامير جيرون بجيشه الى مدينة ريوزيكو وتغلب على ما حواليها من القرى والطرق ظنا منه ان احزاب الملك بعد سد تلك الطرق عليهم يضطرون عاجلا الى التسليم لعدم الزاد وانهم ان قاتلوا يهزمون ويلحقهم الضرر والخسران لانهم لم يجمعوا امر عساكرهم ولكن كان يلزم لهذا الامير أن يكون عنده من المعارف اكثر مما كان عليه كما ان عساكره كان يلزم لهم من التجلد والضبط والربط اكثر مما كانوا عليه حتى يثبت لهم النجاح فى هذا التدبير واما القونتة هارو فانه ادخل فى المدينة بدون كبير مشقة امدادا عظيما من بسائر قراقولات الامير جيرون فلما يئس جيرون المذكور من التغلب على تلك المدينة توجه سريعا الى ويلاپندة وهى مدينة تنسب الى سر عسكر الجيوش البرية المتقدم وكانت اعظم المخازن المودعة بها ذخائر العدو وكان هذا الامر المبنى على عدم الحزم وقلة السياسة سببا فى فتح طريق لاحزاب الملك الى مدينة توردزيلاس حيث وصل بهم اليها القونتة

مطلب
عدم حزم سر عسكر العصبة وهزيمته

هارو

سنة ١٥٢٢
٥ من شهر كانون الاول

هارو ليلا مع غاية السرعة من غير أن يشعر بهم احد وهجم على المدينة المذكورة وكان جيرون لم يترك من المحافظين غير الالاى من القسوس جمعه الاسقف زامورا ودخلها بالقهر والغلبة وقت الفجر بعد أن قاومه محافظوها مع التجلد والثبات وقبض على الملكة واسر عدة من ارباب العصبة واسترجع خاتم الدولة الكبير وغيره من العلامات الملوكية

فكان خطر هذا الامر شديدا على العصبة حيث ترتب عليه ضياع ما كان لهم من الصولة والشهرة باظهارها انها لا تعمل الا باوامر الملكة وانضم الاشراف الى حزب الملك واتوا اليه بجميع اتباعهم وعساكرهم وكانوا الى ذالك الوقت لم يميلوا الى احد من الفريقين فتسلطن الاسف والحزن على جميع من كان من احزاب الجمعيات البلدية وازداد غيظهم باساءة ظنهم فى رئيسهم جيرون حيث اتهموه بانه هو الذى سلم للاعداء فى مدينة تورديزيلاس والظاهر انه برىء من ذلك لان نجاح احزاب الملك انما كان من سوء ادارته لا من خيانته ولكنه لم يبق على ما كان له من الصولة ونفوذ الكلمة فى قومه فرأى انه مضطر الى النزول عن رياسة العساكر والعزلة عن الناس فى قصر من قصوره ففعل ذلك

مطلب
تصميم العصبة على رايها الاول

ثم ان من نجا من ارباب العصبة فى مدينة تورديزيلاس فر الى مدينة ولادوليدة ومكثت العصبة زمنا طويلا تبحث عن اناس تقيمهم مقام من اسر منهم فانتخبوا جماعة من بينهم قلدوهم بالادارة العليا وكان جيشهم يزداد كل يوم بمن كان يأتيهم من العساكر من سائر اقطار المملكة فلما عظم هذا الجيش توجه الى مدينة والادوليدة وكانوا قد جعلوا الامير باديلة سرعسكرهم وعادت للعسكر قوتهم وشهامتهم ونسى حزب الجمعيات البلدية جميع ما حل بهم من المصائب والشدائد واستمروا على قوتهم الاصلية فى المدافعة عن حرية الوطن واظهروا البغضاء للذين كانوا يظلمونهم وينتهكون حرمة حقوقهم

سنة ١٥٢٢

مطلب
مافعلته العصبة لاجل تحصيل الدراهم

واعظم ما كان يوجب الحيرة لتلك العصبة هو طريق تحصيل الدراهم اللازمة لصرف ماهيات العساكر لان الفلمنكيين كانوا قد نقلوا الى خارج المملكة مبلغا جسيما من النقود المتعامل بها وما كان يؤخذ فى زمن الصلح من المغارم كان قليلا جدا وكانت محصولاتهم تتناقص يوما فيوما لان الحرب عطل تجارتهم على اختلاف فروعها وكانوا يخشون ضجر الاهالى ونفرتهم اذا هم ضربوا عليهم مغارم جديدة لم يكونوا متعودين عليها فى هذا الوقت الا انه كان للامير باديلة زوجة من الاشراف يقال لها الاميرة مارية باشيكو وكانت ذات معارف وكان امرها غريبا فى الطمع والشره الا انها كانت تميل كل الميل الى حزب العصبة فبذلت جهدها حتى اخرجته من تلك الورطة على احسن حال وذلك انها كانت ذات جسارة كبيرة وكانت سالمة مما انطبع عليه النساء من الاوهام الباطلة والبدع العاطلة فصممت على اخذ النفائس التى كانت بكنيسة مدينة طليطلة لاجل الزخرفة والزينة من ذهب وفضة وغير ذلك الا انها رأت ان ذلك ربما نفر نفوس الاهالى واوجب سخطهم وغضبهم لانه بظاهره من المآثم الكبيرة وربما اغضب الناس كافة فسلكت فى ذلك مسلك المداهنة والخداع لتسلم من غضب الاهالى اولومهم وذلك انها ذهبت مع خدمها وحشمها فى محفل عظيم الى الكنيسة وهى تبكى وتضرب صدرها هى وسائر اتباعها حتى وصلوا الى الكنيسة وهم على هذه الحالة وعليهم ثياب الحزن فلما دخلوا الكنيسة خروا ساجدين وطلبوا العفو والغفران من القديسين الذين بهذه الكنيسة فنجحت بتلك الحيلة الاميرة من غضب الناس ولم يحكموا عليها بالكفر فى نظير هذه الفعلة بل رأوا انها انما فعلت ذلك للضرورة وللضرورة احكام وايقنوا ان محبتها للوطن هى التى الجأتها الى ارتكاب هذا الامر الغريب ومما قوى ذلك عندهم ما اظهرته من الحزن والغم وهى ذاهبة الى الكنيسة فبهذه الواسطة حصلت العصبة مبالغ جسيمة اعانتها اتم الاعانة وكان ايضا نواب الملك فى حيرة عظيمة فى شأن تحصيل الدراهم اللازمة لماهيات عساكر الحزب الملوكى ومصاريفهم لان ايرادات الملك كان قد اخذ بعضها

سنة ١٥٢٢

الفلمنكيون والبعض الآخر تهيته الجمعيات البلدية فاضطروا الى اخذ حلى المملكة وما كان عند الاشراف من آنية الفضة وغيرها ليضربوها نقودا فلما نفدت اقترضوا من ملك البرتوغال مبلغا آخر وتصرفوا فيه

مطلب
ضياع الزمن من العصبة لاشتغالها بالمداولة مع الاشراف

وكان يترآى من الاشراف انهم لا يريدون ان يقع الحرب بينهم وبين العصبة فانهم كانوا يوافقون الجمعيات البلدية على كراهة الفلمنكيين فكانوا يقرّون امورا كثيرة مما ذكرته تلك الجمعيات فى تقريرها وكانوا يرون ان مقتضيات الاحوال اذ ذاك تعينهم اتم الاعانة على ابطال ما كان فى المملكة من قديم الزمان من المظالم بل وتعينهم ايضا على انشاء قوانين جديدة يترتب عليها اصلاح حال الدولة وانتظام امورها وانما كانوا يخشون ان يحصل بينهم وبين الجمعيات البلدية حرب لان خرقة الاشراف وخرقة تلك الجمعيات كانتا منوطتين بالتشريع ووضع القوانين فان وقع بينهما حرب واضعف بعضهما قوى بعض اتخذ الملك ذلك فرصة فى خفضهما واضعاف شوكتهما وبذلك تقوى الشوكة الملوكية عليهما وتبطل استقلال الاشراف وتفتات على مزايا الجمعيات البلدية ولما كان الاشراف لهذه الاسباب يرغبون فى ان يكونوا مع العصبة على قلب رجل واحد كان النوّاب يبحثون آناء الليل واطراف النهار عن عقد الصلح بينهم وبين تلك العصبة ومكثوا اسدة الحرب وهم لا يودون الا الصلح ويتمنون حصول حادثة تساعدهم عليه ومما يدل على ذلك ان الشروط التى طلبوها من العصبة كانت مقبولة ولو تساهلت تلك العصبة فيما كان يفضى بالشوكة الملوكية الى الضعف والاضمحلال او ينابذ حقوق الاشراف من المواد التى ذكرتها فى التقرير لوعد النوّاب بحمل الايمبراطور على قبول ما عدا ذلك من المواد الاخرى ولو فرض انه يأبى ذلك لالحاح بعض وزرائه عليه فى عدم قبولها لالتزم عدة من الاشراف باعانة العصبة على الزام الايمبراطور بقبولها

ولكن لما كانت العصبة لا تخلو من الفشل والشقاق لم يتذاكر اربابها مع بعضهم حتى يجمعوا امرهم على شئ مقبول يكون ناشئا عن الحزم وسداد الرأى وذلك ان اغلب المدن التى دخلت فى هذه العصبة كانت تغار من بعضها

كل الغيرة ولا تثق ببعضها لما انها كان لها مآرب دنيئة ناشئة عن الطمع سنة ١٥٢٢
والشره فلذا امكن لسرعسكر السبرية بنفوذ كلمته ومواعيده ان يفصل اهل مدينة بورغوس عن حزب العصبة كما امكن لبعض بيكزادات من الاشراف ان يفصلوا عن تلك العصبة مدنا اخرى صغيرة هذا ولم يكن فى الجمعيات البلدية من له من شرف النفس والمعارف ما يكفى فى ادارة مصالح حزب العصبة على ما ينبغى نعم وان كان الامير پاديلة سرعسكرها جامعا للصفات الحميدة التى تحبب فيه الاهالى وتستميلهم اليه الا ان ذلك نفسه كان سببا فى عدم امانته عند بعض الاعيان الذين انضموا الى حزب العصبة فكانوا منه دائما على حذر وكان هناك امر آخر وهو ان الاهالى لما رأوا ما حصل من الامير جيرون من الزلل وسوء الادارة صاروا لا يأتمنون احدا من الاشراف الذين كانوا قد انضموا اليه فبناء على ذلك لم تكن افعال العصبة كلها سوى اقدام واحجام وضياع فرص نفيسة بالتردد وتكرار الاستفهام وكان اربابها لا يثقون ببعضهم وكان منشأ ذلك هو انه لم يكن فيهم من يقوم بتدبير هذا الامر فبعد مذاكرات عديدة فى شأن الشروط التى كان يطلبها النواب اى رؤساء حزب الملك طمس على قلوب الجمعيات البلدية فعميت بصائرهم عن الحق وضلت عن الهدى لما كان فى قلوبهم من الحقد والبغضة للاشراف فقطعوا علائق الصلح وفسخوا وثائق النصح وابوا الا العناد والمعاداة مع الاشراف ولم يكفهم ذلك بل هددوهم بسلب الاراضى والعقارات الملوكية قائلين انهم اختلسوها هم واسلافهم فيلزم ضمها ثانيا الى الجفالك الملوكية ودققوا غاية التدقيق فى هذا الامر مع انه فى الواقع يترتب عليه اعدام الحرية التى كان الغرض من سعيهم وبذل جهدهم انما هو محاماتها والذب عنها ووجه ترتب ذلك عليه هو انه لو حصل لاستقل ملوك قسطيلة بانفسهم وصاروا مطلق التصرف فى الرعايا فكان تشكى العصبة من ظلم الوزراء الاجانب واختلاسهم دون تشكيها من سعة اموال الاشراف وازدياد شوكتهم فكأنها كانت ترى انه لا يقع بينها وبين الايمبراطور صلح صحيح الا اذا اعطته ما بايدى الاشراف من الاراضى والالتزامات

ثم

سنة ١٥٢٢

مطلب
غرور العصبة بسبب نجاحها في بعض وقائع هينة

ثم ان العصبة لما رأت ان سر عسكرها الامير پاديلة قد نجح في بعض وقائع
هينة واستولى على بعض مدن صغيرة اغترت بذلك وسلكت مسلكها المتقدم
معتمدة على شجاعة عساكرها فكانت متيقنة انه لا يعسر عليها
الظفر بحزب الملك فبينما كان الجيش فرحا بهذا النجاح اذ حاصر الامير پاديلة
مدينة طورلوباتون حرصا على عدم ضياع هذه الفرصة النفيسة من
انشراح صدور العساكر للقتال وكانت هذه المدينة اعظم المدائن التي اغار عليها
الى ذلك الوقت واكثرها حصونا وكان بها من المحافظين عدد كاف ومع ذلك
فتحها الامير المذكور عنوة وسلب اموالها بعد أن قاومه اهلها مقاومة عجيبة
وساعدهم سر عسكر البحرية وهو من نواب الملك ولو سار الامير پاديلة
بجيشه بعد هذه النصرة الى مدينة توردزيلاس التي هي معسكر احزاب
الملك لظفر بهم لدهشتهم من جيئته وكثرة نجاحه لاسيما ولم يكن عندهم اذ ذاك
من العساكر من يكفي للمصادمة والقتال لكن منع من هذا الامر العظيم تردد
العصبة وعدم سداد رأيها ولما لم يمكنها فيما بعد أن تستمر على الحرب اوتعقد
الصلح عرض عليها النواب شروطا جديدة لعقد الصلح فرضيت بهدنة قليلة
المدة وكانت قبل ذلك تأبى الاما شرعت فيه وبينما هي تضيع الزمن في مذاكرات
لاجدوى لها اذ خرج من جيش پاديلة جم غفير من العساكر وفروا
بما اغتنموه من مدينة طورلوباتون لانهم لم يكونوا متعودين على قوانين
الضبط والربط والتربية العسكرية وتعب بعضهم من طول مدة الحرب فهرب
ووجد سر عسكر البرية فسحة يجمع فيها عسكره ويتأهب للقتال فجمع
العسكر بمدينة برغوس وبمجرد انقضاء الهدنة انضم بعسكره الى عساكر
القونتة هارو وان كان پاديلة بذل مجهوده في منع اجتماع هذين الفريقين
وبادر كل من الجنرالين بالتوجه الى مدينة طورلوباتون فلم يجسر پاديلة
على القتال لضعف جيشه بهروب العساكر المتقدمة فقصد مدينة طورو
ليلتجئ بها ولو امكنه ذلك لسلم مما كان يخشاه من الاخطار لان الفرنساوية كانوا
اذ ذاك مشتغلين بالاغارة على مملكة نوار وكان يلزم النواب أن يرسلوا سرية

غرة شهر ادار سنة ١٥٢١

مطلب
عدم سداد رأى العصبة

سنة ١٥٢٢
٢٣ من شهر نيسان
مطلب
هجوم الاشراف على جيش العصبة

من العساكر الى تلك المملكة فبذلك يختل نظامهم ولكن كان القونتة هارو يعلم ان فراره يضر بهم ضررا شديدا فبادر بالمسير مع خيالته وادركه قريبا من مدينة ويلالار وحمل عليه من غير ان ينتظر مجيء عساكره المشاة وكان جيش بادية حينئذ قد فقد همته واعتراه التعب والنصب من شدة جريه وسرعة سيره لاجل الالتجاء حتى كأن ذلك فرار وهروب وقد لحقه القونتة هارو بالخيالة فى مرج مزروع وكانت الارض اذ ذاك وحلا لانه كان نزل بها مطر غزير فصارت عساكر بادية كلما سارت تغوص فى الوحل الى ركبها وبذلك صاروا عرضة لنار بعض مدافع كانت مع الخيالة فبهذه المقتضيات فترت همة عساكره لاسيما وكانوا غير متعودين على الحرب فلم يتجاسروا على مصادمة عدوهم ولا مقاومته ادنى مقاومة بل ركنوا الى الفرار وهم على غاية من الاختلال وابدى بادية من الشجاعة والعزم ما تقصر عنه العبارة طمعا فى جمع شملهم والتئامهم فلم يجد ذلك نفعا لان الفزع تمكن منهم بحيث صاروا لا يسمعون له قولا ولا يلتفتون الى نصحه وترغيبه ولا يعبأون بتهديده وترهيبه فلما لم يجد لذلك ثمرة رأى ان الموت خير له من الحياة بعد هذه الواقعة المشؤمة وبعد تدمير حزبه فانقض بنفسه على الاعدآء وجال بين صفوفهم فجرح وسقط من فوق جواده واخذ اسيرا واسر معه اكابر ضباطه واما العساكر فانهم بمجرد ما القوا سلاحهم عفا عنهم الاشراف حلما منهم وكرما وخلوا سبيلهم من غير أن يسيؤهم ادنى اساءة

مطلب
هزم الاشراف لجيش العصبة
مطلب
قتل بادية

ولما كان اعدآء الامير بادية يبغضونه بغضا شديدا لم يمهلوه اصلا بل حكموا عليه فى ثانى يوم بضرب عنقه ولم يقيموا له دعوى التحقيق على حسب الرسوم الجارية بل رأوا ان شهرة اسمه بما فعل وقيامه على رؤس الاشهاد يكفى فى عدم اقامة الدعوى وارسل الى نطع الدم هو واثنان آخران وهما الامير حنا براوو والامير فرنسيس ملدوناده وكان احدهما رئيس عساكر سيغوبية والآخر رئيس عساكر سلمنكة ولم يفزع بادية عند القتل بل اظهر غاية التجلد والاطمئنان حتى ان الامير حنا براوو الذى قتل معه لما

صار

سنة ١٥٢٢ صار يسخط حين سمع الناس يقولون عليه انه خائن فقال له الامير بادية كان ينبغى لك البارحة ان تظهر شجاعة البيكزادات والامراء واما الآن فينبغى ان تصبر على قضاء الله ولا تفزع مما حل بك حتى تموت نصرانيا متمسكا بدينك وقد امهل الامير بادية حتى كتب كتابا لزوجته وكتابا آخر لجمعية مدينة طليطلة التى هى اصل غرسه ومسقط رأسه وكان الكتاب الاول يدل على شفقته ومحبته لزوجته وعلى ثبات جنانه وعلو همته وذكر فى الكتاب الآخر ما يدل على فرحه بموته شهيدا فى خدمة وطنه وبعد أن كتب هذين الكتابين امتثل لقضاء الله ومد عنقه للجلاد هذا وقد لام عليه فى سلوكه على الوجه المتقدم اغلب مؤرخى اسبانيا المتأخرين لان الحكومة والشوكة الملوكية فى عصرهم كانتا على خلاف ما كانتا عليه فى عصر بادية فلم ينصفوه ولم يشكروه على ما كان له من الفضائل فى هذا المعنى ولا شك ان ذلك منهم اما تساهل او خوف فوصفوه بما يدنس سيرته وحاولوا أن يفهموا الناس انه غير جدير بان يرثى لحاله مع ان ذلك الامر قل أن يحلت به نفس كريمة على انسان جليل القدر وقع فى مثل تلك المصيبة

مطلب انحلال حزب العصبة

وقد تمت واقعة ويلالار بالنصرة والظفر لاحزاب الملك وفتحت لهم ايضا ابواب مدينة ولادوليدة وكانت اعظم المدائن المتعاهدة قوة واكثرها عزما فعاملها النواب بالرفق واللين واكرموا اهلها حتى ان مدينة دلكمبو ومدينة سيغوبية وعدة مدائن اخرى تأست بتلك المدينة وسلمت الى النواب فعند ذلك وقع الفشل والشقاق بين ارباب العصبة وانحل نظامها وهذا اقوى دليل على عدم حزم رؤسائها وربما استدل بذلك على انه كان هنالك امور خفية اوجبت هذا الشقاق بينهم حيث اختل نظامهم فى اقرب مدة مع ان عصبتهم لم تكن مبنية على اسباب هينة بل كانت اسبابها قوية اكيدة حتى دخل فيها جميع الاهالى ومكثت مدة حتى ثبتت وتمكنت وجددت طريقا منتظما فى ادارة الحكومة ومما يؤيد ذلك انه حصل بعد ذلك بايام قليلة ان سرية عظيمة من عساكر الملك الذين انتصروا على عساكر العصبة ارسلت الى

سنة ١٥٢٢

مملكة نوار لمنع جيش الفرنساوية الذى كان حينئذ يشن الغارة عليها ومع ذلك فلم يقو عزم جمعيات مملكة قسطيلة ولم تفرح بهذه الفرصة النفيسة وتبادر الى نيل المزايا والحقوق التى كانت اولا تبذل غاية الهمة فى طلبها

مطلب
مدافعة زوجة باديلة عن مدينة طليطلة مع القوة والثبات

هذا وينبغى ان نستثنى من تلك المدائن مدينة طليطلة فانها لم تزل باقية على قصدها بسبب تحريض الاميرة مارية باشيكو زوجة باديلة والحاحها لان تلك الاميرة لم تستول عليها الاحزان بعد موت زوجها ولم تشتغل بالبكاء والنحيب حيث تعلم انه لا جدوى لذلك بل تأهبت للاخذ بثار زوجها من اعدآئه حتى تتم الغرض الذى قتل من اجله وكان الاهالى يحترمونها اما لان النساء ضعيفات بالطبع اولانها كانت ذات شجاعة عظيمة وقلب ثابت ومعارف وعوارف فكانت القلوب تميل اليها وترثى لحالها فى مصابها بفقد زوجها الاسيما وكان موته فى خدمة وطنه فكان متى ذكر اسمه قرن بالاحترام والتبجيل فصار لتلك المرأة بين الاهالى الصولة والشوكة التى كان يتمتع بها زوجها مدة حياته وقد اظهرت هى ايضا فى سلوكها وافعالها من الحزم والعزم ما جعلها اهلا لاحترام الناس لها ووثوقهم بها وذلك انها كتبت لسر عسكر الفرنساوية الذى كان بمملكة نوار ان يشن الغارة على مملكة قسطيلة ووعدته بالاعانة وكتبت ايضا لمدآئن قسطيلة تحرضها على القتال وتعيد لها همتها بعد الفتور وجمعت عساكر جديدة وطلبت من القسوس مبلغا جسيما من الاموال لتصرفه على العساكر وامرت ان يحمل العساكر تمثال المسيح على هيئته مصلوبا بدلا عن البيارق والاعلام حتى كانها تقاتل اعدآء دين النصرانية (لان صورة عيسى عليه السلام مصلوبا انما تحمل عوضا عن البيارق امام عساكر النصارى فى قتال ملة اجنبية عدوة لدين النصرانية) وكانت تطوف ازقة طليطلة ومعها ابنها صغيرا راكب على بغلة وعليه ثياب الحزن وامامه راية مرسوم عليها صورة قتل ابيه باديلة فمثل هذه الحيل والمخادعات التى دبرتها امكنها ان تهيج تلك المدينة على القيام

وتقوى

وتقوى همتهم فعميت بصائرهم عن ادراك الخطر الذى يكونون عرضة له ان تصدّوا وحدهم لمعارضة الشوكة الملوكية وبناء على ذلك مكثوا مدة على القيام والخروج عن الطاعة حتى انه فى مدة ما كان جيش الملك مشتغلا بالقتال فى مملكة نوار لم يمكن للنواب أن يدخلوا المدينة المذكورة تحت الطاعة وانما اقتصروا على بذل جهدهم فى اضعاف شوكة الاميرة مارية وصولتها بين الاهالى وفى البحث عن استعطافها واستمالتها بمواعيد مزخرفة وبعثوا اليها اخاها المترم موندوجار ليستعطفها كى ترجع عما هى عليه فلم يجد ذلك نفعا فرجعت طائفة من جيش الملك بعد أن خرج الفرنساوية مطرودين من مملكة نوار الى قسطيلة وحاصروا مدينة طليطلة ولكن لم يؤثر ذلك فى الاميرة مارية ولم تفتر به همتها بل دافعت عن المدينة مع شجاعة غريبة وجسارة عجيبة وهزم عساكرها حزب الملك غير مرة ولم تزل بهذه المثابة حتى قام عليها القسوس حين بلغهم موت غليوم دوكرواه وكان اذ ذاك مطران طليطلة ولا يخفى أن القسوس كانوا فى حنق شديد من تلك الاميرة لانها سلبت اموالهم كما ان شكواهم من الامبراطور شرلكان كان سببها انه اعطى منصب المطرانية المتقدمة لقسيس اجنبى لا يعزى لهم ولا لبلادهم فلما مات غليوم دوكرواه وجعل الامبراطور شرلكان فى هذا المنصب قسيسا من اهالى قسطيلة زال المسبب بازالة سببه وسكن غيظ القسوس وغضبهم على الامبراطور حتى انهم ادخلوا فى عقول اهالى طليطلة ان الاميرة مارية لولا سحرها وشعبنياتها لما اخذت بعقول الناس وصار لها كلمة نافذة بينهم وزعموا ان لها صاحبا من الشياطين يأتيها دائما على صورة جارية فهى لا تفعل شيأ الا عن لسان هذا الشيطان فصدقهم اهل المدينة فى ذلك وكانوا قد سئموا من طول المحاصرة ويئسوا كل اليأس من أن يعينهم اهل المدائن الاخرى التى كانت اولا متعاهدة معهم فرأوا انه لابد لهم من الصلح وابطال الحرب لانه يفضى بمدينتهم الى الخراب والدمار فقاموا على تلك الاميرة وطردوها من المدينة ودخلوا تحت طاعة حزب الملك فانتقلت الاميرة

سنة ١٥٢٢

سنة ١٥٢٢
٢٦ من شهر تشرين الاول

الى القلعة ومكثت اربعة اشهر كوامل وهى تدافع عنها مع عزم قوى وشجاعة عجيبة فلما اعجزتها الضرورة ولم يبق لها حيلة ولا وسيلة تحيلت وخرجت متنكرة قاصدة مملكة البرتوغال لتلحق باهلها هنالك

مطلب
النتائج المضرة التى نشأت عن هذا الحرب المدنى

فبمجرد هروبها بادرت القلعة بالتسليم وانتشرت اعلام الصلح والاطمئنان فى مملكة قسطيلة ولم ينشأ عن هذا المشروع الخطر الذى همت به الجمعيات البلدية الا ما ينشأ عادة عما هو من هذا القبيل فى المشروعات التى لا تنجح حيث لم يترتب عليه الا اتساع دائرة الشوكة الملوكية وتقويتها على التدريج مع انه لم يكن الغرض منه الا تضييقها واضعافها ولم تزل مشورة القرطس معدودة من ارباب الحل والعقد فى التشريع ووضع القوانين بمملكة قسطيلة وصارت تنعقد كلما احتاج الملك الى جمع اموال من الاهالى ولكنها لم تبق على ما كانت عليه اولا من سلوك طريق الحزم والاحتراس وانصاف الملة فيما تشتكى منه قبل اجابة الملك فيما يطلبه من الاموال بل ركنت الى الملك واخذت فى مراعاته وموالاته حيث بدأت باعطائه ما كان يطلبه من الامداد فلما حظى منها باغراضه وفاز بما اربه لم يأذن لها ان تبحث عما يكون فى الحكومة من المظالم لتبطلها ولا تنتقض شيأ يعود نقضه بالضرر على الشوكة الملوكية وصارت المزايا التى كانت للمدن سابقا تتناقص شيأ فشيأ حتى ضاقت دائرتها وتلاشت بالكلية ومن يومئذ اخذت التجارة فى التناقص والاضمحلال ونقصت ثروة المدن وعدد اهلها عما كان اولا وفقدت ما كان لها فى مشورة القرطس من الشوكة ونفوذ الكلمة

مطلب
ازدياد العصيان فى مملكة بلنسية

وبينما كان الحرب الدخلى يخرب مملكة قسطيلة اذ حصل فى مملكة بلنسية فتن اشد من فتن قسطيلة مزقت تلك المملكة كل ممزق وذلك ان العصبة التى انعقدت فى مدينة بلنسية (سنة ١٥٢٠) وكانت تسمى معاهدة جرمانادة اى معاهدة الاخوان استمرت على حالها بعد أن سافر الايمبراطور شرلكان من اسبانيا وكانت تتعلل بانها تدافع عن السواحل ارباب الصيال الذين كانوا يأتون من بلاد الغرب فاخطأ الايمبراطور

في اذنه لهم بذلك حيث انها من وقتئذ تقوّت وأبت أن تلقي السلاح ولكن كان الغرض الاصلي لاهل بلنسية من عصيانهم وتشكيهم فيما يخص منع الملك من الافتيات على حقوقهم ومزاياهم دون ما كانوا مصممين عليه من قمع الاشراف ومنع مظالمهم ولذلك كان بغضهم في هذه الفتنة للاشراف وقيامهم عليهم اشدّ مما في قلوبهم من الحقد على الملك فبمجرّد ما صدر لهم الاذن بان يبقوا على حمل السلاح للتعلل السابق وهو حماية السواحل صاروا يتقوّون حتى عرفوا من انفسهم ان لهم شوكة قوية فلم يتفكروا الا في الانتقام ممن كان يظلمهم فطردوا الاشراف من اغلب المدآئن ونهبوا ديارهم وخرّبوا اراضيهم واغاروا على قصورهم ثم انتخبوا ثلاثة عشر رجلا من الجمعيات التجارية التي كانت بمدينة بلنسية وكانت عدتها ثلاث عشرة فاخذوا من كل جمعية رجلا وفوّضوا اليهم امر ادارة الحكومة قاصدين بذلك نسخ القوانين القديمة او تحسينها وترتيب طريقة مستحسنة في اجرآء الاحكام والقوانين على جميع الناس بالسوية من غير اغراض ولا مراعاة مقام بحيث لا يفرق بين خطير وحقير فبذلك يقرب الناس من التسوية التي كانوا عليها من اصل الفطرة

سنة ١٥٢٢

فبذلك اضطرّ الاشراف الى حمل السلاح ليدافعوا عن انفسهم ووقع الحرب بين الفريقين وبلغ من الشدّة ما ينشأ عادة عن بغض الامة وحقدها لمن يظلمها وعن غضب الاشراف اذا انتهك الاهالي حرمتهم وارادوا اذلالهم وخفضهم وحيث انه لم يدخل في معاهدة جرمانادة احد من الاعيان ذوي الحسب والنسب ولا ممن تربى تربية حسنة كان رؤساء مشاورها من جهلة الصنائعية الذين لا معارف لهم ولا شك ان مثل هؤلاء الرؤساء لا يمكنهم ان يستميلوا قلوب الامة التي كانت اذ ذاك في حمية شديدة كالجنون الا بموافقتهم لها واظهارهم القسوة والبغضاء في حق اعدآئها لان مثل هؤلاء الناس لا يعرفون القوانين المرتبة عند الملل المتمدنة لتخفيف الغضب الذي يعتريها اذا حصل الحرب بينها وبين عدوّها ولو فرض ان تلك القوانين كانت معروفة

سنة ١٥٢٢

لهم لما عملوا بمقتضاها ولا التفتوا اليها ولذلك لم يكن هنالك امر قبيح يزرى بالمروءة ويخل بالانسانية الا ارتكبه اهالى بلنسية فى ذلك الحرب

وكان الامبراطور وقتئذ مشغولا بتسكين فتنة قسطيلة التى كان يخشى منها على ضياع شوكته ومزاياه فلم يمكنه أن يلتفت كل الالتفات الى فتن مملكة بلنسية بل ترك الاشراف بتلك المملكة يدافعون عن انفسهم على قدر طاقتهم وكان القونتة مونليطو نائب الملك هو قائد العساكر التى جمعها الاشراف من اتباعهم فكلفت معاهدة جرمانادة على الحرب سنتى ١٥٢٠ و ١٥٢١ مع قوة وثبات يخل عما كان يخطر بالبال من مثل هؤلاء الجنود الذين لامعرفة لهم بالعسكرية وكان رؤساؤهم مثلهم اى ليسوا اهل فضل ولا معرفة كما تقدم ومع ذلك هزمت معاهدة جرمانادة جنود الاشراف فى عدة وقائع شديدة وان لم يكن لها كبير جدوى حتى صدتهم عن المدآئن التى ارادوا شن الغارة عليها غير ان الاشراف لمعرفتهم بالفنون العسكرية وتعوّد عساكرهم على الحروب ومشاقها كانت لهم النصرة فى اغلب الوقائع ولم تزل عصبة الاشراف على تلك الحالة حتى انتصر النوّاب فى قسطيلة بمدينة وبلالار على الامير باديلة وارسلوا الى بلنسية فرقة من العساكر الخيالة لاعانتهم فبمجرد وصول هذا المدد اليهم فاقوا على اعدآئهم حتى انهم بعد مدة قليلة شتتوا عساكر المعاهدة وابادوها بالكلية وقتل رؤساؤها من غير حكم ولا اقامة دعوى بعد ان أذيقوا من العذاب والاهانة ما يقترحه العدو لعدوه وبعد ذلك رجعت حكومة مملكة بلنسية الى ما كانت عليه اوّلا

مطلب
علامات الفتن فى مملكة اراغونيا

وشوهد ايضا فى مملكة اراغونيا علامات الغم والفتن التى كانت فى غيرها من ممالك اسبانيا الا ان الوزير حنا الانوزة الذى كان وقتئذ نائب الملك فيها عرف بحزمه وسداد رأيه ان يطفئ نيران الفتنة قبل اشتعالها ولكن لم يحصل مثل ذلك فى جزيرة مايورقة لان الاسباب التى ترتبت عليها

مطلب
الفتنة الكبيرة التى حصلت فى جزيرة مايورقة فى ١٩ من شهر ادارس سنة ١٥٢١

الفتن

سنة ١٥٢٢

الفتن في مملكة بلنسية كانت بعينها في تلك الجزيرة ونشأ عنها فتنة كبيرة وذلك ان اهاليها كانت قد سئمت نفوسهم من ظلم الاشراف وعيل صبرهم من جورهم فهموا بالعصيان وعزلوا نائب الملك وطردوه من الجزيرة وذبحوا كل من وقع في ايديهم من الاشراف واستمروا على العصيان والخروج وكان طغيانهم فوق كل حد ونهاية فلزم مكابدة المشاق الفادحة لادخالهم تحت الطاعة وبالجملة فلم يمكن قمعهم الا بعد أن سكنت الفتن في سائر ممالك اسبانيا وانتشرت رايات الصلح والاطمئنان في سائر اقطارها

مطلب
الاسباب التي منعت من اتفاق اهالي اسبانيا

واذا تأمل الانسان ما كان واقعا في ممالك اسبانيا من الفتن العامة ونظر الى الاسباب التي دعت اهلها الى الخروج والعصيان وعلم ان مقصدهم من ذلك انما هو ازالة المظالم من بلادهم تعجب من كون اهالي هذه الممالك في تلك الفتن لم يحزموا رأيهم في سلوكهم ولم يجمعوا امرهم حتى تتفق كلمتهم ويكونوا على قلب رجل واحد لانهم لو جمعوا جيوشهم مع بعضها واتفقوا على امر واحد لتم لهم الظفر ونجعوا اكثر من ذلك فانه لو كانت تلك العصبة مليية اى مركبة من سائر الملة لاحترمها الاهالي وخشي الملك بأسها وكان لا يمكن للايمبراطور شرلكان ان يقاوم جيوشهم اذا انضمت الى بعضها بل يضطر الى قبول الشروط التي كان يلزمه بها رئيس تلك العصبة ولكن كان هناك اسباب منعت من اتفاق اهل اسبانيا مع بعضهم وسلوكهم على منوال واحد وهي ان ممالك اسبانيا وان كانت تحت حكم ملك واحد كانت تغار من بعضها فلم يحصل اتفاق بين اهلها لاسيما وبغضاؤهم القديمة كانت لم تزل قائمة بنفوسهم وكانوا يحقدون على بعضهم حقدا عظيما بسبب الاساءة التي كانوا فعلوها سابقا مع بعضهم فكان ذلك داعيا لاختلافهم وعدم وثوقهم ببعضهم ورأى اهل كل مملكة ان مكابدتهم وحدهم لمشاق الحرب اولى لهم من ان يتضرعوا لاهل مملكة اخرى ليعينوهم وزيادة على ذلك كانت صورة الحكومة في كل مملكة من ممالك اسبانيا مباينة بالكلية للاخرى وكان اهل كل مملكة منها يطلبون امورا مختلفة فكان يعسر اتفاقهم واجتماعهم على امر واحد

سنة ١٥٢٢

فلولا هذا التفاقم لما حفظ الامبراطور شرلكان تيجان ممالك اسبانيا لانه لما كانت كل مملكة من تلك الممالك بمعزل عن غيرها في المقاصد والاغراض كانت عاقبة امرها أن اضطرّت كلها الى التسليم والدخول تحت الطاعة

مطلب
تجزم الامبراطور في سلوكه وحلمه على من عصاه من الرعايا

ولما حضر الامبراطور شرلكان الى اسبانيا استولى الخوف والرعب على قلوب رعاياه الذين كانوا عصوه وخرجوا عن طاعته لكنه ابدى من الحلم ما ادخل في قلوبهم الامن والاطمئنان وصرف عنهم الهموم والاحزان وذلك انه لم يقتل من اهل قسطيلة الاعشرين نفسا وان كان اغلبهم في تلك الفتنة الكبيرة قد ارتكب ما يستحق به القتل والدمار نعم ان ارباب ديوانه حثوه على ان يظهر من القسوة اكثر من ذلك الا انه ابى ان يسفك دماء رعاياه على ايدى الجلادين بل اعلن بانه عفا عما سلف وانه لا يلتفت الى ما حصل من اول الفتنة الى آخرها ولم يستثن من ذلك الا ثمانين نفسا عين اسماءهم بل ولم يكن مصمما على قتل هؤلاء الثمانين وانما كان قصده من بيان اسمائهم زجر غيرهم وقمعه ومما يؤيد ذلك ان بعض خاصته المعتبرين عرض عليه ان يعرفه محل شخص من اكابر هؤلاء الثمانين الذين اهدر دماءهم فاجابه الملك بجواب حسن لا يصدر الا عن ذوى الحلم والكرم حيث قال له انى لا اخشى من هذا الرجل في شئ واما هو فله اسباب بها يخشى بأسى وبطشى ويحذر ملاقاتى فكان الاحسن لك والاصوب ان تذهب اليه وتخبره بانى هنا الا أن تعرفنى المحل الذى هو فيه وزيادة على هذا الحلم الذى لا يصدر الا عن النفوس الشريفة حاذر مدة اقامته في قسطيلة أن يفعل ما يوجب غضب اهلها ونفورهم وتخلق باخلاقهم وتعلم لغتهم ووافقهم على آرائهم وعوايدهم حتى صار له في قلوبهم منزلة لم تكن للملك قبله ولو كان من الملة الاسبانيولية واعانوه كل الاعانة في جميع مشروعاته وكان صدقهم معه اعظم معين له على تحصيل ما ربه وعلو شانه

٢٨ من شهر تشرين الاول

مطلب
سفر ادريان الى مدينة رومة وعدم تلقيه فيها مع الترحيب والاكرام

ولما وصل الامبراطور شرلكان الى اسبانيا خرج منها ادريان وسافر الى ايطاليا ليمكث في منصبه الجديد وهو منصب البابا كما تقدم ذكره

وكان

سنة ۱۵۲۲

وكان الرومانيون ينتظرون مجيئه مع غاية الشوق الا انه لما وصل اليهم وعاينوه ظهرت عليهم علامات الغم والحيرة لانهم كانوا متعودين على أن يروا ملوكهم وباباتهم فى ابتهاج عظيم ورونق كبير فاستحقروا ادريان حين رأوه شيخا هرما متواضعا متقشفا فى ملبوسه متخلقا باخلاق الزهد محتقرا ملابس الزينة والرفاهية لا يحب التصنع وبالجملة فكان خاليا عن تحسين الهيئة والجمالة الظاهرية التى يكون بها لذوى المراتب والمناصب العليا وقع وهيبة فى قلوب العامة وتعجبوا من ذلك غاية العجب حيث لم يعهدوا فى باباتهم السابقين تلك الحالة الرثة فاين ذلك من ابهة جاليوس الثانى ومظهر ليون العاشر وقد تعجب القسوس ايضا من ادارته وسياسته حيث اعترف ان كلا من كنيسة رومة وديوانها لا يخلو من المفاسد وتأسف على ذلك كل الاسف واخذ يصلح حال الكنيسة والديوان ويطهرهما من تلك المفاسد التى لا تليق بهما ولم يظهر منه انه يريد رفع عائلته واكسابها الثروة والغنى حتى انه لافراطه فى التشديد ردّ الاراضى التى كان اخذها البابات قبله بطريق الظلم والاختلاس فردّ الى الامير فرنسيس مارى دوقية اوربان التى كان اغتصبها منه البابا ليون العاشر وارجع الى دوق فرارة عدة مدآئن كانت اخذت منه ظلما وعدوانا واضيفت الى اراضى الكنيسة ولما كان قسوس رومة غير متعودين على مثل هذه العدالة ولم يعهدوا فى احد من باباتهم السالفين انه سلك على منهج الحق والاستقامة رأوا ان هذه الفعال ادلة واضحة على ضعفه وعدم خبرته ودرايته بالتجاريب لاسيما وكان ادريان يرتبك غالبا فى المشاورة وانهاء المصالح لجهله باسرار سياستهم ودسائسها ولانه كان لا يعوّل عليهم ولا يثق بهم لغاية التنافر بين اخلاقهم واخلاقه لانهم كانوا اهل خبث ومكر ومخادعة ومحاولة فى ادارة المصالح وهذا مباين لما انطبع عليه من طيب النفس وخلوص الطوية فكان لا يعرف المكر والخداع الذى كانوا يتباهون به فدخل فى وهم الناس انه ضعيف الرأى سخيف العقل ولم يزل هذا الوهم يزداد يوما بعد يوم حتى صار رعاياه يحتقرونه ولا يعبأون بسياسته وادارته كما سخروا منه عند

سنة ١٥٢٢

مطلب
بذل ادريان جهده في تسكين فتن اوروبا ونشر رايات الصلح بها

رؤية ذاته
ومع ذلك فبذل ادريان غاية جهده في تسكين فتن اوروبا واظهر في هذا الشان من الانصاف وعدم الغرض والميل الى غير الحق ما يلايم مقامه من حيث كونه ابا النصارى كافة ومن العجب انه لم يجنح الى مساعدة الايمبراطور شرلكان وان كانت له السيادة عليه بل بذل جهده في ايقاع الصلح بينه وبين الملك فرنسيس والتأليف بين قلوبهما حتى يكونا على قلب رجل واحد ويكونا معا على السلطان سليمان الذي بعد اخذه لجزيرة رودس صار يخشى منه على سائر بلاد الافرنج لكن هذا المشروع كان فوق طاقته لان حسن الطوية وخلوص النية لا يكفيان في التأليف بين ملكين لهما اغراض ومآرب مختلفة ولا في ابطال الحروب التي اوجبتها بينهما العداوة والبغضاء بل كان يلزم لذلك ان يكون فوقهما في المعارف والمهارة حتى يظفر بمرامه ولم تكن رغبة دول ايطاليا في حصول الصلح اقل من رغبة البابا ادريان وكان وقتئذ الجيش الايمبراطوري الذي تحت قيادة الامير كولون باقيا على اصله لم يسترح من عساكره احد ولكن بسبب نفاد الاموال التي كانت ترد للايمبراطور من بلاد اسبانيا و نابلي ومملكة البلاد الواطية اوصرفها في امور اخرى كانت مصاريف هذا الجيش من مأكولات وماهيات مرتبة على اهل ايطاليا فكان من عساكره قسم عظيم نازلا باراضي الكنيسة ولاجل مصاريفهم كان نائب الملك في مملكة نابلي يضرب في كل شهر مغارم على اهل فلورنسة و ميلانة و جنويرة ودوقية لوقة فتشكى هؤلاء الناس وتظلموا من تلك المغارم واخذوا ينتظرون فرصة تعينهم على التخلص منها ولم يصبروا لخوفهم من غضب الايمبراطور وبطشه اولخشيتهم بأس هذا الجيش

سنة ١٥٢٣

مطلب
عصبة جديدة مع الايمبراطور على ملك فرنسا

ولكن قد حصل انه بالحاح البابا ادريان وحثه ونشره فرمانا يحرض فيه ملوك الافرنج على ابطال الحرب وعقد الهدنة بينهم بثلاث سنوات بعث الايمبراطور وملك انكلترة وملك فرانسا الى رسلهم بديوان رومة

خطايا

سنة ١٥٢٣

خطايا بانهم مفوضون فى هذا العرض فبينما كان هؤلاء الرسل يتذاكرون فى هذا الشان اذ كان كل من الملوك المذكورين يجهز لوازم الحرب ومهماته وكان اهل البندقة الى ذلك الوقت باقين على المعاهدة مع الملك فرنسيس فلما رأوا ان مصالحهم ببلاد ايطاليا قد تعطلت تخلوا عنه وتعصبوا مع الامبراطور عليه وايضا لما كان نائب الملك فى نابلى لم يزل يلح على الپاپا ادريان وكان من اصدقائه ومن ابناء وطنه حتى افهمه ان الموجب لعدم الصلح انما هو طمع نفس ملك فرانسا فجنح ادريان ثانيا الى حزب الامبراطور وتبعته سائر دول ايطاليا فرأى الملك فرنسيس ان كل الناس قد تخلوا عنه ولم يبق له نصير ولا ظهير يعينه على مقاومة اعدائه الذين كانت جيوشهم تهدد بلاده من جميع الجهات

فى ٢٨ من شهر حزيران

مطلب
الاحتراسات التى استعملها فرنسيس ليقاوم اعداءه ويسلم من مكرهم

ولا شك انه يتراءى ببادىء الرأى ان مثل تلك العصبة العظيمة تحمل فرنسيس على ان يقتصر على حماية بلاده والذب عنها وييأس من الدخول فى مملكة ايطاليا ثانيا ليأخذ بلاده التى تغلب عليها الامبراطور شرلكان ولكن كان من دأب هذا الملك انه يتساهل جدا فى الامور العادية ويقوى عزمه ويثبت ثبوت الابطال لنكبات الدهر واخطاره ويتداركها حتى لا تخل به او يقتحمها مع الثبات كيف لا وقد جمع فى هذه المرة جيشا عظيما قبل ان يأخذ اعداؤه اهبتهم لفعل ما عزموا عليه لانه كان له على رعاياه صولة لم تكن للامبراطور شرلكان ولا للملك هنرى فى ممالكهما فكان لا يمكنهما ان يأخذا امدادا من رعاياهما الا عن رضاء ارباب مجلس البرلمان وكان لا يعطى لهما عادة الا مبالغ قليلة بل ولا يحصلان هذه المبالغ الا بعد توقف الرعايا وتضجرهم مدة مستطيلة بخلاف فرنسيس فكان يسوغ له ان يضرب على رعاياه مغارم جسيمة ويحصلها منهم فى اقرب وقت وبناء على ذلك سلك فى هذه الواقعة كما سلك فى غيرها من الوقائع السابقة حيث شرع جيشه فى السير قبل ان تجتمع عساكر العدو ولما كان يعلم انه يفوق اعداءه من هذه الحيثية توجه بنفسه مع الجيش الى دوقية ميلان مؤملا انه بذلك

سنة ١٥٢٣

مطلب
ضياع فائدة احتراساته بسبب كشف الفتنة التى كان الدوق بوربون سر عسكر البرية يضرم نارها سرا

مطلب
مناقب هذا الامير

مطلب
اسباب غمه

يفسد على الايمبراطور مادبره ولا يخفى انه بهذه الطريقة كان يخشى منه على اعدآئه وكان يظفر بمرامه لولم تمنعه العوائق الاتية وهى انه حين كانت طليعة جيشه على ابواب مدينة ليون وهو يقفو اثرها مع الفرقة الثانية من العساكر بلغه انه قد ظهر فى المملكة فتنة مهولة تفضى بها الى الخراب فاضطر الى الاياب لوقته ورجع عن نيته

وكان مثير هذه الفتنة الخطرة هو الامير كرلوس دوق دى بوربون سر العسكر البرية بمملكة فرانسا وكان عريقا فى الاصل ذا حسب ونسب شهير وثروة واسعة وكان لعلو مرتبته اكبر اهل المملكة واعظمهم شوكة وصولة كما كان اشهرهم فى المعارف والفضل وكان ذا رأى سديد وحزم مصيب فى المشاور والحروب وكان مهابا محترما بسبب ما قام به من المنافع العظيمة والخدم الجسيمة للدولة وكان يزاحم الملك فى عدة صفات كالتولع بالحرب والامتياز فى الرياضات الجسمية والحركات البدنية وكتساويهما فى السن لاسيما وكانت بينهم لحمة القرابة فترتب على ذلك ان الملك كان يحبه محبة خاصة الا ان الاميرة لويزة ام الملك فرنسيس كانت تبغض العائلة البوربونية بغضا شديدا ولم يكن لذلك سبب الا محبة الاميرة اندوبريطانيا زوجة الملك لويز الثانى عشر لتلك العائلة وكانت لويزة تكره اندوبريطانيا هذه كراهة شديدة ولما كان الملك فرنسيس يتأثر بما تتأثر به امه قام به من افعال دوق دى بوربون غيرة لا تليق به فلم يكافئه حق المكافأة على ما كابده من المشاق فى واقعة مارينيان وما بذله فيها من الجد والاجتهاد واستدعاه ايضا من دوقية ميلان التى كان حاكما فيها لاسباب واهية فلما حضر قابله بوجه لا يلايم ما ابداه فى هذا المنصب الخطر من الحزم وسداد الرأى واوقف مرتباته بدون سبب قوى يقتضى ذلك وفى واقعة سنة ١٥٢١ كما تقدم جبهه الملك وخذله بحضرة العساكر وعزله من قيادة طليعة الجيش وولى عليها دوق دالنسون فتحمل اولا هذه الفعال مع مالم يكن يعهد فيه من الصبر لانفته وكبره لاسيما وكان يعلم ان مقامه وما وفى به من الخدم العظيمة

فى المملكة

سنة ١٥٢٣

فى المملكة يحل عن ذلك ثم ضاق به الحال وعيل صبره لاساآت شتى فتعلقت آماله بالانتقام فاحتجب عن ديوان الملك واخذ يكاتب بعض وزراء الامبراطور شرلكان

وفى اثناء ذلك ماتت زوجته دوقة بوربون ولم تعقب ذرية وكانت الاميرة لويزة حينئذ قد بلغت ستاوار بعين سنة ومع ذلك لم تزل تتصابى وتعشق كما كانت تبغض وتحنق فتبدلت بغضتها للدوق بوربون بالمحبة وكان دقيق العقل حسن الصورة فعزمت على التزوج به وان كان لانسبة بينها وبينه فى السن وكان من الماثر ان يصل هذا الدوق بعشق هذه المرأة التى كانت كلمتها نافذة على ابنها وعلى مملكة فرانسا بتمامها الى اعظم ثروة تعلقت بها آمال طامع لكنه ابى زواجها اما لانه لم يكن مستعدا للعدول عن الكراهة الى المحبة فى اقرب وقت او لانه استنكف ان يخفى البغضة ويظهر المحبة لمرأة طالما اساءته قبل ذلك طالما وعدوا ولم يأب الزواج على وجه مستحسن بل اصحبه بالسخرية والذم لخلقها وخلقها فاغتاظت من فسخها وعدم احترامها واستحالت محبتها كراهة وصممت على اهلاكه

واتفقت على هذا الامر مع الجليل دوبرات وكان قد ارتقى الى هذا المنصب الجليل بكونه بحسن معارفه وغزارة علمه بالاحكام والقوانين حيث كان يحيد بها عن طريق الصواب لاغراضه فبواسطته اقيمت على الدوق بوربون دعوى فقد بها جميع الاموال والاملاك التى تنسب للعائلة البوربونية فادعى الملك بعضها لانها كانت من الخالك الملوكية والبعض الآخر ادعته الاميرة لويزة لانها كانت اقرب وارث للدوقة الهالكة وكانت دعوى كل منهما باطلة ولكن لالحاح هذه الاميرة ونفوذ كلمتها وتحيل دوبرات وتزويره امكنهما ان يأخذا من القضاة حجة تتضمن الحكم بالحجر على اموال العائلة البوربونية ولما كان هذا الحكم مبنيا على الزور والبهتان اوقع الدوق بوربون فى القنوط واليأس وحمله على البحث عن ايقاع الفتنة المتقدم ذكرها فاخذ يكاتب ديوان الامبراطور شرلكان فى هذا الغرض وكان قد بلغ منه

مطلب مكاتباته السرية مع الامبراطور

سنة ١٥٢٣م

الحقد منتهاه حتى كتب للامبراطور انه يعترف له بانه مليكه وسيده وانه يعينه على الاستيلاء على مملكة فرانسا فاخبر الامبراطور بذلك هنرى ملك انكلترة واتفقا معا على اجابة بوربون ووعداه بمواعيد عظيمة ليبقى على ماصمم عليه فوعده الامبراطور ان يزوجه باخته اليونوره وكانت اولا تحت ملك البورتغال ثم تأيمت وان يجهزها ويصدقها بما يليق بالملوك وعقد له باب مخصوص فى المشارطة المنعقدة بين الملك هنرى والامبراطور وحاصله انهما اتفقا على ان يعطياه قونتية برونسة وقونتية دوفينة ويلقباه ملكا عليهما والتزم الامبراطور ان يدخل مملكة فرانسا من جبال البرنات وتكفل الملك هنرى ان يهجم على اقليم پيكردية مع عساكر الفلمنك ووقع الاتفاق بينهما ايضا على ان يجمعا من بلاد المانيا اثنى عشر الفا تكون مصاريفها عليهما ويرسلاها الى بورغونيا لتكون مددا واعانة للدوق بوربون مع ستة آلاف تعهد هو بجمعها من احبابه واتباعه وابقى ايقاع هذه الفتنة حتى يسافر ملك فرانسا مع جيشه الى بلاد ايطاليا لان المملكة حينئذ لا تجد من يدافع عنها فبعد أن سافر فرنسيس وتباعد عن مملكته اشرفت على الخراب والدمار

مطلب
كشف الفتنة وظهورها

ولكن لوفور حظ تلك المملكة لم يخف سر هذه الفتنة وان حوفظ على كتمانها بقدر الامكان ولم يخبر بها الا قليل ممن كان يعتمد على امانته ويوثق به وذلك ان بعض الخدم الذين كانوا ببيت الدوق بوربون كانوا يلاحظونه ملاحظة كلية لانهم كانوا يرون انه يستخونهم فاخبر اثنان منهم الملك فرنسيس بالمكاتبة السرية التى كانت منذ عدة اشهر بين سيدهم والقونتة روكس وهو من بكزادات الفلمنك وكان الامبراطور شرلكان يثق به ويعهد فيه الصداقة الا ان الملك فرنسيس كان يستبعد أن الدوق بوربون يفضى به الجبن الى التسليم فى المملكة للاعداء لاسيما وهو من اقاربه ومن العائلة الملوكية فسافر لوقته الى مدينة مولان وكان الدوق بوربون قد تمرض فيها ولازم الفراش حتى لا يذهب معه الى بلاد ايطاليا فلما وصل

الملك

سنة ١٥٢٣م

الملك الى هذه المدينة عرض على الدوق ما اخبر به فحلف له انه بريء من تلك التهمة ولم يظهر للملك منه ادنى شيء يدل على صحتها واخبر الملك انه آخذ فى مبادى الصحة وانه عما قليل يلحق الجيش ببلاد ايطاليا وكان الملك فرنسيس طيب الباطن خالص الطوية فاغتر بزخرف هذا القول حكما على بواطن الغير بما انطبع عليه من طيب النفس وسلامة الباطن فبقى على ما يعهده فيه من الصداقة وجزم ببرآءته حتى انه لم يرض بالقبض عليه مع الحاح العقلاء من خاصته وارباب ديوانه وتوجه الى مدينة ليون كانه لا يخشى شيأ ثم سافر الدوق بوربون بعده مظهرا انه يريد أن يلحق الملك لكنه ولى وجهه الى الشمال واجتاز الرون وبعدما كابده من المشاق الكثيرة والاخطار الكبيرة فاز بنفسه ووصل الى بلاد ايطاليا وكان الملك فرنسيس حين اخبر بفراره ارسل خلفه اناسا للقبض عليه فلم يلحقوه فندم حيث لا ينفعه الندم

في شهر ايلول

مطلب التجاء الدوق بوربون ببلاد ايطاليا

فعند ذلك اخذ الملك فرنسيس يحترس بجميع ما فى وسعه ليسلم من عاقبة هذا الخطاء الذى جلبه لنفسه فوضع عساكر وخفرآء فى جميع القلاع التى كانت باراضى الدوق بوربون وقبض على جميع الاشراف والبيكزادات الذين توهم فيهم انهم من ارباب العصبة وحيث لم يمكنه أن يعرف الغرض من تلك العصبة ولا اغراض الرعايا خشى ان يغيب عن المملكة فينشأ فيها حادثة مهولة وعدل عن السفر مع الجيش الى بلاد ايطاليا

مطلب اغارة الفرنساوية على بلاد ميلان

ومع ذلك لم يرجع عما عزم عليه من التغلب على دوقية ميلان بل جعل الامير بونيويطة على الجيش عوضا عنه وامره بالسير الى ايطاليا وكانت عدة هذا الجيش ثلاثين الفا ولم يؤثر هذا الامير على غيره لمعرفته بالعسكرية حيث لم يكن له من الصفات اللازمة لكل سر عسكر الا الشجاعة وهى ادنى الصفات فى هذا المعنى واكثرها وجودا وانما ذلك لفوقانه على ارباب ديوان فرانسا الملوكى بحسن اطواره ولطف حركاته ودقة ذهنه وفصاحة كلامه وسحر بيانه وحلاوة لسانه وكان الملك فرنسيس يخالط ارباب ديوانه ويسامرهم اناء الليل واطراف النهار فانشرح صدره من لطائف هذا الامير وبديع نكاته

سنة ١٥٢٣

حتى كان يخصه بمزيد الاعتبار والمراعاة وزيادة على ذلك كان الامير المذكور عدو اللدوق بوربون فلم ير الملك من يعتمد عليه فى الرياسة على الجيش الا هذا الامير

وكان المنوط بالمدافعة عن دوقية ميلان هو الامير كولون الذى كان فتحها واخذها من الفرنساوية غير انه لم يكن معه من العساكر من يقوم بمقاومة هذا الجيش الجرار ولم يكن عنده ما يفى بماهيات عساكره وزيادة على ذلك كانت عساكره كل يوم فى النقصان بسبب الامراض والهروب فهذا هو الذى حمله على الاهمال فى الاحتراسات اللازمة لامن تلك الدوقية وحمايتها من الاعداء فاقتصر على كونه يجتهد فى منع جيش الفرنساوية عن اجتياز نهر تيزان وظن انه ينجح فى ذلك كانه نسى ما حصل له فى واقعته مع الامير لوتريك من اجتيازه لهذا النهر مع غاية السهولة فخاب سعيه كما خاب سعى لوتريك المذكور واجتاز الامير بونيويطة النهر بدون مشقة من مخاضة رآها خالية عن الحصون وعمن يقوم بالمدافعة عنها فعند ذلك توجه عساكر الامبراطور الى مدينة ميلان عازمين على تركها متى وصل عساكر الفرنساوية الى ابوابها الا ان الامير بونيويطة اهمل ولم يبادر بالمسير جهة المدينة ولا يعلم لذلك سبب غير ان المؤلف غيشاردين ذكر انه حصل له نوع اختلال منعه عن المسير اليها فمكث به ثلاثة ايام او اربعة واضاع بذلك الفرصة النفيسة التى ابداها له الدهر وذلك انه فى اثناء تلك المدة افاق اهل ميلان من فزعهم واخذوا اهبتهم للمدافعة وكان كولون اذ ذاك قد بلغ حد الثمانين ومع ذلك كان نشطا ماهرا وكان بمعيته الامير مورون وهو عدو مبين للفرنساوية فاشتغلا معا ليلا ونهارا فى اصلاح ما افسده الاعداء من الحصون والاستحكامات وجمعا ما يلزم من الذخائر والزاد وجندا الجنود من سائر البلاد التى حولها فلم يصل الفرنساوية الى المدينة حتى صارت قوية حصينة قادرة على مكابدة المحاصرات فهجم عليها الامير بونيويطة عدة مرات بلا ثمرة بل تعبت عساكره من هذا الهجوم اكثر من عساكر اعدائه ولم يزل

سنة ١٥٢٣

كذلك حتى اشتد البرد فاضطر الى الاحتجاب فى مساكن الشتاء حتى يمضى هذا الفصل

مطلب
موت البابا ادريان السادس

وفى اثناء ذلك مات البابا ادريان ففرح الاهالى بموته كل الفرح لانهم كانوا يبغضونه ويحتقرونه حتى انهم فى الليلة التى اعقبت موته زينوا بأكاليل الازهار بيت الطبيب الذى كان يعالجه وكتبوا عليه هذه العبارة (منجى وطنه) وبمجرد موته اخذ الكردينال دوميديسيس يجدد دعواه فى اخذ منصب البابا ودخل مجلس الكردينالات مؤملا انه ينجح فى ذلك وكان الاهالى يجزمون بنجاحه لان الامبراطور كان يعينه كل الاعانة وكان لهذا الكردينال كلمة نافذة ونشاط غريب فى التحيل وكان بالغا الغاية فى انواع المكر والخداع المشحونة بها المجالس القسيسية ومع ذلك عارضه اخصامه فمكث مجلس الكردينالات خمسين يوما وهو يتذاكرفيمن يتولى منصب البابا وبعد ذلك كله غلبهم الكردينال المذكور وازال كل عائق وظهر على كل مانع وانتخب بابا وتقلد حكومة الكنيسة وسمى كليمان السابع واقر الناس

مطلب
انتخاب كليمان السابع فى ٢٨ من شهر تشرين الثانى

كافة هذا الانتخاب لانهم كانوا يؤملون كل الخير فى هذا الرجل الذى كان بمعارفه وتجاربه العظيمة فى المصالح يرونه قادرا على حفظ دين الكنيسة وصيانته من مذهب لوتير وعلى ادارة مصالح الكنيسة السياسية مع الحزم الذى كانت تقتضيه الاحوال اذذاك وزيادة على ذلك كان له اقتدار على جعل الدول القسيسية محترمة كل الاحترام لما كان له من الشوكة فى فلورنسة واغنى عائلته وسعة ثروتها

مطلب
عدم نجاح الكردينال ولسى فى نيل منصب البابا غمه وحقده

هذا وكان الكردينال ولسى يطمع فى نيل منصب البابا ولم تفتر همته بعدم نجاحه فى الانتخاب الاول اى حين انتخب البابا ادريان فكان يطمع انه ينجح فى تلك المرة وكتب الملك هنرى الى الامبراطور يذكره ما وعد به الكردينال المذكور من اعانته على نيل منصب البابا واظهر الكردينال ولسى فى الحاحه ما يليق بعظم المنصب الذى كان يطلبه وكتب لوكلائه فى مدينة رومة امرا قطعيا بانهم لا يتركون شيأ يلزم صرفه

سنة ١٥٢٣

فى الهدايا والرشوة الا صرفوه ولا وعدا الا وعدوا به لاجل نجاحه فى هذا المأرب ولكن لم يتصد الايمبراطور شرلكان لاعانته فى هذا الامر ولا يعلم لاى شئ كان يعده قبل ذلك فهل كان وعده اياه من قبيل الامانى الباطلة التى كان مصمما على عدم الوفاء بها اولانه رأى حينئذ انه من عدم الحزم والرأى أن يتصدى لانتخابه وان كان حقه فى ذلك ليس دون حق الكردينال دوميديسيس ولا مانع من كون الكردينالات لم يتصدوا لانتخابه خشية ان يجر ذلك لغضب الرومانيين لانه كان اجنبيا منهم لاسيما وكان غضبهم من البابا ادريان المتوفى لم يزل من اذهانهم فبعد أن بذل الكردينال ولسى غاية جهده خاب سعيه ولحقه غم عظيم حيث رأى ان من تولى على كرسى الكنيسة صغير السن عظيم البنية سليم الصحة فلم يبق له رجاء يسليه ويخفف آلامه واحزانه بل ولم يبق له رجاء الفسحة فى عمره حتى يموت البابا المتولى ويسعى فى تحصيل امنيته ولما خاب سعيه فى تلك المرة ايضا علم انه لا يوثق بكلام الايمبراطور وانه ليس من اهل الوفاء واضطرمت فى قلبه نيران الحقد والغضب التى يكون مثلها فى قلب كل متكبر خاب امله وغشه غيره وكان البابا كليمان يعرف ان دأبه الحقد واضمار الانتقام ففعل معه اشياء لطيفة ليسليه ويزيل غيظه فجعله نائبا عنه فى بلاد انكلترة مدة حياته وجعل له التصرف المطلق فيها حتى كأنه بابا تلك المملكة ولكن لما لم يفز الكردينال ولسى بمنصب البابا فى تلك المرة غضب على الايمبراطور شرلكان وانفصمت الاسباب التى كانت تربطهما ببعض وصار هذا الكردينال من ذلك الوقت لا يتفكر الا فى الانتقام من الايمبراطور شرلكان ولكن لزمه ان يخفى هذا القصد عن سيده الملك هنرى حتى تساعده الاحوال على اخراجه من معاهدة الايمبراطور وايقاع الفشل والشقاق بينهما ولذلك لم يظهر ما يدل على غمه بل كان اذا تكلم امام الخاصة او العامة يبدى انه حصل له غاية السرور من تولية الكردينال كليمان على منصب البابا

مطلب حرب هنرى فى بلاد فرنسا

وقد وفى الملك هنرى مدة الحرب بجميع ما التزم به فى معاهدته مع الايمبراطور

على

على ملك فرانسا غيران حربه لم يكن على وجه السرعة كما كان يؤمله وذلك سنة ١٥٢٣م
انه لاسرافه فى ايراداته كان لا يجد غالبا ما يحتاج اليه من الدراهم وكانت
حينئذ طريقة الحرب فى بلاد اوروبا مباينة للطريقة التى كانت جارية
قبل ذلك فان العساكر بعد أن كانت تجمع مع السرعة وكان لكل جماعة
رئيس مخصوص وكانوا جميعا يتبعون اميرهم فى الحرب ولا يمكثون فيه
الا اياما معدودة ومصاريفهم على انفسهم تغير الحال فى عصر هنرى
فكان يلزم لجمع العساكر مصاريف واسعة وتجعل لهم ماهيات جسيمة
ولم يكن الامر كالسابق من ان فريقين المتحاربين كانا يجزعان من طول
الحرب فينهيانه بحادثة يثبت فيها الظفر لمن تساعده المقادير لاسيما وكانت
المدائن اذ ذاك غير حصينة فمن واقعة واحدة كان ينبت الامر ويظهر الغالب
من المغلوب ويرجع البارونات مع اتباعهم الى اشغالهم اليومية بل كانت
المدائن فى عصر هنرى حصينة محكمة المبانى وفيها من يدافع عنها مع
القوة والعزم فبعد أن كان فن الحرب سهلا بسيطا صار فنا مشكلا كثير
اللوازم وبناء على ذلك كانت تطول مدة الحروب ولا ينتهى القتال الا بعد
المشاق الفادحة فازدادت بذلك مصاريف الحروب حتى سئم الاهالى منها
حيث لم يكونوا استعودين الا على دفع مغارم خفيفة لا تضربهم فكان ذلك
منشأ للتقتير والشح الذى اتخذه ارباب جمعيات المشاور الانكليزية دينا وديدنا
ولم يمكن للملك هنرى مع صولته وشوكته ان يردهم عنه لكنه لما طلب
لاجل هذا الحرب امدادا من الجمعيات البلدية وابت ان تعطيه استعان عليها
بمزية كانت ثابتة للملوك انكلترة حينئذ وهى انهم لهم التصرف المطلق
فى رعاياهم فبهذه الواسطة حصل ما كان يحتاج اليه من الدراهم ولكن لم يكن ٢٠ شهر ايلول
ذلك الا بعد مدة مستطيلة حتى انه مضى معظم فصل الشتاء قبل أن يبرز جيشه
الى ميدان الحرب مع سرعسكره الدوق سوفولك وبعد تجهيز جميع اللوازم
سار السرعسكر المذكور بالجيش وضمه الى طائفة عظيمة من عساكر
الفلمنك وتوجه الى اقليم پيكاردية وكان لا يوجد فيها من يدافع عنها

سنة ١٥٢٣

لان الملك فرنسيس حينئذ كان لا يلتفت اليها وانما كان مرامه أن يستولى ثانيا على دوقية ميلان فلم يزل الدوق سوفولك سائرا بدون عائق حتى وصل الى شواطئ نهر الوازة بعيدا عن مدينة باريس بسبعة فراسخ ففزع اهل هذه المدينة وداخلهم الخوف والرعب الا ان الملك كان حينئذ بمدينة ليون فارسل اليه سرية من العساكر فمن مهارة ضباط الفرنساوية ونشاطهم لم يمهلوا العدو لا ليلا ولا نهارا حتى الجأوا الانكليز الى الرجوع لاسيما وكانوا فى شدة الشتاء ونفد الزاد منهم وكان حكمدار تلك السرية الامير لاتريموى فحاز الفخار حيث دفع مع شرذمة قليلة من العساكر جيشا جرارا واجلاه من ارض فرانسا مخذولا وانهزم ايضا عساكر الايمبراطور فى بورغونيا وفى غيانة وان كان الملك فرنسيس لاهماله لم يحصن هذين الاقليمين على ما ينبغى لكن شجاعة جنرالاته سدت مسد ما فاته من التبصر فى العواقب فطردوا العساكر الالمانية التى هجمت على اقليم بورغونيا والعساكر الاسبانيولية التى هجمت على اقليم غيانة وخسرت خسرانا كبيرا

مطلب انتهاء الحرب

وبذلك انتهت واقعة سنة ١٥٢٣ التى ساعدت المقادير فيها فرنسيس وثبت له الظفر والنجاح حتى صار له موقع عظيم فى قلوب الافرنج واعترفوا له بقوة الشوكة والصولة كيف وقد كشف فتنة مهولة ودمر اهلها وجبر من دبرها وهو الدوق بوربون على الخروج من المملكة حقيرا ذليلا لم يتبعه احد من خدمه وحشمه وافسد على العصبة القوية التى تحزبت عليه سائر مقاصدها واغراضها وعرف كيف يدافع عن دولته وكان العدو قد هجم عليها من ثلاث جهات مختلفة وزيادة على ذلك ظفر جيشه الذى كان حينئذ ببلاد ايطاليا حيث استولى على نصف دوقية ميلان وان كان ذلك دون ما كان يؤمل منه لزيادة عدده عن عساكر العدو

سنة ١٥٢٤

مطلب رأى البابا الجديد فى ٢٧ من شهر سباط

واما الواقعة التى اعقبت تلك الواقعة فكانت مباديها مشؤومة على مملكة فرانسا وذلك انه ضاع منه مدينة فونترابى بجبن حكمدارها اوخيانته

سنة ١٥٢٣

وصمم المتعاهدون فى بلاد ايطاليا على بذل جهدهم فى طرد الامير بونيو بطة مع جيشه من الجزء الذى كان تغلب عليه فى دوقية ميلان وهى البلاد التى خلف نهر تيزان الان البابا كليمان وان كان قبل توليته فى زمن كل من البابا ليون والبابا ادريان يظهر البغضاء للفرنساوية صار ينظر بعين الغيرة والحسد الى نمو شوكة الايمبراطور وازديادها فابى ان يقرّ كغيره ممن سبقه من البابايات العصبة المتحزبة على ملك الفرنساوية ونسى بغضته لهم وبذل جهده فى الاصلاح بين الفريقين ولكن خاب سعيه فى ذلك لان المتعاهدين جمعوا جيشا عظيما وارسلوه الى دوقية ميلان فى اول شهر اذار وبعد موت الامير كولون تقلد رياسة هذا الجيش الوزير لانواى الذى كان نائب الملك فى نابلى لكن انيط بعمليات الحروب الجسيمة الدوق دى بوربون والملتزم پسكير لان هذا الملتزم كان انشط الجنرالات الالمانية واعظمهم فى المهارة والحذق واما الدوق دى بوربون فكان لاغاظته من الملك فرنسيس يبذل جميع مجهوداته لاسيما وكان يعرف طبع الجنرالات الفرنساوية وعساكرهم ويعرف قوتهم وضعفهم فكان له اقتدار عظيم على احكام ادارة الجيش الا انه كان هنالك عوائق اخرى وهى ان الايمبراطور كان لا يمكنه تحصيل الدراهم اللازمة لتنجيز المشروعات الجسيمة التى عزم عليها فلما اراد الجنرالات ان يتوجهوا بالعساكر الى العدو امتنعوا عن السير الا اذا صرفت لهم ماهية عدة اشهر كانت باقية لهم فاخذ الضباط يهددونهم تارة ويخادعونهم اخرى ولم يجد ذلك نفعا بل استمروا على تصميمهم وعزموا على نهب دوقية ميلان ان لم يجابوا المطلوبهم ولكن كان للامير سورون كلمة نافذة فى هذه الدوقية التى هى وطنه فاخذ من اهلها المبلغ اللازم لدفع ماهيات العساكر وبعد أن صرفت لهم ماهياتهم توجهوا للقاء العدو

مطلب
مبادرة جيش الايمبراطور الى الحرب

مطلب
تأخير الحرب بسبب مكر العساكر وامتناعهم عن السير الى العدو

ولم يكن مع الامير بونيو بطة من العساكر من يكفيه لمقاومة جيوش عدوه وزيادة على ذلك لم يكن له كبير معرفة بالفنون العسكرية كغيره من جنرالات

مطلب
اضطرار الفرنساوية الى ترك دوقية ميلان

سنة ١٥٢٣

الاعداء فحصلت عدة مصادمات ذكرها على حقيقتها مؤرخو ذلك العصر ولا حاجة الى ايرادها هنا لانها بمعزل عن غرضنا فلا تتوقف عليها الفائدة ولا تتشوق اليها النفس وبعد تلك المصادمات العديدة اضطر الامير بونيويطة الى ترك محطة نفيسة كان قد نزل بها قريبا من مدينة بياغراسة ولولم يرتحل عن هذه المحطة لاعانته كثيرا على الاعداء فبعد ارتحاله بقليل اختل نظام جيشه لعدم حسن ادارته ولقوة العدو لانهم كانوا يحملون على جيشه حملة منكرة ويبتدون حملة بضرب النار ويحاولون أن لا يصادموه وهو مصطف منتظم وزيادة على ذلك كان للامير بونيويطة ستة آلاف من عساكر السويسيين بالبعد عنه بمرحلة فلما كتب لهم أن يحضروا اليه عصوه وابوا اللحوق بجيشه فاضطر الى الالتجاء والفرار الى فرانسا وكان سبيله وادى اوستة فوصل الى شواطئ نهر سيسية عازما على اجتيازه الاوظهر الدوق دى بوربون والامير پسكير مع طليعة جيش الامبراطور وانقضا على مؤخر جيشه فثبت بونيويطة امامهما وابدى العجب العجاب حتى جرح جرحا بليغا اجبره على ترك ميدان الحرب فسلم ساقة الجيش للفارس بيار وكان شجاعا من الابطال الا انه لعدم تملقه لم يصل الى الرياسة استقلالا على جيش ولكن كان يعول عليه فى الخطوب الجسيمة وينـاط بالوظائف المهمة التى توقع غيره فى الحيرة والارتباك فسار امام الخيالة ولاقى الاعداء مع الثبات وقوة الجنان وتأسى به العساكر فحملوا على العدو حملة صادقة فامكنه بذلك ان يسهل الالتجاء على بقية الجيش الا انه جرح جرحا قاتلا فلم يمكنه ان يثبت على ظهر جواده فامر بعض اتباعه ان يسنده الى شجرة ويجعل وجهه مقابلا للاعداء ورفع سيفه بيده عوضا عن الصليب وصار ينظر الى مقبضه ويدعو الله تعالى حتى مات على هذه الهيئة التى زاد بها شرفا فى ديانته وشجاعته وكان الدوق دى بوربون امام عساكر الاعداء فلما وجده قبل موته على هذه الحالة رثى له واظهر له التأسف والتحسر فاجابه بيار بهذه العبارة لا ينبغى التأسف على مثلى اذ انا اموت شريف العرض فى تأدية ما يجب على وانما ينبغى

مطلب
موت الفارس بيار وانهزام جيش الفرنساوية

التأسف

سنة ١٥٢٣

التأسف على شقاوة من خان ملكه ووطنه ونقض عهده * ومر به ايضا الملترم بسكير ومدح فضائله وتأسف على فقده واظهر له من الشفقة غاية ما يؤمل من عدو كريم النفس واراد ان ينقله من محله فرأى ان في نقله مشقة وخطرا فأبقاه بهذا المحل ونصب له فيه خيمة وابقى عنده اناسا يقومون بخدمته ومعالجته لكن لم تنفعه المعالجة بل مات في ميدان الحرب كآبائه واجداده منذ عدة اجيال فاخذ الامير بسكير جسمه وصبره وارسله الى اقاربه فانظر كيف كانوا في تلك الاعصر يحترمون صاحب المعارف في العسكرية حتى ان دوق سابوة امر بان كل مدينة من اراضيه تمر بها جثة الفارس بيار يجب عليها ان تؤدى له من التشريف ما يجب اداؤه لجنازات الملوك ولما وصل الى وطنه وهو اقليم دوفينة صنع له فيها محافل عظيمة وشيع جنازته سائر الناس على اختلاف حرفهم ومراتبهم

وسار بونيويطة الى فرانسا مع من بقى من جيشه وفي هذا الحرب التصير المذكور طرد الملك فرنسيس عن سائر اراضيه ببلاد ايطاليا ولم يبق له فيها ولى ولا نصير

مطلب
تقدم النسخ فى بلاد المانيا

وحين كانت نيران الحرب مشتعلة في عدة من ممالك الافرنج بسبب معاداة الايمبراطور شرلكان والملك فرنسيس لبعض كانت بلاد المانيا في صلح عظيم وراحة تامة تعين على تقدم النسخ في الدين واتساع دائرته * ففى مدة ما كان لوتير مختفيا في قصر وارتبورغ حصل ان رجلا من تلامذته يسمى كرلوستاد كان قد شرب من مشربه وان كان دونه في الحزم والسياسة فبذل جهده وادخل في اعتقاد العامة امورا باطلة واوهاما عاطلة تصير بمذهب لوتير وغيره واشربت في قلوبهم مواعظه حتى عصوا في عدة قرى من دوقية سكس وخربوا الكنائس وكسروا صور القديسين التى كانت تلك الكنائس محفوفة بها ولا شك ان مثل هذه الفعال كانت تغضب الامير فريدريق منتخب سكس الذى كان يدافع عن لوتير في حماه ولو لم يكن منعها على وجه السرعة لكفت في انفصاله وتخليه عن حرب لوتير لان هذا الامير

المنتخب كان يحاذر مهما امكن ان لا يغضب الايمبراطور وغيره من الملوك الذين سنة ١٥٢٣
كانوا قائمين بتأييد المذاهب الدينية القديمة ولما كان لوتير يعرف ان ذلك
يكون به عرضة للخطر ويؤدى الى اضراره وتعطيل مذهبه خرج فورا من
القصر المذكور من غير أن يستأذن الامير فريدريق ورجع الى مدينة في ٢٦ من شهر ادار
ويتمبرغ وبمساعدة الاقدار كان الناس يحترمون لوتير كل الاحترام سنة ١٥٢٢
ويهابونه حتى انه بمجرد وصوله الى العاصين سكنوا واقلعوا عن الفعال القبيحة
التى ارتكبوها وزعموا انه لم يحثهم على ذلك احد من البشر وانما سمعوا صوت
ملك يناديهم ويأمرهم به

مطلب ترجمة لوتير الكتاب المقدّس

وقبل أن يخرج لوتير من ملجئه كان قد شرع فى ترجمة الكتاب المقدّس
(كتاب العهد القديم والجديد) باللغة الالمانية ومثل هذا كان مشروعا صعبا
لكنه رآه مهما جدا ويعينه حق الاعانة على مقصوده فصمم على ترجمته
ولم يكترث بصعوبته ولا شك انه كان مستكملا لجميع الصفات التى بها يكون
النجاح فى مثل هذا المشروع الصعب وذلك انه كان له المام فى الجملة باللغات
المشرقية وكان له معرفة غزيرة بالكتب المقدسة وانشاآت الاحبار الملهمين
وكان يعرف لغة وطنه (اللغة الالمانية) حق المعرفة وكان انشاؤه فيها بليغا
ظريفا لا تعلوه بلاغة فى تلك اللغة وان كان انشاؤه فى اللغة اللاطينية صعبا
ركيكا تسأم منه النفوس فلكثرة اجتهاده ومواظبته واعانة تلميذه
ميلنختون وغيره من تلامذته النجباء تم جزأ من كتاب العهد الجديد
سنة ١٥٢٢ وكانت اذاعة ترجمة هذا الجزء اكثر ضررا لكنيسة رومة من سائر
الكتب التى الفها لوتير فى هذا المعنى وذلك ان الناس على اختلاف مناصبهم
وحرفهم قرؤه واعتنوا بقراآته كل الاعتناء وتعجبوا حين رأوا ان دين عيسى
عليه السلام فى الاصل مخالف بالكلية لدين الكنيسة الرومانية ومناقض
لسنن البابات الذين يزعمون انهم خلفاء عيسى عليه السلام وحفظة اسرار
دينه وحيث كان يوجد فى الانجيل قواعد الدين ظن الناس ان كل انسان له
اقتدار على تطبيق تلك الاصول والاحكام الدينية وعلى البحث فى مذاهب

سنة ١٥٢٤

الكنيسة ومعرفة ما هو موافق منها الدين المسيح وما يخالفه فلما رأى احزاب لوتير قبول الناس لترجمته اقتدوا به فى ذلك وترجموا الكتاب المقدس بعبارات يفهمها الخاص والعام ونشروا ترجمته فى سائر الاقطار الافرنجية

مطلب ابطال المواسم والمحافل الدينية فى عدة مدائن

وحصل فى اثناء ذلك ان مدينة نورمبرغ ومدينة فرنكفورت ومدينة همبورغ وعدة مدائن اخرى كبيرة من بلاد المانيا قد اتبعت الدين الجديد وابطلت بامر ولاتها القداس وغيره من المناسك الدينية التى كانت تأمر بها كنيسة رومة وقام كل من الامير منتخب برندبورغ ودوق برونسويك ودوق لونبورغ وامير انهلته بحماية مذهب لوتير وتعضيده وامروا باتباعه فى سائر اراضى دولهم

الوسائط التى استعملها ادريان ليمنع تقدم مذهب لوتير

فصار ارباب ديوان رومة فى غم شديد بسبب هذه المصيبة التى كانت كل يوم فى نمو وازدياد وكان البابا ادريان بمجرد وصوله الى ايطاليا قد اعتنى بتحصيل ما يكون به دواء هذا الداء فجمع مشورة الكردينالات ليتذاكر معهم فى هذا الشان وكان ادريان متمكنا من علم اللاهوت الاسكولاستيكى وامتاز فيه من صغره وكان هذا العلم اصلا فى شهرته وفلاحه فلم يزل يحبه ويذب عنه حتى كان لا يفرق بين الكفر وبين قدح لوتير فى العلماء الاسكولاستيكيين لاسيما قدحه فى العالم توماه آلين لان آراء هذا العالم كانت تظهر له واضحة مبنية على براهين وادلة قوية لا يمكن نقضها فكان رأيه انه لا يناقض تلك الاراء ولا يشك فى صحتها الا من طمس على بصره وبصيرته وضل فى اودية الجهالة او كان دأبه انه يكتم الحق وان اعتقده وبالجملة فما كان احد من البابات يدافع عن مذهب الكنيسة كالبابا ادريان فان البابا ليون العاشر كان يدافع عن مذهب الكنيسة القديم لمجرد انه كان يخشى على الكنيسة الضرر ان حصل فى مذهبها تغيير وتبديل واما البابا ادريان فكان يعضد هذا المذهب القديم ويبدى فى الاستدلال على صحته جميع ما يقدر عليه علماء اللاهوت الاسكولاستيكى من جدل وعناد غير انه لما كان من طبعه الورع والزهد وكان منزها عن جميع المفاسد التى كانت حينئذ بديوان رومة

كان يعترف ان ديوان رومة مشحون بالمفاسد وكان يسخط باطنا على ارباب سنة ١٥٢٤
هذا الديوان بقدر ما كان يسخط عليهم احزاب لوتير ومما يدل على ذلك
الفرمان الذى ارسله الى مشورة الدييتة التى انعقدت بمدينة نورمبرغ في تشرين الثانى
والامور التى اوصى بها القسيس شيريغاتو حين ارسله الى تلك المشورة سنة ١٥٢٢
لينوب عنه فيها فمن جهة شنع فى هذا الفرمان على آراء لوتير تشنيعا
لم يسبق قبله من البابا ليون العاشر ووبخ فيه امرآء المانيا على كونهم
تحملوا من هذا المبتدع ان ينشر بين الناس آرآءه المضرة واهملوا فى اجرآء امر
الايمبراطور الصادر الى مشورة الدييتة المنعقدة فى مدينة ورمس
وامرهم ان يحرقوا لوتير ان لم يبادر بالاقلاع عن اعتزاله وضلاله
وان لا يمهلوه لانه فى ابناء النصرانية كعضو قد شل من بدن ولا حرج فى ازالته
وقطعه كما فعل موسى عليه السلام حين قتل الرافض داثان والرافض
آبيرون وكما قتل الحواريون المعتزل انانياس والكافر سافيرة
وكما قتل ايضا بعض الملوك والامرآء ابناءهم لهذا السبب * ومن جهة
اخرى اعترف فى هذا الفرمان ان فساد حال ديوان رومة هو السبب فى ايقاع
الكنيسة فى تلك المصائب ووعد بانه سيبذل غاية جهده فى ازالة تلك المظالم
والمفاسد بقدر ما تسوغه له مقتضيات الاحوال وترجى من امرآء المانيا
ان يعينوه فى اجرآء ما يكون به ازالة الاعتزال الموجود فى بلادهم

فبعد أن قرأ ارباب مشورة الدييتة فرمان البابا اثنوا عليه فى نظير محبته مطلب
للكنيسة وشكروه على حسن مقاصده واعتذروا له عن عدم اجرآء امر استدعاء مشورة الدييتة
الايمبراطور الذى صدر لهم فى مدينة ورمس بكونهم لم يسهل عليهم ذلك المنعقدة فى نورمبورغ بان
لكثرة احزاب لوتير وانصاره وبان ديوان رومة كان مبغضا عند الرعايا تعقد مشورة قسيسية
لشدة ظلمه وعدوانه فلذا كان اجرآء ذلك الامر خطرا جدا بل كان من قبيل عامة لتتذاكر فى ازالة
المستحيلات وابدوا انه يلزم الآن اتخاذ احتراسات جديدة قوية لشفاء غليل اسباب الاعتزال
اهل المانيا مما يشكون منه حيث ان شكواهم فى محلها لكونها مؤسسة
على مظالم كبيرة لا تطاق كما سيعلمه البابا باطلاعه على الجدول الذى سيعرضه

سنة ١٥٢٤

عليه ارباب مشورة الدييتة فكان راى ارباب هذه المشورة ان لادواء يصلح لهذا الداء ويعيد الكنيسة الى قوتها الاولى الا جمع مشورة قسيسية عامة وبناء على ذلك اشاروا على البابا ان يستأذن الايمبراطور ويجمع فى اقرب وقت تلك المشورة فى احدى المدائن الكبيرة ببلاد المانيا وكل من كان له حق فى الحضور بتلك المشورة يأتى اليها آمنا مطمئنا ويبدى رأيه كيف شاء والا فيخشى على الدين القديم من الضياع

مطلب
تحيل نائب البابا ومحاولته لاجل منع انعقاد تلك المشورة القسيسية

ولكن لما كان نائب البابا اروغ منه واكثر نباهة واعرف بمقاصد ديوان رومة وآرآءه السياسية فزع حين سمع انهم يريدون جمع مشورة قسيسية عامة لانه كان يعلم انه من الخطر لكنيسة والبابا ان تجمع تلك المشورة فى ذلك الزمن اذ كان اغلب الناس حينئذ يبغضون البابا وينكرون حكمه عليهم وقل عندهم احترامه واخذوا يخرجون عن طاعته فاستعمل جميع ما فى طاقته من التحيل والخداع ليحمل ارباب مشورة الدييتة على مطاردة لوتير ويتركوا مقصدهم من عقد تلك المشورة العامة ببلاد المانيا ولكن حيث ادرك ارباب الدييتة ان نائب البابا يريد بذلك مراعاة مقاصد ديوان رومة لا المحافظة على ابقاء الراحة فى الايمبراطورية ولا على ابقاء الكنيسة الرومانية طاهرة منزهة عن الدنس والارجاس لم يتحولوا عن مقصدهم واستمروا على تحرير جدول يتضمن شكواهم ليعرضوه على البابا ولما خاف نائب البابا ان يوكلوه بحمل هذا الجدول ليوصله الى ديوان رومة وهو لا يحب ان ينقل الى الديوان مثل هذا الخبر المشؤم عجل بالخروج من مدينة نورمبرغ ولم يستأذنهم

مطلب
عرض مشورة الدييتة على البابا جدولا مشتملا على مائة شكوى

فحرر امرآء الاهالى ارباب المشورة جدولا مشهورا فى تواريخ المانيا يشتمل على مائة مادة يتشكون منها ويعدونها من مظالم ديوان رومة واما امرآء القسوس الذين كانوا بتلك المشورة فاقتصروا على عدم المعارضة فى هذا الشان لانهم رأوا انه لا يليق بهم استحسان ذلك والرضاء به ولا يخفى ان اغلب هذه الشكاوى كان غير ماذكر فى الجدول الذى حرر فى عهد الايمبراطور

سنة ١٥٢٤

مكسيمليان ولانذكرها هنا تفصيلا خوف الاطالة وانما نقول انهم تشكوا من المبالغ التى كانت تضرب على العفو والبرآءة والغفران ومن المصاريف الكثيرة التى كان يغرمها من اقيمت له دعوى فى ديوان رومة ومن مزية كانت للقسوس من انهم لا تجرى عليهم الاحكام المدنية كسائر الاهالى ومن الحيل والمخادعات التى كان يستعملها قضاة القسوس ليطلعوا على سائر الدعاوى المدنية ومن قبح سلوك معظم القسيسين وفساد اخلاقهم ومن عدة امور اخرى مستقبحة قد ذكر اغلبها فى ضمن الاشياء التى اعانت على تقدم مذهب لوتير وقبول ارائه بين الناس وختم الامرآء هذا الجدول بقولهم ان لم يبادر البابا بازالة هذه الاشياء الذميمة المضرة فلا صبر لنا بعد ذلك بل نبذل فى انقاذ انفسنا منها جميع ما ييسره الله تعالى لنا من القوة والطاقة

مطلب
حاصل ما انحطت عليه الارآء فى مشورة الدييتة فى ٦ من شهر ادار سنة ١٥٢٣

ومع ان نائب البابا الح على ارباب الدييتة ان يطاردوا لوتير واحزابه ويضيقوا عليهم كل التضييق صدر منهم امر كسائر اهالى الايمبراطورية ان يبقوا على ماهم عليه حتى تجتمع المشورة القسيسية العامة ولا ينبغى نشر شئ من العقائد والمذاهب الجديدة يكون مخالفا للمذاهب الكنيسة حتى تنعقد تلك المشورة القسيسية وتحكم بما تستصوبه وصدر ايضا امر بان سائر الخطباء والوعاظ لا يتصدون فى خطبهم لذكر شئ من الامور الغامضة الجدلية وانما يقتصرون على ذكر حقائق الدين كما هى لمجرد افادة العامة

وكان لاحزاب لوتير نفع عظيم وفائدة كبيرة من هذه الاوامر الصادرة من مشورة الدييتة وذلك انها تدل اوضح دلالة على الفساد الموجود فى ديوان رومة وتدل ايضا على ان المغارم التى كانت تضربها القسوس على الناس كانت زآئدة عن الحد لا تطيقها الانفس وكان لهم فى فرمان البابا ما يدل على صحة قدحهم وتشنيعهم على الكنيسة بالنظر للامر الاول وهو فساد ديوان رومة واما الثانى وهو ضرب المغارم المجاوزة للحد فاقره وكلاء الجمعية الجرمانية فى مشورة الدييتة وكان انصار المذهب الجديد فى تلك المشورة اكثر عددا من انصار الدين القديم واقوى منهم بأسا وشوكة وجعلوا

المظالم

سنه ١٥٢٤

المظالم التى كان لوتير يشنع بها على الكنيسة الرومانية من جملة الامور التى كانت اهالى الايمبراطورية تتشكى منها فلذلك صار لوتير واصحابه فى سائر المؤلفات الجدلية التى نشروها بعد ذلك بين الناس يستدلون بقول البابا ادريان والمائة شكوى التى حررها ارباب مشورة الديتة على صحة ما كانوا يقولونه فى اختلال ديوان رومة وظلم القسوس وطمعهم

مطلب
ما كان يلام ادريان على فعله

واما اهل رومة فرأوا ان سلوك ادريان بهذه المثابة مما يدل على حمقه وعدم حزمه لان ارباب ديوان رومة كانوا قد طبعوا على مثل خبث دواوين البابات وتعودوا على اتخاذ نفعهم نصب اعينهم فى سائر افعالهم ولا يراعون عدالة ولا حقا فتعجبوا كل العجب من البابا ادريان حيث عدل عن نهج الحزم الذى كان يتبعه البابات قبله واعترف بان الكنيسة لا تخلو عن الخلل والفساد واعجب من ذلك انه كان يستعين بآراء اناس كان حقه ان يأمرهم بما شاء لا ان يستشيرهم فى اموره فكان ارباب هذا الديوان يخشون ان يستند لوتير واحزابه على قول ادريان فلا يزالون على اعتزالهم وعنادهم وربما أدى ذلك الى ضعف شوكة البابات وترتب عليه سد الابواب التى تأتى منها ايرادات القسوس واموالهم فلذا كانوا يحاولون منع ادريان عن التغيير والتبديل الذى كان يريد احداثه فى الكنيسة الرومانية فكان فى تعب شديد من جهتين مختلفتين الاولى عناد لوتير والاخرى قبح سلوك اهل ايطاليا وفساد اخلاقهم وطالما تأسف على زمن قضاه فى رياسة دير لوان وان كان هذا المنصب دون منصبه الآن لانه كان به فى راحة تامة لا يرى ما ينغص عليه عيشه ويمنعه عن تنجيز مقاصده الحسنى

مطلب
الاحتراسات التى اتخذها كليمان لابطال مذهب لوتير

واما البابا كليمان السابع الذى تولى بعد موت ادريان فكان يفوقه فى السياسة وفى الحكم بقدر ما كان ادريان يفوقه فى حسن الاخلاق وصفاء النية فكان كبقية البابات يكره انعقاد مشورة قسيسية كل الكراهة خصوصا وكان لم يول منصب البابا الا بطريق غير موافقة للقوانين فكان يخشى من

سنة ١٥٢٤

انعقاد تلك المشورة لانها ربما نازعت فى توليته فلاجل أن يخرج من تلك الحيرة التى اوقعه فيها عدم حزم ادريان الذى كان قبله لزمه ان يحاول كل المحاولة فى اجابة اهل المانيا عن الامرين اللذين كانوا يطلبونهما اعنى انعقاد المشورة القسيسية وازالة المظالم والمفاسد من ديوان رومة فانتخب رجلا حاذقا فطنا وبعثه ليكون نائبا عنه فى مشورة الدييتة التى انعقدت ثانيا فى مدينة نورمبرغ وهو الكردينال كمبيجه الذى كان البابات قبل كليمان يفوضون له الامر فى انهاء مصالح جسيمة بجهة وبت امور صعبة مهمة وكان يوفى بها حق التوفية

مطلب مداولة نائب البابا فى مشورة الدييتة المنعقدة ثانيا بمدينة نورمبرغ فى شهر سباط سنة ١٥٢٤

فلما حل الكردينال كمبيجه بمشورة الدييتة لم يتعرض لذكر ما حصل فى المشورة السابقة بل وعظ الناس بخطبة طويلة موضوعها تحريض ارباب المشورة على اجراء الامر الصادر من الايمبراطور الى المشورة التى انعقدت بمدينة ورمس لانه لا يمكن منع اعتزال لوتير الا بهذا الامر فاجابه ارباب المشورة بانهم يريدون اولا ان يعرفوا رأى البابا فى شأن ما عرضوه عليه وهو طلب عقد المشورة القسيسية وازالة المظالم التى ذكروها فى تقريرهم فحاولهم أن لا يجيبهم عن الغرض الاول وهو عقد المشورة القسيسية حيث اجابهم بكلام مجمل مبهم وهو ان غرض البابا البحث عما فيه المصلحة للكنيسة الرومانية واما الغرض الثانى وهو ازالة المظالم المذكورة فى تقريرهم فاجاب عنه بان التقرير لم يصل الى رومة الا بعد موت البابا ادريان وبناء على ذلك فهو لم يعرض على البابا الجديد حتى يظهر رأيه فى هذا الغرض ولكن قال امام ارباب المشورة ان هذا التقرير الذى ارسل الى البابا يشتمل على مواد فيها اساءة ادب فى حقه وان ارباب المشورة قد اساؤا الادب ايضا فى حق الكنيسة الرومانية حيث امروا بنشر تلك المواد بين الناس وختم كلامه بطلبه منهم ان يضيقوا على لوتير واتباعه كل التضييق ووافقه على هذا الرأى رسول الايمبراطور وافاد ان الايمبراطور يريد تشريف الكنيسة وابقاءها محترمة مبجلة ومع ذلك فكان حاصل مذاكرات هذه المشورة عين ما انحطت

الا آراء فى المشورة المنعقدة قبلها ولم يزد عليه شئ من التشديد والتضييق على لوتير ولا على اتباعه واحزابه

وقبل أن يخرج الكردينال كمبيجة من بلاد المانيا نشر بين الناس بعض قوانين لطيفة كان غرضه منها استعطافهم واستمالة قلوبهم لان هذه القوانين كان فيها ازالة بعض اشياء من المظالم والمفاسد التى كان يرتكبها اسافل القسوس ولكن كانت قليلة فلم تشف غليل اتباع لوتير ولم تجد نفعا فى تسكين غيظ الناس لان هذا الكردينال بفعله ذلك كانه انما قطع بعض فروع من شجرة خبيثة الاصل كان اهل المانيا يريدون قلعها واستئصالها من جذرها

(المقالة الرابعة)

من اتحاف ملوك الزمان

بتاريخ الايمبراطور شرلكان

مطلب
آراء دول ايطاليا فى شأن مصالح الايمبراطور شرلكان والملك فرنسيس

كان اهل ايطاليا يجزمون بانه بعد انهزام الفرنساوية وطردهم من دوقية ميلان ومن اراضى جمهورية جنويزة لابد من انقطاع الحرب بين الايمبراطور شرلكان والملك فرنسيس ولما رأوا انه لم يبق فى ايطاليا بعد طرد الفرنساوية منها ملك ذو شوكة وقوة يمكنه ان يقاوم الايمبراطور صاروا يخشون من ازدياد قواه ونمو شوكته واخذوا يبذلون غاية جهدهم فى ايقاع الصلح بين الفريقين وكان السبب الاصلى الذى دعاهم الى المعاهدة مع الايمبراطور هو أن يردوا الى الامير سفورس بلاده الوراثية فلما بلغوا هذا العرض لاحت منهم علامات تدل على انهم لا يريدون من الآن فصاعدا اعانة الايمبراطور على خصمه الملك فرنسيس وانه قد حصل لهم باطنا غيرة من ظفر الايمبراطور وازدياد شوكته وصولته لاسيما البابا كليمان فانه كان يخاف كثيرا من طمع الايمبراطور وبذل غاية جهده فى ان يغرس فى قلبه حب القناعة وترك الطمع وان يستميله الى الصلح كما استدل على ذلك بمراسلاته التى حررها للايمبراطور وبكلام رسله الذين بعثهم اليه لهذا العرض

سنة ١٥٢٤
مطلب
تصميم شرلكان على الهجوم على مملكة فرنسا

ولكن لنجاح الايمبراطور وشدة طمعه وتحريض الدوق دى بوربون اياه لانه كان يريد الانتقام لنفسه لم يلتفت الى قول كاميان بل اظهر انه صمم على الحرب وانه لا يمكن ان يرجع عن نيته وانه سيامر جيشه بان يسير من جبال البة ليهجم على اقليم پرونسة لانه غير حصين وحاول ارباب الخبرة والتجاريب من وزرآئه ان يحولوه عن هذا القصد ويبدوا له انه صعب عليه لقلة عساكره ونفاد امواله فلم يجد ذلك شيأ لانه كان يؤمل ان ملك انكلترة سيعينه اتم اعانة وزيادة على ذلك كان الدوق دى بوربون يعده بانه بمجرد دخول جيشه فى فرانسا يضم اليه طائفة كبيرة من احزابه واصحابه الذين كانوا فى قلق عظيم من طرده من المملكة وبعده عنهم فلذا استمر شرلكان مصمما على مقصده ولا يدرى انه فى غرور واماني باطلة وقد التزم الملك هنرى ان يدفع مائة الف دوقة (نوع من النقود) على سبيل الاعانة مدة اول شهر من الحرب وبعد هذا الشهر يكون مخيرا بين امرين اما ان يستمر على دفع هذا المبلغ فى كل شهر او يهجم على اقليم پيكردية مع جيش عظيم قبل فراغ شهر تموز والتزم الايمبراطور ان يهجم قبل فراغ الشهر المذكور على اقليم غينة مع طائفة كبيرة من العساكر فاذا انجح رد الى الدوق دى بوربون جميع اراضيه المسلوبة منه وولاه ملكا على اقليم پرونسة ويكون تحت سيادة الملك هنرى لانه هو الاحق بالتملك على فرانسا

ولم يحصل من هذه الامور كلها الا شىء واحد وهو الهجوم على اقليم پرونسة لان شرلكان لم تفتر همته ولم يرجع عن هذا القصد وان كان الدوق دى بوربون لم يراع الاحوال اذ ذاك وأبى ان يكون تحت سيادة الملك هنرى وان يقره بالملوكية على مملكة فرانسا فاتخذ الملك هنرى ذلك علة ورجع عن جميع الاشياء التى كان التزم بها وكان جيش الايمبراطور الذى اعده لهذا المشروع لا يبلغ الا ثمانية عشر الفا وجعل الامير پسكير رئيسا عليه وامره ان يمتثل فى جميع حركاته واعماله لاوامر الدوق دى بوربون فسار هذا الامير واجتاز جبال البة ولم يجد من يقاومه ويصده عن الطريق فدخل اقليم

پرونسة

سنة ١٥٢٤

مطلب
دخول جيش الايمبراطور في اقليم برونسة في ١٩ من شهر آب

برونسة ووضع الحصار امام مدينة مرسيليا وكان مرام دي بوربون ان يسير الى مدينة ليون لان اراضيه كانت بقرب تلك المدينة فتكون شوكته بها اقوى وكلمته اكثر نفوذا ولكن كان الامير پسكير يعلم ان الايمبراطور شرلكان يرغب كل الرغبة في الاستيلاء على مينا مرسيليا لانه اذا استولى عليها يسهل عليه ان يدخل مملكة فرانسا متى شاء فلم يمتثل تلك المرة لقول بوربون ورأى ان اخذ مرسيليا هو الغرض الاصلي فلما ادرك الملك فرنسيس مقصد الايمبراطور اخذ يدبر الوسايط والاحتراسات التي بها يمكنه

مطلب
ما اتخذه الملك فرنسيس من الاحتراسات المبنية على الحزم والحذق

ان يفسد على الايمبراطور ما دبره وقصد تعجيزه فخرب البلاد التي حول مرسيليا لئلا يجد الاعداء فيها ما يقتاتون به وهدم ضواحيها وانشاء تحصينات جديدة ووضع في المدينة طائفة كبيرة من المحافظين وجعل عليهم ضباطا اهل خبرة ودراية وشجاعة عظيمة وانضم الى المحافظين تسعة آلاف من اهل المدينة خافوا من الوقوع في ايدي اهل اسبانيا فلم يعبأوا بالاخطار والاهوال وتسلحوا وتصدوا للدفع العدو ففاقت شجاعتهم ونشاطهم حقد دي بوربون ومعارف پسكير العسكرية وفي اثناء ذلك سهل على الملك فرنسيس ان يجمع جيشا عظيما تحت مدينة اوينون وسار به الى مرسيليا وكان جيش الايمبراطور قد مضى عليه اربعون يوما وهو يكابد مشاق المحاصرة فتعب كل التعب وضعفت قوى العساكر بسبب الامراض وكان قد اشرف زادهم على النفاد فرفعوا الحصار وفروا الى ايطاليا

مطلب
رفع جيش الايمبراطور الحصار عن مدينة مرسيليا في ١٧ من شهر ايلول

ولو هجم الايمبراطور والملك هنري على مملكة فرانسا في مدة ما كان الجيش في اقليم پروونسة حسبما اتفقا عليه لكانت تلك المملكة عرضة لاخطار عظيمة الا ان الايمبراطور وجد ان ايراده لا يكفيه في تتميم ما عزم عليه فاضطر الى ابقاء نصف ما ربه بدون تتميم كما هي عادته من انه كان يصمم على امور كثيرة ولا ينجزها كلها ولم يساعده الملك هنري في هذا المشروع لاسباب منها انه حصل له غيظ من دي بوربون حيث أبى ان يقر بان يكون له الحق في ملوكية

سنة ١٥٢٤

فرانسا ومنها ان اهل ايقوسيا بتحريض ملك فرانسا اياهم عزموا على المسير الى انكلترة لشن الغارة عليها وزيادة على ذلك لا يخفى ان الوزير ولسى هو الذى كان يحث ملك انكلترة على اعانة الامبراطور ليساعده فى نيل منصب البابا فلما تولى اثنان قبله على هذا المنصب ولم يعنه الامبراطور كما كان وعده خاب امله فيه وفترت همته من جهته وصار لا يعتنى بمصالحه ولا يسعى فى نفعه حتى يهتم بحث سيده الملك هنرى على اعانته فى مشروعاته

مطلب اغترار الملك فرنسيس بهذا النجاح

ولو اكتفى ملك فرانسا بحفظ رعاياه وبلاده من تلك الاغارة المهولة التى ادخلت فى اعتقاد الافرنج ان قواه الداخلية عظيمة جدا حتى امكنها طرد جيش الامبراطور وان كان معه الدوق دى بوربون واعانه اتم الاعانة وهو ذو شوكة عظيمة ومعارف غزيرة ويعرف مملكة الفرنساوية حق المعرفة لكونه منها لتم هذا الحرب باثبات الفخر والشرف له ولرعاياه لكنه لما كان شجاعا طماعا يغتر بمساعدة دهره وكان من دأبه الميل الى الخطر لا الى الحزم كان يفرح بما نالته رماحه او اظهر شجاعته ويغتر بظفره فى كل مشروع خطب يلزم له التثبت والجسارة فلما ساعده الدهر فى هذا المشروع تعلقت آماله بما فوق ذلك لا سيما وكان له اذ ذاك جيش جرار يعد من اعظم الجيوش التى سبق جمعها فى مملكة فرانسا فابت نفسه ان يسرح هذا الجيش قبل ان يظهر به فى حرب كبير وقواه على ذلك انه راى ان جيش الامبراطور قد تعب من مشاق

مطلب عزمه على الهجوم على دوقية ميلان

المحاصرة وفترت همته بعد الهزيمة وان دوقية ميلان لا تجد من يدافع عنها وانه لا مانع من دخولها قبل ان يصل اليها بسكير مع من بقى معه من العساكر بعد الهزيمة وايضا لا تصل عساكر هذا الامير اليها الا وهم على غاية من التعب والمشقة من سرعة سيرهم لما داخلهم من الخوف والرعب فلا يكون لهم اقتدار على مقاومة عساكر عديدة لم تفتر همتها ولم يكل عزمها فتبادر دوقية ميلان الى التسليم بدون مقاومة كما حصل منها ذلك غير مرة نعم ان هذه الامانى فى حد ذاتها كانت مقبولة لا يستبعدها العقل

سنة ١٥٢٤

الا ان الملك فرنسيس لحميته رآها من الامور اليقينية فحاول اولو الدراية من وزرآئه وجنرالاته ان يثنوه عن هذا المشروع وابدوا له انه خطر يصعب عليه تجهيزه وقتئذ اذ كان وقت شتاء وامطار لاسيما وكان معظم جيشه من السويسيين والالمانيين لا من رعاياه فلا مانع انهم يتخلون عنه فيكون عرضة لاخطار عظيمة ولما بلغ ذلك والدته لويزة عجلت بالسفر الى اقليم پرونسة لتمنعه عن هذا المشروع الخطر ومع ذلك لم يلتفت الى قول وزرآئه ولاجل ان لا يغضب والدته بعدم قبوله لنصحها سافر قبل ان تصل اليه ولكن حيث كان ذلك يخل بمقامها على كل حال ويدل على عدم اعتباره لها جعلها قبل سفره نائبة على المملكة مدة غيبته هذا وينبغي لنا ان ننبه هنا على ان الامير بونيويطة قد بذل غاية جهده في حث الملك فرنسيس على المسير الى ميلان لانه كان ذا حمية وشدة وكان بين طبعه وطبع الملك فرنسيس شبه كلي وزيادة على ذلك كان مدة حربه الاول في دوقية ميلان قد عشق امرأة من نساء تلك الناحية فكان في قلق من بعده عنها وكان يحب الاجتماع بها ويقال انه اخبر الملك فرنسيس عنها وبالغ له في حسنها وجمالها حتى تعلق بها قلبه واشتغل بها خاطره ولبه وتشوق الى رؤيتها فانه كان بمكانة عظيمة بين العشاق

مطلب
اقامة امه نائبة عنه في المملكة مدة غيبته

فاجتاز الفرنساوية جبال الپه من جبل منها يسمى سينيس واسرعوا في المسير لانهم كانوا يرون نجاحهم متوقفا على مبادرتهم ووصولهم الى ميلان قبل وصول پسكير مع عساكر الايمبراطور اليها وكان پسكير قد سار من طريق اطول واصعب من الطريق التي سار منها الملك فرنسيس بجيشه فانه سار من طريق موناقو وطريق فينال فلما بلغه مقصد فرنسيس علم ان دوقية ميلان لا تحمى منه الا اذا لحقها بعساكره فحث السير حتى وصل الى دلبة يوم وصل الجيش الفرنساوي الى ورسية ولما كان الملك فرنسيس يعلم ان توانى بونيويطة وتأخره في الحرب الاول هو السبب في خذلانه وانهزامه لم يقف بل سار بدون تراخ ولا مهلة الى

مطلب
الحرب الحاصل في دوقية ميلان

مدينة ميلان فبمجرد ظهوره بجيشه العظيم امام تلك المدينة وقع الرعب والخوف فى قلوب اهلها حتى ان الامير پسكير حين دخل فيها مع اعظم عساكره واكبرهم شجاعة ومهارة جزم بانه لا يمكنه ان ينجح فى المدافعة عنها ولا ان ينقذها من ايدى الاعداء بوجه من الوجوه فوضع فى القلعة طائفة من المحافظين وخرج من باب وكان الفرنساوية اذ ذاك يدخلونها من الباب الآخر سنة ١٥٢٤

فكانت سرعة سير ملك فرانسا سببا فى افساد ما دبره فريق الايمبراطور فى شأن المدافعة وصاروا بعد ذلك فى حيرة كبيرة ولم يسبق لاحد من رؤساء العساكر ما حصل يومئذ لرؤساء فريق الايمبراطور حيث كان يلزمهم مقاومة جيش جرار وهم على غاية من الضنك والضيق نعم ان دول الايمبراطور شرلكان كانت كبيرة واسعة لا يحكم على مثلها احد من ملوك الافرنج ولم يكن عنده من العساكر المستأجرة الا جيش النمبردية الذى كانت عدته ستة عشر الفا ولكن كانت شوكته ضعيفة وكلمته قليلة النفوذ فى دوله وكان لا يجوز له ان يضرب على رعاياه مغارم جديدة الا برضائهم وكانوا يظهرون التضجر والتظلم اذا ضرب عليهم مغرما جديدا غير المعتاد فكثت عساكره بدون ماهية وزاد وملبوس بل كان لا يمكن تحصيل المهمات والمواد الحربية اللازمة لهؤلاء العساكر فكان لا يقوم بهذا الخطب الجسيم الا ان يبذل الامير لانواى غاية حزمه وسداد رايه وان يظهر الامير پسكير غاية شجاعته ومهارته وان يجتهد الامير دى بوربون بقدر ما فى قلبه من البغض والحقد للملك فرنسيس وبدون ذلك لا يمكن منع عساكر الايمبراطور من الوقوع فى اليأس والقنوط ولا تحصيل المبالغ التى بها امكن لفريق الايمبراطور ان ينجو من تلك الاخطار ولا شك انه لم يبق للايمبراطور دول فى ايطاليا الا بسبب حزم هؤلاء الرؤساء الثلاثة واجتهادهم لا بكثرة رجاله وقواه العسكرية فرهن الامير لانواى ايراد مملكة نابلى وحصل بذلك ما صرفه على العساكر فى امورهم الضرورية وكان العساكر الاسبانيوليون يحبون الامير

پسكير

سنة ١٥٢٤

پسكير حباجا لحثهم على ان يلتزموا بخدمة الامبراطور فى هذا الخطب وان لا يطلبوا ماهياتهم ليقول الافرنج انهم يقاتلون لمجرد الفخر والشرف وذلك يجعلهم فى الاعتبار فوق العساكر المستأجرة فقبلوا منه ذلك عن طيب نفس ورهن الامير دى بوربون حليه وجواهره الثمينة واخذ بدلها مبلغا عظيما وسافر فورا الى بلاد المانيا وكان له بها شوكة عظيمة وكلمة نافذة ليجمع منها طائفة كبيرة من العساكر لاعانة الامبراطور

مطلب
محاصرة فرنسيس لمدينة باويا

وقد اخطأ الملك فرنسيس خطأ كبيرا حيث امهل رؤساء عساكر الامبراطور حتى فعلوا ذلك كله لاسيما وكان عساكر الامبراطور قد فرّوا امامه وذهبوا الى مدينة لودى على نهر العدة وهى مدينة غير حصينة حتى كان الامير پسكير قد عزم على تركها بمجرد ظهور العساكر الفرنساوية ودنوهم منها ولكن استحسن الملك فرنسيس رأى الامير بونيويطة وان كان مخالفا لرأى بقية الرؤساء ووضع الحصار امام مدينة باويا الموضوعة على نهر تيزان وكانت تلك المدينة مهمة يسهل بالتغلب عليها الاستيلاء على جميع البلدان التى على شاطئ هذا النهر لكنها كانت حصينة منيعة فكان من الخطر الشروع فى حصارها فى مثل ذلك الوقت اى فى اثناء فصل الشتاء هذا وكان رؤساء عساكر الامبراطور يعلمون ما يترتب على تغلب الفرنساوية على هذه المدينة فجعلوا فيها لحفظها ستة آلاف من اقدم العساكر المتمكنين من فن العسكرية وجعلوا رئيسهم انتوان دوليوه وهو ضابط جليل القدر كبير الاعتبار له من الدراية والشجاعة الحظ الاوفر وله فى الادارة اليد الطولى ذو حزم وعزم يحب الشرف والفخار متعود على حسن القيادة والانقياد فكان يسهل عليه ان يتحمل جميع المشاق ويبذل ما فى وسعه لينجح ويربح

مطلب
تشديده فى تلك المحاصرة

وقد شدد فرنسيس فى هذه المحاصرة وبذل فى تتميمها فوق طاقته فلاجل التغلب على قلعة المدينة استعمل مهندسو ذلك العصر ما فى طاقتهم ولم يبق للعساكر عزم الا جادوا به ولا جهد الا بذلوه ولم يمكن للامير لانواى ولا للامير

سنة ١٥٢٤

پسكير ان يفعل شيأ مع الملك فرنسيس بل مكثا فى الخزى والصغار حتى شاع فى رومة استهزآء بالايمبراطور وحزبه انه قد تعين جعل لمن يجد الجيش الايمبراطورى الذى ضل فى شهر تشرين الاول وضاع فى الجبال التى تفصل فرانسا من لومبردية ولم يقف له احد على جلية ولا خبر

مطلب
مدافعة المحصورين

ولما رآى الضابط انتوان دوليوه ان ابناء وطنه فى حيرة عظيمة وكرب شديد ورآى انه لا يمكنهم مقاومة العدو خارج الحصون علم انه لا ينبغى له التعويل الا على تيقظه وشجاعته وعزمه ومهارته فابدى من ذلك ما يلايم عظم القلعة التى امن عليها اليدافع عنها فكثيرا ما خرج منها بعساكره وانقض على عساكر الفرنساوية بقلب ثابت وعزم قوى فعاقهم بذلك عن الدنو منها وما كانت تفتحه مدافعهم فى الاسوار كان يجدّدو رآءه استحكامات حصينة متينة كانت تظهر انها ليست دون الاستحكامات القديمة وكان يدفع الاعدآء المحاصرين بقوة عظيمة وعزم مكين وتأسى به فى ذلك المحافظون وسكان المدينة فكانوا لا يكترثون بمكابدة المشاق ولا باقتحام الاخطار ومما اعان الهمام ليوه على مقاومة الاعدآء وابعادهم نوازل فصل الشتاء وما يحدث عنها ومن جملة ما فعله الملك فرنسيس ليتغلب على المدينة تحويله لمجرى نهر تيزان وكان كالحصن لها من احدى جهاتها الا ان هذا النهر فاض على حين غفلة فيضانا كبيرا فاضاع فى يوم واحد ما جدّده الملك فرنسيس فى عدة اسابيع ومحا جميع الجسور التى بناها جيشه وصرف فيها اموالا جسيمة ومهمات عظيمة

مطلب
تخلى البابا عن الفريقين بموجب مشارطة عقدها

ومع بطئ المحاصرة وما حصل للشهير ليوه بحسن مدافعته كان من المجزوم به انه لو بقيت الاحوال على ما كانت عليه لاضطرت المدينة الى التسليم ولو بعد حين لاسيما وكان قد تبين للبابا ان جيش الفرنساوية هو الغالب وكان يغار من الايمبراطور كل الغيرة فعجل بنقض المشارطات التى كانت منعقدة بينهما وبادر بعقد معاهدة جديدة مع الملك فرنسيس وكان البابا ليون العاشر قبله قد عزم على مشروع خطب وهو انقاذ بلاد ايطاليا من ايدى كل

من

سنة ١٥٢٤ من الايمبراطور وملك فرانسا واما هو فكان يحترس غاية الاحتراس في جميع اموره فلصعوبة هذا المشروع عدل عنه الى مشروع آخر اسهل منه وهو اظهار الميل لاحد الفريقين وسلوك سبيل المداهنة ليضعف به قوى الفريق الآخر فاظهر ان احب الاشياء اليه هو استيلاء ملك فرانسا على دوقية ميلان ليقمع الايمبراطور حيث كان لا يوجد حينئذ ببلاد ايطاليا من له اقتدار على قمعه فبذل هذا البابا جهده في عقد صلح به يتم للملك فرنسيس اخذ بلاده في مملكة ايطاليا ولكن كان الايمبراطور شرلكان قوى العزم والقلب لا يرده شيء عن تنجيز ما ازمع عليه فرفض قول البابا وتظلم منه حيث انه هو الذي دعاه الى الاغارة على دوقية ميلان قبل توليته منصب البابا فلما أبى الايمبراطور ان يقبل قول البابا عقد فورا مع ملك فرانسا مشارطة بانه لا ينصر احد الحزبين على الآخر وكانت جمهورية فلورنسة داخلة في ضمن تلك المشارطة بمعنى انها تخلت عن الفريقين

مطلب اغارة فرنسيس على مملكة نابلي

فبهذه المشارطة تخلى عن فريق الايمبراطور دولتان قويتان اعني البابا وجمهورية فلورنسة واذن للملك فرنسيس ان يمر بجيشه من اراضيهما فلما رآى هذا الملك ان ذلك يعينه اتم اعانة عزم على شن الغارة على مملكة نابلي مؤملا انه يسهل عليه الاستيلاء عليها لانها ليست محصنة والايمبراطور غير ملتفت اليها ولو فرض انه لا يمكنه التغلب عليها فله في الهجوم عليها مآرب اخرى وهي ان عاملها اى نائب الايمبراطور فيها يطلب ان يحضر اليه فريق من العساكر الايمبراطورية الموجودة في دوقية ميلان وبناء على ذلك ارسل الى مملكة نابلي ستة آلاف من العساكر وجعل عليهم رئيسا الامير حنا ستوار وهو دوق البانيه ولكن ادرك الامير بسكير ان ذلك كله مشاغلة وملاهاة ورآى ان دوقية ميلان هي مركز العمل فامر الامير لانواى بانه لا يلتفت الى ذلك ولا يغتر به لانه خداع ومحاولة بل يجعل قتال الملك فرنسيس مطمح نظره ولا يلتفت الى غيره حيث انه قد اضعف نفسه بنفسه اذ مزق جيشه بدون ثمرة مجزوم بها وفصل عنه تلك السرية التي

سنة ١٥٢٤

ارسلها الى نابلى واستحق بذلك لوم الناس عليه من حيث ان عادته ان يخاطر بنفسه ويعزم على امور تعد من الامانى الباطلة

مطلب
مابذله كل من الامير پسكير والامير دى بوربون من عظيم الجهد والعزم

ولنرجع الى الكلام على مدينة باويا فنقول ان محافظيها كانوا فى كرب شديد وضنك عظيم حيث اخذت ذخائرهم ولوازمهم الحربية فى النقصان وكانت العساكر الالمانية منهم لم تصرف لها ماهياتها منذ سبعة اشهر كاملة فعصت وقالت انها تسلم المدينة الى العدو ان لم تدفع لها ماهياتها حتى ان الامير ليوه مع نباهته وحسن سياسته ونفوذ كلمته عليهم عسر عليه ان يمنعها عن العصيان فلما علم رؤساء عساكر الايمبراطورية انه فى كرب شديد بادروا بالمسير اليه ليعينوه وكان لا يمكنهم حينئذ ان يفعلوا احسن من ذلك فسار اليه الامير دى بوربون ومعه اثنا عشر الفا من الالمانيين وحث السير حتى وصل فى اقرب مدة الى بلاد لومبردية وانضم مع هؤلاء العساكر الى جيش الايمبراطور فكاد يساوى فى العدة جيش الفرنساوية بعد أن انفصلت عنه ستة الآلاف المبعوثة الى نابلى مع دوق البانية خصوصا وكان جيش الفرنساوية قد تعب وكانت همته لطول المحاصرة ومضار الشتاء ولكن كان جيش الايمبراطور كلما ازداد عددا ازداد فيه القحط واحتاج الى اموال ومصاريف كان لا يمكن تحصيلها فكان لا يتيسر تحصيل الاموال اللازمة لمصاريف العساكر بل ولا ما يلزم لنقل الاسلحة والمهمات الحربية والذخائر الا ان مهارة رؤساء الايمبراطور سدت مسد ذلك كله حيث ابدوا من العزم والحزم ما يجل عن الوصف وشرحوا صدور العساكر بمواعيد مزخرفة مزينة حتى استمالوا قلوبهم وساروا بهم الى ملاقاة العدو من غير أن تدفع لهم ماهياتهم لاسيما وكانوا قد زخرفوا لهم القول حيث ابدوا لهم انهم سيسيرون بهم الى الاعداء بدون فتور ولا تراخ وانه ستكون لهم النصرة ويغتنمون مغنما عظيما من سلب جيش الفرنساوية ويأخذون ما يكافئهم حق المكافئة على تعبهم وبذل جهدهم وزيادة على ذلك كان العساكر يرون انهم ان عصوا اوخرجوا من الجيش ضاعت عليهم ماهياتهم المتأخرة وكانوا

فى

سنة ١٥٢٤

فى قلق عظيم ليفوزوا بالكنوز الواسعة التى وعدهم بها الرؤساء فطلبوا بانفسهم الحرب وملاقاة العدو واظهروا من القلق والجزع مايصدر عادة عمن يتصدى للقتال لقصد السلب والنهب والاغتنام

مطلب
هجوم الجيش الامبراطورى على عساكر الفرنساوية فى ٣ من شهر سباط

فلما طلب العساكر الحرب بانفسهم لم يمهلهم الرؤساء حتى تنترهم تهم بل حاذروا ضياع تلك الفرصة وتوجهوا بهم فورا الى معسكر الفرنساوية فلما بلغ الملك فرنسيس ان جيش الامبراطور قادم اليه جمع رؤساء جيشه وعقد مشورة حرب للمذاكرة فيما يلزم عمله فانحط رأى ارباب الدراية والخبرة من ضباطه على ان يسافر مع جيشه ولا يتصدى لقتال جيش تعضده سواعد اليأس والقنوط لان القائلين بذلك كانوا يرون ان رؤساء الجيش الامبراطورى اذا لم يجدوا احدا يحاربونه يختل نظامهم وتعصى عليهم العساكر بسبب عدم صرف ماهياتهم فيضطرون الى تسريحهم لانه لم يمنعهم عن العصيان الا تعلق آمالهم بأخذ سلب اعدائهم اوان العساكر لايرون ماوعدوا به فيأخذون فى العصيان ولا يلتفت رؤساؤهم الا الى مايأمنون به على انفسهم وبالجملة فكان رأيهم هو أن اشاروا على الملك فرنسيس ان يتحصن فى محل حصين حتى تأتيه العساكر الجديدة التى ارسل يطلبها من مملكة فرانسا ومن السويسة فانه حينئذ يمكنه بدون مشقة ولاسفك دم ان يتغلب على دوقية ميلان قبل فراغ فصل الربيع ولكن كان رأى الامير بونيويطة بخلاف ذلك فكانه قدسبق فى الازل انه لايبدى مدة هذا الحرب رأيا الا ويكون رأى سوء وشؤم على مملكة فرانسا وذلك انه راى ان من العار للملك فرنسيس كونه يترك مدينة باويا بعد أن حاصرها مدة مستطيلة ويهرب من جيش اقل عددا من جيشه وقال ان الحرب اولى من ترك مشروع تثبت به للملك شهرة عظيمة تبقى مدى الدهور والايام لاسيما وكان الملك فرنسيس يحافظ على اسباب الشرف ويراعى مفاخر العرض وكان قبل ذلك قداخبر غير مرة بانه اما ان يأخذ مدينة باويا او يهلك تحت اسوارها فرآى انه لايليق به العدول عما عزم عليه ولم يصغ لقول من اشار عليه بالرحيل والالتجاء

سنة ١٥٢٥

فى محل حصين بل مكث تحت اسوار باويا ينتظر قدوم جيش الايمبراطور

طلب واقعة باويا

فلما وصل رؤساء جيش الايمبراطور بعساكرهم الى معسكر الفرنساوية وجدوه على غاية من التحصين والاحكام حتى انهم مع ما كان لهم من الاسباب التى تدعوهم الى الحمل على العدو بدون مهلة ولا تراخ مكثوا زمنا طويلا وهم فى تردد وحيرة لكنهم لما رأوا ان المحصورين بالمدينة قد ضاق بهم الحال واستولى على قلوبهم اليأس ورأوا ان الجيش قد ضجر من طول المدة خاطروا بانفسهم وشرعوا فى القتال وتصادم الجيشان بحمية لم يسبق مثلها فى ميدان حرب ولم يسبق ان جيشين آخرين اظهرا من العزم عند اللقاء ما اظهره كل من هذين الجيشين ليثبت لنفسه النصرة على الآخر ولم تسبق واقعة ترتب عليها من نتائج النصرة والهزيمة ما يضاهى نتائج هذه الواقعة ولا واقعة اخرى كان الفريقان فيها يبذلان غاية جهدهما لما بينهما من الغيرة والحقد والبغضاء الملية وغير ذلك من الاسباب الاخرى التى تحمل الانسان على كونه يبذل ما فوق طاقته فمن جهة كنت ترى ملكا فى عنفوان شبابه تعضده ابطال الامراء

٢٤ من شهر سباط

والاشراف الذين يبذلون نفيس نفوسهم فى محبته ورعايا كانت حميتهم لا تزال فى نمو وازدياد من مقاومة العدو لهم وكان قتالهم لتحصيل الفخر وشرف العرض ومن جهة اخرى كنت ترى فريقا آخر مؤلفا من ابطال اعرف بفنون العسكرية من الفريق الاول ورؤساؤهم اكثر مهارة وحزما وكانوا جميعا يقاتلون مع الحمية التى تتسلطن على القلب عند اليأس والضرورة ومع ذلك لم يمكن لجيش الايمبراطور فى مبدء الامر أن يثبت امام جيش الفرنساوية حتى ان اعظم اورطة واحكمها انتظاما واصطفافا اخذت فى التزلزل والتقهقر الا ان الدهر أدبر عن الفرنساوية بعد الاقبال وتغير الحال فى الحال فان جميع العساكر السويسية الذين كانوا مع جيش الفرنساوية نسوا ما اكتسبته ملتهم من الشهرة والفخار بسبب الامانة والشجاعة وحملهم الجبن على ترك معسكرهم فعند ذلك خرج الامير ليوه مع عساكره من المدينة وحمل على ساقة الجيش الفرنساوى

سنة ١٥٢٥م

حملة منكرة فاختل نظامها وتفرقت صفوفها وحمل ايضا الامير پسكير مع خيالة الايمبراطور على الخيالة الفرنساوية وكانت خيالة الايمبراطور من الالمانيين وكان الامير پسكير لحزمه وسياسته قد جعل فى خلال هؤلاء الخيالة جماغفيرا من المشاة الاسبانيولية وكان هؤلاء المشاة متسلحين بقربانات ثقيلة فاقتحم الامير پسكير صفوف الخيالة الفرنساوية بواسطة طرق حربية جديدة لم تكن تخطر ببال الفرنساوية فانهزم عند ذلك جيشهم من كل جهة حتى لم تحصل منهم مقاومة الا فى المحل الذى كان به الملك فرنسيس وبالجملة فصار هذا الملك لا يقاتل لتحصيل الشرف ولا للفخر والنصر وانما كان يقاتل لمجرد الذب عن نفسه فجرح عدة جروح اوهنت قواه وسقط من فوق جواده بعد أن قتل تحته ومع ذلك لم يزل يقاتل ويدافع عن نفسه مع عزم الابطال وبطش الرجال وكان قد اجتمع حوله من الضباط عدة افراد وابدوا العجب العجاب وفدوا الملك بارواحهم لكنهم قتلوا حوله واحدا بعد واحد وكان من جملتهم الامير بونيويطة الذى كان سببا فى تلك المصائب الكبيرة فلم يتأسف احد على قتله وكاد الملك يكون وحده فى المدافعة عن نفسه وكلت قواه من الطعن والضرب لاسيما والعساكر الاسبانيوليون الذين كانوا محدقين به اشتد غيظهم وغضبهم من مدافعته وثباته امامهم وهم لا يستطيعون القرب منه ولا يعرفون من هو فمر به حينئذ الامير بومپيران احد البيكزادات الفرنساوية وكان قد دخل فى خدمة الايمبراطور مع بوربون وخرج عن طاعة الملك فرنسيس فلما رآه متحيرا بين العساكر انقض عليه ومنعهم عنه واقسم عليه ان يذهب معه الى الدوق دى بوربون لانه كان قريبا منه فأبى فرنسيس وان كان فى خطب عظيم وكرب شديد ورآى ان ذلك منقصة له وتدنيس لعرضه وموجب لشماتة عدوه لكنه رآى الامير لانواى قريبا منه فناداه وسلم له حسامه على حسب العادة فخر لانواى ليقبل يد الملك واخذ الحسام مع الادب والاحترام ثم اخرج حسامه ودفعه اليه قائلا انه لا ينبغى لملك عظيم ان يبقى بدون سلاح امام احد رعايا الايمبراطور

مطلب
انهزام جيش الفرنساوية

مطلب
اسر الملك فرنسيس

وقتل من الفرنساوية عشرة آلاف فى هذه الواقعة المعدودة من اكبر المصائب التى نزلت بمملكة فرانسا وهلك فيها معظم الاشراف والبيكزادات حيث آثروا القتل على الفرار الذى يورثهم الخزى والعار ويدنس عرضهم واسر مقدار جسيم من جملته هنرى دالبير الذى كان سابقا ملكا على نوار وفرت طائفة صغيرة من ساقة الجيش مع رئيسها الدوق دالنسون وحين وصل خبر انهزام الفرنساوية الى المحافظين الذين كانوا بمدينة ميلان تركوا المدينة وولوا مدبرين قبل أن يتعرض لهم احد وبالجملة فلم تمض خمسة عشر يوما بعد تلك الواقعة الا ولم يبق ببلاد ايطاليا احد من الفرنساوية سنة ١٥٢٥

واما لانواى فكان يعامل الملك فرنسيس معاملة الملوك وابدى فى اكرامه ما يليق بمقامه ويلايم طبيعته لكنه كان يحفظه كل الحفظ ويلتفت اليه غاية الالتفات خوفا ان يفر منه او يقبض عليه عساكر الايمبراطور ويأخذوه رهنا عندهم حتى تدفع اليهم ماهيا تهم الباقية لهم ولاجل الاحتراس من هذين الامرين اخذ بيد الملك فرنسيس فى اليوم الثانى من الواقعة وادخله فى قلعة بيزيغيتون التى بقرب مدينة كريمون واناط بمحافظته الامير فرديناند الرسون سر عسكر المشاة الاسبانيولية وكان ذا مروءة كبيرة وعرض فعامل الملك بما تقتضيه جلالة قدره وشدد فى محافظته حتى كانه وديعة عزيزة يحاذر ذلك الامير أن يفرط فيها

ولكن لما كان الملك فرنسيس طيب النفس حسن الظن خطر بباله ان الايمبراطور شرلكان مثله متصف بهذه الاوصاف فكان يود ان يبلغه ماهو عليه من سوء الحال ظنا منه انه اذا علم بذلك رق لحاله وخلى سبيله وكان رؤساء عسكر الايمبراطور يودون ايضا أن يخبروه بالنصرة العظيمة التى حصلت لهم ويستفهموا منه عما ينبغى لهم فعله وفى ذلك الفصل كان طريق البر اقرب الطرق وامنها فى توصيل الاخبار الى بلاد اسبانيا فاعطى الملك فرنسيس للامير بانالوزه الذى ارسله لانواى الى الايمبراطور ورقة

سنة ١٥٢٥

طريق ليمر بها من ارض فرانسا بدون معارضة

مطلب
حالة الامبراطور حين وصلته الاخبار بنصرة جيشه فى عشرة من شهر آدار

فلما وصل هذا السفير الى الامبراطور واعطاه الاخبار تلقاها مع التؤدة والسكون بحيث لو كان ذلك عن نية خالصة وطوية سليمة لاكسبه شرفا وفخرا اكثر من اعظم نصرة وذلك انه لم يفرح بظفر جيشه ولم يظهر منه امارات كبر وتعاظم ودلائل عظم وشماتة بل ذهب فورا الى الكنيسة ومكث ساعة كاملة وهو يدعو الله تعالى ويشكره ثم عاد الى ديوانه فرآه مشحونا من اكابر اسبانيا واعيانها ومن سفراء الملوك والكل مجتمعون ليهنوه بالنصرة فقبل منهم التهنئة بوجه التؤدة والسكون واظهر التأسف على اسر الملك فرنسيس قائلا انه عبرة عظيمة للملوك والسلاطين تريهم انه لا ينبغى لاحد ان يأمن من صروف الزمان ونكبات الحدثان ومنع ان تقام مواسم وافراح او تجعل زينة فى مدائن دوله وبنادرها قائلا انه لا ينبغى الفرح فى مثل هذا الحرب حيث انه بين الملل النصرانية وانما الفرح والسرور سيكون بعد النصرة على جيوش الاسلام وبالجملة فشوهد من حاله انه لم يفرح بتلك النصرة الا لكونه صار بها ذا اقتدار على تسكين بلاد اوروبا فى ظل الوية الصلح والامان

مطلب
مقاصده التى عزم عليها

ولكن كان شرلكان يضمر خلاف ما يظهر اذ كان الطمع نصب عينيه وكان خاليا عن الحلم والكرم والمروءة البشرية فانه بمجرد ما بلغه الخبر بانتصار جيشه فى واقعة پاويا حصل له باطنا من الفرح والسرور ما يجل عن الوصف وتعلقت اماله بمشروعات جليلة ومقاصد عظيمة ولكن حيث كان يعلم انه يصعب عليه تتميمها رآى من اللازم الضرورى ان لا يظهر ما اضمره مادام يأخذ اهبته ويجهز جميع المواد اللازمة ظانا انه بذلك يمكنه اخفاء اغراضه الباطنية وسترها عن نظر ملوك اوروبا

مطلب
غم اهالى مملكة فرانسا

هذا وكانت مملكة فرانسا فى غم جديد وحزن شديد لانهزام جيشها واسر ملكها حيث كتب الملك بنفسه الخبر بانهزامه فى كتاب ارسله الى والدته صحبة الامير پاناالوزه وكان لا يشتمل الا على عبارة واحدة وهى (نفيد الوالدة اننا فقدنا كل شىء ما عدا الشرف والعرض) وقد حكى من فر من العساكر

سنة ١٥٢٥

ورجع من بلاد ايطاليا جميع ما حصل فى تلك الواقعة المشؤومة فحزن اهالى المملكة كافة مما وقع لعساكرهم وصاروا فى غم شديد وكانت مملكة فرانسا حين اسر ملكها الامال بجزآتها ولا عساكرلها ولا ضباط يحسنون الادارة الحربية والسياسة العسكرية وكانت فى قبضة اعداء عديدين حتى صارت على شفا جرف ولم ينقذها فى الواقع ونفس الامر من تلك النكبة الكبيرة الا معارف الاميرة لويزة ام الملك فرنسيس وعزمها وكانت نائبة عن الملك فيها كما سبق فقد انقذتها تلك المرة وان كانت عرضتها للخطر غير مرة ايثارا لشهوتها وحظ نفسها وذلك ان هذه الاميرة المشهورة بالشفقة على ولدها لم تترك نفسها لاستيلاء الحزن والغم عليها حتى تفترهمتها بل اظهرت ايضا من السياسة المحكمة وحسن التدبير ما اعجب فحول الرجال فى السياسة وحير عقول ارباب الكياسة والرياسة فجمعت العساكر الذين سلموا من من واقعة پاويا ودفعت فدآء الاسارى ودفعت لهم ما كان متأخرا من ماهياتهم وامدتهم بجميع ما يلزم حتى صاروا مستعدين للحرب والقتال وجمعت عساكر جديدة وحصنت الضواحى والرساتيق وعرفت بحزمها وعزمها ان تحصل المبالغ اللازمة لتتميم هذه الاشياء الجسيمة وبذلت غاية جهدها فى استمالة هنرى ملك انكلترة الى حزبها فمن هذه الحيثية اخذ الرجاء ينعش قلوب الفرنساوية

مطلب
حسن سياسة النائبة فى المملكة

واما الملك هنرى فانه لما كان يتعاهد تارة مع الامبراطور واخرى مع ملك فرانسا لم يتخذ له غرضا سياسيا تنتهى اليه مشروعاته ويكون مطمح نظره فى افعاله بل كان يقتصر عادة على فعل ما تقتضيه الاحوال ولكن قد حصلت وقائع عرف بها انه من اللازم الضرورى نصب ميزان تعادل بين قوى الفريقين المتشاحنين يعنى فريق الامبراطور وفريق ملك فرانسا حتى انه رآى فيما بعد ان هذا الامر متعين عليه لا يقوم به غيره وانه لا ينبغى له اهماله فجعله مطمح نظره وجعل ابقاء التعادل بين قوى الفريقين المذكورين نصب عينيه وذلك ان سبب معاهدته قبل ذلك مع الامبراطور هو انه كان يظن انه يمكنه اخذ

مطلب
ما قام بنفس الملك هنرى الثامن بسبب نصرة الامبراطور فى واقعة پاويا

بعض اراضى من مملكة فرانسا كانت قبله لملوك انكلترة فباغتراره سنة ١٥٢٥،
بهذه الامانى من اخذ تلك البلاد تعاهد مع الايمبراطور وهم باعانته على الملك
فرنسيس لكنه كان لا يظن ان ذلك يؤدى الى انهزام جيش الفرنساوية كل
الانهزام كما حصل فى واقعة باويا لان هذه الواقعة جرت الى ضعف قوى
احد الحزبين بل محقتها بالكلية ورآى ان هذه الواقعة يمكن ان تؤدى الى خدش
المذهب السياسى الذى هو اصل فى ابقاء التعادل بين ملوك الافرنج فتحير
فى امره وحصل له فزع كبير حيث رآى ان بلاد اوروبا صار يخشى عليها
ان تقع فى ايدى الايمبراطور شرلكان اذ هو بعد انتصاره على جيوش
الفرنساوية صار عظيم الشوكة والبأس لا قدرة لاحد من ملوك الافرنج على
مقاومته وصده عن المشروعات التى تضر بالملة النصرانية ثم انه بالنظر لكونه
حليف الايمبراطور ومتعاهدا معه كان يسوغ له ان يؤمل مقاسمته فى بلاد
الملك المأسور لكنه كان يلاحظ ان الايمبراطور شديد الحرص والطمع فربما
تكون القسمة بينهما ضيزى او انه لا يمكنه حفظ ما يخصه فيها وزيادة على ذلك
رآى انه ان ترك الايمبراطور يفعل ما بداله مع الملك فرنسيس واخذ من مملكة
فرانسا بعض اراض عظيمة واضافها الى الممالك الكبيرة الواسعة التى كانت
حينئذ تحت يده يزيد طغيانا وقسوة ويخشى منه على مملكة انكلترة اكثر من
ملوك فرانسا الاقدمين الذين كانوا يشنون عليها الغارات فى سائر
الاوقات ويؤدى ذلك ايضا الى انعدام ميزان التعادل بين ملوك الافرنج مع
ان هذا الميزان هو اصل شوكة انكلترة ومنشأ صولتها ونفوذ كلمتها بل
وبدونه لا تأمن على نفسها وزيادة على ذلك رق الملك هنرى لحال فرنسيس
فى وقوعه فى مثل هذه النكبة خصوصا وقد بلغه انه ابدى فى واقعة باويا من
الشجاعة ما لا مزيد عليه فازداد بذلك رأفة وشفقة عليه وكانت عادته
الميل الى مكارم الاخلاق فطمع ان يثبت لنفسه الفخار بين ممالك الافرنج بكونه
انقذ عدوا مهزوما هذا ولا يخفى ان وزيره ولسى كان يبذل غاية جهده
فى استمالته الى حزب الملك فرنسيس لان هذا الوزير لما خاب امله فى نيل

سنة ١٥٢٥

منصب البابا ولولاه اثنان غيره مع ان الايمبراطور كان قد وعده بانه عند خلوه لا يولي عليه احد سواه غضب من الايمبراطور واعتقد انه هو السبب في عدم توليته لذلك المنصب وكان ينتظر حصول فرصة تعينه على الانتقام منه فلما طرأت تلك الاحوال عدها من اعظم الاشياء موقعا لتنجيز ما كان عزم عليه لاسيما وقد ارسلت الاميرة لويزة والدة الملك فرنسيس الى هذا الوزير والى الملك هنرى تستعطفهما وتدعوهما الى اعانتها على الايمبراطور فوعدها الملك هنرى سرا بانه من الآن فصاعدا لا يعين الايمبراطور على ايذاء مملكة فرانسا واضرارها مادامت على حالتها المشؤومة التي آلت اليها بعد انهزام جيشها في واقعة باويا لكنه طلب منها ان تعده بان لا ترضى بتمزيق مملكتها وتشتيت بلادها عن بعضها ولو كان ذلك بقصد انقاذ ابنها من الاسر والرق

ولكن بسبب المعاهدة التي كانت بينه وبين الايمبراطور لزمه ان يسلك سننا بحيث لا تظهر عليه آثار ما وعد به الاميرة لويزة فامر ان تجعل في بلاده مواسم واعياد عامة لادخال السرور والفرح على كافة الناس لنصرة الايمبراطور حتى كانه يود ان تحصل فرصة تعينه على تخريب مملكة الفرنساوية وتدميرها بالكلية وبعث سفراء من طرفه الى مدينة مدريد كرسى اسبانيا بقصد تهنئة الايمبراطور بالنصرة وليذكروه بان الملك هنرى له الحق في اقتسام ثمراتها لانه حليفه ومعاهده وكتب له ايضا ما معناه انه بموجب ما انحط عليه الرأى وتقرر في المشارطة يلزم ان يسير الايمبراطور مع جيش عظيم ليتغلب على اقليم غيينة ويسلمه اليه وانه يريد ارسال بنته الاميرة مارية الى بلاد اسبانيا او الى مملكة البلاد الواطية لتكون تربيتها بمعرفة الايمبراطور حتى ينعقد نكاحها بموجب ما هو مقرر في المشارطة ويطلب من الايمبراطور ايضا ان يبعث اليه الملك فرنسيس لانه بموجب المشارطة المنعقدة بمدينة ابروجه يجب على كل من المتعاهدين ان يسلم الى المظلوم من ظلمه او تعدى على حقوقه * هذا مضمون ما كتبه الملك هنرى

الى

سنة ١٥٢٥ الى الايمبراطور وبعثه اليه مع السفراء المتقدم ذكرهم ولكن كان يعلم انه لا يجيبه في شيء من ذلك كله لانه يباين مزاج مصلحته بل ولا يستطيع الاجابة لان ارباب دولته يمنعونه عن ذلك فلذا قيل ان الملك هنرى لم يطلب ذلك من الايمبراطور الا ليرده فيتعلل عليه ويتعاهد مع مملكة فرانسا على حسب ما تقتضيه الاحوال

مطلب ما قام بنفوس اهالى دول ايطاليا بسبب نصرة الايمبراطور

وبمجرد ما بلغ دول ايطاليا ان جيش الايمبراطور قد انتصر في واقعة باويا حصل فيها فزع كبير وغم شديد لكافة الناس لان هذه النصرة ترتب عليها اعدام تعادل قوى الفريقين وكان هذا التعادل نصب اعينهم في جميع اداراتهم وسياساتهم اذ هو اصل اطمئنانهم وامنهم على دولهم وبلادهم فبعد نصرة الايمبراطور على الملك فرنسيس رأوا انهم صاروا عرضة اكثر من غيرهم لان يلحقهم بطش الايمبراطور الذى كانت اطماعه دائما في النمو والازدياد خصوصا بعد هذه النصرة وقويت شوكته عما كانت عليه قبل ذلك لا سيما وكان قد ظهر لهم فيه علامات كثيرة دلتهم على انه بوصف كونه ايمبراطورا او ملكا على بلاد نابلى لا مانع أن يدّعى دعوى عريضة بتطابه لمعظم بلاد ايطاليا ويسهل عليه ان يظفر بمرامه فيما يدّعى به فيخشى منه أن يضر ببلادهم كل الضرر واوقعهم ذلك في الحيرة والرعب فاخذوا يبحثون عن وسايط بها يمكنهم ان يعرّضوا له قوة عظيمة فيها كفاءة لمنعه وصده ولكن لم يسلكوا في ذلك مسلك الحزم وسداد الرأى فلم يحصل لهم فلاح ولا نجاح وذلك ان البابا كليمان لم يجر على ما اتفق عليه مع اهل البنادقة في شأن حفظ بلاد ايطاليا وابقاء حريتها بل حمله الخوف من الامير لانواى اوغروره بالمواعيد

في غرة شهر نيسان

المزخرفة التى وعده بها على ان يعدل عما صمم عليه مع البنادقيين وعقد مشارطة خصوصية بينه وبين هذا الامير والتزم فيها ان يدفع في الحال مبلغا جسيما من المال في نظير بعض شروط طلبها فلما دفع اليه ذلك المبلغ وارسل تلك المشارطة الى الايمبراطور أبى ان يقرها فاستوجب البابا سخط الناس عليه بكونه آثر مصلحة نفسه على المصلحة العامة وبكونه ارتكب من

الدناءة ما اكسبه الخزى والعار من غيران يعود عليه ثمرة من ذلك

مطلب
قيام جيش الايمبراطور وخروجه عن الطاعة

ومع ان هذا المبلغ قد اخذ من البابا بطريق التحيل والخداع الذى يدنس العرض ويورث المعرة لصاحبه نقول انه كان له عظيم نفع حيث ان وقوعه فى يد الامير لانواى قد وافق وقوع فتنة بين الجيش فصرفه على العساكر وسكن به هذه الفتنة فكان ذلك سببا فى نجاته من الخطر وذلك انه بعد انهزام جيش الفرنساوية ظن العساكر الالمانيون الذين دافعوا عن مدينة باويا حق المدافعة انه بفخارهم الذى اكتسبوه بشجاعتهم حق لهم ان يطغوا ويبغوا ويفعلوا مالا ترضاه النفوس الشريفة من السفه والوقاحة فطلبوا وفاء ما كانوا وعدوا به قبل الحرب فحصلت لهم محاولة من جهة حكامهم فاستولوا على مدينة باويا وصمموا على ابقائها بايديهم على سبيل الرهن حتى تصرف لهم ماهياتهم وكان يظهر من باقى الجيش انه يجنح الى اعانتهم لا الى قمعهم ولكن سكن الامير لانواى هذه الفتنة بصرفه عليهم المبلغ الذى اخذه من البابا ولما رآى انه ربما يتعذر عليه فيما بعد ان يصرف لهم ماهياتهم شهرا بشهر بدون تعويق فيعصون عليه ثانيا ورآى من الجائز انهم حين عصيانهم ربما قبضوا على الملك فرنسيس الذى كان اسيرا عنده استحسن ان يسرحهم جميعا المانيين وايطاليين ولا يبقى منهم احدا فى خدمة الايمبراطور ومن العجيب وان كان ملايما لما كان جاريا فى معظم الممالك الافرنجية فى القرن السادس عشر ان اغلب ملوك الافرنج كانوا يخشون ان يهجم الايمبراطور عليهم ويأخذ بلادهم وكان هو فى الحقيقة مصمما على ذلك مع ان ايراداته كانت قليلة جدا بحيث لا تفى بمصاريف هذا الجيش الذى لا يزيد على اربعة وعشرين الفا

مطلب
مذاكرة الايمبراطور فيما يكون به تحصيل فوائد جليلة من نصرته على الملك فرنسيس

هذا ولا يخفى ان الايمبراطور شرلكان لم يبق على ما كان يتكلفه اولا من اظهار التؤدة وعدم اظهار الفرح حين بلغه نصرة جيشه بل عدل عن ذلك وصار يبذل غاية جهده حتى يستفيد من مصائب خصمه الفوائد الجليلة وقد اشار عليه بعض ندمائه وارباب ديوانه ان يعامل الملك فرنسيس معاملة اهل العفو والحلم وان يترك دأب الشامتين عند النوائب ولا يكلف الملك

فرنسيس

فرنسيس بامور صعبة بل يطلقه لتكون بينهما روابط المحبة الاكيدة لان روابط حسن الصنيع اعظم واثبت من كل رابطة تكون ناشئة عن المواثيق التى تحصل بمحض الالزام والاكراه لكن ربما كان مثل هذا الحلم لا يوافق الاغراض السياسية خصوصا وكانت هذه الصفات لا تلايم طبيعة هذا الايمبراطور فمن ثم شق عليه ان يقبل نصح هذا الفريق واما الفريق الآخر وهو الجمهور فكان رأيهم موافقا لرأيه فلذا قبله منهم بدون توقف الا انه لم يجر فى مقاصده على منهج العزم والهمة وذلك انه فضلا عن كونه يبذل جهده ويدخل فى مملكة فرانسا مع العساكر الاسبانيولية وعساكر البلاد الواطية ويغير على دول ايطاليا قبل ان تفيق من الدهشة التى اوقعها فيها نجاح عساكره فى واقعة باويا سلك سبيل التحيل والخداع واضاع وقته فى المذاكرات والمداولات التى لا تجدى نفعا ولكن لم يكن الحامل له على سلوك هذا السبيل هو مجرد ميله الى ذلك بل الجأته اليه الضرورة ايضا وذلك انه لقلة امواله كان لا يمكنه تحصيل المواد والمهمات اللازمة لتجنيد جيش عظيم لاسيما وكان لم يذهب ابدا مع جيوشه فى الحروب والوقائع بل كان يجعل عليها سرعسكر ينوب عنه فكان لا يميل الى الحرب كل الميل ولا يجعل به وانما كان يعول على المذاكرات وآراء المشورات لانه كان فى ميدانها بمكانة عظيمة وزيادة على ذلك اغتر بنصرته فى واقعة باويا كل الغرور حتى كان يتراءى منه اعتقاد انه دمر قوى مملكة فرانسا واقتدر آتنها وانه عن قريب ستقع تلك المملكة بين يديه كما وقع ملكها

مطلب
الشروط الصعبة التى طلبها من الملك فرنسيس

ولما كان غروره يزين له تلك الآمال صمم على ان لا يبيع حرية الملك فرنسيس الا باغلى ثمن وعزم على عدم اطلاقه من الاسر الا اذا املى عليه ماشاء من الشروط فامر القونتة روكس ان يذهب الى الملك فرنسيس فى سجنه ويخبره على لسانه انه لا يطلق من الاسر الا اذا قبل هذه الشروط وهى ان يرد الى الايمبراطور اقليم بورغونيا لانه اخذ من آبائه واجداده بمحض الافتيات والتعدى وان يتخلى عن اقليم بروفنسة ودوقية دوفينة لتتكون منهما

مملكة مستقلة تعطى للدوق دى بوربون وان يسلم الملك انكلترة فى جميع ما كان يطلبه منه وان يبطل من الآن فصاعدا جميع ما يدعى به من الحقوق فى مملكة نابلى ودوقية ميلان وغيرهما من دول ايطاليا هذا وكان الملك فرنسيس يظن ان الايمبراطور سيعامله معاملة الملوك ويطلقه على احسن الوجوه فلما عرضت عليه تلك الشروط غضب غضبا شديدا وسل حسامه قائلا الا اليق بالملك ان يموت هكذا واخذ يقتل نفسه واذا بالامير الرسون قام فزعا وقبض على يد الملك حتى سكن غضبه وعاد الى عقله وافاد انه يؤثر الاسر على شرآء حريته بهذا الثمن الذى يخس بمقامه مدة حياته ويدنس عرضه سنة ١٥٢٥م

ولما وقف الملك فرنسيس على حقيقة ما رب الايمبراطور اخذت آلامه فى الزيادة وشق عليه ان يمكث اسيرا عند الايمبراطور ولولا ما كان يتسلى به ليئس كل اليأس وجزم ان لا مناص وهو انه اعتقد ان الشروط التى عرضها عليه القونتة روكس لم تكن صادرة من نفس الايمبراطور وانما حكم بها ارباب ديوان اسبانيا وانه اذا قابل الايمبراطور بنفسه يطلقه من الاسر بخلاف ما اذا كان الوزراء هم الواسطة بينهما فانه تطول عليه المدة وبناء على ذلك طلب ان يسافر الى مدينة مدريد ليقابل الايمبراطور وان كان هذا يفضى به الى ان يكون كاعجوبة يتفرج عليها الخاص والعام من الاسبانيوليين فاقره الامير لانواى على ذلك بل رغبه فيه واراه كيف يسلك فى هذا الامر وكان الملك فرنسيس فى قلق عظيم حتى أتى من عنده بالسفن اللازمة للسفر لان الايمبراطور شرلكان لم يكن حينئذ له اقتدار على تجهيز دونمة ايا ما كانت فسافر الامير لانواى مع الملك فرنسيس الى جنويزة ولم يخبر بقصده الامير دى بوربون ولا الامير بسكير وانما تعلل بكونه يريد ان ينقل فرنسيس الى نابلى فبمجرد ان اقلعت السفن امر الملاحين ان يتوجهوا الى اسبانيا وكانت الريح مساعدة فقذفت السفن الى نواحى مملكة فرانسا فصار فرنسيس يلتفت اليها مع التحسر والتأسف ويرجع بصره

واحشاؤه تتلظى وبعد ايام قليلة رسوا على مدينة برسلونة فصدر امر من الامبراطور بوضع الملك فرنسيس في السراية الملوكية التي بمدينة مدريد وامر الامير الرسون بحفظه وخفره فقام بذلك مع التيقظ الذي كان عليه في السجن الاول وبعد وصول ملك فرانسا الى مدينة مدريد ببعض ايام علم انه لا ينبغي له ان يعتمد على حلم الامبراطور وكرم نفسه وانما تسلى بالمشارطة التي انعقدت بين امه الاميرة لويزة والملك هنرى الثامن مؤملا ان يطلق بها من اسره وذلك ان الامور التي طلبها ملك انكلترة من الامبراطور الغاها في مدينة مدريد لان الامبراطور لغروره بالنصرة صار لا يظهر لملك انكلترة الاحترام والتبجيل الذي كان يظهره له سابقا وكان الوزير ولسى متكبرا كسيده يحب من يتملق له ويداهنه فاغتاظ كل الغيظ من الامبراطور حيث قطع المودة وعلائق المحبة التي كان يظهرها له سابقا وهذه الاسباب قوت الاسباب التي ذكرتها آنفا فحملت الملك هنرى على عقد مشارطة مع الاميرة لويزة التزم فيها بالمدافعة عن مملكة فرانسا وحمايتها من الامبراطور وبذلك زالت جميع الاسباب التي كانت توجب العداوة بين انكلترة و فرانسا ووعد الملك هنرى ان يخلص فرنسيس من ورطة اسره

سنة ١٥٢٥ — ٢٤ شهر اب

مطلب — المشارطه المنعقدة بين مملكة فرانسا وملك انكلترة واعانة هذا الملك للمملكة المذكورة

وبينما كان الامبراطور في حيرة عظيمة بسبب تخلي ملك انكلترة عن حزبه اذ حصلت حادثة اخرى مشؤومة زادت بها حيرته وذلك ان مورون قنجلير ميلان كان يدبر سرا فتنة كبيرة لاعدام حكم الامبراطور من بلاد ايطاليا لان مورون وان كان يبغض الفرنساوية الا ان تلك البغضة زالت من قلبه بعد طردهم من بلاد ايطاليا وحصل له ايضا سرور من جعل الامير سفورس حاكما على دوقية ميلان لكنه اغتاظ حين توقف ديوان الامبراطور في تولية سفورس المذكور على دوقية ميلان وابدى عللا كثيرة في عدم تعجيله بتولية هذا الامير وكانت هذه العلل ظاهرها المحاولة والمخادعة فظن مورون ان قصد الامبراطور وارباب ديوانه من هذه

مطلب — الفتنة التي اوقعها مورون لاعدام حكم الامبراطور من بلاد ايطاليا

سنة ١٥٢٥

المحاولة ان يسلبوا من الامير سفورس دوقية ميلان مع انها اخذت من ايدى الفرنساوية لاجله وكان البابا واهل البنادقة يظنون ذلك ايضا فاراد شرلكان ان يزيل ذلك من قلوبهم فعجل باعطاء حكومة ميلان للامير سفورس لكن بشروط صعبة واحتراسات بموجبها كان يرى ان الامير المذكور صار من رعايا الايمبراطور لا من خراجي الايمبراطورية وصار اعتماده على بقاء هذه الدوقية بيده متوقفا على ارادة سيد طماع اعنى الايمبراطور فكان من الجائز ان الايمبراطور يأخذ منه تلك الدوقية وكان مورون يعلم انه اذا اخذها وضمها الى مملكة نابلى يخشى على حرية بلاد ايطاليا باجمعها بل ويخاف أن يفقد ما كان له حينئذ من الشوكة ونفوذ الكلمة وحيث كانت هذه الامور المرجفة قائمة بذهنه لاتنفك عنه اخذ يدبر ما يكون به انقاذ بلاد ايطاليا من حكم الايمبراطور وهذا الغرض كان يميل اليه ارباب السياسة من اهل ايطاليا فى ذلك العصر وكانوا يرغبون فيه كل الرغبة فرآى مورون انه اذا كان سببا فى خلاص مملكة نابلى من ايدى اهل اسبانيا يثبت له فخر كبير وشهرة عظيمة لاسيما وقد كان سببا ايضا فى طرد الفرنساوية من دوقية ميلان فبمجرد ما تعلقت آماله بتنجيز هذا الغرض سنح بذهنه طريق يسلكه فى هذا المعنى فاستحسنه وصمم عليه وان كان صعبا جدا لانه كان جسورا ماهرا لاتعوقه خطوب ولا تصده اخطار

مطلب مذاكرته مع الامير پسكير

هذا ولا يخفى ان كلا من الاميردى بوربون والامير پسكير كان قد حصل له غيظ شديد من كون الامير لانواى توجه بملك فرانسا الى اسبانيا من غير أن يخبرهما اما الدوق دى بوربون فخشى ان يحصل بين الايمبراطور والملك فرنسيس عقد مشارطة تضر بمصالحه فسافر فورا الى مدينة مدريد ليأمن من وقوع ذلك وبعد سفره بقى الامير پسكير وحده منوطا بحكم الجيش فلم يمكنه أن يترك بلاد ايطاليا لكنه كان فى كل وقت يظهر الغيظ من الامير لانواى ويتكلم فى حقه بامور تدل على بغضه وكراهته له وبعث الى الايمبراطور كتابا يذكر فيه ان لانواى لم ينتفع وقت الحرب ولم يظهر منه

سوى

سوى الجبن كما انه بعد الحرب لم يظهر منه سوى الوقاحة وقبح السلوك وزيادة سنة ١٥٢٥
على ذلك كثيرا ما كان الامير پسكير يتظلم من الامبراطور ويخبر انه لم يكافئه
ولم يجزه على خدمه واشغاله حتى ان مورون المتقدم اسس ما كان شارعا
فيه على غيظ الامير پسكير وذلك انه كان يعلم ان طمعه زائد عن الحد وله
فضل شهير وباع طويل في الحرب والصلح وله نفس شريفة وهمة عليه يقدم
على ما لا يمكن الاقدام عليه فيعود رافلا في حلل الظفر والنجاح وكان
معسكر جيش اسبانيا قريبا من مدينة ميلان فسهل على مورون
ان يتقابل مع الامير پسكير فقابله عدة مرات وفي كل مرة يتكلم معه في شأن
الحوادث التي اعقبت واقعة پاويا لان الامير پسكير كان يكثر دائما من
ذكر هذا المعنى فلما رأى مورون انه يظهر الغيظ والتظلم من فعل الامبراطور
اخذ يذكره جميع الامور التي يمكن ان تزيد في غيظه وغضبه فكان يبالغ له
في ظلم الامبراطور وعدم انصافه معه حيث آثر عليه الاسير لانواى وفوض له
امر ملك فرانسا فاخذه وسافر به الى اسبانيا ولم يشاوره مع انه هو
السبب في نصرة جيش الامبراطور فكان حقه ان يفوض له لا لغيره امور الملك
فرنسيس ما دام اسيرا وبهذا القول ظن انه قد قوى غيظ الامير پسكير
واخذ يفيده بطريق التلويح والتلميح ان الوقت يساعده اذا اراد الانتقام من
الامبراطور في نظير هذه الفعال القبيحة بل ويمكنه ان يثبت لنفسه فخرا مؤبدا
وفضلا مخلدا يبقى مدى الاعصار والدهور بكونه يستنقذ وطنه من ظلم الغرباء
واجحاف الحكام الاجانب لاسيما ودول ايطاليا كانت قد سئمت من حكم
الاسبانيولين لغلظتهم وسوء فعالهم فهي متأهبة لان تجتمع مع بعضها
وتطلب استقلالها واهاليها كلهم متطلعون اليه ولا يرون احدا سواه له عقل
ونهى وقريحة واسعة ودهى يقدر على تنجيز هذا المقصد المهم وتتميمه مع النجاح
وابدى له ان تتميم هذا الغرض موقوف على ارادته حيث ان الامبراطور رئيس له
من العساكر في بلاد ايطاليا الا طائفة من المشاة الاسبانيولية فاذا وزعهم
في قرى ميلان يقتلهم الاهالي في ليلة واحدة لانهم في غيظ شديد منهم بسبب

سنة ١٥٢٥

ظلمهم وافعالهم القبيحة وبعد ذلك يمكنه بدون صعوبة ان يستولى على كرسى مملكة نابلى واوقع فى ذهنه ان الدهر اعدّ له تاج هذه المملكة مكافأة له على انقاذه لبلاد ايطاليا من ايدى الغرباء لاسيما والبابا الذى هو سيد مملكة نابلى حيث انه طالما تصرّف فيها البابات قبله كيف شاؤا يحصل له غاية السرور من جعله ملكا عليها وافاده ان اهل البنادقة و فلورنسة ودوق ميلان بلغهم هذا الخبر وانهم سينضمون الى مملكة فرانسا ويقومون مع الفرنساوية باثبات حق الملوكية له فى نابلى وان اهل نابلى انفسهم يودون ان يكونوا تحت حكمه لانه من ابناء وطنهم ويعزونه كثير الفضل ومعارفه وان نفوسهم قد سئمت من حكم الغرباء الذين اتعبوهم بظلمهم وشدة قسوتهم وان الايمبراطور اذا ظهر له ذلك على حين غفلة يقع فى الورطة والارتباك ولا يمكنه مقاومة هذه العصبة الكبيرة لاسيما وهو قليل الاموال والرجال

وفى مدة هذه الحكاية كان الامير پسكير يصغى الى قول مورون وهو فى عجب زائد من صعوبة هذا المشروع كانه يفكر فى امور جمة ومقاصد مهمة فكان من جهة ينفر من قول مورون حيث كان يحثه ويدعوه الى القيام على الايمبراطور وقد استأمنه وجعله رئيسا على عساكره وكان من جهة اخرى تحسن له نفسه اتباع مورون حيث كان يغره بقوله انه هو الذى يتولى ملكا على بلاد نابلى فمكث پسكير مدة وهو يتردد بين هذين الامرين ثم جنح الى ما يكسبه المعزة منهما وحسنت له نفسه الطماعة ان يغدر بالايمبراطور ليستولى على مملكة نابلى وكثيرا ما حصل ان اناسا عند تخييرهما بين ما فيه نفعهم وما فيه شرف عرضهم يوثرون الاول لكنه اراد قبل خيانته وغدره ان يبحث له عن علة يتعلل بها وحجة يستند اليها فالزم مورون ان يسأل بعض علماء الدين هل يجوز لشخص من الرعايا ان يعصى ملكه الذى فوقه مباشرة ليطيع من له الحق والسيادة فى الدولة التى هى الغرض من العصيان والخروج فاجابوا بالجواز واستمرت من ذلك الوقت المداولات والمذاكرات بين مورون

والامير

سنة ١٥٢٥

والامير پسكير حتى بذل كل الجهد فى تحصيل ما يلزم لتنجيز هذا الغرض المهم

مطلب
غدر پسكير بالقنجلير مورون وقبضه عليه

ولكن الامير پسكير اما لكونه استعظم هذا الامر وارتعدت فرائصه من الغدر بسيده الذى له عليه خيرات جزيلة اولكونه رأى ان الدهر لا يساعده فى ذلك وتيقن عدم النجاح اخذ يفكر فيما يتعلل به فى نقض الشروط التى انعقدت بينه وبين مورون وكان اذ ذاك الامير سفورس قد اعتراه مرض ظن انه يفضى به الى الهلاك فرأى الامير پسكير انه ان كشف سر هذه الفتنة وقبض على مورون الذى يريد ايقاعها يسر منه الايمبراطور ويجعله حاكما على دوقية ميلان مكافأة له على امانته وصدقه وان هذه الوسيلة اكثر حزما واقرب للنجاح مما اذا بحث عن اخذها بطريق الغدر والخيانة الا ان هذه النية الجأته الى ارتكاب امور قبيحة تزرى ايضا بالمروءة وتدنس العرض وكان للايمبراطور المام بامر هذه الفتنة حين اخبره بها پسكير فظهر منه انه قد حصل له غاية السرور من هذا الامير لامانته وصداقته وأمره ان يستمر على ماهو عليه من المذاكرة مع البابا والامير سفورس حتى يختبرهما ويعرف بواطنهما ويمسك عليهما ادلة واضحة تثبت خيانتهما ولما كان پسكير يعلم من نفسه ان مذاكرته اولا لم تكن عن خلوص طوية بالنسبة للايمبراطور وان سكوته على ذلك مدة لا بد وأن اوقع فى قلوب اهل ديوان مدريد سوء الظن به واتهامه بالخيانة وعد الايمبراطور بتنجيز ما امره به ليبرئ نفسه عند الناس حتى لا يسوء الظن به فلذلك اضطر الى ارتكاب ما يدنسه مدى الايام والدهور وهو مداهنة قوم للغدر بهم واذا التفت الانسان الى سعة قرائح من خادعهم پسكير راى ان مداهنته لهم ليست فى الصعوبة دون ما ينشأ عنها من تدنيس العرض ومع ذلك سلك فيها مسلكا غريبا حتى امكنه ان يدخل حيله وخداعه على مورون وكان بمكان من الذكاء والفطنة وذلك ان مورون لما كان يعتقد صدق الامير پسكير ويثق به ذهب اليه فى قصر نورو ليتمم معه ما اتفق عليه فى هذا الخصوص فتلقاه پسكير بمحل كان الامير ليوه حينئذ مختفيا فيه

سنة ١٥٢٥

ليسمع قول موروت مع پسكير ويكون شاهدا عليه فبعد ان قضى موروت امره وهم بالخروج من القصر ليرجع الى داره اذ فزع فزعا شديدا وتحير فى امره حين راى الامير ليوه قد قبض عليه بطريق النيابة عن الايمبراطور وذهب به الى قلعة مدينة پاويا وبعد ان كان پسكير شريكه فى الفتنة صار يسأله ويقضى فى دعواه وصدر امر من الايمبراطور بحرمان الامير سفورس من جميع حقوقه فى دوقية ميلان لانه كان من ارباب الفتنة وامر باخذ جميع قلاع دوقية ميلان ومدنها فاخذها پسكير ماعدا مدينتى كريمون و ميلان لان الامير سفورس بادر بالمدافعة عنهما وبادر عساكر الايمبراطور بحصارهما

مطلب ما قاساه فرنسيس من سوء المعاملة فى بلاد اسبانيا

ثم ان هذه الفتنة التى كان الغرض منها تجريد الايمبراطور عن اراضيه التى ببلاد ايطاليا لم تنجح بل ترتب عليها تكثير اراضيه فى البلاد المذكورة ومع ذلك رآى الايمبراطور ان من الضرورى اللازم له ان يتفق مع ملك فرانسا ويصالحه ويخلى سبيله وانه ان لم يفعل ذلك عادى سائر دول اوروپا وتتعصب عليه لما رآى منها انها كلها قد فزعت من نجاح جيشه فى واقعة پاويا ومما ظهر من شدة الطمع والشره حيث كان لا يتكلف اخفاء ما كان قائما بنفسه وكان الى ذلك الوقت لم يعامل فرنسيس المعاملة اللائقة بالملوك بل ولم يحترمه الاحترام اللائق بمقامه فعوضا عن كونه يسلك معه ما تسلكه الملوك العظام مع المصاب بالنكبات سلك معه مسلك ارباب الصيال وقطاع الطرق الذين يطمعون انهم باساءة من وقع فى ايديهم يجبرونه على فدآء نفسه منهم بما تملكه يده وذلك انه سجن الملك فرنسيس بقصر عتيق ووضع عليه خفرا كان يشدد عليه كل التشديد حتى تنغص عيشه وسئمت نفسه وعند الفسحة كان لا يؤذن له الا بركوب بغلة وتحدق به خيالة متسلحة ولم يذهب اليه الايمبراطور بل تعلل بانه لا يمكنه ان يغيب عن المشورة العامة المنعقدة بمدينة طليطلة وذهب بديوانه الى تلك المدينة قاصدا بذلك ان لا يقابل الملك فرنسيس فمضت عدة اسابيع من غير ان يذهب اليه فى السجن مع ان فرنسيس كان

سنة ١٥٢٥

مطلب
اشراف فرنسيس على الهلاك

يطلب ذلك بنفسه ويجد فى طلبه فبهذه الفعال القبيحة التى لا تطيقها نفوس الملوك ذمت نفس الملك فرنسيس ولحقه غم شديد حتى كره الدنيا وما عليها لما انه كان ذا شمم وشرف نفس وفقد الميل الى اللذات وزالت بشاشته الطبيعية وبعد ان مكث زمنا طويلا وهو آخذ فى الضعف والهزال اصيب بحمى شديدة حتى اشرف على الهلاك وفى شدة مرضه كان لا يشتكى الا من تشديدهم عليه وسوء معاملتهم اياه وكان يلهج غالبا بقوله ان الايمبراطور يحصل له غاية السرور من كون عدوه مات فى السجن تحت قبضته من غير ان يتفضل عليه بعيادته ولو مرة واحدة فلما عجز الاطباء عن معالجته ويئسوا من حياته اخبروا الايمبراطور بانه لا يرجى له شفاء من هذا المرض الا اذا انعم عليه بما يتمناه ويلهج به فى اغلب اوقاته وهو ان يذهب لعيادته وكان الايمبراطور يود حفظ حياة الملك فرنسيس حتى تتحقق له الفوائد الجليلة التى كان يأملها بعد انتصار جيشه فى واقعة باويا فجمع فوراً وزراءه ليتذاكر معهم فى شأن ما ينبغى فعله وكان اعظمهم علما ودراية القنجلير غاتيناره فابدى للايمبراطور انه من عدم المروءة ان يعود الملك فرنسيس ان لم يكن عازما على التساهل معه وتخلية سبيله بموجب شروط مقبولة وافهمه ان من العار فى حقه أن يعوده لمجرد الطمع والحرص على عدم ضياع مصالحه حيث انه قبل مرضه واشرافه على الهلاك طالما طلب منه ذلك مع الالحاح فلم يجد ذلك شيأ واما الايمبراطور فكان دون هذا الوزير فى المروءة والعرض فلذا لم يلتفت لقوله وسافر الى مدريد لمجرد نظر أسيره ومقابلته لكن لم يمكث معه الا برهة يسيرة لان الملك فرنسيس لشدة مرضه كان لا يستطيع التطويل فى المحادثة الا ان الايمبراطور فى تلك البرهة التى مكثها معه خاطبه مع الاحترام والتعظيم ووعده ان يعامله المعاملة اللائقة بالملوك وانه يخلى سبيله عن قريب ولو كان هذا القول من الايمبراطور صادرا عن صدق وخلوص نية لكفاه ذلك شرفا وفخرا الا ان فرنسيس كان فى حالة رديئة من شدة مرضه فاعتقد صدق قول الايمبراطور وداخلته العافية لانشراح صدره بما وعده به ومن وقتئذ اخذ

مطلب
مقابلة الايمبراطور مع الملك فرنسيس فى ٢٨ شهر ايلول

سنة ١٥٢٥

فى الانتعاش والشفاء حتى استقامت صحته بعد مدة قليلة ورجعت له قواه

مطلب
وصول الدوق دى بوربون الى مدينة مدريد

ولكن بعد أن شفى وتنبه داخله الندم والحسرة حيث اعتقد صحة كلام الايمبراطور واغتر بزخرف قوله مع ماسبق له منه هذا واما الايمبراطور فانه بعد خروجه من عند فرنسيس توجه فورا الى مدينة طليطلة وأحال الامور على وزرآئه فصار الملك فرنسيس من تشديد الخفرآء عليه فى ضنك وضيق اكثر مما كان فيه اولا وحصلت حادثة اخرى ازدادت بها الامه واحزانه وهى ما حصل من المراعاة ومزيد الاحترام لاحد اتباعه وذلك ان الدوق دى بوربون حين دخل بلاد اسبانيا قابله الايمبراطور بالتبجيل والاحترام ومزيد التعظيم والاكرام مع انه اى فرنسيس مكث مدة طويلة وهو لا يرضى ان يعوده فى سجنه وذهب لمقابلة الدوق دى بوربون خارج مدينة طليطلة وعانقه معانقة الاحباب وجعله على يساره وسار معه فى محفل عظيم وموكب مبتهج حتى وصل به الى قصره فاودع ذلك فى قلب فرنسيس حسرة كبيرة الا انه تسلى بحادثة اخرى اعقبت تلك الحادثة وهى ان ظهر له ان مروءة اهل اسبانيا مباينة لطبع سيدهم وذلك انهم كانوا يبغضون الدوق دى بوربون لخيانته حتى ان اشراف تلك الملة كانوا يتباعدون عنه ويتجنبون معاشرته والمخاطبة معه وان كان ذا معارف جليلة ونفع وطنهم كل النفع فى مواطن مهمة وقد حصل ان الايمبراطور التمس من الملتزم ويلونة ان يسكن بوربون فى قصره مدة اقامة الديوان الايمبراطورى بمدينة طليطلة فاجابه الملتزم المذكور مع الادب بانه لا يستطيع مخالفة الايمبراطور لكن المأمول منه ان لا يعجب اذا احرق القصر بعد خروج بوربون منه وجعل عاليه سافله لان البيت اذا تدنس بسكنى اهل الغدر والخيانة فيه لا ينبغى ان يسكنه احد من اهل شرف العرض والامانة

١٥ من شهر تشرين الثانى

مطلب
جعل بوربون سر عسكر الجيش الايمبراطورى الذى كان ببلاد ايطاليا

ومع ذلك لم يعبأ الايمبراطور بذلك بل مازال مصمما على مكافأة بوربون على خدمه حق المكافئة الا انه كان متحيرا فيما يكافئه به وكان بوربون يطلب من

الايمبراطور

سنة ١٥٢٥
الايمبراطور ان يوفيه بما وعده به وهو ان يزوجه اخته اليونورة ملكة البورتغال وقال له ان هذا الامر هو الذى دعانى الى القيام على الملك فرنسيس وكان فرنسيس المذكور قبل سفره الى بلاد ايطاليا قد طلب ان يتزوج بهذه الاميرة منعا للتزوج الدوق دى بوربون بها وكانت الاميرة المذكورة تؤثر ان يتزوجها ملك ذو صولة وشوكة على الزواج برجل من رعيته مطرود عن بلاده فلذا كان الايمبراطور متحيرا فى امره لا يدرى ما يصنع الا انه فى اثناء ذلك مات الامير پسكير عن ست وثلاثين سنة بعد ان اشتهر وعد من اعظم جنرالات عصره واشهر ارباب السياسة فى دهره فكان موته سببا فى انقاذ الايمبراطور من تلك الحيرة وذلك انه قام مقامه الدوق دى بوربون حيث جعله رئيسا على جيش ايطاليا وزيادة على ذلك جعله حاكما على دوقية ميلان بدلا عن الامير سفورس واشترط عليه ان لا يطلب التزوج بالاميرة اليونورة ملكة البورتغال وكان الدوق دى بوربون لا يستطيع مخالفته فرضى بذلك

شهر كانون الاول

مطلب المذاكرة التى حصلت فى شأن تخلية سبيل الملك فرنسيس

واعظم الاشياء التى كانت تمنع من تخلية سبيل الملك فرنسيس هو انه كان لا يرضى ان يعطى اقليم برغونيا للايمبراطور وكان الايمبراطور يشدد فى ذلك ويظهر انه لا يخلى سبيله الا بعد رضائه بهذا الشرط وكان الملك فرنسيس يظهر انه لا يرضى بذلك ابدا لان فيه تمزيق مملكته وانه ان نسى ما يجب عليه من حيث كونه ملكا وقبل هذا الشرط فقوانين مملكته تنابذ ذلك كل المنابذة وانما رضى انه من الآن فصاعدا يترك حقوقه فى بلاد ايطاليا والبلاد الواطية للايمبراطور ولا ينازعه فيها ابدا ووعد ايضا انه يرد الى الدوق دى بوربون سائر الاراضى التى اخذت منه وانه يتزوج بالاميرة اليونورة وان يدفع مبلغا عظيما فى فداء نفسه لكن لم يحصل بينهما اتفاق بل صار كل منهما من وقتئذ لا يراعى الآخر ولا يثق به ونزع ذلك من قلوبهما الى الابد ونشأت بينهما العداوة والبغضاء ولم تزل متمكنة من قلوبهما حتى فارقا الحياة وفى تلك المدة لا زالا فى جدال ونزاع وعرض ونقض حتى تراءى للناس ان لا انتهاء لتلك المذاكرة

وانه لا يحصل توافق بين الجانبين فان احدهما كان طماعا مصمما على ان ينتهز هذه الفرصة ويغتنم فيها جميع ما يساعده عليه دهره من الفوائد والمصالح واما الجانب الآخر فكان على غاية من الاحتراس لما سبق له وعهده من خصمه وكانت الدوقة دالنسون اخت الملك فرنسيس قد ذهبت اليه لتعوده فاذن لها الايمبراطور ورود خلت عند اخيها فى السجن وبذلت غاية جهدها فى فكه من ربقة الاسر بشروط سهلة لطيفة لا تزرى بالعرض كالاولى واعتنى بذلك ايضا هنرى ملك انكلترة لكن لم ينجعا فى ذلك حتى ان الملك فرنسيس يئس كل اليأس وعزم على ان يخلع نفسه من مملكته ويتنازل عن حقوقه وينقلها الى ابنه ويمكث هو فى السجن حتى يقضى الله امرا كان مفعولا ورآى ان ذلك اوفق به من كونه يفدى نفسه بشروط لا تليق بالمقام الملوكى فكتب حجة بهذا الامر ووضع عليها امضاءه وامر اخته ان تذهب بها الى مملكة فرانسا لتقيد فى دفاتر دواوين المملكة ويعمل بمقتضاها واخبر الايمبراطور بذلك وترجاه ان يعين لسجنه محلا ويعمل له بيتا لائقا بمقامه ليقضى فيه ما بقى من عمره

مطلب حيرة الايمبراطور

فاثر ذلك تأثيرا عظيما فى قلب الايمبراطور واوقعه فى حيرة كبيرة تخشى انه بتشديده فى الشروط يخيب سعيه ولا يظفر بمرامه ويؤول الامر الى كونه يرى بين يديه ملكا لا بلاد له ولا ايراد لاسيما وقد حصل فى اثناء تلك المدة ان بعض اتباع ملك نوار بذل جهده حتى اخرج سيده خفية من السجن الذى وضع به بعد واقعة باويا تخشى الايمبراطور ان الملك فرنسيس او اتباعه يمكنهم بالرشوة او غيرها ان يخرجوا ملكهم من السجن مع تيقظ الضباط المأمورين بحفظه واذا حصل ذلك خابت آماله وضاعت جميع فوائده فلهذه الاسباب رآى ان الاحسن والاوفق للصواب والحزم ان يتساهل فى المشارطة ولا يلزمه بشروط صعبة هذا ما كان من امر الايمبراطور واما الملك فرنسيس فكان قد سئم من السجن وطول المدة وكان قد اتت اليه اخبار من بلاد ايطاليا بان هنالك من يدبر امر عصبة كبيرة على الايمبراطور فصمم على ان يتساهل

سنة ١٥٢٥ ايضا فى المشارطة ويقبل ما يلزمه به الامبراطور وبعد ان يخلص من السجن
سنة ١٥٢٦ ويخلى سبيله يمكنه ان يأخذ ثانيا جميع ما سلم فيه بطريق الاكراه
والقهر

مطلب المشارطة المنعقدة بمدينة مدريد

وبهذه الاسباب تساهل كل من الملكين فى اشياء وانعقدت مشارطة اطلاق الملك فرنسيس بمدينة مدريد فى اربعة عشر من شهر كانون الثانى سنة ١٥٢٦ من الميلاد واما اقليم بورغونيا الذى كان سببا فى تأخير عقد المشارطة الى ذلك الوقت فانحط الرأى على ان الملك فرنسيس يتركه الى الامبراطور مع سائر ما يتعلق به من الاراضى والبلدان ولكن حيث رضى الامبراطور باطلاق الملك فرنسيس وتخلية سبيله قبل وضع يده على هذا الاقليم وغيره مما تضمنته المشارطة وقع التراضى ايضا على ان الملك فرنسيس يسلم للامبراطور على سبيل الرهن اكبر اولاده الذى هو ولى عهده وابنه الثانى دوق اورليان اوابنه الاكبر واثنى عشر من امراء فرانسا يختارهم الامبراطور ويعين اسماءهم ويبقون تحت يده حتى يوفى الملك فرنسيس بما حوته المشارطة وكان فى تلك المشارطة شروط اخرى صعبة جدا وان كانت دون الشروط المذكورة فى الاهمية منها ان الملك فرنسيس يترك دعواه فى شأن بلاد ايطاليا ويترك حقوقه الملوكية فى بلاد الفلمنك واقليم ارتوازه وانه بعد اطلاقه بستة اسابيع يرد الى الدوق دى بوربون وسائر احزابه واصحابه جميع املاكهم وامتعتهم وعقاراتهم ويعطيهم اشياء عظيمة فى نظير الاشياء التى تلفت عليهم بسبب اخذ املاكهم وامتعتهم منهم ويجبر الامير هنرى دالبرطه على ان يترك دعواه فى حق الملوكية على بلاد نوار وان لا يعينه من الآن فصاعدا على الاستيلاء على تلك المملكة وان يكون بين الامبراطور والملك فرنسيس محبة اكيدة ومعاهدة لا تنقض على مدا الدهور والايام وان يعين كل صاحبه عند الحاجة ولاجل تمكين تلك المحالفة وتقويتها انحط الرأى على ان الملك فرنسيس يتزوج بالاميرة اليونورة اخت الامبراطور شرلكان ملكة البورتغال والتزم فرنسيس ان يضع

سنة ١٥٢٦

على تلك المشارطة مع ما تضمنته من الشروط اقرار ارباب مشورة وكلاء مملكة فرانسا ويقيدها فى سائر دواوين مملكته والتزم الايمبراطور ايضا انه بمجرد وصول هذا الاقرار اليه يخلى سبيل ولدى الملك فرنسيس المرهونين عنده ولكن يرسل اليه بدلا عنهما الامير كرلوس دوق انغوليم ثالث ابن الملك فرانسا ليتربى فى ديوان الايمبراطور ويكون به تمكين المحبة ودوامها بين ابيه الملك فرنسيس والايمبراطور ووعد فرنسيس وأكد وعده بالقسم انه ان لم يوف بما تضمنته المشارطة فى المدة المعينة يرجع ثانيا الى بلاد اسبانيا فيمكث اسيرا تحت يد الايمبراطور كما كان

مطلب
ما قارن هذه المشارطة من مقتضيات الاحوال

فظن الايمبراطور شرلكان انه بتلك المشارطة قد ارغم انف عدوه وسدّ عليه كل باب حتى لا يمكنه ان يعود الى صولته الاولى فيخشى بأسه ولكن ادرك اعظم ارباب السياسة من اهل عصره ان هذه المشارطة لا يمكن العمل بمقتضاها وان الملك فرنسيس بعد اطلاقه وتخلية سبيله تستنكف نفسه ان يعمل بموجب شروط رفضها عدة مرات ولم يقبلها الا لضيقه من السجن واسره فقالوا ان الطمع والحقد يحملانه من غير شك على نقض تلك الشروط التى لم يقبلها الا بمحض القهر والاكراه ويسهل عليه تحصيل ما يستند اليه فى هذا المعنى ويبرهن به على انه لا يجب عليه الوفاء بشئ مما ذكر فى المشارطة لانه انما قبلها بالاكراه والاجبار لا بالطوع والاختيار ويجد من يعضده اذا اعتذر حيث ان الضرورات لا يقاس عليها ولو اطلع على ما اضمره فرنسيس حين عقد المشارطة لقيل ان هذا الرأى فى محله وانه عين الصواب لا محالة لان الملك فرنسيس قبل ان يضع امضاءه على المشارطة المذكورة ببعض ساعات جمع من كان معه من ارباب ديوانه ومشورته بمدينة مدريد وحلفهم ان يكتموا السر ولا يفشوه ابدا ثم قص عليهم ما فعله الايمبراطور معه من الحيل بقصد مخادعته وسوء المعاملة التى لا تليق بالملوك لتهديده وتخويفه وبناء على ذلك فهم من الشاهدين على ان المشارطة التى هو مطالب بوضع امضائه عليها ليست صحيحة بوجه من الوجوه ولا يعمل بها لانها بمحض الالزام والاكراه* وبهذه

مطلب
انكار الملك فرنسيس للمشارطة المنعقدة سرا

الطريقة التي ليست من شروط الصدق وخلوص الطوية ولا يقبل اعتذاره فيما بما ابداه من مخادعة الايمبراطور له واساءته اياه ظن انه قد فعل ما فيه شرفه ورضاء نفسه فلم يضع امضاءه على المشارطة الا وهو مصمم على نقضها وعدم العمل بها سنة ١٥٢٦

ولكن كان كل من الايمبراطور والملك فرنسيس يظهر لصاحبه الصداقة والمحبة التامة فكانا يخرجان مع بعضهما امام العامة والخاصة ويكثران المحادثة والمسامرة ويسافران معا في عربة واحدة وكانت نزهتهما وحظوظهما واحدة الا انه في اثناء ذلك كان الايمبراطور مشغول البال موسوس الخاطر فانه مع تجهيز الشروع في اشهار نكاح الملك فرنسيس للاميرة اليونورة عقب المشارطة لم يرض الايمبراطور بتميم هذا الزواج بل ابقاه حتى يأتي اقرار المشارطة من مملكة فرانسا واما الملك فرنسيس فكان لم يخلص من أسره بالكلية بل كان الخفر ملازما له في سائر الاوقات فكانوا يراعونه ويكرمونه بوصف كونه صهرا للايمبراطور وكانوا يخفرونه ويلاحظونه كل الملاحظة بوصف كونه اسيرا ومن ثم ادرك الحازمون من ارباب السياسة والفطنة ان تلك المحبة ليست صادقة ولا دوام لها حيث انها من مبدئها مشوبة بالغش والخيانة

وبعد مضي شهرات المشارطة من مملكة فرانسا عليها اقرار الملكة لويزة ام الملك فرنسيس وكانت حينئذ نائبة عنه في المملكة وحزم الملكة المذكورة آثرت في هذه الصورة المصلحة العامة على مصلحة نفسها حيث ارسلت تخبر ولدها فرنسيس بانها عوضا عن ارسال الامراء الاثنى عشر المذكورين في المشارطة قد ارسلت الدوق دورليان واخاه الى بلاد اسبانيا لما رأته من ان المملكة لا تتوقف مصالحها على غيبة ولد صغير وتتعطل امورها وتبقى بدون من يقوم بحمايتها والذب عنها اذا غاب عنها الابطال والجنرالات اولو الفضل والمهارة الذين عينهم الايمبراطور في المشارطة ليأخذهم عنده رهينة عوضا عن الدوق دورليان

مطلب
اقرار المشارطة ببلاد فرنسا

سنة ١٥٢٦
مطلب
اطلاق الملك فرنسيس

وبعد ذلك كله وقع الوداع بين الملك فرنسيس والامبراطور وكانت وسوسته دآئما فى نمو وازدياد حتى انه لاجل تأكيد المشارطة اشترط شروطا جديدة وقبلها الملك فرنسيس بدون توقف وعطفها على الاولى ولا حاجة الى بيان ما لحق فرنسيس من المسرة والفرح حين خروجه من مدينة مدريد لانه غنى عن الوصف وانما يكفى التأمل فيما لحقه بتلك المدينة من الضنك والضيق فيعرف به مقدار كراهته لها ودرجة سروره حين خروجه منها ثم سافر فرنسيس ومعه جماعة من الخيالة تخفره وكان رئيسهم الامير ارسون فكان هذا الامير كلما اقترب من اطراف مملكة فرانسا يزداد التفاته وتنبيهه للملك فرنسيس فلما وصل به الى نهر بيداسواه الفاصل بين مملكة فرانسا وبلاد اسبانيا رآى على الشاطئ الآخر من هذا النهر الامير لوتريك ومعه جماعة من الخيالة تساوى فى العدد الجماعة التى معه وكان هناك سفينة خالية واقفة فى وسط النهر فاصطف الجماعتان امام بعضهما على الشاطئين وتقدم الامير لانواى من شاطئ الاسبانيوليين ومعه ثمانية من البكزادات وتقدم الامير لوتريك من شاطئ الفرنساوية ومعه ايضا ثمانية وكان الملك فرنسيس فى سفينة لانواى وكان ابنه البكرى وابنه الثانى وهو دوق دورليان فى سفينة لوتريك فتلاقى السفينتان عند السفينة الخالية فعند ذلك عانق فرنسيس ولديه ثم وثب من سفينة لانواى الى سفينة لوتريك وانتقل ولداه الى سفينة لانواى وانفصل السفينتان حينئذ وتوجهت كل سفينة منهما الى حيث أتت فبمجرد ان وصلت سفينة الملك فرنسيس الى شاطئ فرانسا وثب منها طائرا من الفرح وركب فرسا تركيا وركضه وهو يطوح يده فوق رأسه وصاح عدة مرات وهو يقول (ها أنا الآن ملك) ووصل فى اقرب مدة الى مدينة سنجاندولوز ولم يستقر بها بل توجه الى مدينة بايونة *وقد وافق حصول هذا الامر الذى كان يتمناه الفرنساوية كما كان يتمناه الملك نفسه الثامن عشر من شهر ادار بعد واقعة باويا بسنة واثنين وعشرين يوما

واما

سنة ١٥٢٦

مطلب
تزوج الامبراطور بالاميرة ايزابيلة البورتغالية

واما الامبراطور فبمجرد ان ودع الملك فرنسيس واذن باطلاقه توجه الى مدينة اشبيلية ليتزوج بالاميرة ايزابيلة بنت المتوفى ايمنويل ملك البورتغال واخت الملك حنا الثالث الذى خلف ايمنويل المذكور فى الحكم وكانت الاميرة المذكورة نادرة فى جنسها ذات جمال فائق وبهاء رائق وكانت بمكان من الفضل والمعارف وكان ارباب مشورة مملكة قسطيلة ومملكة اراغون منذ زمن طويل يحثون الامبراطور على الزواج فلما اختار تلك الاميرة ليتزوج بها وكانت من فخذ العائلة الملوكية الحاكمة بمملكتى اراغون و قسطيلة استحسن الرعايا رأيه واستصوبوه وفرح البورتوغاليون كل الفرح بتزوج الامبراطور لاميرتهم وكان اعظم ملوك الافرنج فاعطوها جهازا اعظيما يساوى تسعمائة الف كورون (نوع من النقود تقدم ذكره) وبالنظر لحالة الامبراطور اذ ذاك كان لهذا المبلغ موقع عظيم عنده فانعقد النكاح وانتشرت المسرات والافراح وعاش الامبراطور فى ارغد عيش واحسن مثواها وابدى لها ما لا مزيد عليه من المعزة والاكرام والتعظيم والاحترام

مطلب
مصالح بلاد المانيا

ولما كان الامبراطور شرلكان مشتغلا بهذه الامور فى بلاد اسبانيا كان لا يمكنه ان يلتفت حق الالتفات الى مصالح الامبراطورية الالمانية مع انها وقتئذ كانت ممزقة كل ممزق بما حدث فيها من الفتن والتعكيرات حتى كان يخشى ان تنضى بها الى عواقب مشؤمه تضر بها كل الضرر لان القوانين الالتزامية والرسوم السيادية كانت اذ ذاك باقية على اصلها فى تلك الامبراطورية فكانت

مطلب
الحالة السيئة التى كان عليها الفلاحون

الاراضى والضياع ملكا للبارونيين وكانوا يعطونها لاتباعهم ويكلفونهم بامور تشمئز منها النفوس وكان باقى الملة فى حالة سيئة لا فرق بينها وبين حالة الرق والاستعباد حتى انه فى بعض بلاد المانيا كان رعاع الناس فى استرقاق شخصى ومنزلى بمعنى ان اشخاصهم ومنازلهم وما ملكت ايمانهم ملك لساداتهم وفى بعض بلاد اخرى منها لاسيما اقليم بوهمية وهى چه واقليم لوزاس كان الفلاحون تابعين لاراضى ساداتهم بمعنى انهم يعدون فى ضمن

سنة ١٥٢٦

الارض ان انتقلت ببيع اوغيره لملتزم آخر وفي اقليم سوابه وغيره من الاقاليم التي على شواطئ نهر الرين كان يجب على الفلاحين مع انهم في تلك البلاد احسن حالة من غيرهم ان يدفعوا الى ساداتهم وملتزميهم محصولات الاراضي بتمامها بل وكانوا اذا اراد احد منهم أن يغير مسكنه او يحترف بحرفة اخرى غير الزراعة والفلاحة لا يرخص له في ذلك الا اذا دفع لسيده او ملتزمه مبلغا معلوما واما الفلاحون الذين كانت تعطى لهم بعض اراض فكانوا لا ينتفعون بها الامدة حياتهم ولا تنتقل بعدهم الى ذراريهم بل كان للملتزم بعد موتهم الحق في اخذ ماشاء من امتعتهم وأثاثهم وكان ورثتهم اذا ارادوا أن يتقرروا في تلك الاراضي دفعوا مغرما جسيما ومع ذلك كان الفلاحون لا يتشكون ولا يتظلمون من هذه المظالم الكبيرة لانهم كانوا قد تعوّدوا عليها وتمكنت من طباعهم لكن لما حصل التقدم في التمدن والرفاهية وتغيرت الاحوال وصارت الحروب تستلزم مبالغ جسيمة اتسعت مصاريف الدول واضطر الملوك الى ضرب مغارم كبيرة على رعاياهم لاسيما وكانت اغلب تلك المغارم على البوظة والنبيذ وما اشبههما مما تكثر الحاجة اليه فضج الناس من ذلك حيث اشتدت ازمتهم وساءت حالتهم وكان اهل السويسة قبل ذلك اي في القرن الرابع عشر قد سئمت نفوسهم من مثل هذه المغارم فخرجوا عن الطاعة واثبتوا لانفسهم بشجاعتهم الحرية التي يتمتعون بها الآن وبتلك الاسباب خرج الفلاحون عن طاعة ساداتهم في عدة اقاليم اخرى من بلاد المانيا في اواخر القرن الخامس عشر واوائل القرن السادس عشر نعم لم يترتب على عصيانهم ما ترتب على عصيان اهل السويسة الا انه لم يمكن اطفاء تلك الفتنة الا مع مشاق كبيرة وسفك دماء كثيرة تفوق على ما حصل في عصيان السويسيين

مطلب
عصيان الفلاحين في سوابة

ولكن بعد قمع الفلاحين في تلك المرة لم تفتر همتهم بل كانت آمالهم لم تزل متعلقة بانقاذ انفسهم من الظلم والجور لاسيما وكان الظلم يتجدد كل يوم فعيل صبرهم وهموا بالعصيان ثانيا وحملوا اسلحتهم وقد بلغ منهم الغضب منتهاه فانتشرت في سنة ١٥٢٦ اعلام الفتنة باقليم سوابة قريبا من مدينة اوله فبادر

اليها

سنة ١٥٢٦

ايها الفلاحون افوا جا افوا جا من سائر البلاد التى حولها اليغتنموا تلك الفرصة ويتقذوا انفسهم من المظالم الكبيرة التى هم بها فى ضنك وكرب شديد منذ زمن طويل وانتقل خبر هذه الفتنة من اقليم الى آخر حتى انتشر فى سائر بلاد المانيا وتعصب جميع الفلاحين بتلك البلاد وصاروا يطوفون فى البلاد الالمانية كالمجانين وكلما دخلوا بلدة نهبوا اديارها وكنائسها وخربوا اراضى الملتزمين وهدموا قصورهم وذبحوا من وقع تحت ايديهم منهم

ولما ظنوا انهم بهذه الفتن قد اوقعوا الخوف والرعب فى قلوب الملتزمين والحكام الذين كانوا يظلمونهم اخذوا فى السكون والهدء وصاروا يبحثون عن الوسايط التى يأمنون بها فى المستقبل من المظالم والجور وتعدى الملتزمين والحكام فحرروا لهذا الغرض تقريرا مشتملا على الامور التى يتظلمون منها وذكروا فيه انهم لا يلقون السلاح الا اذا انصفهم الاعيان طوعا او كرها فى هذه الامور كلها وكان اعظمها هو طلبهم الحرية فى شأن الخوريين بحيث يكون لهم حق انتخابهم وان لا يدفعوا الاعشار الا فى محصولات القمح فقط وان لا يكونوا كالارقاء للملتزمين وان لا يباح لهم صيد البر والبحر كاصحاب الشرف فلا تكون الغابات والاجمات من خصوصيات الاشراف والملتزمين بل يكون لسائر الناس حق فيها وان يرفع عنهم ما حدث من المغارم وان تجتنب الاغراض فى الحكم والقضاء ويتساهل فيه عن الحالة التى هو عليها وان لا يفتات الملتزمون على الغيطان والخلوات وعلى حقوق الجمعيات البلدية

مطلب
تسكين الفتنة السابقة

ولا شك ان طلبهم لاغلب هذه الاشياء كان فى محله وكان منهم جم غفير حاملا لسلاحه حتى كانت حالتهم تقضى بانهم لابد أن يفوزوا بما طلبوه لكن كان هؤلاء الفلاحون لا ضبط ولا ربط عندهم ولا معرفة لهم بفن الحرب وكانوا متشتتين عن بعضهم فى عدة محال فكانوا فى قتالهم خالين عن الانتظام وكان رؤساؤهم من رعاع الناس لا معرفة لهم بفن الحرب ولا مجال لهم فى الوسايط التى توصلهم الى مقاصدهم فلم يكن قتالهم الا بمحض الخشونة خاليا عن الانتظام

وحسن الترتيب فجمع اشراف سوابة واشراف البلاد التى على اسفل نهر سنة ١٥٢٦
الرين اتباعهم وساروا للقاء هؤلاء العاصين الذين كانوا يخربون الاقاليم
فهجموا على بعض هؤلاء الفلاحين فى السهول وانقضوا على البعض الآخر
فى المحال التى كان كامنا بها فهزموهم ومزقوهم كل ممزق وبددوا شملهم وبعد
أن خرب الفلاحون جميع البلاد الغير المحصنة وهلك منهم فى القتال اكثر من
عشرين الفا رجعوا الى مساكنهم وهم فى القنوط واليأس لا يرجون فكاكا
من شقوتهم وكروبهم

مطلب الفتنة الحاصلة فى اقليم طورنجه

وكان مبدء هذه الفتن فى الاقاليم الالمانية التى كان مذهب لوتير لم يتمكن منها
كغيرها وحيث كانت اغراض الفلاحين من هذه الفتن سياسية محضة كما ترى
لم يتعرضوا الى شئ من الاحكام الدينية التى كان النزاع حاصلا فيها اذ ذاك بين
لوتير والكنيسة الرومانية ولكن لما حصلت الفتن فى البلاد التى كان مذهب
لوتير قد تمكن منها ازداد غضب اهل تلك البلاد حتى تجاوزا الحدود ولان النسخ
الدينى كان كلما دخل فى بلدة يطبع الجسارة والمخاطرة فى قلوب اهلها فتتشوق
نفوسهم الى احداث امور جديدة ولا تفتر لهم همة ولا شك ان من تجاسر على
ابطال مذهب الكنيسة مع علو شأنه واحترامه لا يخشى صولة ولا يخاف بطشا
وذلك انهم لما كانوا يرون انفسهم حكاما عدلا فى المواد الدينية المهمة وتعودوا على
رفض ما يظهر لهم خطاؤه فى الدين كان لا يصعب عليهم التعرض الى اصول
الحكومة وازالة ما يستقبحونه منها او يرونه من قبيل الظلم والجور بل لجسارتهم
رأوا ان ذلك من حقوقهم لاسيما وكانوا قبل ذلك قد ازالوا مظالم الدين
وما استقبحوه فيه من غير ان يستعينوا بالحكام المدنية فقويت بذلك قلوبهم
حتى شرعوا فى ازالة المظالم السياسية كما فعلوا بالمظالم الدينية

مطلب ازدياد الفتنة الحاصلة باقليم طورنجه

وبناء على ذلك لما ظهرت الفتنة فى اقليم طورنجه وكان عليه منتخب سكس
وكان اهله قد تمسكوا بمذهب لوتير وتمكنت آراؤه من قلوبهم كل التمكن
صارت تلك الفتنة كبيرة مهولة لم يسبق مثلها لاسيما وكان توماس مونسير احد
اصحاب لوتير مستوطنا بهذا الاقليم وصار له موقع عظيم فى قلوب اهله وكان

قد

قد طبع فى عقولهم عقائد باطلة وآراء عاطلة الا انها كانت تستلزم الحث على سنة ١٥٢٦
العصيان وايقاع الفتن حيث كان يعظهم بقوله (اعلموا ان اضرار لوتير
بالدين اكثر من نفعه له فانه وان انقذ الكنيسة من مظالم البابات ومفاسدهم
الا ان مذهبه يعين على فساد الاخلاق حسبما يشهد به انهماكه على المعاصى
والمحارم فينبغى للناس لاجل منع ذلك ان يسلكوا فى معيشتهم مسلك التقشف
والتخشن وان يكون الانسان على هدى وتقوى ملازما للتؤدة لا يتكلم الا بقدر
الحاجة ويلبس الملابس الخشنة ولا يضحك ولا يمزح ويراعى شعائر الزهد
والتقشف فى جميع اموره الظاهرة فمن فعل ذلك طهر قلبه وباطنه ورآى الله
معه اينما توجه وافاض عليه من بحار جوده وحلمه فاذا جرده عن نعمته وهو
على تلك الحالة فله ان يبث اليه الشكوى ويرجو وجهه الكريم فى ايفاء ما وعده به
وازالة البؤس عنه فيقبل الله شكواه ويحقق رجاءه ويحفظه بقدرته كما حفظ
الانبياء السالفين وينبغى لانسان ان يحافظ ويحذر كل الحذر حتى لا نستوجب
سخطه بذنوبنا وسيء اعمالنا وظلمنا لانفسنا الا ان الله سبحانه وتعالى قد خلق
الناس على حد سواء فيستوى عنده الغنى والفقير والخطير والحقير فليرجع
الناس الى تلك الحالة التى هم عليها من اصل الفطرة ولتكن جميع الاموال
والخيرات الموجودة فى الكائنات مشتركة بينهم على سبيل الشيوع لا يختص بها
انسان دون آخر وليعيشوا اخوانا مع بعضهم حتى لا يكون فيهم اعلا وادنى
انتهى كلامه)

ثم ان هذا الكلام وان كان من بعض الوجوه من قبيل الهذيان الا انه يلايم
الطباع البشرية ولذا كان له موقع عظيم فى قلوبهم واثر فى عقولهم كل التأثير
حتى انهم لم يصمموا على مجرد قمع الاشراف وخفض شوكتهم بل رأوا ذلك امرا
واهيا لا يستحق ان يهتموا به فصمموا على ازالة درجات التفاوت فى الجمعية حتى
يكون الناس جميعا على حد سواء وان يبطلوا حق التملك على العقارات
والاراضى حتى يعود الناس الى ما كانوا عليه من التساوى من اصل الفطرة
وتكون الاراضى مشتركة بينهم على وجه الشيوع لا يختص احد بها دون آخر بل

سنة ١٥٢٦

كل انسان يستخرج منها ما يحتاج اليه من اسباب المعيشة وافهمهم مونسير المتقدم ان الله سبحانه وتعالى يريد منهم ذلك حيث رآى فى المنام انه جل وعلا وعده بالنجاح والظفر فعند ذلك زاد تصميم الفلاحين على مقصدهم وابوا الا تتميمه وتنجيزه وكان هنالك بون بعيد بين حميتهم وحمية الفلاحين الذين عصوا فى بلاد اخرى من الامبراطورية الالمانية حيث كانت حميتهم ناشئة عن تولع دينى فعزلوا القضاة والحكام فى سائر المدآئن التى تغلبوا عليها واستولوا على اراضى الاشراف وجبروا من وقع فى ايديهم من هؤلاء الاشراف والملتزمين على ان يلبسوا ملابس الفلاحين ويتنازلوا عن جميع خصوصياتهم ومزاياهم والقابهم ويكتفوا من الالقاب بما كان يقال اذ ذاك لبقية الاهالى فكنت ترى من كل جهة افواجا من الناس يبادرون الى الدخول فى هذا القتال الاان مونسير الذى كان كاهنهم وقائد كتائبهم لم يكن مستكملا للشروط اللازمة لمن حقه القيام بقيادة العساكر والرياسة عليهم نعم انه كان جامعا لضلالات اهل البدع وخزعبلاتهم لكنه لم يكن موصوفا بشجاعتهم وثبات قلوبهم وعسر عليهم ان يفهموه انه لابد من البروز الى الاعدآء ومحاربتهم فلم يزل فى تردد واهمال حتى احاطت به فرقة من الخيالة يقودها الامير منتخب سكس والامير حاكم هيسة والامير دوق برونسويك مع ان عساكره كانوا ثمانية آلاف ولكن حيث كان هؤلاء الامراء الثلاثة لا يهون عليهم سفك دماء رعاياهم لكونهم لم يخرجوا عن الطاعة من تلقاء انفسهم بل اغراهم على ذلك رجل لا عقل له بعثوا اليهم احد البيكزادات يعرض عليهم انهم ان القوا السلاح وقبضوا على من كان سببا فى الفتنة عفى عنهم فلما عرض عليهم ذلك ووقف عليه مونسير فزع كل الفزع واخذ يعظهم مع الحماسة التى هى عادته فى الوعظ ان لا يصغوا الى قول هؤلاء الظلمة الجبارين وان لا يحجموا عن شئ اراده الله وبه تكون نجاة الملة النصرانية وتثبت حريتها

مطلب
انهزام الفلاحين

ولكن خوف هؤلاء الفلاحين من الاخطار التى كانت قريبة الوقوع بهم أثر فيهم اكثر من قارع وعظ مونسير وفصيح بيانه فبينما كانوا يترددون

في هذا المشروع ولا يستطيعون الاقدام عليه اذ سطع في السماء قوس من النور سنة ١٥٢٦
كان قد رسم الفلاحون المذكورون صورته على بيارقهم فاعان ذلك مونسير
على احياء قلوبهم حيث رفع يديه ورأسه حالا الى السماء قائلا باعلى صوته
هاهي العلامة القاطعة التي اظهرها الله لنا كي نطمئن ونتحقق انه خصنا
بالنصر على اعدآئنا وانهم هم المغلوبون الاشقياء فعند ذلك صاح الفلاحون
١٥ من شهر ادار فرحا وسرورا حتى كأن النصر ثبت لهم لا محالة وقتلوا الامير الذى أتى اليهم
بالعفو من طرف الامرآء وطلبوا التوجه الى الاعدآء فغضب الامرآء
والاشراف من ذلك حيث انه مخالف لقوانين الحرب ورسومه وبعد أن اخبروهم
بانهم قادمون عليهم ساروا اللقائهم ولكن لم يظهر الفلاحون في هذا الحرب من
الشجاعة والحمية ما كان يظن بهم حيث لم يمكنهم لعدم معرفتهم بالعسكرية
ان يقاوموا عساكر الامرآء والاشراف الذين هم متعودون على الحروب ولهم
في العسكرية باع طويل ودراية عظيمة فقتل منهم في ميدان الحرب اكثر من
خمسة آلاف وفر الباقي وتشتت شمل جيش الفلاحين وهرب رئيسهم مونسير
أمامهم وقبض عليه في اليوم الثاني من الواقعة وحكم عليه بالقتل فقتل وهو
يبدي من امور الجبن ما دنسه واورثه الخزي والعار وبعد موته سكن الفلاحون
وانقطعت الفتن التي كانت بها بلاد المانيا في فزع عظيم وانقلاب ورعب
واضطراب غير ان ما نشره مونسير بين الناس من الاوهام الباطلة لم يزل
باقيا على حاله حتى نشأ عنه فيما بعد امور اكبر واشهر من هذه الامور
السابقة

مطلب
حزم لوتير وحذقه

وفي اثناء هذه الفتن كان لوتير يسلك في اموره مسلك الحزم والحذق فكان
يشق عليه حصول تلك الفتن التي هي مصائب للنصارى الذين كان يعتبرهم
كعائلة واحدة وهو ابوها فاخذ يدبر ما يكون به اصلاح حال الفريقين فبين
للاشراف والامرآء ان ظلمهم هو الداعي لقيام الفلاحين وبين للفلاحين انهم
قد اخطأوا في قيامهم وخروجهم عن الطاعة وذلك انه كتب الى الاشراف
يقسم عليهم بالله ان يعاملوا رعاياهم بما تقتضيه المروءة والشفقة ولين الجانب

وان يتركوا مظالمهم المعتادة وكتب الى الفلاحين يعظهم ان يصبروا القضاء الله سنة ١٥٢٦
تعالى ولا يضجروا مما ابتلاهم به وان يتحملوا المشاق التى هم بها تحمل
الصابرين وانهم ان بحثوا عما يكون به خلاصهم وانقاذا نفسهم من هذه
المشاق فليكن ذلك بمقتضى القوانين والاحكام ولا يعدلون عن سنن
الشريعة

وفى تلك السنة تزوج لوتير بامراة عابدة راهبة يقال لها كاترينة بورية
وهى من عائلة عريقة فى الحسب والنسب كانت رفضت الرهبانية وفرت من
الدير وقد حصل التوقف فى اقرار هذا الزواج فكان اعداء لوتير يعدون
هذا النكاح من قبيل الزنا والفواحش المنابذة للدين والشريعة وكان احبابه
واحزابه يرون انه لا يليق منه ذلك فى زمن كانت مصائب وطنه فيه شتى فأدرك
لوتير ان هذا النكاح قد اغضب الناس الا انه لما كانت عادته التحمل والصبر
صبر على لوم احزابه وقدح اعدائه

هذا وقد مات ايضا فى تلك السنة الامير فريدريق منتخب سكس الذى
كان يدافع عن مذهب لوتير ويحمى حماه الا انه خلفه اخوه الامير حنا
وكان ذا مهارة وجسارة فتظاهر بحماية مذهب لوتير واخذ يعضده بالدليل
والقوة نعم لم يكن فى المعارف مثل اخيه الا انه كان اعظم منه جسارة
وبأسا

وقد حصل ايضا ببلاد المانيا فى اثناء ذلك الزمن حادثة عظيمة جديرة ٥ من شهر ايار
بالبحث عن اسبابها واصولها وحاصلها انه بينما كانت عقول الافرنج
فى اضطراب مدة القرن الثانى عشر والثالث عشر بسبب تولعهم بالحروب
الصليبية اذ ترتبت عدة طوائف دينية شوالرية كان الغرض من ترتيبها حماية
دين النصرانية من الاسلام وكان من اشهر هذه الطوائف الطائفة
التوتونيقية التى ترتبت فى بلاد المانيا وكان رجال تلك الطائفة
قد امتازوا كل الامتياز فى جميع مشروعاتهم وغزواتهم فى اخذ ارض القدس
فلما طردوا فيما بعد من الاراضى التى كانت لهم ببلاد المشرق جبروا على

سنة ١٥٢٦،
مطلب
اخذ اقليم البروسيا من الطائفة التوتونيقية

العود الى اوطانهم لكنهم لشجاعتهم وحميتهم انفت نفوسهم ان يمكثوا ازمنا طويلا بدون غزوات وحروب فتعللوا بامور واهية غير مقبولة وتغلبوا على اقليم البروسيا وكان اهله الى ذالك الوقت جاهلية لم يدخلوا فى النصرانية فبعد أن استولوا عليه بتمامه فى اثناء القرن الثالث عشر مكث بايديهم عدة سنوات بوصف كونه التزاما تابعا للتاج بولونيا وهى بلاد له وفى اثناء تلك المدة حصلت منازعات شديدة بين رؤساء الطائفة المذكورة وملوك له حيث كان الرؤساء يطلبون الاستقلال وملوك له يمانعون عن حقوقهم ويحافظون على ابقاء اقليم البروسيا تابعا لهم وكان من جملة هؤلاء الرؤساء الامير ألبرطة وهو امير من عائلة برندبورغ جعل رئيسا على تلك الطائفة سنة ١٥١١ وكان له مدخل عظيم فى هذه المنازعات حتى حصل حرب طويل بينه وبين ملك له المسمى سيجسموند الا ان هذا الامير كان على مذهب لوتير فتلاشت رغبته فى تحصيل مصلحة طائفته شيأ فشيأ فلما وقعت الفتن فى الايمبراطورية وغاب عنها الايمبراطور انتهز هذا الامير تلك الفرصة وعقد مشارطة مع الملك سيجسموند ولم يراع فيها الا مصلحة نفسه وبموجب هذه المشارطة اتفق على أن ما كان للطائفة التوتونيقية من اقليم البروسيا يصير دوقية ورائية ويعطى للامير ألبرطة بشرط ان يكون على تبعية ملوك له وبعد عقد هذه المشارطة امر ألبرطة اهل اقليمه كافة ان يتمسكوا بالدين الجديد ويتبعوا مذهب لوتير فتزوج باميرة من بلاد دانيمارقة فتشكى اهل الطائفة التوتونيقية من افعاله المنكرة وخيانته المنشرة حتى انه نفى من الايمبراطورية الالمانية لكن لم يزل الاقليم المتقدم بيده حتى انتقل بالوراثة الى ذريته ثم انتقل فيما بعد الى فرع مخصوص من عائلته يقال له الفرع الانتخابى وخرج هذا الفرع عن طاعة ملوك له وصار مستقلا بنفسه غير تابع لتلك المملكة وحكم امرآء عائلة برندبورغ اقليم البروسيا بوصف كونهم ملوكا مستقلين وصاروا من اعظم امرآء المانيا بل وعدوا من اكبر ملوك بلاد الافرنج

سنة ١٥٢٦

مطلب
الاحتراسات التي اتخذها ملك فرنسا حين رجوعه الى مملكته

ولما رجع الملك فرنسيس الى مملكته صار مطمح نظر ملوك الافرنج والتفتوا الى حركاته واطواره كي يعلموا ماسيفعله فيما بعد فلم يمكثوا على ذلك زمنا طويلا حتى عرفوا ما كان يضمره وذلك انه بمجرد وصوله الى مدينة بايونة كتب الى هنري ملك انكلترة يشكره على صنيعه معه واعانته له في مدة سجنه واعترف بان له الفضل والمنة عليه في انقاذه من الاسر وفي اليوم الثاني من وصوله الى تلك المدينة دخل عليه رسل الايمبراطور وطلبوا منه أن يأمر بما هو لازم في اجرآء ماتضمنته المشارطة المنعقدة بمدينة مدريد فاجابهم فرنسيس مع عدم الاكتراث بانه مصمم على تنجيز ما تعهد به حرفا بحرف ولكن في تلك المشارطة بنود كثيرة لاتتعلق به وحده بل تتعلق ايضا بالمملكة الفرنساوية ولا يمكنه انهاء شئ في شأنها الا بعد رضاء مشورة وكلاء المملكة وقال لهم ايضا انه يلزم لذلك مدة طويلة حتى يمكنه ان يتحيل على الاهالي ويستميلهم الى قبول الشروط الصعبة التي وقع الاتفاق عليها بينه وبين الايمبراطور وبهذا الجواب ظهر انه مصمم على المحاولة في اجرآء ماتضمنته المشارطة وظهر ان قصده من ادآء الشكر الى ملك انكلترة انما هو استمالته الى حزبه ليعينه في الحرب الذي سيحصل بينه وبين الايمبراطور لعدم عمله بمقتضى المشارطة المنعقدة بينهما بمدينة مدريد وزيادة على ذلك كان فرنسيس يكاتب سرا وزرآء اغلب ملوك ايطاليا ويفيدهم انه مصمم على ان لايعمل بمقتضى المشارطة فعلم ارباب السياسة من اهل ذلك العصر انهم لم يخطئوا فيما فهموه من حاله اولا من انه انما رضي بما تضمنته تلك المشارطة لينقذ نفسه من الاسر لامخيرا وانه مصمم في الباطن على أن لا يوفي بها حيث اتضح لهم انه لايريد تنجيز ماذكر في المشارطة وانما ينتظر فرصة ينتقم فيها من الايمبراطور في نظير الامور السيئة التي حملته على اظهار قبول تلك المشارطة هذا ولا يخفى ان البابا كليمان وان كان من دأبه التكاسل والخمول الا انه خالف في تلك المرة عادته حيث اظهر الميل الى حزب الملك فرنسيس وذلك ان هذا الملك لما اظهر انه مصمم على نقض ماحصل الاتفاق عليه بينه وبين الايمبراطور قوي قلب البابا

المذكور

سنة ١٥٢٦
المذكور حتى كان لا يخشى للايمبراطور بأسا لاسيما وكانت حالة ايطاليا اذ ذاك لا تسوغ لهذا البابا أن يضيع زمنا طويلا فى المذاكرة فى هذا الخصوص وذلك ان الامير سفورس كان يحصره عساكر الايمبراطور فى قلعة ميلان وحيل بينه وبين الامير مورون الذى كان يقوى قلبه ويرشده الى ما ينبغى فعله وزيادة على ذلك كان الامير سفورس فى كرب شديد حيث لم تبق له وسيلة فى المدافعة فكتب الى البابا واهل البنادقة يخبرهم انه سيسلم عن قريب ان لم يسعفوه بمدد يستعين به هذا وكان عساكر الايمبراطور منذ واقعة باويا باقين فى دوقية ميلان يعيشون من اموال اهلها لانهم كانوا الى ذلك الوقت لم تصرف لهم ماهياتهم فكانوا يأخذون فى كل يوم خمسة آلاف دوقة كما ذكره المؤلف غيشاردين وكان من المجزوم به ان هؤلاء العساكر بعد تسليم قلعة ميلان لا يستطيعون الاقامة فى الدوقية المذكورة حيث انها افتقرت بسبب الحرب بحيث صارت لا تفى بمؤنتهم بل ينتقلون الى بلاد البابا وبلاد البنادقة ويستوطنون بها لانها كانت الى ذلك الوقت ذات ثروة لم تلحقها مصائب الحرب ومضاره وبناء على ذلك كان بدون اعانة ملك فرانسا لا يمكن انقاذ الامير سفورس ودوقية ميلان من عساكر الايمبراطور ومظالمهم الشديدة

مطلب العصبة المتحزبة على الايمبراطور
فلهذه الاسباب رئ البابا واهل البنادقة والامير دوق ميلان انه لابد من المعاهدة مع ملك فرانسا وكان هذا الملك ايضا يرغب فى المعاهدة معهم لتقوى شوكته وصولته ويكون له اقتدار على مقاومة عدوه وبناء على ذلك انعقدت المشارطة بينهم بمدينة كونياقة فى اليوم الحادى والعشرين من شهر ايار ومكثت تلك المشارطة مدة لا يعلمها احد وبنودها الاصلية هى ان يكره الايمبراطور على اطلاق ولدى ملك فرانسا ويأخذ فى فدائهما المبلغ اللازم ويكره ايضا على اعطاء دوقية ميلان للامير سفورس واتفق المتعاهدون على انه ان أبى الايمبراطور قبول هذين الامرين يوجهون الى دوقية ميلان جيشا قدره خمسة وثلاثون الفا وبعد اخذ هذه

سنة ١٥٢٦

الدوقية وطرد الاسبانيوليين منها بتوجه الجيش المذكور الى الاغارة على مملكة نابلى وسمى ملك انكلترة حامى العصبة وسميت هذه العصبة بالعصبة المقدسة لان البابا كان رئيسها ولاجل استمالة الملك هنرى وربطه مع تلك العصبة باسباب أأكد من ذلك انحط الرأى على أن يعطى له فى مملكة نابلى اقليم ايراده السنوى ثلاثون الفا من الدوقات ويعطى لوزيره ولسى من الاراضى حصة يكون ايرادها فى السنة عشرة آلاف دوقة

مطلب
حكم البابا ببراءة ذمة الملك فرنسيس من اليمين التى حلفها أن يفعل بمقتضى المشارطة المنعقدة بمدينة مدريد

وبمجرد انعقاد تلك المشارطة ووضع القرار عليها صدر حكم من البابا ببراءة ذمة الملك فرنسيس من اليمين التى حلفها ان يعمل على مقتضى المشارطة المنعقدة بمدينة مدريد ولا شك ان هذا الامر الذى يدعى البابات انه من حقوقهم لكونهم خلفاء المسيح على ملته وعصمتهم عن الخطا مخل باصول الديانة وخلوص الذمة المبنى عليه المعاملات البشرية فلما رأى الناس ان البابا له جراءة على ان يحكم بنقض مثل تلك العقود والالزامات التى توجب الاصول المرعية احترامها والعمل بمقتضاها وانه مهما اراد شيا حكم به وان لم يوافق اصول دين النصرانية اعتقدوا لكثرة تلك الاحكام وما فيها من المصلحة للمحكوم له واخذهم اياها قضية مسلمة أن له أن يحلل امورا ترى فى حد ذاتها من قبيل المحظورات ويقرّ ما هو من حيز المنكرات

مطلب
تأسف الايمبراطور

ولما علم الايمبراطور ان الملك فرنسيس مصمم على المحاولة فى المشارطة المنعقدة بمدينة مدريد لحقه من ذلك غم شديد وتواردت على فكره امور شتى وتأسف على كونه اساء معاملته مدة اسره واستوجب لنفسه اللوم والتشنيع لاسيما وقد ظهر طمعه بموجب المداولات التى حصلت بينه وبين فرنسيس حين كان فى قبضته فعلم ان سائر دواوين ممالك اوروبا تكثر من توبيخه واللوم عليه ولم يعد عليه من ذلك ثمرة حتى يعذره اهل السياسة فى ذلك العصر ويروا ان تشديده كان لقصد مصلحة او ثمرة تعود عليه فيقلوا من اللوم الا انه كان يرى ان فرنسيس قد خلص من يديه ولم يظفر بشئ من الفوائد التى قصدها من اطلاقه وتخلية سبيله فندم كل الندم حيث اعتمد على قول هذا

الملك

سنة ١٥٢٦

الملك وخلى سبيله مع ان عقلاء وزرآئه اشاروا عليه بخلاف ذلك وعلم انه قد اخطأ فى تدبيره حيث اطلقه لقصد منع عصبة تحدث فلم يجد ما دبره نفعا بل رأى ان العصبة لا بد من وقوعها وان فرنسيس يكون مشيرها وهو عدوه الاكبر فكانما خلى سبيله ليقوى به عضد المتعصبين وبالجملة فكان الايمبراطور فى ندم عظيم على ما فرط منه وفى قلق وحيرة كبيرة مما سيقع الا انه كان من دأبه العزم والحزم وعدم العدول عما صمم عليه فرأى انه ان عدل عن شئ مما تضمنته مشارطة مدريد فكأنه اظهر العجز والخوف وهذا لا يليق بمقامه فصمم على التشديد فى اجرآء مشارطة مدريد وعدم التساهل فى شئ منها وقصد الامهال لا الاهمال ولو حصل ما حصل خصوصا رد دوقية بورغونيا اليه فانه لا يرجع عن ذلك ولو اعطى خزائن الدنيا وكنوزها

مطلب
طلب الايمبراطور من الملك فرنسيس أن يعمل بمقتضى المشارطة

ولما صمم على ذلك بعث الامير لنواى والامير الرسون رسولين الى مملكة فرانسا يطلبان من فرنسيس ان يعمل بمقتضى ما تضمنته المشارطة حيث ان الكذب والاخلاف لا يليق بالملوك او يعود الى مدينة مدريد ليقيم بها اسيرا كما كان حسبما التزم به فلم يجبهما الملك فرنسيس بشئ وانما جمع وكلاء اقليم بورغونيا أمامه بحضرتهما وسألهم فى هذا المعنى فأجابوه مع الادب والوقار انه قد تعدى طوره من حيث كونه ملك فرانسا اذ وعد الايمبراطور أن يرد اليه هذا الاقليم مع انه حالف اهله قبل ذلك ان يبقيه معه على ما هو عليه وان لا يفرط فيه ابدا فشكرهم الملك فرنسيس على رغبتهم فى حفظ حقوقه والتمس منهم بدون تشديد أن يراعوا الشروط التى اتفق عليها مع الايمبراطور وبموجبها يجب عليه ان يسلم اليه اقليم بورغونيا فعند ذلك اظهروا انهم لا يطيعون له امرا مخالفا لاصول المملكة وقوانينها وانه اذا جنح الى تسليم اقليمهم للايمبراطور يدافعون عن وطنهم بانفسهم او يهلكون ولا يدخلون تحت حكم ملك اجنبى فلما سمع ذلك منهم التفت الى رسولى الايمبراطور

مطلب
جواب فرنسيس للرسولين المبعوثين من طرف الايمبراطور

وقال لهما انى لا يمكننى التسليم بوجه من الوجوه فى اقليم بورغونيا وحيث كان كذلك فاقوم بدفع مليونين من الريالات للايمبراطور ولكن لما ادرك رسولا

سنة ١٥٢٦

الامبراطور ان ماقاله الوكلاء متواطئون عليه مع الملك قبل ذلك افادوه ان سيدهما اعنى الامبراطور مصمم على ان لا يتساهل فى شئ قل او جل مما اشتملت عليه المشارطة وخرجا لوقتهما وقبل سفرهما من مملكة فرانسا انتشرت الاخبار بالعصبة المقدسة المتحزبة على الامبراطور

مطلب تأهب الامبراطور للحرب

ولما وقف الامبراطور على خبر انشاء تلك العصبة استعد بما فى وسعه وشنع على الملك فرنسيس قائلا انه ملك كذاب لاعرض له وتظلم ايضا من البابا كليمان وسعى فى ترغيبه والبعد عن تلك العصبة فأبى فرماه الامبراطور بالخيانة والغدر والطمع الفاحش الذى لا يليق بمقامه من حيث كونه ابا النصارى كافة ولم يقتصر على تهديده وتخويفه باظهار الحقد له والتصميم على الانتقام منه بل امر بعقد مشورة قسيسية عامة لهذا الغرض فاودع فى قلب البابا كليمان الرعب والخوف حيث ان بابات رومة كانوا يخشون بأس هذه المشاور القسيسية ومع ذلك فقد رآى الامبراطور ان التهديد واللوم لا يكفيان فى مثل هذه الصورة ولا يحميانه من العصبة الكبيرة المتحزبة عليه فابدى امرا تعجب منه الخاص والعام حيث ارسل عساكر جديدة الى بلاد ايطاليا وبعث من الاموال مبالغ جسيمة واما المتعاهدون اى ارباب العصبة فكانت همتهم فى هذا الحرب دون ما كان يترآى من حميتهم حين تعاهدوا مع بعضهم ودخلوا فى العصبة المقدسة فكان يظن ان الملك فرنسيس يبذل غاية جهده ليتأسى به بقية ارباب العصبة لان هزيمته فى واقعة باويا كانت قد حطت بمقامه وازرت بشرفه فلابد وان يبذل جهده فيما به يرقى الى مقامه الاول بين ملوك الافرنج لاسيما وكان الامبراطور شرلكان قد اساء معاملته وفعل معه امورا كثيرة تنفر منها النفوس فكان يظن ان ذلك يحمله على انه ينتهز من تلك العصبة فرصة عظيمة وينتقم من عدوه حق الانتقام وزيادة على تلك الاسباب كان الملك فرنسيس ذا حدة جبلية وحمية طبيعية فظن الناس ان هذا الحرب يكون اقطع من الحروب التى حصلت من قبل بينه وبين الامبراطور ولكن لم يتحقق ظنهم لان الشدائد والكروب التى كابدها الملك

مطلب ضعف همة المتعاهدين

سنة ١٥٢٦ فرنسيس كانت قد انطبعت فى نفسه وتمكنت منه حتى كان لا يأمن من الدهر وصروفه بل ولا يأمن من نفسه على نفسه فكان يأبى أن يرغب الا فى الراحة والصلح وترك اهوال الحرب وشدائده وكان غاية مرامه أن يدفع الى الامبراطور مبلغا من الدراهم ليطلق له ولديه ويقطع النظر عن اقليم بورغونيا ولو سلم له الامبراطور فى هذين الامرين لما التفت الى اعانة الامير سفورس ولا الى اثبات حرية بلاد ايطاليا حتى انه لم يكن قصده من تلك العصبة الا ايقاع الخوف والرعب فى قلب الامبراطور فيرضى بما يعرضه عليه فيما بعد من الشروط المقبولة الصحيحة لاسيما وكان اهل العصبة ممن رغب فى مصالح نفسه ولا يفى بوعده فخشى انه اذا ارسل جيشا من عنده لانقاذ دوقية ميلان وهزم جيشه عساكر الامبراطور وطردهم من هذه الدوقية يتخلى عنه اهل العصبة ويصير فريدا فلا يعود عليه من سعيه الثمرة المقصودة له ولنرجع الى حصار قلعة ميلان فنقول ان عساكر الامبراطور شددوا عليها فى الحصار كل التشديد حتى لم يبق للامير سفورس حيلة ولا وسيلة وكان اهل البنادقة والبابا يظنون ان الملك فرنسيس يعينهم اتم الاعانة فوجهوا عساكرهم الى ميلان ليعينوا الامير سفورس وكان اهل ميلان يحبون سفورس لانه من عائلتهم الحاكمة ويبغضون عساكر الامبراطور لما فعلوه معهم من الامور الفاحشة والمظالم التى تنفر النفوس فصمموا على اعانة المتعصبين فى مشروعاتهم الا ان جنرالهم الدوق اوربان كان يبغض عائلة ميديسيس من قديم الزمان فابت نفسه ان يفعل شيأ يكون به ازدياد شوكة البابا كليمان اويثبت له به الفخار لان هذا البابا كان من العائلة المذكورة فكم لاحت فرص واوقات يسهل بها شن الغارة على عساكر الامبراطور والظفر بهم فتغافل عنها هذا الجنرال قصدا لانه كان من دأبه التردد والتراخى

٢٤ من شهر تموز وبسبب هذا التراخى والامهال امكن للامير الدوق دى بوربون أن يجهز عساكر جديدة لتعينه وحصل المبالغ التى كان يحتاج اليها وبعد ذلك صف جيشه وشدد فى الحصار حتى اضطر الامير سفورس الى تسليم القلعة وفر هاربا

سنة ١٥٢٦

الى مدينة لودية وكانت بايدى ارباب العصبة وبعد هروبه بقى الدوق دى بوربون حاكما فى دوقية ميلان لان الامبراطور كان وعده بتوليته عليها كما تقدم

مطلب
حيرة اهالى بلاد ايطاليا

فعند ذلك ادرك اهل ايطاليا ان معاهدة الملك فرنسيس معهم ليست الا من باب المخادعة ورأوا أنه قد تلاعب بعقولهم وان كانوا مشهورين اذ ذاك بالحزم فى الامور السياسية بل وكانوا يظنون انهم مختصون بذلك لا يشركهم فيه احد وذلك ان الملك فرنسيس كان الى ذاك الوقت قد حلهم اثقال الحرب واناطهم بازماته وشدائده واغتنم فرصة مابذلوه من مجهوداتهم حيث عرض على ديوان مدريد أن يطلق له ولديه ظنا منه أن الامبراطور لرعبه وخوفه من العصبة يصطلح معه على شروط غير الشروط المذكورة فى مشارطة مدريد المتقدم ذكرها فشنع البابا واهل البنادقة على الملك فرنسيس فى نظير هذه الامور ووجهوا اليه اللوم والتوبيخ عساه يتجنب الاهمال ويبادر بإعانتهم على عدوهم فلما لم ينفع معه تحريضهم ولا توبيخهم فترت همتهم بالتدريج حتى صاروا امثاله وتأسف البابا كليمان كل التأسف واشهد على نفسه انه قليل الحزم والادارة وعاد الى ما فطر عليه من التردد والخول

مطلب
الاحتراسات التى صدرت من طرف الامبراطور

واما الامبراطور فانه لما كانت اموره كلها صادرة عن نفسه كانت احكم واتقن من امور اعدائه وكانت تزداد احكاما واتقانا لو كانت ايراداته اذ ذاك تكفيه حق الكفاية الا انه استعان فى ذلك بالدسائس والسياسة وذلك ان العائلة الكولونية التى هى اقوى عشائر رومة واعظمهم شوكة وصولة كانت من حزب الجبلين اى الحزب الامبراطورى فى مدة المشاجرات الطويلة التى وقعت بين البابات والاباطرة ومكثت نيرانها مضطرمة بين الفريقين عدة قرون كاملة ونشأ عنها تعكير بلاد ايطاليا والامبراطورية الالمانية وكانت الاسباب التى اوجبت هذا الشقاق قد زالت بالكلية ولم يبق لها اثر الا ان العائلة الكولونية كانت لم تزل تميل الى الامبراطور وترغب فى رواج مصالحه لانها كانت ترى انها مادامت تحت حماية الامبراطور تكون آمنة على اراضيها ومزاياها لاسيما

وكان

سنة ١٥٢٦ وكان كبير هذه العائلة اذ ذاك هو الكردينال پومپه كولون وكان رجلا طماعا ماهرا معروفا بايقاع الفتن والدسائس وكان من قبل ذلك العهد عدوا مبينا للبابا كليمان وذلك انه كان يطمع فى منصب البابا وتحبب الى الايمبراطور رجاء انه يعينه على نيل هذا المنصب ويؤثره على كليمان فلما خاب امله نسب عدم نجاحه الى كليمان ودسائسه فحقد عليه من ذلك الوقت وان كان لم يظهر ذلك حتى انه كان من جملة من انحط رأيهم على تولية كليمان بل لاجل اخفاء ما فى ضميره بالكلية اخذ له وظيفة عند البابا كليمان المذكور واستخدم فى ديوانه لكنه كان فى الباطن يود فرصة تعينه على الانتقام منه * وكان الايمبراطور قد ارسل الامير هوغس مونكاد الى رومة بوظيفة الجى وكان هذا الامير يعرف ما بقلب پومپه كولون من البغضة للبابا كليمان فلما ارسل البابا عساكره الى بلاد لنبردية وبقيت رومة بدون خفر اخذ الالجى المذكور يفيد الامير پومپه كولون ان هذا الوقت يعينه على الانتقام لنفسه من البابا وانه بذلك تزداد محبة الايمبراطور اياه فقبل منه پومپه ذلك وصمم على ان يوقع فتنة تفضى بالبابا الى الانحطاط غير ان هذا البابا لوسوسته كان لا يغفل ابدا عن حركات اعدائه واطوارهم فادرك قصدهما من مبدء الامر واحضر عنده طائفة كبيرة من العساكر فخاب امل الامير پومپه كولون وفسد تدبيره الا ان الالجى هوغس مونكاد لحزمه وسياسته عرف كيف يشاغل البابا ويستولى على عقله بمواعيده المزخرفة واظهار الصداقة له حتى انه ازال ما بقلبه من التهمة وسوء الظن ومنعه أن يحترس بالاحتراسات اللازمة

٢٩ من شهر ايلول لامنه وبذلك امكن للامير پومپه كولون مع ثلاثة آلاف رجل أن يتغلب على احد ابواب رومة وكان البابا اذ ذاك فى أمن واطمئنان ويرى انه لا تصعب عليه مقاومة هذا العدو فاكسبه ذلك من المعرّة ما لا مزيد عليه حيث كان ذا قوة عظيمة وشوكة كبيرة وكان مشهورا بالسياسة والكياسة وكان الرومانيون لا يخشون أذى من عساكر پومپه كولون فتركوهم يدخلون رومة ولم يتعرّضوا لمنعهم فلم تمض مدة يسيرة الا وتشتت خفر البابا كليمان بل فرّ هو

سنة ١٥٢٦

ايضا لما اخذه من الرعب ورأى ان كل الناس قد تخلوا عنه وذهب الى قلعة سنتنج وهو يتحسر على عدم احتراسه وعلى اعتماده على ما لا يعتمد عليه فاقام الاعداء حصارها فورا ووقع النهب والسلب فى قصر واتيكان وكنيسة مارى بطرس وبيوت وزراء البابا واتباعه وما بقية المدينة فلم يلحقها ادنى ضرر ولما لم يكن عنده ما يقدر به على المدافعة عن نفسه بل ولا ما يتقوت به اضطر الى التماس التسليم بعد مدة قليلة ودخل الايلجى هوغس مونكاد قلعة سنتنج وهو فى ابهة الغالبين والزمه بشروط صعبة فلم يمكنه ردها ولا مناقضتها وكان اعظم هذه الشروط ان البابا يعفو عن العائلة الكولونية واحزابها وينظر اليها بعين الرضا والاعتبار وان يفصل بدون تراخ عن جيش المتعاهدين المتعصبين على الايمبراطور جميع العساكر الذين كان ارسلهم من طرفه

مطلب تغلب حزب العائلة الكولونية على مدينة رومة

وكان قصد العائلة الكولونية أن تعزل البابا وتولى بدله على الكنيسة الرومانية قريبها بومبه كولون فتظلمت من هذه المشارطة حيث تجعلهم فى قبضة البابا يتصرف فيهم كيف يشاء لكن كان قصد الايلجى هوغس مونكاد مجرد مصلحة سيده الايمبراطور فلم يلتفت الى شكوى تلك العائلة لانه بلغ مقصوده من ايقاع الفشل والشقاق بين المتعاهدين وتشتيت قواهم

مطلب ازدياد جيش الايمبراطور

وبينما كان جيش المتعاهدين يضعف ويقل عدده فى ذلك الوقت بسبب انفصال عساكر البابا عنه اذ اتى الى جيش الايمبراطور طائفتان عظيمتان احداهما طائفة تبلغ ستة آلاف رجل أتت من اسبانيا وكان عليها رئيسان وهما الامير لانواى والامير ألرسون والطائفة الاخرى اتت من بلاد المانيا وكان رئيسها جرجى فروندسبرغ وهو امير المانى شهد حروب ايطاليا وكان له فيها شهرة عظيمة وصار له حظوة ونفوذ كلمة بين ابناء وطنه حتى انهم فى هذا الوقت كانوا يأتون اليه افواجا ويدخلون تحت الويته لينقذوا انفسهم من جور الكنيسة والمظالم الدينية فاجتمع عنده من العساكر اربعة عشر الفا لكل واحد منهم ايكو (ريال) لاغير وانضم اليهم الفان من الخيالة جمعهم

سنة ١٥٢٦

الامير فرديننده من بلاد اوستروسيا فكثرت عساكر الايمبراطور لكنه لم يكن عنده مايكفيهم من المصاريف وذلك ان ايراداته المعتادة كانت قد نفدت وكانت التجارة اذذاك لم تتسع دائرتها فلم تكن كلمة الملوك نافذة كل النفوذ بالنسبة للاقتراض والاخذ والعطاء ونحو ذلك وطالما تحيل الايمبراطور على مشورة القورطس بمملكة قسطيلة واحدث بعض تغييرات فى قوانين هذه المشورة لعله يحصل بذلك ما يطلبه من الاهالى فلم يجد ذلك نفعا فان المشورة المذكورة أبت أن تقره على اخذ اموال غير المعتادة فمن ثم كان كلما كثر عدد جيش الايمبراطور ازدادت حيرة الجنرالات والرؤساء لاسيما الدوق دى بوربون فانه كان فى خطب عظيم لهذا السبب ولم يبق منه الابعد أن بذل غاية جهده وجميع مافى وسعه وذلك ان العساكر الاسبانيولية التى كانت فى دوقية ميلان كان لها عدة اشهر لم تأخذ ماهيتها فلما دخل الامير فروندسبرغ ومعه عساكره الالمانية المتقدمة وكانوا على غاية من الاحتياج لايملكون شيأ طلب عساكر اسبانيا أن تدفع لهم ماهياتهم وطلب العساكر الالمانية المذكورون أن يصرف لهم ماوعدوا باعطائه عند دخولهم دوقية ميلان وصار كل من العساكر الاسبانيولية والالمانية يشدد فى الطلب كل التشديد فلما رأى الدوق دى بوربون انه لايمكنه تسكين غضبهم اضطر الى ارتكاب امور ظلمية تخالف طبعه من الحلم والمروءة وذلك انه قبض على اكابر دوقية ميلان وهددهم واذاقهم العذاب الاليم حتى حصل منهم مبلغا جسيما واخذ من الكنائس جميع ما كانت مزينة به من انواع المعادن الثمينة ومع ذلك فلم تكف هذه المبالغ الا انه لما وزعها على العساكر امكنه أن يسكن غضبهم بتحيله وخداعه وان كانوا لم يستوفوا جميع استحقاقهم

مطلب
نفاد اموال الايمبراطور

ولما كان الدوق دى بوربون لم يزل محتاجا كل الاحتياج اطلق الامير مورون من السجن وكان وضع فيه منذ ظهور الفتنة التى كان يدبرها فاخذ منه عشرين الف من الدوقات وخلى سبيله مع ان القضاة الاسبانيوليين الذين انيطوا بتحقيق دعواه كانوا قد حكموا بقتله فانظر كيف كان عقل هذا الامير وتحيله

مطلب
اطلاق الدوق دى بربون للامير مورون

سنة ١٥٢٦

حيث كان يستميل اليه كل من دنا منه حتى انه انتقل من وصف كونه اسيرا ذليلا الى وصف كونه محبا صادقا للدوق دى بوربون حتى كان يشاوره فى اهم المصالح ولا شك انه هو الذى بتحيله وخداعه افهم هذا الدوق ان الايمبراطور لم يقصد أن يجعله حاكما على دوقية ميلان وان الامير ليوه وغيره من الامرآء الاسبانيوليين لم يكن ارسالهم من طرف الايمبراطور عن طيب نفس وصدق نية لقصد اعانته على تتميم مقصده وهو استيلاؤه على دوقية ميلان وانما ارسلهم عيونا يتجسسون عليه ويلاحظونه فى حركاته وافعاله وكان موروث المذكور فى سن الثمانين ومع ذلك كان جسورا كأنه فى عنفوان شبابه فلا مانع أن يكون هو السبب فى تحريض الدوق دى بوربون على المشروع العظيم الذى هم بتنجيزه بعد ذلك بمدة قليلة ولم يكن يتوقع من مثله

ثم ان العساكر الموجودين فى ميلان لم يزالوا يشددون فى طلب استحقاقهم وزيادة على ذلك كان لا يتيسر تحصيل ما يقوم بمصاريفهم ومؤنتهم فلزم البحث عن واسطة يكون بها الخلاص من تلك الورطة وكان مالهم من الاستحقاق يزداد كل يوم ومع ذلك كان الايمبراطور لا يرسل الى رؤسائهم شيأ من الدراهم فبذل هؤلاء الرؤساء غاية جهدهم فلم يمكنهم تحصيل شئ من البلاد التى كانوا بها لانها كانت قد خربت ونفدت اموالها فكان لا ينقذهم من هذه الشدة الا احد شيئين اما اطلاق الجيش او السير به الى بلاد العدو ليتقوت منها وكان اقرب البلاد اليهم البنادقة الا ان البنادقيين لما كانت عادتهم التبصر فى العواقب حصنوا بلادهم حتى صارت آمنة من هجوم العدو فبذلك تعين تسيير العساكر الايمبراطورية لتهجم على بلاد البابا او بلاد فلورنسة وكان البابا كليمان بافعاله السابقة قد استوجب أن ينتقم منه الايمبراطور انتقاما شديدا خصوصا وكان البابا بمجرد دخول عساكره فى رومة بعد قيام العائلة الكولونية لم يراع المشارطة المنعقدة بينه وبين الايلچى هوغس مونكاد فعزل الكردينال پومپه كولون ونفى بقية العائلة الكولونية وتغلب على جميع قلاع تلك العائلة وحصونها وخرب اراضيها وديارها وبعد ذلك

مطلب
تفكر الدوق دى بوربون فيما ينبغى له فعله

سنة ١٥٢٦
وجه عساكره الى مملكة نابلى وكانت تعينه الدونمة الفرنساوية فتغلب منها على بعض بلاد مع السهولة وكانت جنرالات الامبراطور لعدم الاموال لا يمكنها أن تقاوم حق المقاومة

سنة ١٥٢٧
فلما صدر ذلك عن البابا اتخذه الدوق دى بوربون حجة بنى عليها مقاصده التى حمله عليها الضرورة وكانت الاحوال اذ ذاك لا تساعده فاستدلوا على انه كان فى يأس عظيم وانه صاحب معارف غزيرة حتى امكنه أن يظهر على تلك الموانع الكثيرة الصعبة وذلك انه بعد أن سلم حكومة ميلان الى الامير ليوه توجه فى شدة القر والبرد ومعه جيش يبلغ خمسة وعشرين الفا مختلفين فى الملل والاخلاق واللغات ولم يكن معه مال ولا ذخائر ولا اسلحة ولا مهمات وبالجملة فلم يكن معه شئ من الامور اللازمة لهذا الجيش الكبير بل ولا لسرية صغيرة من العساكر ولا يخفى ان البلاد التى كان متوجها اليها مشحونة بالجبال والانهار ومسالكها غير مطروقة وزيادة على ذلك كان جيش العدو اكثر عددا من جيشه بحيث يمكنه أن يلاحظه فى جميع حركاته ويغتنم كل فرصة لاحت له ولكن لقيام حظه كان عساكره قد سئموا من الشدائد التى حلت بهم فكان غاية مرامهم معرفة عاقبتها وما تؤول اليه ليخلصوا من العذاب الاليم الذى كانوا به لاسيما وكانوا يطمعون أن يغنموا مغنما عظيما فلم يلتفتوا للمشاق التى كابدوها فى الطريق وساروا مع الدوق دى بوربون منشرحى الصدر وكان قصد هذا الدوق ان يبتدئ بالتغلب على مدينة بليزنسة وينهبها ويعطى اموالها للعساكر لكن تيقظ جنرالات جيش المتعاهدين افسد عليه هذا المقصد فقصد حينئذ التغلب على مدينة بولونيا فلم ينجح ايضا لان هذه المدينة كان بها من المحافظين من يكفى فى حمايتها من جيش لا ذخائر معه ولا اسلحة فلما لم ينجح بوربون فى هذين المقصدين يئس من أن يمكنه التغلب على مدينة من المدائن الكبيرة واستمر على المسير بجيشه ولكن كان قد مكث شهرين كاملين وهو يجد السير حتى تعب العساكر كل التعب من طول السفر وشدة الشتاء وعدم الذخائر وكانوا اغتروا قبل ذلك بمواعيد وعدوا بها فلما خاب املهم منها وداخلهم

مطلب
توجه الدوق دى بوربون للهجوم على اراضى البابا

مطلب
عصيان عساكر الدوق دى بوربون

سنة ١٥٢٧

القنوط واليأس فترت هممهم وسئمت نفوسهم واخذوا يتضجرون ويتظلمون حتى اظهروا العصيان واخذ بعض الضباط فى تسكينهم فقتلوه بل لم يمكن للدوق دى بوربون أن يظهر أمامهم فى شدة غضبهم واضطر الى الفرار والخروج سرا من مسكنه لكن بعد ذلك سكن غضبهم بالتدريج وكان لهذا الدوق براعة عظيمة فى ادارة العساكر وتأليف قلوبهم فتحيل عليهم وغرهم بالمواعيد المزخرفة وفعل معهم جميع ما رآه لازما لتشجيعه وتسليتهم على المشاق والكروب التى كانوا بها فكان يمشى على رجليه ويغنى معهم الاشعار التى كانوا ينشدونها ويأتون فيها بمدحه بالشجاعة ويسخرون به من حيث الفاقة والفقر وكانوا اذا مروا بقرية يأذن لهم بنهبها حتى يشرح صدورهم ويقولوا انه مصمم على الوفاء بوعده ولما كان يتحيل عليهم بهذه المثابة نسوا آلامهم ومشاقهم واستمروا على المسير معه ايثما توجه وصاروا لا يتشكون ابدا

مطلب
تحول البابا وعدم تبصره

ولكن كان الدوق دى بوربون لا يظهر مقاصده حتى ان رومة و فلورنسة لما كانا لا يعلمان الى اين توجهه مكثنا فى حيرة عظيمة وكانت حيرة البابا كليمان اعظم من حيرتهما لانه كان يحافظ على ابقاء هاتين المدينتين فى الامن والاطمئنان لماله فى ذلك من المصلحة وحين كانت الاخطار التى كان عرضة لها تستدعى أن يحترس بما فى وسعه كان يضيع الوقت فى مذاكرات لا تجدى نفعا او يصمم على امور ثم يعدل عنها الا ن قريحته وان كانت تدرك دقائق المشكلات الا انه كان يعجز عن ادراك ما يكون به ازالتها فكان تارة يصمم على بقائه فى زمرة المتعاهدين وبذل وسعه فى الحرب مع الايمبراطور وتارة يصمم على انهاء الحرب بالتى هى احسن حتى حمله الجبن والخوف على عقد مشارطة مع الامير لانواى

مطلب
المشارطة المنعقدة فى ١٥ من شهر ادار بين البابا ونائب الايمبراطور فى مملكة نابلى

كان من جملة بنودها الاصلية ان تعقد هدنة ثمانية اشهر بين عساكر البابا وعساكر الايمبراطور وان البابا يعطى ستين الف ايكو (ريالا) لتصرف على الجيوش الايمبراطورية وان يعفو عن العائلة الكولونية ويرد اليها اراضيها ومناصبها وان يذهب الامير لانواى الى رومة ويمنع الدوق دى بوربون عن الهجوم عليها او على مدينة فلورنسة وأنت ترى أن البابا بهذه

المشارطة

سنة ١٥٢٧

المشارطة قد حرم نفسه من اعانة المتعاهدين من غير أن يترتب عليها ثمرة يعتمد عليها في الامن على نفسه ومع ذلك ظن انه قد خلص من جميع الاخطار التي كان عرضة لها فسرح عساكره ماعدا من كان يلزم لخفره وحراسته وكان الماهر غيشاردين يومئذ مع جيش المتعاهدين بوظيفة كونه وكيلا عن البابا فامكنه بعلو منصبه وكثرة معارفه أن يدرك أن البابا في غرور عظيم وتعجب حيث راى البابا آمنا مطمئنا في تلك المرة مع ان دأبه الخوف والوسوسة لكن لم يعلم لذلك سببا الاعمى البصيرة الذي يقضي به الله على من اراد خسارته وكان ذلك امرا مقضيا

مطلب
عدم التفات دى بوربون الى هذه المشارطة

والظاهر ان الامير لانواى كان مقصده أن يعمل بمقتضى المشارطة المنعقدة بينه وبين البابا وذلك انه بعد أن استمال البابا كليمان وفصله عن حزب المتعاهدين ارادان الدوق دى بوربون يتوجه بجيشه الى اهل البنادقة لانهم هم الذين اظهروا البغضة للايمبراطور اكثر من جميع الامم التي كانت تحاربه اذ ذاك وبعث لاجل هذا الغرض رسلا الى الدوق دى بوربون ليخبره بالهدنة التي عقدها البابا باسم الايمبراطور لكن كان لهذا الدوق مآرب اخرى وكان مصمما على مشروعه كل التصميم وكان يخشى أن يظهر للعساكر العدول عن مقصده وزيادة على ذلك كان يبغض البابا بغضا شديدا فلم يسمع قول لانواى واستمر على تخريب دول البابا وعلى السير الى فلورنسة ولما قاربها ازداد رعب البابا كليمان وعظمت حيرته وكبرت مصيبته وطلب من الامير لانواى أن يمنع عنه الدوق دى بوربون فسافر لانواى لمقابلة الجيش لكنه لم يستطع الدنو منه وذلك ان عساكر دى بوربون بمجرد أن بلغهم خبر الهدنة داخلهم الغضب والغيظ وطلبوا انجيز ما وعدوا به حتى كان لا يمكن للدوق دى بوربون أن يسكن غضبهم فرأى اهل رومة انه لا محيص عن هذا الخطب وانه لا ينفعهم احتراس ولا تدبير واما البابا كليمان فانه رجع الى ما كان عليه من الامن والاطمئنان لان الدوق دى بوربون خادعه واظهر له انه لا يريد الا الصلح

مطلب
قدوم دى بوربون الى مدينة رومة

ولا يخفى ايضا أن الدوق دى بوربون كان متحيرا في أمره وذلك انه لم ينجح

سنة ١٥٢٧

فى هجومه على بعض المدن وكان قد اراد الهجوم على مدينة فلورنسة فرآها قوية على المقاومة لما وصل اليها من العساكر مع الدوق اوربان فاضطر الى العدول عن مقصده الى مقصد آخر وصمم على مشروع صعب جعله اهل عصره من قبيل الكفر وذلك انه عزم على اخذ رومة ونهبها لانه كان هنالك عدة اسباب تحمله على ذلك منها اغاظة الامير لانواى حيث كان يريد ابقاء هذه المدينة آمنة مطمئنة بالمشارطة التى عقدها مع البابا ومنها انه كان يرى أن الايمبراطور يحصل له حظ عظيم من اذلال البابا كليمان لكونه هو السبب فى العصبة التى تحزبت عليه ومنها انه كان يطمع انه اذا اخذ هذه المدينة واعطى سلبها للعساكر ازداد حبهم فيه وارتباطهم به واعانوه على مقاصده ويحتمل وهو الاقرب انه كان يؤمل انه ان اخذ المدينة المذكورة التى هى اعظم مدآئن النصارى امكنه أن يجدد لنفسه مملكة مستقلة وينفصل عن الايمبراطور ويصير ملكا على بلاد نابلى اوغيرها من ممالك ايطاليا

مطلب
مااستعد به البابا للمدافعة عن نفسه

وعلى كل فقد نجز مقصده مع السرعة العجيبة وذلك أن عساكره لما رأوا غنيمتهم نصب اعينهم نسوا ما لحقهم من مشاق الجوع وصاروا لا يشكون من عدم صرف ماهياتهم لهم فلما رآى البابا انهم جاوزوا اقليم طوسكانة وتقدموا جهة رومة علم ان آماله من قبيل الامانى الباطلة واستيقظ من غفلته لكن كان الوقت لا يساعده لضيقه ولو فرض انه كان ثم بابا غيره اعظم منه جسارة وأسرع فى انهاء الامور بتها لما امكنه أن يحترس باحتراسات نافعة يدافع بها عن بلاده وبالجملة فدة حكم كليمان على الكنيسة الرومانية لم ينفك عنها الاختلال والحيرة ومع ذلك فقد جمع من كان باقيا فى مدينة رومة من العساكر الذين سرحهم وسلح الصناعية وخدم الكردينالات واصلح ما كان باسوار المدينة من الخلل والشروم المهدومة وانشأ تحصينات جديدة وحكم بكفر دى بوربون وعساكره وسب الالمانيين بتسميته اياهم لوتيرية يعنى اتباع لوتير والاسبانيوليين بتسميتهم مسلمين وعول على هذه الامور التى لا تجدى نفعا ظنا منه ان حكمه على هؤلاء العساكر بالكفر يزجرهم و يردهم عن مقاصدهم

ولا يعلم

سنة ١٥٢٧

ولا يعلم انهم كانوا يحتقرون ذلك ولا يعبأون به بل كانوا لا يريدون الا الغنيمة في الحرب فاشار عليه ارباب ديوانه أن يخرج من المدينة فأبى أن يصغي لقولهم وصمم على المكث بها حتى يأتي اليه العدو

مطلب الهجوم على مدينة رومة

وكان دي بوربون يرى انه لا ينبغي له أن يهمل في ذلك طرفة عين حيث ان مقاصده قد ظهرت وعرفها الخاص والعام فحث السير حتى سبق جيش الدوق اوربان بعدة مراحل ونزل بجيشه في سهول رومة في مساء اليوم الخامس من شهر ايار واخذ يري عساكره القصور والكنائس الموجودة بهذه المدينة التي مكثت عدة قرون وهي تبتلع اموال بلاد اوروبا بدون أن تمسها يد عدو من الاعداء وحسن لهم ان يستريحوا مدة الليل ليستعدوا لاخذ المدينة عنوة في الغداة ووعدهم أن يعطيهم في نظير ما لحقهم من المشاق جميع الخزائن الموجودة بها

وكان دي بوربون قد صمم على تخليد ذكره بهذه الواقعة اما بنجاحه او بموته ففي صباح اليوم الثاني ظهر أمام عساكره متسلحا بجميع ادوات القتال ولابسا فوقها ثوبا ابيض لكي تتمكن من رؤيته اعداؤه واحبابه وحيث كان يعلم أن جميع ذلك يتوقف على الشدة عند الهجوم سار فورا بعساكره ليصعد اسوار المدينة واخذ من الملل الثلاثة التي كانت بجيشه ثلاث جماعات جماعة من الالمانيين وجماعة من الاسبانيوليين والثالثة من الايطاليين وفرق بينها فامر كل جماعة أن تهجم على محل مخصوص وتبع هذه الجماعات الثلاثة باقي الجيش ليعينها ويعضدها على حسب ما تقتضيه الاحوال فثار النقع وانعقد الغبار وهم يتقدمون جهة المدينة فلم يزالوا مختفين عن النظر حتى وصلوا الى شاطئ الخندق الذي كان حول ضواحي المدينة ووضعت السلالم في اسرع وقت وصعدت كل جماعة على الاسوار مع الشدة العظيمة والحمية التامة فكأنها كانت تغار من بعضها لكونها من ملل مختلفة فقابلهم اهل رومة اولا بعزم كعزمهم واظهر السويس الذين كانوا يخفرون البابا وكذلك العساكر الذين جمعهم من الشجاعة والشهامة ما جعلهم اهلا للاعتماد عليهم في المدافعة عن

سنة ١٥٢٧

اعظم مدآئن الدنيا واشهرها حتى انه بعزمهم وثباتهم لم يمكن لعساكر دي بوربون
أن يقدموا عليهم مع شدتهم وحميتهم بل اخذوا في التقهقر والرجوع على اعقابهم
فلما رآى الدوق دي بوربون ان هذا الوقت هو وقت النصرة او الانهزام نزل
عن جواده وتقدم أمام العساكر الهاجمة واخذ سلما من واحد من العساكر واسنده
الى الحائط واخذ يصعد عليه وهو يقوى قلوب عساكره ويصيح عليهم أن يتبعوه
فاصابته من جهة السور رصاصة ثقبت صلبه فادرك ان جرحه قاتله لكن
لم يغب عقله فاوصى من كان يقرب به أن يستروا جسمه ببرنس حتى لا تفتر همة
العساكر اذا رأوه ميتا وبعد لحظة قليلة مات وهو في همة عالية تكسوه حلة البهاء
والابهة بحيث لو كان قتله في المدافعة عن بلاده لا رئيسا على جيش اعداء وطنه
لكان ما اظهره من الهمة عند الموت يكسبه اعظم فخر اكتسبته الرجال
وتزينت به سير الابطال

مطلب قتل دي بوربون

ولكن لم يكن اخفاء هذا الخبر مدة طويلة لانه كانت عادته أن لا يغفل بل كان يتنقل
من جهة الى اخرى ويبادر الى الجهات الخطرة ليقتحم اهوالها وخطوبها
فلما غاب عن اعين العساكر عرفوا انه قد مات لكن لم تفتر همتهم بل ازدادوا حمية
وجنونا وصاروا يلهجون بلفظ دي بوربون من صف الى آخر ويقرنونه بقولهم
عليكم بالدم واخذ الثار فبعد مدة قليلة كانت قوى العساكر الذين كانوا يدافعون
عن الاسوار فلم يرع عساكر دي بوربون من يقاومهم ودخلوا مدينة رومة
كسيل العرم يزيل ما صادفه في طريقه
وكان البابا كليمان مدة القتال تحت محراب مارى بطرس يبسط الاكف
بدعاء غير نافع ويطلب من الله النصرة على اعدائه فلما اتاه الخبر ان عساكره
قد رجعوا على اعقابهم ركن الى الفرار ومن العجيب انه لم يخرج من باب غير
الباب الذي دخل منه الاعداء حتى لا يصادفه احد بل ذهب هو وثلاثة عشر
من الكردينالات ورسل الممالك الذين كانوا عنده الى قلعة سنتنج ولم يرتدع
عما حصل له بها حين التجأ فيها قبل ذلك فعند ذهابه الى هذه القلعة راى عساكره
يفرون أمام الاعداء وهم لا يرثون لحالهم وسمع صياح اهالى مدينته ونواحهم

سنة ١٥٢٧

ورآى بعينه المصائب التى كان سببها قبح ادارته وعدم تبصره
ولا يمكن وصف مالحق رومة من المصائب والاهوال التى اعقبت هذه الحادثة لما انه تقصر عنه العبارة ويجل عن أن يتصوره عقل او يحصره وصف فحصل لسكان رومة ما يحصل لمدينة اخذت عنوة بعساكر كالمجانين خلت قلوبهم عن المروءة والرأفة فاصابتهم قساوة الالمانيين الذين هم كالوحوش الكاسرة وطمع الاسبانيوليين وسفاهة الايطاليين وحصل النهب فى الكنائس والقصور والبيوت ولم يحترموا شيوخا ولا اعيانا ولا نساء بل لحقت افعالهم القبيحة كل الناس وعم الكردينالات والقسوس والاشراف والنساء والبنات قساوة هؤلاء المتبربرين الذين كانت قلوبهم خالية عن الشفقة والمروءة ولا يخفى انه فى العادة متى اخذت مدينة عنوة لا تستمر فيها الفواحش والمظالم من طرف المتغلبين بل تبطل بمجرد سكون غضب العساكر الا ان عساكر الامبراطور مكثت عدة اشهر بمدينة رومة وهى تظلم الاهالى ولم يسكن غضبها بل ولم ينقص عن الحالة الاصلية وكان ما غنموه من النقود يبلغ مليونا من البنادقة وما اخذوه فى الفدا او بطريق الظلم والنهب يزيد على ذلك نعم ان رومة كان قد تغلب عليها عدة مرات الامم الشمالية الذين هزموا الامبراطور فى القرن الخامس عشر والسادس عشر الا ان هؤلاء الامم الكفرة الفجرة الذين كان منهم امة الهونيين والونداليين والغوطيين لم يفعلوا بها كما فعل هؤلاء العساكر الذين هم متدينون بدين النصرانية ومحكومون بملك قاثوليقى

مطلب نهب رومة

وبعد موت دى بوربون تولى قيادة الجيش الامبراطورى الامير فليبير دوشالون وكان من عائلة اورنجه الملوكية فشق عليه جدا وقت النهب أن يأخذ بعض العساكر ليحاصر قلعة سنتنج فلما اقاموا حصار هذه القلعة ادرك البابا كليمان انه لا حزم عنده ولا ادارة حيث القى بنفسه فى قلعة خالية عن المهمات وادوات المدافعة ولكن كان يرى ان عساكر الامبراطور ملتفتون الى النهب فى المدينة وليسوا معتنين بحصار القلعة فسولت له نفسه انه يمكنه المقاومة حتى ياتى اليه الدوق اوربان فيعينه وينقذه من اعدائه وكان هذا الدوق قادما

مطلب حصر البابا فى قلعة سنتانج

سنة ١٥٢٧

على روما بجيش من عساكر البنادقة واهل فلورنسة والسويسة وكانوا جميعا مستأجرين على طرف مملكة فرانسا وكان هذا الجيش كبيرا بحيث يمكنه انقاذ البابا كليمان من الخطر الذى كان به ولكن كان الدوق اوربان يبغض عائلة مدسيس وكان كليمان من تلك العائلة فآثر الانتقام لنفسه من هذه العائلة على ما يكتسبه من الفخار بانقاذه لتخت الممالك النصرانية ولرئيس الملة المسيحية فزعم أن انقاذ تلك المدينة خطر جدا وانه لا قدرة له عليه ولاجل أن يفهم البابا انه انما فعل ذلك لينتقم منه ومن عائلته قرب من مدينة روما حتى رآه البابا من قلعة سنتنج ثم رجع فيئس البابا من النجاة واضطر مدة حصره فى هذه القلعة حتى اكل لحم الحمير وبعد ذلك سلم وقبل الشروط التى الزمه بها الامير فليبردوشالون فرضى أن يدفع الى جيش الايمبراطور اربعمائة الف بندقى وأن يسلم الى الايمبراطور جميع القلاع والحصون الموجودة فى اراضى الكنيسة وأن يعطى رهائن ويمكث مسجونا حتى يعمل بمقتضى ما تضمنته المشارطة وأمر الامير الرسون بخفر البابا مدة سجنه لانه بتشديده على الملك فرنسيس حين كان اسيرا ظهر انه يصلح لهذه الوظيفة غاية الصلاحية فانظر الى المقادير حيث ان هذا الامير تولى خفر حبس ملكين عظيمين لم يقع مثلهما فى الاسر ببلاد اوروبا منذ عدة قرون

مطلب سلوك الايمبراطور فى هذا الخصوص

ولما وصلت الاخبار بهذه الحادثة الى الايمبراطور تعجب كل العجب وحصل له غاية السرور الا انه اخفى ما فى ضميره عن رعاياه لانهم كانوا فى حنق شديد مما فعله ابناء وطنهم مع البابا الذى هو سيد النصارى كافة ولاجل أن يسكن غضب اهالى اوروبا اظهر انه لا دخل له فى خراب روما حيث انه لم يأمر بالهجوم عليها وكتب لسائر الملوك الذين كانوا متعاهدين معه انه كان لا يعلم مقاصد الدوق دى بوربون ولبس علامة الحزن والبسها لارباب ديوانه وابطل المواسم والزينة التى كان امر بها لولادة ابنه فيلبش ومن نفاقه الذى لم يكن يخفى على احد امر أن تقام دعوات وصلوات فى جميع بلاد مملكة اسبانيا لاطلاق البابا من ربقة الاسر مع انه لو ارسل الى جنرالاته ورؤساء عساكره امرا باطلاقه لاطلقوه بمجرد

سنة ١٥٢٧

وصول الامر اليهم

مطلب
دخول السلطان سليمان فى بلاد المجار

وفى ذلك الزمن كان الدهر يساعد عائلة اوستروسيا فى مملكة اخرى من ممالك اوروبا وذلك ان السلطان سليمان كان قد دخل بلاد المجار مع جيش يبلغ ثلاثمائة الف رجل وكان لويز الثانى اذ ذاك ملكا على المجار وعلى چه فلعدم ادارته وقلة تجاربه ذهب لنزال هذا السلطان مع جيش لا يزيد على ثلاثين الفا ولعدم حزمه جعل بولص طومورى مطران غولوكزه رئيسا على هذا الجيش فسار هذا الجنرال القسيس أمام الجيش وهو متزى بزى الرهبان متمنطق بالحبل الذى تتمنطق به طائفته الفرنسيسكانية وكان يعجب بنفسه ويرى انه لا شئ يصعب عليه وكان عساكره لا يبالون باقتحام الاخطار وانما يشق عليهم طول المدة فالحوا عليه حتى شرعوا فى الحرب مع المسلمين أمام مدينة موهاكز وفى تلك الواقعة قتل الملك لويز وابطال

مطلب
انهزام المجار مع ملكهم

الشبان الاشراف وهلك اكثر من عشرين الفا وكان منشأ ذلك كله جهل المطران الذى تقلد قيادة الجيش وبعد انهزامهم تغلب السلطان سليمان على القلاع الموجودة بالاقاليم الجنوبية من مملكة المجار وخرب ماعداها من البلاد وأسر مائتى الف نفس ولما كان الملك لويز اخر الذكور من عائلة ياجولون ادعى الارشدوق فردينند ان له الحق فى تاجى المجار وچه وكان مستندا فى ذلك الى امرين احدهما ان عائلة اوستروسيا كانت تطلب فيما سبق حق الملوكية على هاتين المملكتين والامر الآخر هو انه كان متزوجا باخت الملك لويز المتوفى ولكن كانت القوانين الالترامية والرسوم السيادية باقية على اصلها فى مملكتى المجار وچه حتى كانت ملوكية هاتين المملكتين بالانتخاب ولولا ان الامير فردينند كان معضدا بقوى عظيمة لما اجيب الى ماطلبه ونال الملوكية ولكن كان له فضل ذاتى وكان الناس يحترمونه ايضا مراعاة لاخيه لانه كان يومئذ اعظم ملوك النصرانية وكان يلزم تولية امير مثله قوى الشوكة حتى انه بانضمام عساكره الى عساكر رعاياه تصير بلاد المجار فى أمن من الدولة العثمانية وكانت اخته متزوجة بالملك المتوفى فغلبت هذه الاسباب

سنة ١٥٢٧

مطلب
انتخاب الامير فرديننند ملكا

على قلوب اهل المجار فرضوا بتوليته عليهم وان كانوا قبل ذلك يتوقفون بالنظر لكونه اجنبيا منهم ليس من ابناء وطنهم نعم كان ثم حزب عظيم يريد تولية امير ترنسلوانيا وهى الاردل لكن الغى قولهم وصار الامير فردينند ملكا على بلاد المجار وتبعها اهل مملكة چه فالبسوه تاج ملكهم الا انهم لاجل عدم ضياع مزاياهم الزموه قبل تنصيبه أن يضع امضاءه على وثيقة سموها اقرارنامة اقر فيها فردينند ان تاج مملكة چه لم يعط له بحق قديم وانما اعطى له بانتخاب الملة واختيارها وصارت هذه الممالك فيما بعد وراثية لعائلة اوستروسيا فكانت اصلا فى ازدياد قوتها وجعلها من ذلك الوقت مهابة محترمة عند سائر ممالك المانيا

مطلب
تقدم الفسخ فى الدين وازدياده

وهذه الاشياء التى اوجبت الشقاق بين البابا والايمبراطور كانت تعين كثيرا على نجاح لوتير وانتشار مذهبه بين الناس وذلك انه لما غضب الايمبراطور شرلكان من فعال البابا اشتغل بما يدافع به عن نفسه العصبة التى حزبها عليه البابا فلم يلتفت الى ابطال مذهب لوتير الذى كان آخذا فى التقدم والانتشار والتمكن من قلوب الناس فى بلاد المانيا وانعقدت مشورة الديتة الايمبراطورية فى مدينة اسبيرة لتختبر الحالة التى كان عليها الدين اذ ذاك فلم يلزم الايمبراطور فى هذه المشورة امراء المانيا بشىء الا مجرد الانتظار والصبر وأن لا يفعلوا شيأ يقوى به احزاب لوتير حتى تنعقد المشورة القسيسية العامة التى طلبها من البابا فاتفق ارباب مشورة الديتة المذكورة على أن عقد المشورة القسيسية العامة هو الاليق والاحسن فى نسخ مظالم الكنيسة وفواحشها الا انهم شددوا فى أن يكون انعقادها فى المانيا وأن يكون اربابها من اهل تلك الايمبراطورية لتكون اعظم ثمرة من المشورة العامة التى طلبها الايمبراطور وافادوا أن ما قاله لهم الايمبراطور من انهم لا يفعلون ما يوجب تعضيد مذهب لوتير لم يلتفتوا اليه بل ضربوا عنه صفحا قبل انقضاء مشورة الديتة من مدينة اسبيرة حتى ان العلماء التولوجية الذين اتبعوا منتخب سكس وامير هيسة كسيلة كانوا يعطون الناس

٢٥ من شهر حزيران سنة ١٥٢٦

ويعظونهم الاسرار الدينية بموجب اصول الدين الجديد لاسيما وكان الايمبراطور لا يحترم البابا والكهنة وذلك لشدة غيظه من البابا لاسيما وكان قد كتب منشورا اذاعه بين الناس وبرهن فيه على أن ما فعله فى محله وأن سلوكه حسن فاشتد غيظ الايمبراطور وورد عليه بجواب اطنب فيه واغرب وبدأه بتعداد الجزئيات التى تدل على غدر البابا وخيانته وطمعه وقلة ديانته وتشكى من ذلك وشنع عليه كل التشنيع وختمه بايجاب عقد جمعية قسيسية عامة وكتب ايضا الى ديوان الكردينالات يتشكى من عدم انصاف البابا كليمان ومن تحامله وعصبته وحرّضهم أن لا يهملوا فى عقد تلك المشورة القسيسية ولو أبى البابا كليمان عقدها واراد تأخيرها الى وقت آخر لان تلك المشورة فيها اصلاح حال الكنيسة النصرانية فان اهمل فيها البابا وجب عليهم أن يعقدوا مشورة قسيسية عامة باسمهم وانتشر جواب الايمبراطور فى جميع بلاد المانيا ولم يكن فى التشنيع والحط على البابا دون تأليف لوتير وقرأه جميع الناس خاصة وعامة وأثر فى سائر القلوب حتى ازال منها ما كان قد انطبع فيها مما نشره هذا الايمبراطور قبل ذلك من منع الدين الجديد

تم الجزء الاول من كتاب اتحاف ملوك الزمان بتاريخ الايمبراطور شرلكان
ويليه الجزء الثانى ووافق ذلك الثانى عشر من شهر رجب سنة ١٢٦٠ سنة
ستين ومائتين بعد الالف من هجرة من له العز والشرف
صلى الله عليه وعلى آله والتابعين على منواله
امين

بيان الخطا والصواب من الجزء الاول من كتاب اتحاف ملوك الزمان

بتاريخ الايمبراطور شرلكان

خطا	صواب	صحيفه	سطر
فى عمره الثمانية	فى عمر الثمانية	١٥	٤
الحومة	الحكومة	١٨	١١
ساعات كان	ساعات وكان	٢٠	٢٢
نقوس	نفوس	٢٣	١١
وكان بعلم	وكان يعلم	٢٥	١٣
غزاولبنوس	غزاولبنوس	٧٦	١١
ويعتبرونه	ويعتبروه	٩١	١٠
اذا كان	اذ كان	٩٧	٢
فى دواقعة	فى واقعة	١٤٤	بالهامش
فى معاقبته	فى معاقبة العاصين	١٥٢	بالهامش
الامرين	الاميرين	١٦٠	٣
نهيته	نهبته	١٦٩	١
الدخلى	الداخلى	١٧٦	٢٠
قام مقامه	اقام مقامه	٢٣٣	٩
رى البابا	رأى البابا	٢٤٩	١٧
اقطع	اقطع	٥٢	٢٤